

# حرب النهر

تاريخ الثورة المهدية

تأليف: سيرونستون تشرشل

ترجمة: عز الدين محمود









## ● تاريخ المصريين

---

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرحان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مديرا التحرير:

محمود الجزار

د. أميل فهمي

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب





# حرب النهر

تاريخ الثورة المهدية

تأليف: سيرونستون تشرشل

ترجمة: عز الدين محمود

مراجعة وتصحيح

الأستاذ/ يوسف حسن



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٢

## تقديم

يسرنى أن أقدم للقارئ الكريم هذه الترجمة لكتاب ونستون تشرشل «حرب النهر» الذى يؤرخ للثورة المهدية، ومعركة أم درمان والاحتلال الإنجليزى لمصر، واتفاقية الحكم الثنائى للسودان. وقد قام بترجمته الأستاذ عز الدين محمود، وهو حفيد القائد السودانى الأمير ود أرياب، ترجمة ممتازة تشهد بتفوقه فى اللغة العربية.

وبطبيعة الحال فإن الكتاب يقدم رؤية السياسى الشهير ونستون تشرشل، لتلك الفترة الصاخبة فى حياة وادى النيل، وهى رؤية مطلوبة لفهم سياسة بريطانيا. وإن كان يحدد للكاتب موضوعيته فى كثير من الأحداث، وعدم إخفائه نوايا بريطانيا الاستعمارية فى السيطرة على وادى النيل.



وسوف يدهش القارئ حين يعرف من قراءة هذا الكتاب أن فهم تشرشل للعلاقة بين مصر والسودان أفضل بكثير من فهم أبناء البلدين لها.

فقد شبه ارتباط السودان بمصر بارتباط الغواص بأنبوبة الأكسجين، لا حياة له بدونها! ولكن ها نحن اليوم نرى السودان منفصلا عن مصر! بل نرى العلاقات بينهما تتعرض لأزمات وأزمات! كما شبه العلاقة بين السودان ومصر بعلاقة جذور شجرة النخيل بالساق. كل منهما مكمل للآخر، ولا غنى لأحدهما عن الآخر!

والكتاب يحتوى على ثروة من المعلومات التاريخية المثيرة، فهو يؤرخ للثورة المهدية وانتصاراتها وهزائمها. ويتكون من تسعة عشر فصلا، الفصل الأول بعنوان: ثورة المهدي، والثاني بعنوان: «مصير المبعوث»! أما الفصل الثالث فهو بعنوان: امبراطورية الدراويش. والرابع: «سنوات التحضير». والخامس: «بداية الحرب». والسادس: «حركة ٧ يونيو ١٨٩٦». والسابع: «استعادة مديرية دنقلا». والثامن: «سكك حديد الصحراء». والتاسع: «أبو حمد». والعاشر: «بربر». والحادي عشر: «الاستطلاع». والثاني عشر: معارك نهر عطبرة ٨ أبريل ١٨٩٨. والثالث عشر:

«الزحف الكبير». والرابع عشر: «معارك أول سبتمبر». والخامس عشر: «معركة أم درمان». والسادس عشر: «سقوط المدينة». والسابع عشر: «حادثة فاشودة». والثامن عشر: «على النيل الأزرق». والتاسع عشر: «نهاية الخليفة».

والكتاب على هذا النحو يؤرخ للثورة المهدية بلسان سياسى استعماري قديم هو ونستون تشرشل، وبالتالي فعلى القارئ الكريم أن يضع هذا العامل فى اعتباره وهو يتابع أحداث الثورة المهدية، فالكتاب رؤية تاريخية إنجليزية أكثر منه تاريخا محايدا، ولكن ما يحويه من ثروة فى المعلومات التاريخية يجعله من أهم الكتب التى صدرت عن الثورة المهدية.

والله الموفق..

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

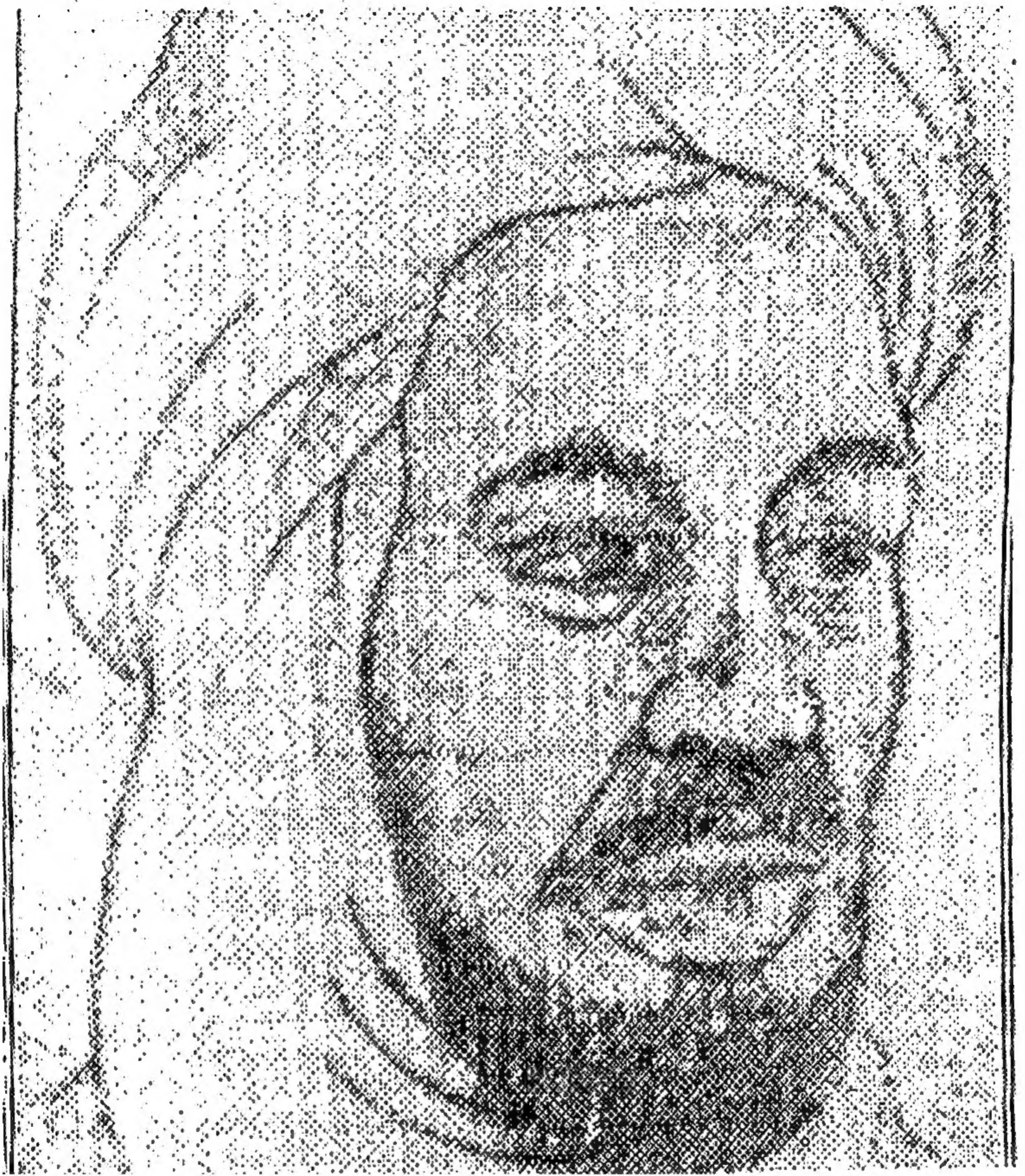


## الإهداء

---

الى روح جدتى الطاهرة " بنت الأمير " خديجة بنت محمد  
أحمد ودارباب، والى روح والدها الأمير " ودارباب " من عرب  
الكنجارية فى غرب السودان أمير المهديّة فى القلابات على حدود  
السودان الشرقية مع الحبشة ، الذى جاء ذكره فى الكتاب ، والى  
أرواح أبطال الثورة المهديّة جميعهم ، الذين روت دماؤهم الذكيّة  
كل شبر من تراب السودان فى بسالة وشجاعة نادرة ، حازت  
إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء. رحمهم الله، وجعل الجنة مثواهم.

عز الدين محمود



الأمام محمد أحمد المهدي



## تقديم

أشكر الله العلى العظيم الذى أعاننى على إتمام هذا العمل الوطنى الهام .  
أبادر فأقرر أن المفهـج الذى اتبعته فى الترجمة هو أن أكون أميناً فى نقل وجهات النظر  
و الأفكار والأحكام كما جاءت على لسان المؤلف ، بغض النظر عن رأى الشخصى .  
بل فى كثير من المواقف أجـدنى غير متفق معه فى بعض الآراء والأحكام و التشدد  
لدرجة الغل ، وطرح القضايا من وجهة النظر الاستعمارية البحتة .إن دورى هو نقل  
وجهات النظر الخاصة بالمؤلف، وكل ما جاء فى الكتاب على مسئوليته هو وحده .  
ثلاثة أسباب دفعتنى لترجمة هذا الكتاب : -

الأول : أن كتاب " حرب النهر " هو الكتاب الثانى لمؤلفه ونستون تشرشل، وقد لقي  
قبولاً عظيماً وأسهم فى إرساء قواعد شهرته، ووضعـه فى مصاف أعظم كتاب الأدب .  
وقد حرصت على ترجمته لمنفعة قراء العربية فى السودان و البلاد العربية وغيرها  
لقناعتي بأن الكثيرين يجدون مشقة فى الحصول على الكتاب أو الاطلاع عليه فى لغته  
الأصلية.

\* يحتوى الكتاب على اعترافات صريحة ومثيرة عن نوليا بريطانيا على لسان تشرشل  
الذى أصبح أحد دهاقنة السياسة الاستعمارية البريطانية \* كما يتناول الكتاب عدة قضايا  
مهمة شغلت أذهان المتقنين العرب كثيراً وأهمها : كيف حكم كرومر مصر بيد من حديد  
\* إعادة احتلال السودان ليكون تابعاً الى إنجلترا أكثر منه الى مصر \* اتفاقية السودان  
التي سلبت كل سلطات مصر فى السودان، الحق الوحيد هو رفع العلم المصرى \*  
وضعت كل الأمور فى يد الحاكم العام البريطانى للسودان \* ويعترف الكاتب بأن خطط  
السيطرة على منابع المياه القضية الساخنة التى تـؤرق كل العرب الآن قد وضعتها  
بريطانيا منذ أكثر من ثلاثمائة سنة !! \* إجبار حملة مارشاند الفرنسية على الجلاء من  
فاشودة فى أعالي النيل أو الحرب ضد فرنسا \* أثبت التاريخ تداعيات سياسة الهيمنة هذه  
\* حظر استيراد الصحف والمجلات والكتب المصرية الى السودان \* إجبار المصريين  
على الجلاء عن السودان عام ١٩٢٤ بعد مقتل سير "لى إستاك" فى القاهرة !! \* جعل  
الجنوب منطقة مقفولة للشمالين ومفتوحة لتجار الإغريق ، الأرمن والشوام \* تشجيع  
الإرساليات التبشيرية .

الثاني : لإعجابي بقدرات الكاتب الأدبية وأسلوبه القوي، وحرصه على تمكين القارئ العربي من قراءة كتاب يعتبر درة في جبين الأدب الإنجليزي. و هدفى أيضا إثراء المكتبة العربية و ملء فراغ كبير فى. هذا المجال ، مجال التاريخ و الأدب، خاصة أن الكاتب يؤرخ لفترة مهمة من تاريخ وادي النيل. يؤرخ للثورة المهدية منذ حضور المهدي للخرطوم من دنقلا وهو صبي، ونشأته الدينية، وانتصارات الثورة المذهلة فى الجزيرة آبا ، شيكان ، الأبيض ، الخرطوم والقلابات ، وحتى نهاية حكم المهدية. معركة أم درمان الى اتفاقية الحكم الثنائي للسودان، وتحديد حدود و دور كل دولة . ذلك دون أن يغفل ثورة عرابي، الاحتلال البريطاني لمصر ، تقليص النفوذ الفرنسي بمصر، نشاط اللورد كرومر ، الزبير رحمة، مقتل غردون ، عثمان دقنة ومعارك الشرق الى آخره .  
والتفاصيل التي أوردها الكاتب هي بكل المقاييس ثروة من المعلومات المثيرة، التي يمكن أن يجدها القارئ بين ضفتي هذا الكتاب، وسيعجب أيضا أن تشرشل كان عادلا فى كثير من المواقف ولم يخف إعجابه الشديد بشجاعة المقاتل السوداني .

الثالث : سبب شخصي لذكرى عزيزة لدي ، عندما أبرقت لجدتى أقول لها: " أبشرى، إن إمارة أبيك ظهرت فى الكتب " بمجرد أن وجدت ذكرى الأمير ود أرباب فى هذا الكتاب " حرب النهر " قد أنصفه الكاتب واصفا إياه " بالقائد الباسل " . أن بعض المؤرخين لتلك الفترة يبدأون " بأبي عنجة " و" الزاكي طمل " دون الرجوع للفترة السابقة أو السؤال : لماذا ذهب هؤلاء الى هناك أصلا ؟. من أحفاده أيضا أحمد الحاج عبد الله ، عقيد (م) عمر على محقر والفنان عبد الكريم الكابلي .

ولا أعتقد أن ما ورد فى هذا الكتاب مسلمات لا تقبل الجدل أو النقاش فسوف يظل الباب مفتوحا لكل ذي رأي مخالف للمؤلف أو مؤرخ يريد أن يصحح بعض المعلومات ووضع الأمور فى إطارها الصحيح ، البعيد عن الغرض. عسى أن يسهم هذا العمل المتواضع فى إعطاء الفرصة لكل من يهتم الشأن السوداني أن يدلي بدلوه، وأن يكون فاتحة لمشاركات عديدة تسهم فى التعريف بتاريخنا المجيد وتساعد فى إرساء قواعد المستقبل الواعد بإذن الله .

عز الدين محمود



♦ بالرغم من احترامي لحق المؤلف الكامل في التعبير عن آرائه بالطريقة التي يراها تحقق ما يرمي اليه أو تحكمه الحبكة أو خدمة النص، إلا أنني قد عانيت كثيراً، قد كبلي الالتزام الذي أعلنته ، التقيد بالمنهج، مع عرض آراء المؤلف دون تدخل أو تعارض، حتي لا نخلق كتاباً داخل الكتاب، فهذه مهمة الدارسين والكتاب .

♦ عانيت كثيراً، ولا أعرف كم عدد اللحظات التي كدت فيها أجتث على السطور والكلمات بكلتا يدي، خاصة عبارات التشفى والسخرية. فالمؤلف يمر مرور الكرام على انتصارات المهدية ، ويصف انتصارات الغزاة في إسهاب شديد .

♦ سوف يندهش القارئ لفهم ونستون تشرشل لخصوصية العلاقة بين السودان ومصر، وقد عبر عنها أبلغ تعبير، عندما قال "يرتبط السودان بمصر كارتباط الغواص بأنبوبة الأكسجين، بدونها لا شيء سوى الاختناق"، أو عندما قال "إذا نظر القارئ لخارطة النيل سوف يلاحظ على الفور وجه الشبه الكبير بين شكل النيل وشجرة النخيل ، في أعلى الشكل تمثل الأرض الخضراء الخصبة الدلتا ، الفروع والأوراق الخضراء تهفف في كبرياء، الجذع في انحنائه، النيل أيضا ينحني انحناءة جبارة عبر الصحراء ، جنوب الخرطوم تكتمل أوجه الشبه حيث تمتد جذور النخلة داخل السودان بعمق. إذا كان السودان جزءا مكملًا لمصر فإن مصر لا تقل أهمية لتنمية السودان، ماهي فائدة الجذور والتربة الغنية إذا ما قطعت الساق فهي ضرورية لانتشار العطر في الأجواء ؟.

♦ إشراقات تحسب لتشرشل: عدله ، وإنصافه للرجال الصناديد الشجعان ،  
الذين قاتلوا بشرف، واستشهدوا بشرف ، لقد كانت هذه البطولات هي  
مصدر القوة والأجنحة التي حملتني لأحلق في الفضاء ، بكل العزة  
والفخر لأعلن " أن هؤلاء القوم هم أهلي أو " ديل أهلي " كما نقول في  
السودان .

♦ شكر وعرفان

أشكر الزعيم السوداني السيد الصادق المهدي على ملاحظاته القيمة  
وحماسه وتشجيعه لهذا المجهود. والشكر موصول للكاتب الكبير مولانا  
الأستاذ/ يوسف حسن لمجهدة الكبير في مراجعة وتصحيح هذا العمل  
فلهما الشكر وعظيم الامتنان والتقدير.

عز الدين محمود



## المؤلف " ونستون تشرشل "

ولد المؤلف فى عام ١٨٧٤م، تعلم فى هارو وكلية ساند هيرست العسكرية ، انضم للفرقة الانسرز ٢١ ( الرماحة ) فى السودان حسب تجربته مع. "المورنج بوست " انتخب ممثلاً لحزب المحافظين عن دائرة "أولدهام " ولكنه سرعان ما انضم الى حزب الأحرار وأصبح رئيساً لإدارة التجارة . كان وزيراً للداخلية ثم اللورد الأول لسلح البحرية . استقال بعد أحداث "الدرديل". استمر فى نشاطه البرلماني وأصبح وزيراً لشئون الذخيرة، وأصبح سكرتيراً للحريسة والطيران، ثم سكرتيراً للمستعمرات. ثم عاد وانضم لحزب المحافظين وأصبح وزيراً للخزانة .

عند قيام الحرب العالمية الثانية رجع للبحرية كلورد أول . عين رئيساً للوزراء فى الحكومة الائتلافية، وكون مجلس حرب واحتفظ لنفسه بوظيفة وزير الدفاع . قاد الشعب البريطانى فى أهم الأوقات حتى انهيار ألمانيا . عندما انهزم فى انتخابات ١٩٤٥ أصبح زعيماً للمعارضة، ثم أصبح رئيساً للوزراء مرة أخرى فى الفترة من عام ١٩٥١ إلى ١٩٥٥. حصل تشرشل على جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٥٣ . توفى فى عام ١٩٦٥.





## " حرب النهر " - السودان ١٨٩٨

سير ونستون تشرشل

ترجمة عز الدين محمود

مقدمة بقلم سير جون كولفيل

يعد كتاب " حرب النهر " ثانياً كتاب يؤلفه ونستون تشرشل ، كتبه وعمره خمسة وعشرون عاماً ، استقبل الكتاب استقبالاَ رائعاً ، وأسهم في إرساء قواعد شهرته كمؤلف ، إذ لم تشأ المقادير أن تقي الفرصة الى ونستون تشرشل ليشارك في الهجوم مع فرقة " اللانسر ٢١ " في معركة أم درمان ، فإن قصة هذه العملية التي دبرت بإتقان وتفان شديدين ، والتي أدت الى هزيمة إمبراطورية الدراويش في السودان ، كان يمكن أن يطويها النسيان ، ولم يكن هناك ممن خدموا كضباط تحت إمرة " كتشنر " من هو أكثر قدرة على تسجيل الأحداث أو يمكنه أن ينافس تشرشل في مقدرته ككاتب ، أو أن ينال ما ناله من شهرة لاحقة .

وقد وصل تشرشل السودان بعد وساطة والدته السيدة " راندولف تشرشل " التي استعانت أولاً بتوصية من أمير ويلز ورئيس الوزراء (لورد سالزبوري ) والقائد العام ، كانت هذه التوصيات لازمة حتى يقتنع " كتشنر " الذي دائماً ما يعارض تكليف الشباب بالمهام الكبيرة - على السماح لتشرشل بمرافقة الحملة .

لعله من الغريب جداً أن يلجأ شخص لمثل تلك الوساطة لكي يُسمح له بالاشتراك في معركة معرضا حياته للخطر ، لأنه مهما بلغت قيمة الكسب الشخصي فإنه لا يبرر مثل هذا التصرف . إلا أن تشرشل كان له طموح آخر بالإضافة للخلود العسكري ، إذ أراد أن يسجل الأحداث للصحف ، وعندما كان هذا الأمر محرماً على أى ضابط انتظامي فقد أرسل أخبار المعارك لجريدة " المورنج بوست " تحت اسم مستعار ، وبطريقة سرية .

كانت هذه المتابعات ، ونشر الكتاب الذي اعتمد فيه على تلك الرسائل الصحفية أثره

في زيادة غضب وغيظ كتشنر . ولكنها أسهمت في خلق كنز أدبي . وهذا هو المهم .

إن وصف الكاتب لتفاصيل التحضير للمعركة النهائية أمام جدران مدينة الخليفة الحصينة

في أم درمان ، ليفوق وصفه للمعركة النهائية ذاتها ، بالرغم من أنه اشترك شخصياً فيها .

إن وصفه الدقيق يترك القارئ على يقين بأن تشرشل مدين للكاتين "جيبون" و"ماكاولي" ويتخيل كيف أنه كان يقضي العصارى وهو في خدمة الفرقة الرابعة "هوسار" في الهند في قراءة واستيعاب ما كتبه. إن هناك فقرات في كتابه، حتى جيبون وماكاولي كانا سيكونان فخورين بها.

إن أول انبهار لنا يتمثل في وصفه للمعجزة التي حققها حكم اللورد كرومر الواعى لمصر. ففى عهده انتهى عصر الفساد وعدم الاهتمام ، وتحول الجندى المصرى الى جندى مقاتل وقوة ضاربة وفاعلة في أقل من عشر سنوات ، وكذلك كان الحال بالنسبة للقوات السودانية العاملة بين صفوف الجيش المصرى ، فقد كان كرومر شخصياً مصدراً مهما للمعلومات بالنسبة لتشرشل ، وقد مده بمعلومات قيمة في هذا المجال ساعدته كثيراً في وصف ورصد هذا الإنجاز الكبير .

مثار الدهشة الثانية فكان للمقدرة والقوة التي بنى بها خط سكة حديد عبر مئات الأميال من رمال الصحراء ، هذا الخط الحديدى الذى لولاه لما كان بإمكان كتشنر أن ينجح . ولا يمكننا إغفال لجاح سلاح البحرية للملكى وإصرارهم العجيب على إحضار مراكب حاملة للمدافع الى النيل، بجميع أجزائها داخل السودان بعد إحضارها قطعة قطعة من بريطانيا: "مفككة" ثم العبور بها بعد تركيبها عبر موانع النيل الشرسة كالشلالات المعروفة "الكراكت" .

إن تشرشل لم يترك أى فرصة أو مناسبة دون الإطراء المستحق للجيش المصرى الإنجليزى/ السودانى ، وهم يتقدمون جنوباً في أحوال الرمال محملين بالمؤن والعتاد الحربى . كل ذلك في قيظ حارق مستترف القوى، مع قلة المياه في أغلب الأحيان ، ومع تعرضهم للحمى في أحيان أخرى .

لعله من المرغوب فيه، والمسموح به أيضاً أن نعمل مقارنة أو اثنتين بحملات لاحقة، بالرغم من التطور الذى حدث بعد سنوات قليلة بالنسبة للتقدم في التكنولوجيا وعلوم الطب، مما أحدث ثورة في مجال الحروب .

لقد حارب كتشنر ضد قوة عقائدية . تلك التى كان على رأسها وزعيمها الشجاع "الخليفة"، فرغم قلة خبرته استطاع أن يجهز جيشاً يعادل ستة أضعاف جيش كتشنر من



الجنود على أرض المعركة بالرغم من سوء النظام والتخلف في التسليح . كانت هنالك مقولة شائعة في ذلك الوقت:-

" مهما حصل فنحن نملك "

" مدفع المكسيم وهم لا يملكون "

بالرغم من تفوقه في أسلحة النار والخبرة التكتيكية فإن " كتشنر " سيكسب فقط من هدوء تطبيق اساليبه ، وتاماً مثل الجنرال مونتجمري - خمسة وأربعون عاماً بعده - فإنه لا يحتمل التعرض لأي مخاطر ، ولم يكن على عجلة من أمره . مونتجمري ما بين عامي ٤٢ و٤٥ واجه أحسن جنود العالم ، في حين أن كتشنر لم يواجه ، ولكن أعداءه شجعان بالعقيدة . يعتقدون بأن أي استشهاد في المعركة يعني دخول الجنة . لذلك كان كل من كتشنر و مونتجمري على يقين أن أي قهوان في الإعداد أو الدعم الحربي اللازمين ستكون نتائجه كارثة حتمية . لقد شاهد مونتجمري ما حدث في اليونان وكريت وشمال إفريقيا فكان على "كتشنر" أن يتحاشى المصير المأساوي للجنرال " هيكس " الذي حطم الدراويش جيشه بالكامل منذ سنوات قليلة .

مقارنة حروب لعب فيها سلاح الطيران دوراً أساسياً بغيرها مقارنة يجب التأنى فيها ، إلا أن هناك تشابهاً كبيراً في بعض الخصائص بين " حرب النهر " عام ١٨٨٩ وحرب الفوكلاند عام ١٩٨٢ م ، في كلتا الحالتين كان العدو على بعد آلاف الأميال وللوصول اليه كان يجب إرسال جيش كامل الإعداد مزود القاعدة آمنة يمكنه الرجوع اليها . وكان لابد من ترتيبات جمه لخلق خطوط مواصلات ، تسهيلات كثيرة اعتاد الجنود عليها لم تكن متوافرة وحلقات تنسيق بلا نهاية كانت ضرورية . لقد كانت نتائج حرب الفوكلاند مذهلة . ولكن بمساعدة الأسلحة الحديثة المتطورة ، ولكنها لم تكن أبداً كالظروف المهولة التي واجهها كتشنر عام ١٨٩٦ م . هذه الوثيقة التي كتبت على عجل ، وتم نشرها بعد خمسة عشر شهراً من النصر النهائي قد تم تمديدتها لتشمل تداعيات ما بعد الحرب ، لقد شملت جزءاً تعرض لحادثة فشودة التي مازالت ذكرى مريرة لدى الفرنسيين ، يسترجعونها كلما كانوا في حالة مزاجية ضد الشعب البريطاني . كان هدف كتشنر تخليص السودان الذي كان سابقاً يزرع تحت الحكم التركي ، من قبضة واستيلاء الدراويش الذين قتلوا الجنرال " غردون " .

كانت نتائج مجهوداته خلق كيان جديد إنجليزي/مصري مركز، والذي يجب أن نعترف به أن هذا الكيان الجديد يفترض فيه أن يكون منحازاً كثيراً لبريطانيا أكثر من مصر .

لهذا كان من غير المحتمل أن تظهر في هذا التوقيت بعد أن يتحقق النصر فئة قليلة من الضباط الفرنسيين في منطقة " فشودة " لتعلن أن السودان هو غنيمة فرنسية . لقد استطاع كتشتر أن يعالج الموقف بحكمة ، وانتهى الأمر بانسحاب الفرنسيين . لكن بعد أن تركت تلك الحادثة جرحاً غائراً في صدور الفرنسيين نحو بريطانيا .

الروح الاستعمارية لدى تشرشل ، والتي كانت تشمل مشاعر أبناء ذلك الجيل من بني وطنه في عهد الإمبراطورية ، تظهر بوضوح في هذا الكتاب ، ولكن يجب علينا أن نحكم بما كان سائداً إبان العهد الفيكتوري ، وليس بما هو شائع هذه الأيام .

في عام ١٨٩٨م لا البريطانيون ولا الفرنسيون ولا حتى البلجيكيين ، وكذلك الإيطاليون والبرتغاليون كان يساورهم أدنى أسف أو تردد في تقسيم إفريقيا فيما بينهم كدول أوربية ، مع العلم بأن بريطانيا وفرنسا كان لديهما تقدير واعتبار لمصالح رعايلهم إلا أن تشرشل كان مستاء من معاملة كتشتر غير الإنسانية وغير الرحيمة لضحايا من الدراويش الذين احترق تشرشل ثباتهم في المعارك وشجاعتهم النادرة .

لقد كتب تشرشل هذا الكتاب عام ١٨٩٩م . في الفترة التي عاد خلالها لفرقة بالهند كضابط صغير أراد أن يحقق طموحاته السياسية ، لأنه كان دائم التفكير في نجاحات اللورد راندولف تشرشل في النشاط السياسي في الفترة السابقة . وبالرغم من السرعة التي كتب بها هذا الكتاب فإنه لم يغفل التفاصيل ، وقد استغل أقوال شهود العيان أحسن استغلال . أما تغطيته وتفاصيله المثيرة عن معركة أم درمان، فقد كان هو شخصياً الشاهد الأول لتلك الأحداث.

كان الجزء الخاص بسكة حديد الصحراء أكبر دليل على حرصه على التفاصيل الدقيقة الحقيقية، وكجندى محترف فإنه يكتب عن التكوينات والمعارك العسكرية بفهم عميق، أما حديثه عن المتاريس ومنصات المدافع والمواقع ، وسلاح الفرسان المدجج بالسلاح فهو يصلح أن يكون وصفاً لمثل حرب جزر البلقان بدلا من وصف أحداث الجزء الأخير من القرن التاسع عشر .

اعتمد المؤلف في البحث الذي قام به على معلومات الآخرين ، وكان تسجيله جيدا إذا علمنا أنه لم يلحق بكتشور إلا من أسبوع قبل بدء المعركة النهائية الفاصلة . ألف الكتاب في وقت وجيز ، وكان الحقيقة أنه كتب بخط يده أثره الواضح في تحقيق تفوق وأضح عن باقى أعماله اللاحقة التي كان يملئها على الغير. خاصة تلك التي شارك فيها البعض. إن افتتاحيته ووصفه لوداي النيل يضاهي في روعته القطعة التي خلد فيها جيش السوم في "أزمات العالم" التي تعتبر جوهرة مضيئة في سماء الأدب الإنجليزي.

" السير جون كولفيل "





# الفصل الأول

## ثورة المهدي

إن الربع الشمالي الشرقي للقارة الإفريقية يحف ويروى بالنيل ، وبين مصادر منابع هذا النيل العظيم وفروعة تقع المديریات ذات الأراضي الواسعة الخصبة التي تعرف بالسودان المصري، موقعها في أواسط البلاد تماماً ، يحدها من كل جانب حوالي ٥٠٠ ميل من البحر تتوسطها الجبال ، و المستنقعات ، والصحراء . إن النهر العظيم هو المصدر الوحيد للنمو وقناهم الوحيدة للتقدم . بالنيل وحده يمكن لتجارهم أن تصل الى الأسواق الخارجية ، وهو الممر الوحيد للحضارة الأوروبية لاختراق المناطق النائية الداخلية المظلمة . إن السودان يرتبط بمصر عن طريق النيل كالغواص الذي يرتبط بالسطح بأنبوبة الأكسجين ، بدونها ليس هنالك سوى الاختناق ، لا حياة بدون النيل " لا نيل . لا حياة " .

مدينة الخرطوم التي تقع عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق هي النقطة التي تلتقي فيها التجارة من جنوب البلاد . وهي ملتقى كل التجارة قبل عبورها الى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وهي تمثل أقصى نقطة شمالية خصبة . إذ يجري النيل ما بين الخرطوم وأسوان بحوالي ألفا ومائتي ميل عبر صجاري قاحلة ، الى أن تظهر الحياة على شاطئيه مرة أخرى بمصر والدلتا .

تعني الصفحات التالية بالأحداث التي جرت بين هاتين النقطتين . إن السودان الحقيقي المعروف لدى رجل الدولة أو المستكشف يقع في أقصى نقطة جنوبا وهو رطب ملئ بالأحراش ، لكن هناك سودان آخر وهو الذي يعتبره البعض السودان الحقيقي الذي يغطي حدوده نهر النيل من الحدود المصرية شمالا حتى أم درمان جنوبا ، هذا هو " سودان الجندي " بلا ثروة، ولكنه غني بالتاريخ .

إن أسماء قراه المتناثرة على امتداد البلاد معروفة ومعلومة لرجال وأناس كثيرين مهتمين بأصول الحضارات في بلاد بعيدة، وإن المساحات الخالية قد تم رسمها بأقلام جيدة وقديرة . لقد ذقت صحاريها الواسعة دماء الرجال الشجعان . أما حجارها الصلبة السوداء الحادة فتقف شاهدا على مآس مشهورة . إنه " مسرح الحرب " .

إن هذا الجزء الذى يمكننا تسميته "السودان الحرقى" يمتد بغير تحديد على وجه القارة. أراض مسطحة ذات رمال ناعمة لوها يميل الى الأحمر فضى أخف قليلا من لون السلمون لا يعرضها إلا بعض الربوات الحجرية البارزة . لوها يميل الى السواد ، ودون أشكال مستقيمة. بينما ترقص بدون عناء. العواصف غير للمطرة على قشرة الأرض الحارة ، وتتحرك الرمال الناعمة بفعل الريح. حيث تستقر على جانبي وداخل الأحجار السوداء على التلال ، تماماً كما تلتصق حبات الثلج على جبال الألب ، ولكن هذه تماماً كأنها تسقط من الجحيم . تحترق الأرض بعطش العصور الذى لا يرتوى وفي كبد السماء الزرقاء لا أثر لأى سحابة عابرة يمكن أن تحجب انتصار الشمس .

يجرى النهر فى قلب الصحراء كخيوط من الحرير الأزرق يسبح على بحرى بنى هائل ، وحتى هذا الخيط ينقلب لونه الى بنى غامق كل نصف عام . عندما تصل المياه الى جانبي النهر بعيداً عن الرمال ، تنمو بعض النباتات الخضراء التى تبدو منظراً رائعاً بالمقارنة مع الصحراء الممتدة بلا حدود. إن للنيل قيمة كبيرة فى كل المسار الذى يتخذه على مدى ثلاثة آلاف ميل لكل هؤلاء الذين يعيشون بجانبه . أما هنا فإن قيمته عالية جداً .

إن المسافر يعانق النهر كعناقه لصديق قديم فى وقت الشدة :-

( كتراب الحقل كحفنه ماء \* كعناق صديقين عزيزين )

إن كل العالم يلتهب ، ولكن هنا ظل ، الصحراء حر ، ولكن النيل رطب إن الأرض جرداء ولكن المياه متوافرة ، الأرض المحروقة بلون السينا يخفف حدة لوها الخضرة المنتشرة على شاطئيه .

إن الذى لم يشاهد الصحراء أو يشعر بحرارة شمسها على كتفيه لا يمكنه أن يعجب لخصوبة هذه الشجيرات القليلة .. أو الجريد والأعشاب التى تنمو بنظام وغير نظام على حافة الماء ، بينما تجف التربة السوداء وتشقق ، وتحول الى كرات صغيرة بفعل الجفاف الذى يخلف الفيضان السنوى. إن المكون الخضرى يتكون من بيئة غير مرحة أو مضيافه، شجيرات كلها أشواك تبرز كالقنفذ ، فى تحد واضح تمنع المرور ، أما النخيل فهو النبات الوحيد الحنون، ويتوق المسافر الى أعلى النخيل حيث ينضج البلح الرطب الذى يمنحه زادا طيبا، حتى يعرف الإنسان أن الطبيعة ليست هى بالضرورة دائما شريرة وقاسية.



إن شواطئ النيل لولا المقارنة مع الصحراء ، تعطى إحساساً كبيراً بالخواء والجمود. ولعل سر الإعجاب يكمن في إحساس الحزن. إلا أن هناك ساعة يتغير فيها كل شيء عندما تنحدر الشمس إلى المغيب، وترسل شعاعها المحمر الضئيل على تلك التلال الغربية، تهب نسمات تضيئ المكان وتمنحه حيوية، كأن هنالك فنانا جباراً قد رسم الكون بظلال أرجوانية تضيئ وتجمل كل شيء .

يتحول النهر الذي يبدو كبخيرة من اللون البني إلى لون رمادي أو فضي ، والسماء من اللون الأزرق الممل إلى لون بنفسجي في الغرب ، وكل شيء يلمسه سحرية يضج بالحياة وتختفي الشمس تدريجياً خلف الصخور. تبدأ الألوان في الخفوت في السماء ، تلال الرمال وأشعتها الذهبية تختفي ، وفجأة يتغير كل شيء إلى اللون الرمادي الأسود كحدود جندي ينزف حتى الموت ، ونشعر بالحزن والأسى لهذا الظلام حتى تظهر النجوم تسبح في الفضاء ، لتذكرنا بأن هنالك دائماً شيئاً ما في اللانهاية. في نسكون الليل الهادئ وعندما تكون السماء صافية ترفع ناظريك إلى الأعلى فترى النجوم تتلألأ فتحسبها " كأنها إلى واقيت قد رصعتها يد القدرة " .

في أرض يكون الجمال فيها هو جمال اللحظة ، ووجهها قاس شديد الوحدة .. وشخصيتها حزينة فإن لعنة الحرب بالكاد يمكن أن تكون هي وحدها سبباً للكارثة . كيف يمكن أن تنمو النباتات في مثل هذا الجو الحارق في صحارى وحجارة تتضرع للسماء طلباً لنقطة ماء، وهل هي خدعة تضاف لخداع السراب ؟ .

إن المساحة الواسعة تضاعف الشعور بالوحدة والانعزال. فإن الحياة توجد فقط حول النيل، إذا ترك الرجل النيل واتجه غرباً فسوف لا يجد أثراً لأحد اللهم إلا إذا وجد مخيماً لأعراب الكبابيش أو قافلة لبعض التجار حتى يصل إلى مشارف شواطئ أمريكا أو يتجه شرقاً فلا يجد شيئاً غير الرمال والبحر والشمس حتى تظهر بومباي فوق الأفق . إن خيط الماء العذب في وحدته يعيش وحيداً في بعض المناطق حيث تفتقد كل الأشياء الحية للصحة .

في سرد قصة حرب النهر فإن النيل له إلى الد طولى والقدر المعلى ، بالطبع إنه اللحن الذى يظل يتردد في كل أجزاء الأوبرا ، القائد الذى يخطط للحرب ، رجل الدولة الذى يهتم باتخاذ قرارات خطيرة ، والقارئ الذى يريد أن يعرف مصير الجميع يجب عليه التفكير في النيل باعتبار أنه حياة البلاد التى يجرى خلالها، إنه سبب الحرب، ومن خلاله نحارب وهو النهاية التى

نرغبها. إن الخيال يجب أن يرسم النيل على كل صفحة في القصة ، إنه يتردد بين أشجار النخيل. أثناء المعركة، إنه الجواب لكل تحرك حربي ، على ضفافه يعسكر الجند بالليل، وعلى جانبيه، أو على شاطئيه يبدأون أو يقبلون المعركة ، بالنهار يقبل الجميع على شاطئيه عند الصباح ، وفي المساء صفوف طويلة من الجمال والأبقار المعدة للذبح تجري جميعها في اتجاهه ، الكل يركع لهذا الذي كان الإله لمصر القديمة ، الكل يملأ كل يوم ما يحتاجه من ماء في قربته الجلدية أو في الزمزميه.

بدون النيل ما كان لشيء أن يبدأ ، بدون ما كان لأحد أن يستمر ، بدون ما كان لأحد أن يرجع .

إن كل من يسافر على النيل سواء للحرب أو التجارة سوف يمنح احترامه وتقديره للنيل . لأن النهر العظيم كان صديقا للجميع مع كل العصور ، وكان مصدراً للخير لكل الأجيال عن طريق المعجزة السنوية " الفيضان " .

عندما تصب الأمطار على جبال وهضبات إفريقيا الوسطى ، وتذوب الثلوج في أعالي الجبال هناك يمجج رأس النهر بمدير المياه ، ويتمدد شمال البحيرات بالمياه في كل الفروع التي تصب فيها . تبدأ المستنقعات في تخزين مياه الفيضان كأنها بحيرة من الأسفنج، تغطي أي نقص في كمية المياه حتى قدوم الفيضان القادم . في مصر الأمير والخفير ، والفلاح ورجل الدين يتوجهون نحو الجنوب لترقب الزيادة حتى يبدأ الفيضان . تدريجياً يتحول بحر الغزال من قناة مياه راكدة .. الى نهر يمكن الإبحار فيه ، السوبات وعطيرة يتحولان الى أنهار صغيرة. ولكن كل هذا بعيداً عن مصر. عندما يلتقي نهر عطيره مع النيل من هناك يجري حوالي سبعمائة ميل خلال الرمال ، أو يهدر عند الشلالات بين الأحجار النوبية . بالرغم من جفاف المنطقة الصحراوية وحرارة الجو بمجرد أن يصل أسوان تكون هناك كميات كبيرة من المياه تكفي لإمداد تسعة ملايين نسمة بما يحتاجون ، وكل ما تطلبه مشاريعهم من طاقة وخلافه ، ومع ذلك يبقى جزء يصب عند البحر الأبيض المتوسط بما يعادل ٦١,٥٠٠ متر مكعب في الثانية . الماء ليس هو الهبة الوحيدة . إذ يحمل النيل الطمي الغني بالمواد الفعالة والضروري لإنشاء مزارع تجعل من الصحراء خديقة غناء . عالم الجغرافيا يمكن أن يعطينا وصفا لا يكاد يخلو من عناد الطبيعة : إنه نهر عظيم يجري بعد أن يتغذى من الأمطار

الاستوائية. تتحكم فيه بحيرات كبيرة عند منبعه ثم يأتي الفيضان ، تتصرف مياهه عن طريق فروع كثيرة . إن كل من ذاق طعام مائه المميت، مميت لأنه يمكنه أن يعطي الحياة، كما يمكن أن يكون سببا للموت ، سوف يقدر دور النيل في حياة المصريين ، وسر سحره العجيب في النفوس .

جنوب الخرطوم " السودان الجربي " نجد أن الأرض مثمرة . الفروع التي تصب في النيل تكون في ازدياد ، وتلك التي تخرج منه تأتي بكل الخصوبة ، ومع ازدياد كمية الامطار كلما اتجهنا نحو خط الاستواء تكثر النباتات ومظاهر يمكن أن تسمى الحياة للإنسان. إن أغلب أجزاء القطر شديدة الحرارة وملينة بالأمراض التي سوف لا تساعد أى أوربي على المعيشة فيها بالرغم من ذلك فليس معنى هذا أن كل أجزاء القطر لا فائدة منها . فإن الشرق مثلا مديرية سنار ، تنتج الحبوب بكثرة ، ويمكنها أن تنتج القطن بكثرة أيضا . في غرب البلاد حيث عرب البقارة والمراعى الشاسعة التي ترعى فيه مئات الأبقار ، وكذلك مجموعات من الزراف والنعام ، في الجنوب ببحر الغزال مساحات شاسعة من القطر مملوءة بالأحراش والغابات . في أقصى الجنوب عند خط الاستواء تكثر الغابات والأحراش والمستنقعات التي تكون مرتعا للأفيال غير المبالية بالصيادين ، ويكون عددها أكثر من أربعمئة . يمثل سن الفيل ثروة حقيقية . كانت كميات العاج كبيرة للدرجة التي جعلت أمين باشا يصرخ بالشكوى . وبالرغم من اعتماد الباش دريم والقبائل على صيد الأفيال بالحراش والبنادق المحلية فإن الكميات التي يتم تصديرها كل عام تفوق المائة وعشرين ألف كيلو . كل أنواع الحيوانات المفترسة الكبيرة تعيش في هذه المناطق . نجد وحيد القرن وسيد قشطرة ( فرس النهر) التماسيح والجاموس البرى القوى كلها في ازدياد مستمر ، مئات الغزلان والوعول والثعلبين خطيرة السمية ، وملايين من الطيور والفراشات والخنافس كلها نتاج الطبيعة تملأ أركان المكان. إن المخاطر الذى ينجو في مغامرته بالدخول في هذه الأجواء لقادر على عمل توثيق نافع لمراكز مثل متاحف التاريخ الطبيعى ، وينفع نفسه وشهرته في ذات الوقت.

إن سكان السودان لولا فضائلهم وسوء طالعهم لا يمكن أن يكونوا أقل عدداً ممن حولهم من مخلوقات أو أقل معادة . ولكن الحرب وتجارة الرقيق قد جنت عليهم . حتى أن تعداد سكان البلاد قد لا يزيد على ثلاثة ملايين نسمة على أكثر تقدير .

إن تنوع المناخ قد خلق أنماطا مختلفة من البشر . السودانيون قبائل كثيرة ، ولكن العناصر الرئيسية يمكن تحديدها بوضوح . سكان البلاد البدائيين ( الأبورجين ) والنازحين العرب . إن سكان البلاد الأصليين ينتمون للعنصر الزنجي الأسود كسواد الفحم ، أقوياء ، عقولهم بسيطة ، شرسون ، يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ على الصيد والقتال . يتزوجون ويموتون ، وأقصى طموح لديهم هو إشباع رغباتهم الجسدية . كانوا يعيشون في أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات السلف ، وأنماط أخرى مثل تلك التي تجدها مزدهرة في الأوساط الدنيا . كانوا يحملون فضائل البربرية ، شجعان ، وأمناء . كان جهلهم هو مصدر براءتهم، إن بلاغتهم يجب أن تكون محدودة بحكم المناطق المختلفة التي يأتون منها إلا أن تاريخهم جميعاً هو خليط من الكفاح والشقاء ، وأسطورة من البؤس ، كان طبيعياً أن تترك كل ذلك بصماته على سحناتهم .

بالرغم من أن الزنوج هم الأكثر عدداً فإن العرب كانوا هم الأكثر قوة . إن شجاعة القبائل البدائية لم تكن لترقى لقوة شخصية وذكاء الغزاة في القرن الثاني للعهد الإسلامي عندما اجتاحت سكان البلاد العربية العالم اتجه فريق مغامر منهم الى الجنوب . تبع المهاجرون الأوائل أعراب ليسوا من الجزيرة العربية فقط ، ولكن جاء بعضهم من قلب الصحراء من مصر والمغرب . ابتداءً هذا العصر الجديد يتغلغل كسريان الماء على سطح الإسفنج . وقد امتص الأهالي البدائيون هؤلاء الغزاه الذين لم يستطيعوا طردهم ، وقد سيطر العنصر القوي على العنصر الضعيف ، وتغلبت لغتهم وعاداتهم وفرضت على السكان الأصليين . وهكذا غيرت دماؤهم الحارة ملامح الشخص السوداني . ظلت الدعوة الإسلامية لأكثر من ألف عام تنال القبول الكبير لدى تلك القبائل التي فتنت بها ، وتحولت بعض القبائل الى الديانة الإسلامية والخلق والشخصية العربية، بالرغم من صعوبة نجاح الدعوة في أوساط الجهلاء والمشاكل الطبيعية التي يواجهونها . أما في شمال السودان، فكانت المهمة سهلة حيث استقر الغزاة واكتمل الاندماج بين القادمين الجدد وسكان البلاد فأصبح العربي في السودان هو شخصية تتكون من عنصرين ، الزنجي والعربي رغم اختلافه مع العنصرين . ظلت القبائل في جنوب وغرب البلاد بعيدة عن التأثير الكامل بالنفوذ العربي، وكان الاختلاف واضحاً بين هاتين القوتين في بعض الأجزاء . مع هذا الخليط العجيب نجد



بعض القبائل تتحدث العربية وتؤمن بالإسلام حتى قبل ظهور المهدي ، وفي أخرى فإن العربية اختلطت مع اللغات المحلية ، وتخلت القبائل عن الشعوذة ، ودخلت في الدين الإسلامي. لكن بالرغم من كل الجهود لتوحيد العنصرين نجد دائما أن الاختلاف بينهما واضحا جدا للعيان.

إن شخصية المولدين ( نتاج عنصرين ) لا تدعو كلها للإعجاب في كل الأحيان ، ذلك أنه قد جاء عنصر أكثر ذكاء من البدائيين ، استطاع بمرور الوقت أن يكون هو المسيطر، إن قبائل العرب كانوا رُعاة أبقار وأغنام ، وبعضهم يربي الجمال. استمرت قوافل العبيد مئات السنين تتيج إلى سوق العبيد في جدة. لقد سارع اكتشاف البارود في أن يشدد العرب قبضتهم على الزنوج الجهلاء ، وهكذا فإن الحالة في السودان يمكن تلخيصها في الآتي :

جاء العرب واختلطوا بسكان السودان ، و أعطوهم الدماء واللغات والعادات العربية !.

يمكننا أن نتخيل الحالة التي سار فيها المجتمع مع ظروف مثل تلك . بدأ العرب في النضال للسيطرة ، وحارب بعضهم البعض ، وكان بعض الزنوج يخفون خوفا من الأسر . بينما حاول البعض الآخر التمرد على أسيادهم . تكونت ممالك صغيرة تحت سيطرة بعض الشيوخ عندما تتجمع أكثر من قبيلة تحت إمرته ثمده بالسلاح والرجال . فيها المحاربون والتجار والرقيق . وتنعم المملكة الصغيرة بالحياة حتى تغير عليها مملكة أخرى أقوى منها وتحل محلها .

كل هذا الذي كان يجري في السودان لم يهتم به أحد في العالم الخارجي . السودان بلد تفصلة الصحارى ، وبدا كأن التطورات البطيئة سوف تمضي بدون مساعدة وبدون أي تدخل لكن أخيرا تغير سكان أوروبا ، وجاءت حضارة أخرى على أنقاض الحضارة الرومانية والدعوة الإسلامية، حضارة أقوى وعظيمة ولكنها ليست متحفزة . فإن المد الذي أسرع بالفرنسيين والإنجليز إلى كندا وجزر الهند الغربية والهولنديين إلى رأس الرجاء الصالح ، والأسبان لبيرو قد امتد لإفريقيا ، وجاء بالمصريين إلى السودان .

وفي عام ١٨١٩م وجد محمد علي عذراً، وفرصة في قيام بعض الاضطرابات وأرسل ابنه إسماعيل على رأس جيش كبير إلى أعالي النيل . كانت القبائل العربية منهكة وبعيدة عن عقيدة الإسلام ، وكذلك حال الرقيق يرثى لها فلم يبدوا أي مقاومة للجيش الغازي ، وتم

احتلال مساحات كبيرة بدون قتال ، وبعد أن ترك إسماعيل حاميات بالسودان رجع بجيشه المنتصر الى الدلتا .

أى فائدة يمكن أن تحتسب على شعب متحضر عندما يستولى على أراضى شعب متخلف غير الاستيلاء على أراضى خصبة وسكان كثيرين ، يمكن أن تكون أكثر نبلا من إحلال السلام بين القبائل المتحاربة ، وقيام العدل بدل العنف السائد ، أو فك أغلال الرقيق، وبذر البذرة الأولى للتجارة والمعرفة حتى تتحرر طاقات البشر لتنتهى الآلام وينعم الجميع بالخير والمتعة ٩٩. ليس هنالك أجمل أو أعلى متعة للعقل والمجهود البشرى عن هذا التصرف الملى بالفضائل ، مساعيه حميدة ونتائجه مربحة . إلا أن الأيام جاءت بعكس كل ذلك تماما تعطلت الطاقات البشرية القوية ، وجاء الاستعمار . وكيف للناس أن تهنأ به وبطونهم خافية ٩٩.

القبائل البدائية الجاهلة التى اعتادت على حريتها وعدم المبالاة لم تحتل الوافد الجديد حتى إن حسنت نواياه فقاومته ودحر من دحر ، ومات الآلاف ، ولم يفلح كفاح الناس البسطاء لنيل حقوقهم المشروعة ، وصاروا لقمة سائغة للتاجر الجشع ، والمبشر الانتهازي والجندي الطموح. الخمول والاستكانة زادت من مخنه المقهورين ، وفتحت شهية القاهرين للمزيد. عندما يفكر المرء فى هذه الظواهر المأساوية يدرك تماما أن طريق هؤلاء البشر لاخلاص منه ولا أمل فى أى عدل طالما بقى أسلوب الغزاة على حاله .

أصبح العنف لا يطاق خاصة إذ كان عنف الحاكم يغلفه القانون وتحميه السلطة . كانت الأرض فقيرة وغير متطورة ، بالكاد تكفى لإعاشة السكان فجاء الغزو بجنوده واحتياجاته وزاد المعاناة ، وساءت الحالة الاقتصادية ، وشحت الأشياء الضرورية، انتشرت المجاعات على فترات بينما كان يتم تغيير الحكام والجنرالات المرتشين عن الخطوط واحسدا بعد الآخر، مما أدى لعدم جدوى أى سياسة ثابتة للحكم. وكان نجاح الإدارة بالسودان يقاس بكمية النقود التى يتم جمعها من السكان وتصديرها لمصر ، أو عدد المكاتب العلمية النفع التى يتم إنشاؤها . كان هناك رجال أمناء ومثال للخلق ولكن هذا أدى الى أن يظهر الضد بوضوح ، مما زاد من عدم الرضا .

لقد كان الحكم ضعيفا ، ولكنه آمن ، أحد مظاهر سلطة الاستعمار . كان الحاكم يعيش في دار على مقرن النيلين ، بينما انتشر سكن ممثلي الدول الأجنبية في المدينة . ظلت التجارة القادمة من جنوب البلاد تعبر عن طريق الخرطوم ، وجاء حكام الاقاليم من محافظاتهم يقدمون تقاريرهم وتسلم أى أوامر جديدة . بدأت الثروات تتدفق نحو الشمال . سن اى ، من الاستوائية ، ريش النعام من كردفان ، الصمغ العربى من دار فور ، والحبوب من السودان . بالإضافة للنقود التى يتم جمعها كضرائب على اهالى البلاد . وحيوانات غريبة يتم صيدها من المستنقعات والغابات كانت تجد طريقها الى القاهرة وأوروبا . كانت الإيرادات والمصروفات تسجل ، وتقدم فى شكل تقارير منتظمة سنويا ، ويتم حفظ مكاتبات بين مصر ومحيطها العظيمة . حتى يعجب المرء من مقدرة مثل هذه الحكومة وهؤلاء الناس الشرقيين ، ومقدرتهم غير المحدودة . مما جعل من السهل تصديق ما كان يهمس به نوبار باشا للخديوى إسماعيل "نحن لم نعد فى إفريقيا ولكننا فى أوروبا".

كانت الضرائب الجزافية تجبى من الناس على حد سنجة البندقية ، إذا تاخر شيخ فى جمع الضرائب سلط عليه جيرانه ليهبوا ضده ، إذا عصى شيخ قبيلة أرسلت له حملة مسلحة . على كل حال كان العرب أكثر استعدادا للدفع طالما تجارة الرقيق رائجة والأرباح وفيرة فإن الدولة سوف تستفيد . كانت الحكومة المصرية قد انضمت الى التجمع العالمى ضد تجارة الرقيق.

وفى تلك الظروف المحزنة من ملاحقات الحروب وحملات جمع الضرائب ، كانت مكاسب الحكام أكثر من الاختلاسات والفساد ، من استعمال القوة . وكانوا يجدون سعادة بالغة فى أمر مرءوسيههم بالتشقى فى ضحاياهم . كان الأمر - أمر الحكم والسلطة متروكان تماما فى أيدي نواب الحكام حسب وظائفهم ورتبهم ، ومواقعهم ، وكانوا بعيدين عن أعين المدنية مما أتاح لهم رخصة كاملة للتصرف ، وكلما قل تعلبهم زادت تجاوزاتهم . وكانوا يجلسون فوق بركان صامت ، اطاعت القبائل العربية وجبت الفصائل السوداء .

كانت القوة التى تساند الحكومة غير العادلة عبارة عن جيش ، حوالى أربعين ألف رجل موزعين على أكثر من ثمانى حاميات منتشرة بالبلاد ، وتفصلها مساحات شاسعة بلا طرق سوية وتتخللها عقبات طبيعية مهولة ، فهم محاطون بسكان شرسين ، عقائدين وذوى

طبائع قتالية. يزداد سخطهم كلما زاد بؤسهم . لم يحم الحكام إلا براعة ضباطهم وتفوقهم في النظام والسلاح، كانت السمعة الشريرة للسودان تمنع أى ضابط متعلم من الإقدام للخدمة في تلك المناطق النائية ، وكل من استطاع تجنب ذلك فعل . كان جيش الخديوى في الدلتا - حسب نظرة الأوربيين له - جيشا ضعيفا ، غير مدرب ، قليل الأجور، وقد كان أضعف أفراد هذا الجيش هم خيرة الجيش الذى أرسل للسودان .

وهكذا فإن الغالبية كانوا قد أرسلوا الى هناك . إما مغمضوباً عليهم ، أو للحاجة نتيجة لفقرهم ، بعضهم أمضى سنوات طويلة في مناطق قاحلة غريبة عليه ، وبعضهم قضى عمره كله، سعيا وراء المغامرة والبعض الآخر لما أرب أخرى.

في مثل تلك الظروف حتى الجندي الجيد سوف يفقد حماسة وتدريبه. كانوا قد تم دفعهم للجنوب، كانوا ضعفاء التدريب، ولم تكن تلك هي مصيبتهم الوحيدة . ففي حين كان هذا الجيش النظامي في تدهور وفي حالة معنوية سيئة، كان هناك في الجهة الأخرى قوات البازنجر غير النظامية حاملو (حاملو البنادق السودانين) تسليحتهم جيدة، أكثر عددا وأكثر شجاعة. الذين كانوا ينظرون لأعدائهم بخوف ولكن ظل الخوف يقل مع مرور الأيام وظل الكره يزداد تدريجيا ، وخلف كل هذا جيش نظامي وغيره من أعراب الصحراء وسكان الغابات السود الذين ظلوا يشعرون بأن الأجنبي هو سبب كل الشقاء والعذاب وأن القدرة فقط هي التي تمنع مسحهم من على وجه الأرض .

كان احتلال مصر للسودان كبيت من ورق ولم تكن الغرابة في استمراريته كل تلك المدة، ولكن كيف بقى كل هذه المدة دون أن ينهار .

هناك اسمان سوف يرتبطان ارتباطا وثيقا بالانفجار الذى حدث . أحدهما جنرال إنجليزى والآخر رجل دين عربى . بالرغم من الاختلاف الكبير بين حالتيهما ، فأنهما متشابهان في كثير من الأمور ، كل من الرجلين ذو حماس وحمية ومشاعر أكيدة وعواطف جياشة . كل منهما ذو عقيدة دينية قوية ، وذو أثر كبير في كل من حوله. كما أن كليهما مصلح كبير، كان العربى نسخة من الإنجليزى، وكان الإنجليزى نسخة متقدمة ومتحضرة من العربى ، وفي النهاية تقائلا حتى الموت ، ولكن سوف يظل نفوذهما على سيرة الحياة في السودان يتجه نفس الاتجاه. سوف نناقش محمد أحمد " المهدي " في الجزء الخاص به . أما



غردون فقد سبقت شهرته وعمت كل أرجاء أوروبا عندما ذاعت أخبار " الجيش المنتصر دائما " لأبعد من حدود حائط الصين العظيم .

أن سوء إدارة الحكومة، وبؤس السودانين قد بلغ مرحلة حاسمة في العقد السابع للقرن الماضي . الشيء الذي لم يترك بديلاً للحرب، فالعرب قد بلغ فيهم السيل الزبي ، ولم يحتاجوا أكثر من باعثن:- الأول أن هناك حياة أفضل يمكن أن تنال ، والثاني إيمان قوى بقضية التحرر ، فجاء غردون وأعطاهم الأول ، وجاء للمهدى وأعطاهم الثاني .

ومن المستحيل دراسة أي جانب من مسيرة شارلي غوردون للمهنية دون التعرض بقيمتها جميعاً . ويتابعة القارئ صبوراً وخطه الجامح والمتنوع يقوده من سباسبترول إلى بكين من جرافيند الى جنوب إفريقيا، من موريشيوس للسودان. فكل مشهد عجيب ورهيب ومثير. ومع ذلك ، فمثلما أن المشاهد متميزة ، فان البطل استثنائي بدرجة أكبر، هو نوع لا مثيل له في الأمانة الحديثة وقليلون من يشبهون في التاريخ . أن الانسان الذي لا يبالي نادر وقيم حقاً. وقد تناقش عواهل بلدان كثيرة للحصول على خدماته - امبراطور الصين ، ملك البلجيك ، رئيس وزراء مستعمرة الكاب ، خديوي مصر. ولم يقل تيلين أهمية مناصبة عن أهمية طبيعتها. ففي يوم كان ملازماً أول في سلاح المهندسين ونشر الالغام ، وفي يوم آخر. قاد الجيش الصيني ، وفي يوم تال أدار ملجأً للأيتام، أو كان حاكماً عاماً للسودان. بسلطات سامية على الموت والحياه والسلم والحرب أو عمل كسكرتير خاص للورد ريبون. في كل تلك المواقع كان جديراً بالسمعة التي اكتسبها. وكان غريب الأطوار ، عندما انتقد بشدة خطط " جراهام " التاكتيكية للهجوم على "ريدان " أو عندما جاء ملوحاً برأس "لاروانسق" في عنف وغضب أمام أغين ودهشة سير هالي دي ماكارتي ، أو ذهابه منفرداً لمعسكر خصمه سليمان حتى كسب احترامهم بعد أن كانوا يتربصون لقتله . أو عندما طالب الخديوي أن يحكم السودان كله ، ثم يطالب بتخفيض راتبه لأنه كبير ، ويحكم بلداً بحجم أوروبا ، لقد لخص لورد ريبون شخصية في نثره الجيد : إننا أمام رجل لا يأبه بغضب الرجال أو ابتسامة النساء ، ولا بالحياة المرفهة أو الثروة ، ولا الشهرة .

لعل من المحزن أن شخصية كهذه لم تتأثر بمظاهر المجتمع الإنساني. العادي لا تجد في تفكيرها الاتزان اللازم . فكان متقلب المزاج خاداً جداً في ردود أفعاله ، عدو الصباح يصبح

أعز الأصدقاء عند النساء ، مندفع لأحكام بلا تردد. لا أحد يدرى ما يدور في خلده، عصبي في أغلب الأحيان ، وزاد من عصبية إدمانه الشديد للتدخلين فنادرا ما يشاهد إلا والسيجارة في يده . كانت فضائله واضحة للجميع ، حماسه واندفاعه يرجح أى كفة ، إقدامه مثال يحتذى ، انجازاته تملأ السجلات ، ولكن كانت تنقصه الخبرة الإدارية والحنكة الدبلوماسية .

ظلت حكومة الخديوى تعلن بعدها عن تجارة الرقيق ، ولكي تثبت ذلك للعالم الخارجى اختارت غردون كحاكم للمديرية الاستوائية ، فقد كان اسمه ضمانا كافيا لكل المتشككين . حدثان زادا من تأييد الخديوى لمبعوثه الجديد . الأول أن رائحة الجرائم القاسية التى يرتكبها تجار الرقيق قد فاحت ، والثانية أن المجموعة بقيادة الزبير رحمة رفضت أن تواصل دفع الراتب المقرر للحكومة الخديوى ، فحفروا بذلك قبورهم بأيديهم .

كان " الزبير " يوصف بأنه أخطر وأشرس تاجر رقيق عرفته إفريقيا ، طبقت شهرته الأفاق ، ووصلت تجارتها الى بلاد الشمال والغرب البعيدة . تماما كما كانت سمعة " وليام هوايتلى " فى تجارة الأساسيات والأدوات ، كانت سمعة الزبير فى تجارة الرقيق . ظل يعمل منذ عام ١٨٦٩ كحاكم مستقل لمديرية بحر الغزال أراد الخديوى أن يجد من نفوذه فأرسل كتيبة برئاسة " بلال بك " ولكن الحملة كغيرها وصلت ، ورأت ، ثم ولت هاربة تخرج وراءها عار الهزيمة . وكان التمرد مفتوحا . وعلى كل حال فإن الخديوى هو الذى سعى للصالح وكسب تأييد " الزبير " القوى خاصة بعد اعتذاره لما لحق بالحملة التى أرسلها الخديوى .

كان " الزبير " يخطط لغزو مملكة دارفور التى كانت مملكة مستقلة فى ذلك الوقت ورأت حكومة الخديوى أن تشترك معه فى هذه العملية وقد نجحت الحملة قتل ملك دارفور، وتسلم الزبير كل المنطقة وأصبح كل السكان بعد انتهاء المعركة تحت تصرف " الزبير " هنا اعترف الخديوى للزبير بمكانته وكرمه بمنحه لقب "الباشا" كانت هذه هى الأحوال فى السودان عند وصول " غردون " .

لم يكن فى وسع " غردون " عندما كان حاكما للاستوائية أن يوقف تجارة الرقيق ومؤسستها. بالرغم من الضربات للزرعة التى وجهها إليهم. ولكن عندما عاد فى عام

١٨٧٧ الى إنجلترا ، ثم حضر للسودان مرة أخرى، وكان هذه المرة حاكما عاما لعموم السودان، كانت الظروف مساعدة له إلى حد بعيد . الزبير الرجل القوي قد تم إحضاره لمصر و بمجرد أن وصل ووضع تحت حراسة مشددة ، ومنع من العودة الى مباح الصيد المفضلة لديه .

بالرغم من خسارة مجموعة تجار الرقيق لقائدهم القوي كانوا لا يزالون أقوياء "سليمان" ابن "الزبير" الذي هاج لا حتجاز والده بمصر ، بدأ التمرد ، إلا أن القائد المخنك فاجأ سليمان في وسط معسكره وبمفرده وسط ذهول أتباعه ، فقبل سليمان شروط التسليم واهتزت قوة المؤسسة . بعد قليل نقض سليمان شروط الاتفاقية ، وجاءت قوة تحت قيادة "جسي" أعدمت سليمان وعشرة من أتباعه ، وهكذا تم تدمير تجار الرقيق .

ترك غردون" السودان في نهاية عام ١٨٧٩ م ، كان قد أمضى ٥ سنوات في المديرية مع لحظات غياب قصيرة ، استطاع خلالها اقتلاع جذور تجارة الرقيق ، و حطم البنية الأساسية للتجارة التي كانت من أكثر الأنشطة رواجاً . ساعده في ذلك كرهه الشديد لتلك الممارسات . وفي جو غير رحيم للأوروبيين ، واستطاع أن يستغنى عن خمسة ضباط ، حتى أنه أقدم في خطوة تحسب ضده على شراء بعض الرقيق وضمهم لجنوده بعد تدريبهم على القتال لمقاتلة قوافل الرقيق .

كان لديه قطيع من الهجين السريع ظل يستعمله في أسفاره الكثيرة قاطعاً مسافات شاسعة تفوق ٣٨٤٠ ميلاً متفقدا المحتاجين وناصرراً للمظلومين ، حتى نال احترام الجميع . حتى القبائل البدائية كان يزور مناطقها بمفرده بينما لا تجرؤ أورطة كاملة على دخولها ، وقد ساعد بكل ذلك على جعل هؤلاء البسطاء يعرفون أن لهم حقوقاً في الحياة غير حياة البؤس والشقاء ، وكلما تناقصت هذه زادت معرفتهم . كان كل الشعب يعيش حالة الاضطراب ، وبدأت عجلة التطور البطيئة تدور ولم تقف حتى شهدت الثورة الهائلة .

وكان الدور الذي لعبته القوة الثانية أكثر غرابة . إن الدارس لتطور الإنسان ليجد أن في كل الأزمان وبين كل الأجناس من يعتقد أن كل مشاريعه هي في واقع الأمر بدافع أن المحرك الرئيسي لها هو المثل العليا وتحقيق العدل ، وترى كل جهة الشموخ والقوة في أي مشروع تقدم عليه حتى إذ لم تجمع كل الآراء على نبل الأهداف، إنها تحية غير اختيارية، تحية

متواضعة للأشياء غير الكاملة ، تحية للمعابد الخالدة للحقيقة والجمال . إن معاناة بعض الناس يمكن أن تكون غير محتملة ، ولكنها ليست بالقدر الذى يجعل الناس تحمل السلاح مخاطرة بحياتهم . اللهم إلا إذا كانت هنالك أسباب قوية وغير شخصية تفرض عليهم هذا الأمر . وفي المجتمعات المستنيرة يوجد مثل هذا الحافز في الفخر بالتقاليد المجيدة أو بالتعاطف الحسييس بشقاء الآخرين ، عند القبائل البدائية يتنفي هذا الحافز ، ويبقى في نفس الوقت هو أى هذا الجهل هو القوة الحقيقية في ميزان الطبيعة العجيب ، إذ يمنحهم أكبر محرض "التعصب" . يمكن للشبيوعين الفرنسيين أن يذكروا أنهم يكافحون من أجل حقوق الإنسان ، أو يمكن لقبائل الصحراء أن تذكر أنها قاتلت من أجل عظمة الرب ، ومهما يكن من تفسير فلسفي فإن نتائج قوة التعصب هي واحدة ، إعطاء الناس الإحساس بأنهم يحاربون من أجل غرض مقدس . الشيء الذى يعطى الضوء الأخضر لخوض حروب ، رغم أن أسبابها قد تكون أبعد ما تكون عن ذلك الهدف .

تكون روح جديدة تجعل الجميع ينسون كل الخلافات القبلية ، ويتحدون نحو هدف واحد ، وهكذا جاءت العقيدة الإسلامية لأهل السودان ركيزة للهجوم والدفاع معا . كان كل هذا وأكثر ، ولكنه لم يكن السبب الوحيد للتمرد . بعض الناس الذين يعتقدون أن أهمهم هي الوحدة المحتكرة لكل الفضائل والعقلانية عندما يصفون أى حروب لدول بدائية بأن أسبابها كلها دينية ، لم تكن أسباب الثورة في السودان دينية على الإطلاق . إن الأسباب كانت من القوة ، بإمكان ، زيادة في نفس الوقت على شدة ضعف دفاع الغاصبين .

لو نظرنا للأمر نظرة سياسية بحته لنجد أنه لم يكن هنالك سبب أوجه من هذا الذى أمامنا لقيام التمرد ، يحكم قلة من الأغراب كل أهل البلاد ، القلة الجبائنة تحكم الغلبة الشجاعة ، الضعيف يجبر القوى . كانت كل هذه أسباب كافية .

إن أى تمرد ضد الحكومة محكوم عليه فقط عند النجاح ، إن القوة هي أكثر فضيلة ثورية ، فضيلة سوف يجلبها العرب ، فقد كانوا أقوى مما يتصورون ، أو مما يتصور عدوهم أو العالم الخارجى ، الكل سيعلم علم اليقين في الوقت المناسب . تجمعت العاصفة وارتفعت المياه وجاءت موجات ثلاث عاتيات لتهب كالمد على جذر البيت المصنوع من رمال الصحراء . عانى العربى من البؤس والفقر والقهر ، ينظر في رى أن كل أسباب شقائه أجنى تركى



ضعيف وجبان، لقد زاد افتقاد العدل الاجتماعي حدة التعصب العنصري ، وهياً الموقف تماماً، ثم جاءت الموجة الثالثة موجة التعصب ، التي انضمت لباقي الموج، وغطت كل مياه الفيضان بزبدتها الأبيض، وأخذت تضرب كالرعد حوائط المنزل الضعيف حتى انهار، وباله من انهيار.

قبل عام ١٨٨١ لم تكن هنالك أى حركات تعصب في السودان. بسبب البؤس هجر الناس عبادتهم ووصلوا حالة من الياس كانوا مستعدين لأى مغامرة يمكن أن تخلصهم من عبودية الغاصبين، كانوا فقط في انتظار القائد للهم الذي يستطيع جمع الشمل والكلمة ورفع الروح المنكسرة . وفي صيف ١٨٨١ ظهر القائد . و لأن سيرته ستلقى أضواء على طبائع العرب في السودان . فإننا سنبحث في جذوره منذ البداية .

ولد الرجل الذي كان السبب المباشر لحرب النهر على ضفاف النيل، في مكان لا يعد كثيراً عن دنقلة. كانت أسرته فقيرة وليس لها أهمية في المديرية . ولكن مثلما أدعي النبي أنه من سلالة ملوك، ومثلما اثبتت "القدوة للمقدسة" من نسل داوود فقد أكد محمد أحمد أنه كان من الأشراف ، وربما قبل هذا التأكيد ظلماً أنه لا يمكن نفيه. كان والده رجل دين متواضع ، ومع ذلك فقد جاهد ليوفر لابنه قدراً من التعليم في الممارسات الدينية ومبادئ القرآن وفن الكتابة . ثم مات في كرري أثناء رحلة له الى الخرطوم، وترك مهدي المستقبل. وهو طفل، تحت رحمة العالم. أن الأشجار للتوحدة، إن نمت اصلاً، تنمو قوية، إن صبيحاً حرم من رعاية الأب ، ينمي لديه عادة ، إن أفلت من مهالك الشباب ، استغلال وقوة التفكير الذي قد يعرض فيما بعد الحياه الخسائر الباهظة في الأيام الأولى. كذلك كان الحل مع محمد أحمد . فقد تطلع حوله باحثاً عن حرفة ووسيلة للرزق. إن نسبة كبيرة من سكان البلدان المتدنية يعيشون حياتهم في دعة، يعرفهم عمل المريدين وصمم الشاب على أن يتبع الحرفة التي شعر أن مواهبه تؤهله لها، والتي تتيح له أفقا أرحب. وأصبح شيخاً .

في كل المجتمعات الدينية يعيش الناس في دعة وفسحة من الوقت، مشغولين بالعالم الآخر عن أطماع الحاضر، تاركين أمور الدنيا وتدير المعيشة لمريديهم المخلصين، كثير من مصلحي الدين الكفرة وفي بلاد كثيرة يوجهون جل حماسهم واهتمامهم للعالم الآخر لأن هذا يهني لهم حياة أفضل في هذه الدنيا. لحسن الحظ ليس هذا صحيحاً بالمرّة ليس بالنسبة لمحمد أحمد.

برز محمد أحمد منذ الصغر في علوم الدين وطاعة الله وخدمته، وبدون عناء وجدد شيخنا يتلمذ على يديه حيث ينذر وجود أشخاص أذكاء ومملوءين حماساً في قطر كالسودان! وبمجرد انتهاء فترة دراسته أصبح تلميذاً على يد الشيخ محمد شريف. كان لتفانيه في التحصيل والعبادة وزهده الظاهر أكبر الأثر في نفوس الذين من حوله، واكتسب بذلك بعض الحواريين. أخذ حواريه وذهب بهم إلى الجزيرة آباء، وكان له أخوان يعملان في صناعة المراكب على النيل الأبيض هما اللذان يصرفان على إعاشته مما تدره عليهما هذه الصناعة. لم يكن هذا الأمر أمراً مكلفاً على الإطلاق، فقد كان محمد أحمد صائماً جلّ الوقت، واختار له كهفاً على شاطئ النيل الأبيض يذهب ليتعبد فيه بقرباً من الله، يظهر من حين لآخر لزيارة شيخه ليؤدي فروض الولاء والطاعة. زادت قداسة وزادت الصدقات والزكاة من المسافرين على النهر بالإضافة لعائد أعمال الآخرين. هذه الحياة المتقشفة الطاهرة قد جاءت حادثة عسكرت صفوها. الشيخ المعروف بقداسته قد أقام وليمة احتفالاً بمناسبة ختان ابنائه وزيادة الفرحة في هذه المناسبة للباركة وحتى يسعد الضيوف بكرم الضيافة أصدر الشيخ تمشياً مع عرف التساهل في ذلك الوقت فتوة شرعية بأن كل الذنوب التي ترتكب أثناء الاحتفال مغفورة. وأعلن باسم الله وقف أي قوانين تمنع الغناء والرقص كما تنص القواعد الدينية. ناسك الجزيرة أبا لم يشترك في تلك الأفعال الرائعة وأن بدأت برؤية هي ضد كل الفضائل وأعلن في تأكيد العقيدة أن الله وحده هو غفار الذنوب. وصلت هذه الأقوال إلى مسامع الشيخ المشهور وبكل السخط المصاحب لاكتشاف ارتكاب الخطأ أمر محمد أحمد بالمستول أمامه. اطاع الأخير الذي يحترم استاذة ويعترف له بالفضل. اختفى غضبه بمجرد أن أعلنه وبكل تواضع طلب المغفرة ولكن دون جدوي. شعر الشيخ يجب أن يسود النظام بين حوارية وأنه يجب أن لا يتساهل في عدم الطاعة للقانون المقدس. نهض الشيخ في غضب وطرده تلميذه المدعي من مجلسه ناعثاً إياه بكلمات مريرة ومعلنًا شطية من سجلات المختارين. ذهب محمد إلى بيته وهو محبط ولكن شمائله لم تنهد بعد. قداسة مازالت ذات قيمة إلا إذا شاء هو عكس ذلك، وهي رصيد لا يمكن انتزاعه. كان للشيخ المشهور منافس لا يقل عنه قداسة وأن فاقة أعماله يمكنه أن يرحب بالشيخ الصغير. لكن محمد أحمد لن

يتخلى عن سيده السابق بعد. وضع عمود من الخشب حول رقبته وتلجف بلباس  
كالصلح للتهور اعتراض تلك التعريفات التي من

الخيث الخشن وعفر نفسه بالرماد، عاد لقائدة الروحي وهو في هذه الحالة الملزمية طالبا العفو  
... ولكنه رد بشكل مهين . لم يشأ أن يزور شيخه غير الغفور ولكن حدث أن جاءت  
مناسبة بالشيخ للجزيرة أبا فظهر له حواريه السابق متلحفا بالخيث وملطخا بالرماد، بدون  
مراعاة لحالته البائسة أو بدون أن يحركه ولاؤه الفريد الذي لم يكن ينتظره أحد ولكن الشيخ  
العنيد انحال عليه بالسباب. كان أكثرها إيلا ما قوله " اغرب عن وجهي أيها الدنقلاوي  
التعس " كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، لقد تأسف محمد أحمد لكل ما بدر  
منه، وكرر اعتذاره للشيخ محمد شريف دون جدوى، عندها قرر محمد أحمد وأعلن لكل  
حواريه ومريديه بأن العلاقة بينه وبين الشيخ قد انتهت، وأنه سوف يتجه بولائه الى الشيخ  
القرشي. كتب محمد أحمد للشيخ القرشي بالقرب من قرية المسلمية ، وجاءه الرد بالترحيب  
فعزم على الرحيل. هنا شعر الشيخ محمد شريف بأنه من غير اللائق أن يفقد أحد تلاميذه  
ولشيخ منافس آخر، فكتب لمحمد أحمد يقبل اعتذاره ولكن كان الوقت قد فات. شعر محمد  
أحمد بأنه لم يرتكب أى جرم يستحق تعنت الشيخ معه، وكان قرار الرحيل نهائيا.

انتشرت هذه الحادثة ووصلت أخبارها الى أقاصى الغرب. في دارفور ظل الناس  
يتداولون الحكاية، إذ كان نادرا أن يشق فتى عصا الطاعة على شيخه، فسر الناس هذا الأمر  
بأن محمد أحمد كان يدافع عن الإيمان والعقيدة، وأنه أخيرا جاء من يطهر الدين ويرفع كلمته  
ويصلح حال الناس. بدأت مشاعر الناس تتجه نحوه لعله يكون المنقذ الذى يفك أسر رقاب  
القبائل من استعباد الأتراك. ذاعت شهرة محمد أحمد، وبدأ في كل بقاع البلاد التفكير بأنه  
في يوم من الأيام سوف يظهر نبي ثانٍ عظيم "المهدي المنتظر" الذى سوف يقود الناس الى  
الإيمان والقرب من الله، ويتردد السؤال : هل أنت هو المهدي المنتظر ؟ أم ياترى شخص  
آخر قادم !! هنا قرر محمد أحمد أن الوقت قد حان، استأذن من شيخه الشيخ القرشي في  
العودة الى جزيرة آبا، حيث بدايته ومصدر قوته. عاد محمد أحمد منتصرا الى المكان الذى  
شاهد تجربته القاسية، وجاء بعده الناس يحجون للجزيرة طلبا للتبرك والتقرب مع إحضارهم  
هدايا كثيرة. كان محمد أحمد يوزعها على الناس إذ كان زاهدا في متاع الدنيا. بدأ في

الدعوة في أنحاء كردفان، وقد بايعه الناس جميعاً على الولاء في الإخلاص لدين الإسلام وخلاص البلاد. ثم بدأ رسائله لكل رؤساء القبائل والشيخوخ التي لاقت قبولا طيباً عند قراءتها على الناس.

توفي الشيخ "القرشي" فسارع محمد أحمد للذهاب لكي يشرف بنفسه على بناء قبة للشيخ الجليل. فأعطى هذا الأمر كل اهتمامه، وبينما هو منهمك في هذا العمل وجد مساندة كبيرة من شخص ليس في هيئته، ولكنه مشهور مثله هو "عبد الله" أحد أربعة إخوان. كان والده رجل دين، ولكنه لم يرث تدينه أو إيمانه بتعاليم الدين. كان عبد الله رجلاً حازماً وذا سلطة. كان له طموح في اتجاهين. الأول أن يحرر السودان من النفوذ الأجنبي، والهدف الثاني أن يحكمه. وقد حقق الهدفين معا. سبق بعد أن هزم الزبير مملكة الفور أن ظن عبد الله أن الزبير هو المهدى المنتظر فعرض عليه خدماته، ولكن الزبير اعترف له بأنه ليس قديساً، وعليه فعندما ظهر محمد أحمد ذهب إليه، ووضع نفسه تحت تصرفه معلناً ولاءه.

من أمتع الحكايات سرداً وترفيهاً الحكاية التي يرويها "سلاطين باشا" عن المشاكل التي صادفت عبد الله قبل أن يصبح الخليفة ويحكم السودان كله يقول "سلاطين باشا" على لسان الخليفة:

"لقد كانت رحلة شاقة، وقتها لم أكن أملك سوى حمار، وكان بظهره جرح قديم، ولم أستطع ركوبه، لكن كنت أستعمله لحمل قربة للمياه وكيس الذرة، وأفرش عليه ثوباً المصنوع من الدمور المغزول وأسوقه أمامي. كنت ألبس القميص الذي يميز أفراد قبيلتي، وما كدت أفتح فمي حتى يعرف الجميع أنني غريب عن الديار. عندما عبرت النيل كنت دائماً ما أسمع نفس التحية "ماذا تفعل هنا عد إلى بلدك ليس لدينا شيء يسرق!!".

أي حياة تلك من الصعود والهبوط، لقد كانت رحلة طويلة من إنسان لا يملك غير حمار يجرح دائماً في ظهره إلى حكم مطلق لإمبراطورية. إنها قصة ولا في الأساطير. ومهما كان الطموح لا يمكن أن يتخيل الإنسان أنه يمكنه أن يمر بكل تلك التجارب، ولا كان في حسبانها وهو يحكى قصة صعوده للسلطة "سلاطين" أنه سوف يجيئ اليوم الذي يقود فيه أكثر من خمسين ألف مقاتل لحقتهم وملاكهم، أو تأتي ليلة يجد نفسه وحيداً في بلدته



البعيدة في كردفان وأن الأسير سلاطين الذي كان يركع تحت قدميه بكل ذل وتواضع. هو الذي يوجه القوات المطاردة للحاق به ١١.

استقبل محمد أحمد تابعه الجديد بدون حماس. ظل عبد الله يتابعه في بناء القبعة . قبعة الشيخ "القرشي" بحمل الحجارة . بدا التقارب بين الرجلين ، صرح عبد الله لسلاطين بأنه قبل أن يعلن له عن سره كان قد عرف بأنه للمهدي المنتظر.

إذا كان محمد أحمد هو روح الدعوة وحماسها الديني الدافق فان عبد الله كان عقلها المفكر ، ورجل السياسة العملي، القائد.

بدأت الآن المؤامرة الجديدة ضد الحكومة المصرية . كان محركها هو عدم الرضاء وبيروها بؤس الناس في السودان .

بدأ المهدي في جلب المؤيدين وزاد نفوذه الى باقى أنحاء البلاد ، كرر رحلته لكردفان وزوجد تجاوبا واستعدادا للبيعة والمساندة بالروح والسلاح ، ولم تعد الدعوة سرا. هنا التقط العدو القلم الشيخ محمد شريف أخبار الدعوة، وأخطر الحكومة المصرية بالتآمر ضدها ، لكنها فسرتها بأنها مكيدة نتيجة للخلافات القديمة بين الشيخ وتلميذه السابق . إلا أن الأخبار عادت وتأكدت من مصادر أخرى .

عندها شعر رؤوف باشا حاكم السودان آنذاك بأنه يجب أن يتحرك فأرسل مندوبا لكي يحضر محمد أحمد للخرطوم للمثول أمامه للمساءلة ليفصح عن نواياه .

أخطر المهدي بسرعة بتحركات مندوب الحاكم . تشاور مع نائبة وقرر المخاطرة بكل شئ ويجب عليهم تحدي الحكومة دون ابطاء، عندما نتذكر كيف يمكن لجيش نظامي رغم سوء حاله أن يخذ أي تمرد وسط الجماهير وبسرعة فائقة لا يسعنا إلا الإعجاب لشجاعة قرارهم.

جاء الرسول ومثل أمام المهدي بعد أن قابله عبد الله أولاً بما يلزم. سلم رسالته وتوسل للمهدي لكي يقبل أمر الحاكم العام، كان المهدي ينصت في صمت لبعض الوقت ولكن عندما أضاف لكي يخفف ويبرر موقفه، أنه يخاف على حياته ولذلك ينصح بالذهاب للخرطوم هنا صرخ المهدي وهب واقفا ضاربا صدره بيده صائحا "بأمر الله ورسوله أنا سيد هذه البلاد وسوف لن أذهب للخرطوم للمساءلة " .

انسحب الرسول مرعوباً وبدأ تمرد المهدي بدأ كل من الحاكم ورجل الدين في التحضير للمواجهة ، أعلن للمهدي الحرب المقدسة والجهاد في سبيل الله لخلاص البلاد من الأجانب أعداء الله والوطن . بدأ في جمع للمقاتلين وكتب لكل أنحاء السودان معلناً بدء الجهاد، ومناديا الجميع للارتفاع لتحمل المسؤولية، واعدوا العزة والمجد لهؤلاء المنتصرين، وواعدوا الخلود للذين يستشهدون . وانتشر الشعار " يجب خلاص البلاد من الترك " ألف قسبر ولا دولار واحد ضرائب (عشرة في تربة ولا ريال في طلبة).

لم يضيع رؤوف باشا وقتاً كبيراً . أرسل فرقتين من المشاة على رأسهما ضباط برتبة نقيب لكل فرقة واعدوا إياهم بالترقية حين ينجحون في إلقاء القبض على محمد أحمد ورجاله، زاد هذا من حماس الضباط ، ووصلوا بالباخرة الى الجزيرة آبا ، وفي نفس الليلة قررا الهجوم من اتجاهين متضادين . مع جنح الظلام فتح كل فريق النار على الآخر ، وفي قمة الصراع هجم المهدي ورجاله، على قتلهم ، وأعملوا فيهم السلاح حتى أبادوهم . نجح القليل من الجنود في الهروب الى شاطئ النهر لكن عندما أحس قائد الباخرة بالخطر لم يسعه المخاطرة بالانتظار ، وترك أولئك الذين لا يستطيعون العوم نحو الباخرة الى مصيرهم المحتوم. عادت الحملة للخرطوم بالخفية. لقد جرح محمد أحمد أثناء المعركة فسارع عبد الله بتضميد جراحه بحيث لا يرى أحد أن رسول الدعوى يمكن أن يصيبه سلاح العدو . كانت أخبار الانتصار مذهلة ، وانتشرت الأخبار. كيف لقلة من المحاربين بالعصى والحراب أن ينتصروا على جيش الحكومة المسلح بالبنادق والذخيرة، هذا أكيد هو المهدي المنتظر. استفاد المهدي من هذا الانتصار بأن دعم موقفه وقرر مع الخليفة الانسحاب غرباً . إذ من المؤكد أن الحكومة سوف ترسل حملة أخرى ، خاصة أنهم على مقربة من الخرطوم ، وكان عبد الله واثقاً بأن الجيش قادم . قبل الهجرة وحسب التقاليد عين للمهدي أربعة خلفاء له. أول خليفة هو عبد الله ومن الآخرين على ود حلو شيخ إحدى القبائل التي سارعت بالانضمام للمتمرد . بدأ الانسحاب وكان له كل مظاهر الانتصار إذ التف حوله الناس ، وتبعه الكثيرون مبهورين بالمعجزة والانتصار الكبير.

ذهب المهدي الى جبل في كردفان احتفي به ، وأسماه جبل ماسا. الجبل السدي ذكر القرآن (حسب ظن المؤلف) أن القائد المنتظر سيظهر فيه. أصبح الآن بعيداً عن يد الخرطوم.

ولكنه أقرب الى فشودة . كان حاكم فشودة "راشد بك" رجل ذو مبادرة ، ولكنه قليل الخبرة بالنسبة لأمر الحرب قرر أن يأخذ المبادرة للقبض على للتمرد ورجاله . بدون أن يأخذ أى احتياطات، سقط هو وجنده في كمين في يوم ٩ ديسمبر وقتل هو ومعه ١٤٠٠ مقاتل من جنوده على أيدي العرب . رغم نقص التسليح لديهم إلا أنهم محاربون أشداء . اهتزت كل البلاد لتلك الأخبار . وضحت خطورة التمرد على الحكومة وجهزت حملة ضخمة قوامها ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة يوسف باشا المعروف بسمعته . في هذا الأثناء كان المهدي ومن معه يغانون الحاجة لا يملكون أى شئ . كل ما تحصلوا عليه ينفق على الناس ، وكان أغلبية المجاهدين هم بسطاء الناس الذين لا يملكون شيئاً ، إذ امتنع الأغنياء من الاشتراك في هذه المرحلة . كان المجاهدون شبه جوعى ولا يملكون غير العصي والحجارة ، يملك محمد أحمد حصانا واحدا بينما يمشى الخليفة على قدميه . كان استهتار الجيش القادم بأعداده ، وكان متأكدا من الانتصار بصورة جعلته يغفل حتى عن مراقبة العدو ، ودخل زريبة كبيرة ونام الجميع . قبيل شروق الشمس هجم المهدي وخلفاؤه وجنوده العراة وذبحوهم عن آخرهم أصبحت كردفان تحت إمرة المهدي ، إذ كان النصر حاسما ، وتجمعت لدى المهدي كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة .

هرع الآلاف للانضمام للحركة من كل طوائف المجتمع، وتأكد للجميع انه "المهدي المنتظر" الذي جاء لإنقاذهم من الذل والهوان . انتفضت كل القبائل العربية مرة واحدة . بدأ التمرد تلقائيا في كل من سنار ودارفور ، هوجمت كل الحاميات المصرية في المناطق النائية قتل كل جامعي الضرائب والإدارين ولم تنج إلا الحاميات الكبيرة، وحتى هذه انقطعت سبل الاتصالات بها . وضرب الحصار عليها ولم تبق أى سلطة إلا سلطة المهدي .

لعله من الضروري أن ننظر الآن الى مصر ، نفس الإدارة الحكومية التي أفرزت التمرد في السودان هي نفسها التي قادت الى ثورة عرابي باشا . عندما كان السودانيون ينادون بالخلاص من الأجانب، القاهرين المعروفين "بالأتراك" كان الناس في دلتا مصر ينادون بخلاصهم من النفوذ الأجنبي والأتراك الحقيقيين<sup>١١</sup> . مثلما اعتبر ظن الذين يعيشون عند منابع النيل أن القبائل لم تخلق لكي يستعبدها الموظفون، كذلك اعتقد الذين يعيشون عند مصبه بأن الأمم لم تخلق لكي تكون مستغلة من قبل الأجانب والدائنين . لقد وجد الجهلاء في

الجنوب في رجل الدين قائدا لهم ، ووجد الأكثر استتارة في الشمال في الجندي ذلك القائد .  
محمد أحمد حطم تسلط الاعداء، وفتح عرابي الباب أمام كراهية المصريين للأتراك ، ولكن  
بينما نجح العرب في تشتيت جحافل الاعداء، لم ينجح المصريون في زحزحة قوات أوربا .  
الصلبة. بعد كثير من التردد والمحاولات لايجاد مخرج للالزمة قرر "قلادستون" رئيس وزراء  
بريطانيا من حزب الأحرار إرسال الأسطول للإسكندرية الذي أسكت حامياتها تماماً،  
وعمت الفوضى في المدينة أعقبه احتلال من جيش كبير قوامه ٢٥ ألف جندي بريطاني نزلوا  
في الإسكندرية. ولقد تمت العملية بإتقان ونجحت في هزيمة التمرد، وحكم على زعيمهم  
عرابي بالموت والنفي خارج البلاد واستولت بريطانيا العظمى على مقاليد الحكم في البلاد.  
واستطاع البريطانيون بسط الأمن في مصر وطرح التمرد في السودان على مجلس الخديوى.  
وبالرغم من الفقر الذى كانت تعانيه الحكومة فإن رغبتها في التمسك بالأجزاء الجنوبية من  
محافظة كانت كبيرة عندها أبدت حكومة بريطانيا موافقة بتحفظ لأنها كانت تود أن  
تسلك سياسة الحياد تجاه ما يجرى في السودان ، وتم الإعداد لحملة كبيرة لقهر (النبي)  
المزعوم حسب ما كان يعتقد البريطانيون أو المهدي المنتظر حسب ما يعتقد أهل السودان.  
ومن ثم تم إرسال ضابط متقاعد من الجيش البريطاني في الهند مع بعض الضباط الأوروبيين  
للخرطوم لتجهيز القوة اللازمة. في هذه الأثناء كان المهدي يحاصر مدينة الأبيض بعد أن  
فشل في فتحها وهي عاصمة كردفان. في صيف ١٨٨٣م بدأ تجميع القوات الحكومية في  
الخرطوم حتى تكون جيش كبير. لكنه كان حسب ما جاء في رسائل "جنرال هيكس" أسوأ  
جيش، ولقد كتب "السير آي وود" في يونيو ١٨٨٣م يقول: هرب ٥١ جندي من سلاح  
المدفعية في الطريق إلى هنا رغم تقييدهم ، ضباط وجنود هزموا وهم يقاتلون لنيل حريتهم في  
التل الكبير، أرسلوا إلى هنا ليهلكوا في قتال وليسلبوا الآخرين حريتهم في السودان !! لم تكن  
عندهم أى روح للقتال لا نظام أو تدريب، وفي قوة من ٨ آلاف محارب يوجد بالكاد دسنة  
ضباط أكفاء. اثنان من هؤلاء جديران بالذكر، جنرال هيكس قائد المجموعة والكونيل فارقر.  
رئيس الأركان .

سقطت الأبيض قبل أن "تبدأ الحملة" سيئة الحظ رحلتها من الخرطوم وكان لتمامك  
"سلاطين بك" حاكم دارفور بارقة أمل، سلاطين كان ضابطاً نمساوياً في خدمة الجيش

المصري. تحرك جيش هكس في ٩ سبتمبر ، وكان يتكون جيشه من ٧ آلاف جندي مشاة ، ٤٠٠ جندي باش بوزك محمولة ، ٤٠٠ سلاح فرسان ، ١٠٠٠ صار كيسيان ، ١٠ مدافع محمولة ٤ كروب و ٦ رشاش "نوردان فيلد" ترك الجيش أم درمان متحركاً نحو السودان. كانت رئاسة الحملة للجنرال هيكس ، ولكن كانت هنالك تدخلات وآراء للحاكم العام "علاء الدين باشا" الذي نحل محل "رؤوف باشا". كان الخلاف في وجهات النظر كبيراً ، وتوجس الضباط من مصير أسود ينتظرهم ، اتجهت الحملة جنوباً عن طريق شط الرهد. كانت الأحوال العامة سيئة حتى أن خادماً ألمانيا اسمه جستاف كولتر قد فر هارباً ، وانضم لمعسكر المهدي حيث ظنه الجميع ضابطاً إنجليزياً ، تم عرضه في طابور في انتصار وتخلييل . عندما وصلت قوات الحكومة لمشارف المدينة خرج المهدي بجيشه الى العراق ، وبدأ في عمل تدريبات عسكرية للقوات في تشكيلات حربية . لقد تجمع أكثر من أربعين ألف مقاتل تحت علم المهدي ، مسلحين هذه المرة ، بآلاف البنادق وبعض المدافع مع السيوف والجواب. الى هذا الحد تطورت الزمرة الصغيرة التي حاربت في الجزيرة آبا. وكتب المهدي "هيكس" عارضا عليه أن يستسلم ، ولكن قبلت الشروط بالرفض بالرغم من أن الاتفاقية كانت ممكنة . لم تتعرض الحملة لأي هجوم حتى وصلت للرهد ماعدا بعض دوريات الفرسان التي جاءت في طلعات تراقب تحرك الجيش البطيء. وفي أول نوفمبر تحرك المهدي بجيشه من الأبيض لملاقاة العدو. وقع الصدام يوم ٣ نوفمبر ، في ذلك اليوم كان جيش الحكومة يجاهد في سبيل الحصول على الماء مما جعلهم صيدا سهلا لسلاح جيش المهدي فسقطوا تاركين أسلحتهم. في اليوم الثاني هجم الجيش كله ، كسر جيش الحكومة وفرقه واستمرت المعارك ليوم آخر حتى تم تدمير الغزاه فلم ينج أكثر من ٥٠٠ فرد من جيش الحكومة ، واستشهد مثلهم من جيش المهدي ، و قتل كل الضباط الأوربيين بما فيهم القائد هيكس، الذي مات وسيفه في يده وكان مقاتلا اكتسب احترام أعدائه الشرسين. فكرم وتم دفنه بمراسيم تليق بالشرف العسكري .

أطلق المهدي مائة طلقة احتفالا بالانتصار الكبير السودان الذي ملكه الآن بنصر من عند الله ورسوله ، وفهو الآن سيد السودان ، وقد حقق هذا أيضا بقوة السلاح .



لم ترسل أى حملات أخرى بعد ذلك انتصر السودانيون بجرائهم وشجاعتهم ، ونالوا الحرية تحت راية قائدهم للقلس ، ولم يتبق للحكومة غير تجميع شتات الحاميات الباقية وإخلائها بأقل الخسائر ، وهذه بداية حكاية أخرى أكثر دموية ، بدأت بالعار والمأساة ، وانتهت بالانتصار ودعونا نأمل بالسلام أيضا .

أود الآن أن ألقى نظرة عامة عن حركة المهدي مما لم يسمح به المجال . إن حركة المهدي كانت اجتماعية وعنصرية . كان الناس يعيشون في بؤس وروخهم المعنوية منهارة ، وما كان في الإمكان حمل السلاح لمجرد الكسب المادى ، ثم جاء المهدي وأعطى القبائل الحماس الذى كانوا يفتقدونه وبدأت الحرب . ومن السهل أن نضع كل اللوم على محمد أحمد ونحملة كل الدماء التى سالت ، ولكن فى رأى أن المسئولية مشتركة ، يتحملها أيضا الحكام الظلمة الذين قهروا العباد ، والحكام لغير الأكفاء الذين أضاعوا أرواح رجالهم ، والوزراء الفاسدون الذين فلبوا الخيرات . ومهما قيل عن المهدي يجب ألا ننسى أنه وضع فى قلوب قومه الروح والحياة ، وحرر بلاده من الحكم الأجنبي . إن بسطاء الناس الغلبة الذين كانوا يعيشون شبه عراة وقوتهم لا يخرج عن كونه بعض الحبوب الجافة ، فجأة وجدوا معنى جديداً للحياة بعد أن استطاع المهدي أن يفرس فى صدورهم الحس الوطنى الجارف والوازع الدينى القوى . وهكذا أصبحت الحياة ملاءى بالإنارة والأهوال المبهجة ، وهناك حياة ملاءى بالأشياء الجميلة فى دنيا الخيال ، وإذا ما كتبت لهم النجاة هنالك أشياء كثيرة جميلة تنتظرهم ، وهناك الكثير الذى يجب عمله ، وإذا ماتوا فى قتال الأعداء فإن الجنة مثواهم ، إن كثيراً من المسيحيين يجنون الإسلام ولكن بعضهم يعتبرون أن المهدي ما هو إلا مدعى دين ساعدته الظروف لبلوغ تلك المكانة المهابة . ربما يكون فى بعض هذا التفسير بعض الحقيقة ، لكننى أستطيع أن أعرف كيف أفرق بين النبي الحقيقى وبين نبي مدعى بمقياس النجاح . إن نجاح المهدي لا يقل عن نجاحات الفتوحات الإسلامية . مع الفارق . ذلك أنه واجه آلة الحرب الحديثة تدعمها العلوم والتقدم التقنى وإذا أخذنا كل ذلك فى الاعتبار ، أجد أننى غير متفق مع أولئك المفسرين . إننى اعتقد أنه فى المستقبل وعندما يجد الناس السعادة فى أعالي النيل ، وعندما يستتب الأمن ، ويأتى فى ركابه التعليم والرخاء ، يجب على أول مؤرخ عربى يدرس تاريخ المنطقة عليه أن يذكر أن "محمد أحمد" كان من أعظم أبطال عصره .

## الفصل الثانى

### مسير المبعوث

تواجه كل الحركات العظيمة فترات ينخفض فيها وهج الثورة ويتآكل الحماس ويشعر الناس بتبخر كل آمالهم الوطنية .

يتحول النصر العسكري الى قوة جارحة، والحرية الى عريضة ، والتسامح الى الظلم والاستبداد. يتحول الفخر بالعنصر الى غرور أحق، والخوف من الله الى تعصب وخرافة ويبدو حالة عامة بلا استثناء أن تنتهي كل أعمال الرجال ومجهوداتهم الكبيرة لهايات مؤسفة، تماما كالنبات الذي يطرح الفروع، ثم العقدة ثم تظهر الزهور الجميلة ، ولكن سرعان ما يأتي الشتاء فتذبل وتموت . اللهم إلا إذا اعتبرنا أن الورق الميت تحت شجرة البلوط يصيبه الصدا والتآكل ليكون بذلك تربة صالحة للنماء تساعد في إنبات أشجار أخرى بديلة عن تلك التي تموت وهذا من شأنه يشجع على ظهور أناس جدد على سطح الأرض يتألقون وإن الحركات المختلفة ما هي إلا نفس التغير الذي يحدث في دورة الحياة . الثورة المهدية لم تسلم من المصير المنتظر لأي حركة، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت دماء الوطنية والتمرد الديني الى بقعة سوداء في دم الإمبراطورية العسكرية . بعد أن تم طرد الأجانب وتحرير البلاد من التجار والجنود أخذ العامل العنصري في الانحسار بعد أن اختفت أسبابه. مع تدنى الحالة الأمنية، تدهورت الحالة الاجتماعية، وانحسر تدمير الأهالي الشيوعية هي ضمان الثروة، وثروات السودان قد بددت تماماً. لم يبق إلا الوهج العنصري والایمان بقدسية المهمة التي جاء من أجلها المهدي، ولكن بعد ان زالت الحوجة الى زعيم بدأت قداسته تضعف. في هذه الأثناء بدأت تظهر قوي جديدة في شخصية التمرد. الانتصارات التي حققها المهدي نتيجة لتخطيط الأعداء قد أتت بروح عسكرية جديدة تختلف عن الاندفاع العاطفي لرجال القبائل، وهي روح العسكري المحترف .

جاءت فترة ساد فيها الهدوء وقلت فيها قوة الدفع المهدي الى أن ظهرت بسواد الغزو البريطاني لشرق السودان ، هذه الحادثة أعادت الحياة للحركة والحماس الوطني، وشعر الناس بأنهم بأن الاحتلال العسكري لا يمكن أن يعود بعد أن تحرر وأمنه. وبالتالي كانت مقاومتهم عنيفة للغاية للعمليات التي قادها سير جيرالد جراهام واللورد ووزلي. كان التأخير في إرسال حملة النجدة للخرطوم هو السبب في أن تنال هذا المصير، وبمجرد أن سقطت الخرطوم بسط رجال المهدي سلطتهم على البلاد بالقوة العسكرية التي بنيت عليها إمبراطورية الدراويش .

كل معارك المسلمين تتمثل في قوة التعصب، ولكن بالرغم من هذا التصميم يمكننا القول إن القوة التي هزمت يوسف، وحررت الأبيض وقطعت أوصال هيكس كانت بقوة الدافع الديني. لكن العرب الذين قاتلو جراهام واستيوارت كان قتالهم دفاعا عن الأرض، والعرب الذين هزمهم "كتشنر" حاربوا للفخر العسكري. كان التعصب في شيكان، وكانت الوطنية في أبو كيلى، وكان المجاهدون في أم درمان. ولكي يمكننا وصف الثورة والتغير الذي حدث لها يجب أن نرجع لمرحلة ضعف البنيان الاجتماعي والنفوذ القبلي قبل أن تشتد القوة العسكرية وتقوى، إذ كان مقتل يوسف قد جعل كل أهل السودان يحملون السلاح دفاعا عن حريتهم فإن مقتل هيكس قد اقنع البريطانيين بأن السودانيين قد فازوا بحريتهم عن جدارة. ولكن الرغبة الجامحة في الاستمرار في الحكم جعلت مجلس الخديوي يفكر مجددا في الاحتفاظ بممتلكات البلاد إذا كان الأمر متروكا للحكومة وكانت هناك محاولات أخرى يائسة . هنا ظهر أن حكومة بريطانيا قد تخلت عن سياسة عدم التدخل في شئون السودان، ونصحت الخديوي بالتخلي عن السودان. عندما احتج شريف باشا، اضطر اللورد قرانفل لإيضاح كلمة "تخلي" وعندما أيد الخديوي قرانفل، استقال شريف باشا واعتمدت سياسة إخلاء السودان . قال الوزراء :دعونا نجتمع الحاميات ونرحل ، كان القرار سهلا، ولكن تنفيذه كان من الصعوبة بمكان . كانت أغلب الحاميات قد سقطت في دارفور والأبيض والأخريات إما محاصرة كسنار وطوكر وسنكات، أو قطع عليها الطريق الى الشمال كما حدث

للمديرية الاستوائية من جراء التمرد هناك، كانت الخرطوم ملا تزال متماسكة. أول دور للحكومة المصرية كان واضحا .

كانت حكومة قلاديستون بعد أن قضت على ثورة عرابي تعتبر الحاكم الفعلي لمصر وبحكم السلاح . ومن مظاهر الاحتلال، تسلم الضباط البريطانيين تدريب وتنظيم الجيش المصري ، والشئون المالية وضعت تحت يد ضابط بريطاني، وكان هناك رجل أحد رجال الأعمال الخيرية البريطانيين ناصحا للخديوي توفيق، بينما يرسو الأسطول البريطاني قبالة أطلال الإسكندرية، وكان واضحا أن بريطانيا العظمى يمكنها ضم البلد اسما وفعلا. ولكن الاستعمار لم يكن أحد أهداف حكومة الأحرار، هدفهم كان لفعل الخير وبدون منافع ، وكما أصبحوا الآن مقتنعين بأن على مصر الجلاء عن السودان كانوا على يقين بأن بريطانيا يجب أن تترك مصر وترحل .

سوف يتضح من هذا الجزء أن كل الرغبة الآن هي الخروج من السودان، وأن هذا حجر الأساس للسياسة البريطانية، وكل قرار سواء للحرب والإدارة كان لهائيا . كانت كل إشارة أو رسالة تدعو الى قطع كل العلاقات بين البلدين السودان ومصر، بجميع الصلات الممزقة ، لكن تنفيذ هذا لم يكن بالأمر الهين.

إن من المعتاد في البلاد المتحضرة أن يكون هناك سبب قوي لتدخل الدول لإعلاء النظام. ظلت الحكومة البريطانية ترقب بحذر مجهودات مصر في الجلاء عن السودان وإحضار الحاميات الى مصر سالمة. لم تقدم أي مساعدة عسكرية على الإطلاق. ولكنها قدمت النصائح وكان الرأي السائد أن هذه مهمة تحتاج الى رجال المهمات الصعبة، فكر الساسة البريطانيون كيف يمكنهم المساعدة بدون عناء تكاليف أو مجازفة، في لحظة لعب فيها الشر نطق أحدهم باسم "غردون" . وعرض غردون على الحكومة المصرية إلا أن الحاكم "ايفي لين بارنج" وقف ضدها في البداية على أساس أن التمرد في السودان ذو صبغة دينية، وليس من المنطقي أن يبعث شخص مسيحي على رأس الحملة المنقذة . كان رجال الخديوي يفضلون الاستنجاد بالزبير رحمة ، هذا الرجل الذي قتلوا ابنه، صادرو أملاكه واحتجزوه عنوة، ولكن كانت ثقة الحكومة في إمكانياته كبيرة. هذا هو

المندوب الذي تآقت له الحكومة، وقد أيد الفكرة لكل من كان على علم بالاحوال المحلية. بعد مضي أسبوع من رفض سير ايفلين بارنج فكرة الاستعانة بخدمات الجنرال غردون كتب يقول " مهما كانت أخطاء الزبير يعتبر رجلا ذا قوة كبيرة وحزم شديد. الحكومة المصرية ترغب في الاستعانة بخدماته ويكر باشا حريص على الاستفادة منه. من المعلوم لو كان للحكومة حق الاختبار إذن تم اختيار الزبير وارسل للسودان لمواجهة المهدي بعد أن يتم تعيينه سلطاناً على السودان ومدة بالرجال والعتاد كان الاحتمال الكبير أن ينهار المهدي في ذلك التوقيت بالذات إذ واجهه الزبير الذي لا يقل عنه شهرة بل ربما بفوقه في الإمكانيات. أخيراً لم يكن للحكومة أي خيار وفرض غردون. لأن الحكومة البريطانية ما كانت لتستطيع التعامل مع رجل كالزبير وتاريخه معروف . إن الاختلاف بين الرجلين "غردون" و "الزبير" كالاختلاف بين خط الاستواء والقطب الشمالي . عندما تتشابه المسائل في عقول البشر فإن كل الأفكار أحياناً تصل الى نفس الاستنتاجات ، لم يكن هناك سجلات للرسائل الكثيرة المتبادلة بين الحكومة ومندوبها. لكن كان واضحاً من البداية أن "ايفلين بارنج" غير راض عن اختيار "غردون" نسبة لسمعته السابقة، وتخوفه من عودة نفس المشاكل والاضطرابات . كان المد في صالح "غردون" قوياً حتى "إيفلين" لم يستطع وقفه . طلب "اللورد ووزلي" في السابع عشر من يناير من " غردون " الحضور الى لندن، اجتمع مع المجلس يوم ١٨ يناير وفي نفس تلك الليلة بدأ الرحلة التي لن يعود منها أبداً. انهمك " غردون " في مهمته بروح عالية مزهوا بشخصيته ذلك الزهو الذي كثيراً ما يضل عظماء الرجال وجماليات النساء، وذاكراً انه أعظم شرف يكلف به . كان الرضا عملاً للجميع . الوزراء ارتاحوا لهذا الاختيار، وقد أعطي المبعوث الكبير دلالات الثقة، وكان اجتماعه مع الخديوي جيداً، حيث أعطي كل السلطة وكلف كل أعيان السودان وأهاليه بالتعاون التام معه. الخارجية البريطانية مع اعترافها بعدم فهمها للأوضاع في السودان قد أعطته سلطات كاملة وحرية تامة للتصرف وضعت مائة ألف جنيه إسترليني في الحساب الخاص به مع وعد بدفعات جديدة متى احتاج اليها، مع التأييد الكامل سواء من جانب المصريين أو



الإنجليز على التعاون الكامل. وأيد سير "ايفي لين بارنج" بأنه لا خلاف بينه وبين نوبار باشا وأفكار غردون. وهكذا تحت تأثير تنبؤات متفائلة بدأت هذه العملية المأسوية المشنومة.

بالرغم من صعوبة المهمة إلا أن الأهداف كانت محددة. كرر له "سير ايفي لسين بارنج" الهدف الواضح لمهمته هو الجلاء عن السودان. "كما أكد الخديوي أيضا، "على كجلاء كل رعايانا من عسكريين ومدنيين وكل من يرغب من أهالي البلاد التوجه لمصر، ثم تعمل على تنظيم حكومة في المديرية المختلفة". كان غردون يحس تماما بثقل المهمة، حتى أنه سطر بعض الآراء في المذكرة التي خطها وهو لا يزال على المركب "تبانجور" إلى س من الظلم أن نقهر هؤلاء القوم بدون أي ضمانات لحكومة عادلة. أيدته في هذا استيورات الذي كان يرافقه، كل من عاش في السودان كان يشعر بكبر حجم هذه البلاد وقلة نفعها، وكما ذكرت المذكرة: يالها من تركة ثقيلة على مصر. إلى هنا والاتفاق كامل بين المبعوث وحكومة الأحرار.

ليس هذا مجال وصف رحلته عبر الصحراء من كورسكو إلى أبو حمد ومقابلاته مع أعيان بربر أو تصريحاته بالتخلي عن السودان التي كانت طامة عليه. وصل الخرطوم يوم ٢٢ فبراير واستقبل بالأفراح من كل الطوائف إذ كان بحضوره مصدر اطمئنان للناس حتى الذين كانوا على وشك الرجيل شمالا تريثوا ظنا بأن كل إمكانيات الإمبراطورية تقف خلفه. كانت هذه الأخبار مصدر قلق للمهدي ورفاقه، وظن الجميع أن حضور "غردون" سيتبعه الجيش لا محالة. أثر هذا الأمر على تحركاتهم وأزعجهم جدا. ولكن قد خدع الأصدقاء والأعداء معا - فغردون وصل الخرطوم، ولكنه سوف يبقى وحيدا.

الظواهر التي شاهدها في رحلته للخرطوم لم تترك لديه أي مجال للتشكك في حجم المحنة التي يحاربها. وجد نفسه محاطا بحركة وطنية جبارة ومد ثوري ضد كل ما هو أجنبي. حتى جنوده سودانيون وهو الأجنبي بالإضافة إلى أن بين كل هؤلاء تجار الرقيق العرب الذين طالما عاداهم وحاربهم أكثر حتى من "سير صمويل بيكر" تم إن الحركة

يدفعها حافز ديني قوي ، الإسلام يتحرك ضد الكافر ، وهو مسيحي ، حتى جنوده كانوا يؤمنون بالإسلام الذي جاءوا لمحاربته . كان جو العداء يملأ أرجاء المكان ، هنا شعر بقوة المقاومة وبالرغم من أهازيج الجماهير وفرحتها بمقدمه ، وطلقات المدافع معلنة الفرحه ، وبالرغم من الشعور عند الناس في إنجلترا بأن المهمة قد أنجزت ، وبالرغم من ان رجالات الحكومة كانوا قد بدأوا في تهتة أنفسهم على حسن الاختيار . بالرغم من كل هذا ، وفي نفس يوم وصوله جلس غردون وأرسل برقية رسمية للقاهرة مطالبا بحضور " الزبير باشا " .

إن علاقة غردون بالزبير علاقة مميزة . لقد قتل سليمان ابن الزبير ، إن لم يكن بأمر غردون شخصا فقد تم هذا أثناء فترة حكمه للسودان . وهكذا أو كما قال : هل يترك الله فراغا في مستوي أعدائه ! لم يكن قد تحرك بعد من لندن ، أرسل برقية شديدة "لايفي لين بارنج " بأن الزبير شخص خطر جدا ، ويجب إبعاده حالا الى جزيرة "قبرص " لم يكن هذا في مقدور المندوب البريطاني في مصر . وصل الجنرال كالعاصفة وراء برقيته وهاج وغضب عندما علم بأن الزبير ما زال موجودا بمصر .

زار غردون شريف باشا الوزير المستقيل قبل أن يبدأ رحلته ، ووجد عنده الرجل الذي حاول أن يتفاداه " الزبير " ، حياه بجمارة ، وتكلموا لفترة طويلة عن السودان بعدها أسرع غردون للسيد " إيفي لين بارنج " طالبا أن يرافقه الزبير الى السودان . استعجب بارنج من تصرف غردون وشعر بأنه وليد وقته ولا يعتمد عليه . إذ ربما غير رأيه غدا . ألح على الجنرال ، وصارحه بأنه غير رأيه فجأة ، ولكن بداخله شعور قوي بأن مشاركة الزبير فيها نجاح للعملية . سافر غردون والفكرة ما زالت مسيطرة على قناعاته بأهمية الزبير وعليه فإنه عندما كرر طلبه بطريقة رسمية من الخرطوم شعر " بارنج " بأن لدي غردون قناعة تامة بأهمية إرسال الزبير ، وأن الأمر لم يكن وليد اللحظة .

باءت بالفشل كل محاولات " بارنج " والحكومة المصرية في إقناع حكومة الملكة بالاستجابة لطلب غردون من منطلق أنها أي حكومة الملكة لا تريد أن تكون لها أي صلة بهذا الرجل السيئ . أصر غردون على طلبه وأيده زملاؤه في ذلك وأبرق مرة

أخري في واحد مارس يقول: من الاستحالة بمكان أن يجلي رعايا القاهرة بدون تنفيذ الطلب الذي أرسلته. رفض طلب اشتراك الزبير وأبرق مرة أخيرة يوم ٢٨ مارس "إن لم ترسلوا الزبير لا أمل في إخراج الحاميات من هنا" أيد الجنرال "بارنج" هذه البرقيات بأن الجنرال غردون محق عندما يقول إن أهمية الزبير الرجل القوي لنجاح أي عملية أمر حيوي، ساند نوبار باشا هذا الرأي، وكذلك الرحالة الدكتور بوهندورف، أضاف غردون أن الباشا شرير، لكن لا يمكن الاستغناء عنه".

رفضت حكومة الملكة حتى مناقشة الأمر حتى لا تكون لها أي علاقة بالزبير، وسوف يذكر المؤرخون صواب أو حكمة هذا القرار. إذ كانت الحساسية بتلك الدرجة تساوي الثمن الباهظ الذي دفع، وهل كان في الإمكان تفادي إخراج الكرامة بالأهوال التي حدثت أو منع حدوثها أصلا. في رأي غردون لو تم إزصال الزبير فإن بربر لم تكن لتسقط. إذ كان في الإمكان خلق حكومة تواجه المهدي لكنهم رفضوا مشاركته لماضيته في تجارة الرقيق كأنهم يقولون لترك ما هو أسوأ.

إذا جاز لنا أن نتشكك في عدالة القرار فإن تبعات أسبابه واضحة للعيان. إما أن تكون الحكومة البريطانية مهتمة بأمور السودان أولا تكون. إذا كانت غير مهتمة كان لزاما عليها ألا تتدخل في تعيين الزبير، وإذا كانت مهتمة فكان واجبا عليها تأمين جلاء الحاميات. لقد آمن غردون بهذا، وقال: "علىنا أن نعمل على سلامتهم وإنقاذهم بأي ثمن" وقد ساند موقفه هذا بحياته. البعض يقول: ليست هي مسئولية الحكومة البريطانية، وليس من العقل أو الحكمة أن تترك كل الأمور لمشاعر النبيل والفروسية لدى بعض مواطنيها تجاه الغرباء. إنجلترا لم تسعى حكم السودان أو تكون سببا في التمرد أو زرع الحاميات، وليس على مصر توقع أي شيء سوي العطف. تغير كل هذا بمجرد أن رفض الزبير. إذ كان دلالة واضحة بأن ما يجري في السودان يهم الشرف البريطاني تماما كالشرف المصري. عندما رفض الشعب البريطاني وليست الحكومة وحدها بسبب المبادئ التعامل مع الزبير فإنها تكون قد ألزمت نفسها بتحرير الحاميات سلما أو بالقوة إذا دعا الأمر. بعد رفض اشتراك الزبير، ساءت العلاقة بين الحكومة والمبعوث. احتار

في ردود الفعل لطلبه، وتحيل أن هذا سيكون مصير أي طلبات أخرى ولكنه كان مجبرا على الطاعة، فراح يفكر في خطط أخرى للخروج من المأزق . لقد شعر بأنه مسئول عن جلاء هؤلاء البشر الذين وثقوا فيه، ولا يمكن أن يترك مصيرهم للمهدي. وثق في البعض وعينهم في وظائف إدارية وصمم على البقاء في الخرطوم حتى جلاء آخر فرد. كانت لدى الحكومة نفس روح العناد والإصرار مهما كلفهم ذلك. على ألا ترسل جنودا إضافيين، أو تتوغل في مجاهل إفريقيا . قد تسقط المدينة وتباد الحاميات والمبعوث ، ولكن سوف لا يعلم بنواياهم نحو المبعوث الى أن ينقرض هذا الجيل والأجيال القادمة ويطويها للنسيان .

قال البعض: كان على الخارجية البريطانية تقلم بعض المقترحات بالانسحاب مثلا على دفعات، طالما سوف تساندها عبارات الشكر والتمجيد والمنح اللاحقة، ولكن بينما كان الكثيرون سوف يرحبون بترك مثل هذه الوظيفة الخطرة، فإن الرجل الذي أرسلوه كان قد خرج عن طوع الجميع وأصبح لا يهمه ما يمنعون أو يعطون . سارت الأمور من سيئ لأسوأ. إن كل المقترحات التي تقدم بها غردون أصبحت غير عملية بعد أن تم رفضها الواحدة تلو الأخرى . طلب الزبير رفض، كما رفض طلبه قوات من تركيا، لقوات مسلمة من الهند اعتذرت الحكومة عن إجابة الطلب ، ثم طلب المسلحة من السلطان رفض، كما اقترح أن يذهب الى الامتوائية بالباخرة رفض طلبه . اقترح أيضا إرسال ٢٠٠ فرد من الجيش الإنجليزي الى بربر أو حتى أسوان، لم يرسل أحد . وأخيرا اقترح أن يقابل المهدي ليتفاوض معه باسم الإنسانية بما قد يكون لديه من قلب رحيم وقبول طلبه بالرفض التام . أخيرا أصبح الصراع واضحا ولم يخف استياءه. بعد هذا كتب يقول :أحملكم مسئولية التخلي عن الحاميات وكل الخزى والعار ، إنها قمصة الخسة، ثم أكد بقاءه مع حامية الخرطوم .

سوف لن أترك هؤلاء الناس بعد كل ما عانوه ، وإنني لا أجد خياراً لدي غير أن أطلب من حكومة صاحبة الجلالة قبول استقالتي .

لم يبت في طلبه ، عندما أحس بالغضب والمرارة . عندما شعر بأنه أصبح وحيدا أرسل مكتوبا خاصا للسير " إيفيلين بارفج " يقول:-

أنا اشعر بالرغم من مشاعرك الدبلوماسية بأنك تؤيد موقفي. وإن كل رجل يشعر في مجال عمله بأنه إنسان كامل الأوصاف، وكأخر أمل أرجو أن تطلب من السيد "صمويل بيكر" أن يتوسط لدي الرأسماليين من مليونيرات بريطانيا وأمريكا أن يسهموا في تدبير مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه حتى أتمكن من إتمام عملية الجلاء ، بدون إذن أو حتى موافقة الحكومتين في لندن والقاهرة . أرسل سير صمويل بيكر خطابا طويلا للتايمز اللندنية مبديا احتجاجا مؤثرا ومطالباً في التماس تقديم الدعم والمساعدة المطلوبة . هكذا كانت مظاهر العملية البائسة حتى السجلات الخرساء كانت تن من مشاعر الإحباط وكان هذا بعض الذي يجري. أما خارج الملفات والخبر والورق فكانت أحداث كثيرة مثيرة تجري .

لقد أثار وصول غردون للخرطوم مشاعر التحفظ والحذر لدي المهدي وخليفته بالرغم من أن تأكيدات غردون في بربر قد طمأنتهم بعض الشيء وأيضا عدم وصول أي إمدادات لغردون. بكل شجاعة قرر المهدي وخليفته محاصرة الخرطوم نفسها . شجعهم في ذلك عودة الروح الوطنية ومصادر قوة إضافية للثورة إذ يمكننا النظر الى الشرق حيث بالإضافة لكارثة هيكس قد حلت كارثة أخرى مثيلة. انضمت قبيلة الهدندوه في شرق البلاد للثورة المهدية لما عانت من سوء الأحوال وتعسف حكومي. كانت تحت قيادة القائد الخالد المشهور " عثمان دقنة " كانت الحاميات في طوكسر وسنكات محاصرة وعانت كثيرا ، تخلت حكومة صاحبة الجلالة عن أي مسئولية . عندما كانت هذه المناطق على ساحل البحر الأحمر لم يمنع هذا من تجرؤ الحكومة المصرية لإنقاذ حاميتها وإنقاذ الجنود المحاصرين ، وعليه أرسلت قوة قوامها ٣٥٠٠ محارب من سنكات لنجدة طوكسر في فبراير عام ١٨٨٤ تحت قيادة الجنرال بيكر الذي كان من أشجع فرسان " الهسار " . تمت مهاجمتهم عند آبار " تيب " في ٥ فبراير من



حوالى ١٠٠٠ عربي . انهار جيش الحكومة وهرب معظم جنوده تاركين سلاحهم ورائهم مما ساعد قوات " عثمان دقنة " على قتلهم بدون مقاومة .

فشلت كل محاولات الضباط الأوربيين وقائدهم في جمع شمل الجنود وحثهم على الثبات والقتال . تراجع بيكر ومعه حوالى ١٥٠٠ مقاتل الى سواكن تاركين أسلحتهم وعددا من القتلى ، ٩٦ ضابطا وحوالى ٢٥٠٠ جندي على أرض المعركة . غنم العرب كميات هائلة من مدافع كروب وبنادق رشاشة وجبخان وأصابهم جنون الانتصار . فهجموا على حاميات سواكن وطوكر واحتلوها بعد أن أبادوا كل ما فيها من قوات . جاء الشر وانتهت المذبحة ، وأصرت الحكومة البريطانية على أن تزيد عليها ، هذه الحاميات التي رفضت من قبل أن تنقذها وتريد الآن أن تنتقم لها .

بالرغم من نصائح غردون خوفا من أن تقفل عليه خطوط الرجعة المحتملة أرسلت الحكومة قوة كبيرة من الهسار العائدين من الهند ، أرسلت القوة الى سواكن تحت قيادة جراهام . تجمعت القوة بسرعة ، وأعطيت خيل الجندرية ( رجال الشرطة ) وأرسلت الى أرض المعركة . نفس المنطقة التي شهدت المذبحة السابقة . في ٤ مارس قتلت الحملة أكثر من ٣٠٠٠ هندنوى واجبروا البقية على الرحيل الى مناطق بعيدة . واشتركت القوة في معركة ثانية في " كامامي " وكان النصر أيضا من نصيب الفرقة الإنجليزية مع خسارة كبيرة عند العرب . لم يأت النصر بلا ثمن فقد فقدت القوات الحكومية في " التيب " ٢٤ ضابطا و ١٦٨ مقاتلا و ١٣ ضابطا و ٢٠٨ مقاتلين في تامي . أسفرت هذه العمليات عن تشتيت قوات " عثمان دقنة " ذلك القائد الماكر الذي عرف لأول مرة ولعلها آخر مرة معني التقهقر . لقد كلفت تلك المعارك ١٠ آلاف قتيل في أقل من ٣ شهور في شرق السودان ، واعتبرت قوات الحكومة انتصارها في نظامها . دحروا أهالي البحر الأحمر أمامهم ولكن في النهاية كما كانت هذه المعارك بلا سبب كذلك كان انتصارها انتصاراً بلا مقابل .

كان من الواضح فشل المهمة بمجرد أن رفض طلب اشتراك الزبير وأرسل الجنرال رسائل عديدة كأخر محاولة ، ولكن تم رفض كل طلباته واقتراحاته ، وأصبح السؤال

الآن كيف يمكن إرجاعه سالما ولو بالرغم منه . استعمال القوة هو الحل الوحيد وقد ساعدت الانتصارات في شرق السودان في فتح الطريق ، بربر لم تسقط بعد، واقترح أن ترسل قوة طائرة على ألف جمل سريع لمحاولة النجدة، لكن العملية لم تجد الحماس اللازم في جهاز الحربية. بقي أن ترسل حملة كبيرة حسب إصرار مندوب الحكومة بمصر إلا أن الحكومة تماطلت وضاع وقت ثمين . في ذلك الوقت كان المهدي لا يزال في طريقه من الأبيض الى الخرطوم .

لقد ساءت الأحوال في الخرطوم حتى قبل القطيعة بين المبعوث " غردون " وحكومة الأحرار برئاسة قلاديستون. وبينما كانت الحكومة البريطانية منهمكة في العمليات الانتقامية بشرق السودان ، تحرك المهدي على مهل الى الخرطوم يتبعه أكثر من ١٥ ألف رجل. في ٧ مارس أرسل الكولونيل استيوارت برقية من الخرطوم تقول : "إن المهدي أرسل المناذير لتحريض أهالي شندي للانضمام للتمرد، ونخشى أن يقطعوا الطريق علىنا" .

في ١١ مارس أرسل غردون بنفسه رسالة تقول " إن الثوار على بعد ٤ ساعات على النيل الأزرق " لم تأت أي برقيات بعد ذلك، في ١٥ مارس تم قطع خط التلغراف بين بربر وشندي، وهكذا اكتمل الحصار.

سوف يحسب لغردون كيف أنه استطاع السيطرة وإدارة الأمور في المدينة المحاصرة لأكثر من ٣١٧ يوما، وهو المسيحي الأجنبي وسط آلاف المسلمين والأفارقة، وأنه استطاع السيطرة على ٧ آلاف مقاتل من أجناس مختلفة، وكيف أنه بث روح الشجاعة في قلوب أكثر من ٣٠ ألفا من الأهالي من سكان المدينة، وكيف قاوم بشراسة عدوا قويا، عدوا رغم قسوته ربما يقبل التسليم .

لقد كانت الحادثة الفريدة والوحيدة في التاريخ ولن تتكرر ربما لن تسمح الظروف لشخص أن يسجل خواطره ومذكراته، وفيها ذلك الكم من التفاصيل والتشويق، كما سجله الرجل بنفسه فيما سماه "جورنال الخرطوم". لقد مست تلك الجواهر قلوب آلاف القراء في أوروبا وأمريكا. لأن غردون غير مكترث لنيل عطف

الرجال، فكان من السهل الحصول عليه ، وقبل أن يكمل الجزء الأول من الستة أجزاء للجورنال، كان قد استحوذ على إعجاب القارئ الذي أصبح في تلك اللحظة ينظر للعالم بعيون " غردون " : تعاطف معه القراء في السخط على الدبلوماسيين ، واحتقار الحكومة ، وأيدوه لإنفاذ الصبر عندما تحبط محاولات ضابط الاستخبارات " كتشنر " في توصيل رسائله ، وعاش القارئ معه وهو يصف عساكر الاحتياطي من الشايكية المتعبين، أو استغرابه من تصرف الخدم السود عندما يشاهدون وجوههم لأول مرة على المرايا ، أو هو يراقب الديك الرومي وحريمه، بين زوجاته الأربع ويرتجف مثله لمصير المركب الصغير "الحسينية" ومؤخرتها والصاري غارقين في المياه الضحلة ، مركب صغير تحت وابل من القذائف .

ظل يوما بعد يوم يراقب من السطح بمنظاره المعظم النهر تجاه شلالات السبلوقه ، يتوق لأي أثر للبواخر القادمة بحملة الإنقاذ، وعندما شارفت المذكرات على النهاية فإنه من الصعب على أي رجل بريطاني المولد أن يقرأ السطور الأخيرة : أرجو أن تسجلوا "إذا لم تصل حملة الإنقاذ ، وأنا لم اطلب أكثر من ٢٠٠ رجل ، في ظرف عشرة أيام فإن المدينة سوف تسقط ، لقد عملت كل ما في وسعي لشرف بلادي ، مع السلامة". وبدون إثارة، وفي اعتذارات جوفاء أو قرارات بلا قيمة انتهت المذكرات، وساد الصمت وعم الكون السكون .

أرسل الجزء السادس من الجورنال " في ١٤ ديسمبر، وكان هذا آخر جزء ، عندها شعر القراء بحزن وأسف لفقد رفيق طيب وشعروا أيضا بغضب دفين، فالأشياء التي كان يغذيها الخيال أزاحتها جانبا قوة الحقيقة ، من تلك اللحظة لم تسجل اللحظات المأسوية في نهاية "غردون" .

أريد هنا أن اختار أحد أجزاء " الجورنال " لكي تعطي صورة عن شخصية غردون الغريبة العبوسة وتصرفه حيال سلاطين . المعروف أن سلاطين كان ضابطا نمساويا في خدمة الجيش المصري برتبة " بيه " وكان حاكما لدارفور استطاع أن يدافع عن المديرية، واشترك في معارك كثيرة ضد قوات المهديّة ، جرح عدة مرات ونجح

مرات، ولكن في النهاية قل حماس المقاتلين الذين معه وشعر بعضهم بأن عدم نجاحهم النهائي يرجع الى كون قائدهم شخص كافر. في الكتاب الذي ألفه بنفسه " السيف والنار " شرح كفاحه أثناء المحن التي مرت به، بأن الكتاب يدل على أن سلاطين شخصية ذات مشاعر وشرف، وقد تعاضم شعور بأنه كافر وسط مقاتليه عندما أعلن إسلامه واعتنق الدين الإسلامي فهل رجاله لهذه الخطوة التي إن أطالت مقاومتهم بعض الشيء إلا أنها لم تنجح، واضطر أخيراً للتسليم لقوات المهدي. خاصة بعد هزيمة هيكس. كانت خطوته في الدخول في الإسلام لنيل الانتصار قد حققت له السلامة، إذ استطاع أن ينال إعجاب واحترام العرب، وظهر هذا في معاملتهم الكريمة في بداية اتصاله بهم. لقد وصل سلاطين مع باقي الأوربيين لمعسكر المهدي خارج الخرطوم، وكان طليقا، لكنه مراقب بلا شك. لقد انتهز أول فرصة وكتب خطابات لغردون طالبا السماح له بالهروب واللجوء اليه مبينا عذره في ارتداده عن الدين المسيحي: كل الذي يقرأ تلك الخطابات لابد أن يتعاطف مع هذا الشخص الذي أمضى ١٢ عاما شاهد خلالها كل الأهوال، لكنها لم تحرك ساكنا عند غردون . تفسيره انه يخاف إذ يتبع هروب سلاطين انتقام المهدي بقتل كل الأوربيين في صحبته، وأثبتت الأيام خطأ هذا الرأي. لم يقتل أحد عندما هرب سلاطين فيما بعد والأمر المعقول إذا نجح سلاطين في الهرب فاللوم على ساجنيه، وإذا قتل المهدي الأوربيين فإن الذنب ذنبه . لم يكن غردون مرنا. إذ كانت نظرتة لسلاطين نظرة ازدراء حتى قبل أن يتسلم رسائله. كتب غردون معلقا : يجد المرء تسلية في تصور هذا المزيج العجيب من البشر الذي يرافق المهدي. أوربيون قساوسة وراهبات، إغريق وضباط نمساويون! عساكر وكبائن. كان حذرا من الظروف التي أدت الى تسليمه للمهدي. يقول سلاطين كان عند الإغريق ٤٠٠٠ إردب ذرة وألف وخمسمائة رأس بقر وكمية كبيرة من الذخيرة، وقد أعطي هو ثمانية خيول. أنه سوف لن يأمن لمثل هذا الرجل، وكتب يقول كل المعلومات التي أرسلها يجب التعامل معها بحذر . اللحظة الحاسمة جاءت عندما طلب من سلاطين أن يكتب لغردون ليعلن استسلامه ، غير سلاطين الطلب ليؤيد هروبه. في ١٦ أكتوبر

وصلت اللحظة التي لارجعه فيها، وصلت خطابات سلاطين. فقال غردون إنه لن يعلق عليها ولا يدري لماذا كتب سلاطين ! إنه لأمر يؤسف له ، كأنه أسف رجل على فأر . وقال إنه لن يكون له أي صلة بسلاطين. يجب أن نذكر أن موقف سلاطين لم يكن موقف ضابط تحت التحفظ، ولكن سجين حرب ما زالت مستمرة، وكل الأعراف تعطيه الحق والتفكير في الهروب لتحرير نفسه . بالطبع لم تتح أي فرصة لسلاطين لشرح موقفه. بعد أن اكتشفت خطاباته اعتقل وكبل بالسلاسل، وكان كل طعامه من الحبوب الجافة تماما كالحيوانات. وصلت كل هذه الأخبار لغردون، فكتب: " سلاطين ما زال تحت الأغلال " ولم يشك لحظة في صحة القرار الذي اتخذته حياله. قليلون هم الذين سوف يحكمون بأن وجهات النظر كانت متوازنة ، غردون لم يتردد وكان حازما رغم أنه محتاج لسلاطين . كانت حاجته ماسة لنائب كفاء يثق فيه، رجال مثل "جسي" أو "مينادقليا" يمكن أن ينوبوا عنه في تكليف الجنود وإعطاء الأوامر ، لقد ظل يردد نفس الأمر أكثر من مرة حتى (زهج) من حياته .

هذا الرجل كان يريد خدمات الزبير لكنه انحنى للعاصفة، ولو أن الزبير لم يرفض نداء سيده . تفاصيل الدفاع عن مدينة الخرطوم لم تكن ضمن مذكرات " الجورنال " وليست لدي رغبة في تصنيفها حسب التسلسل الزمني . بعد ١٠ سبتمبر عندما أرسل غردون كل من " استيوارت " و " باور " و " هيربن " على ظهر الباخرة "عباس" التي لاقت مصيرا مشئوما ظل وحده تماما متحملا المسؤولية كاملة بلا رفيق في مكانته، ولا مساعد ثقة يمكنه أن يعتمد عليه وكانت النتيجة الحتمية هي الفوضى الكاملة ، التهاون والأوامر بين الضباط والجنود . تراخي نقاط الحراسة، سرقة المؤن، الجواسيس يعملون المدينة، انتشرت السرقات وانحدرت الروح المعنوية للأهالي، ولم تعد المدينة في موقف يمكنها من الدفاع عن نفسها. ظل هو وحيدا يراقب معارك البواخر الصغيرة وهي تناوش قوات الدراويش، واضطر أن يترك أمر القتال الى ضباط مستهترين غير أكفاء . ويأتي الظلام في حرمة من مشاهدة أو مراقبة ما يجري، وبالطبع لا أحد يشرح له ما يجري من أحداث . كان " الجورنال " هو مخزن أسرار ومصدر ثقته الوحيد،



وكان يظهر عمق ومرارة معاناته بنفس القدر الذي يظهر عظمة شخصيته . كتب يقول " ليس هناك عدوي تعادل عدوي الخوف " أصبحت قلقا وفقدت شهيتي للطعام بسبب القلق والانعاج ، وكان من يشاركوني المائدة يحسون بنفس الشعور والإحساس وأضيفت المعاناة العسكرية، كل أنواع الهموم التي تؤثر على روح أي إنسان. كان النساء يتصارعن على لقمة العيش ، كالسكان كل اللوم عليه. خلافه مع الحكومة البريطانية أثر على نفسيته وزعزع إيمانه بقدراته هل ياترى أخطأ التصرف ؟ هل كان عادلا ؟ ظلت هذه الأفكار تنخر في شعوره وروحه. البؤس الذي أصاب الأهالي كان يؤثر على قلبه الطيب ، الوحدة القاتلة سببت له الإحباط الكثير ، وظلال الشك وعدم اليقين تملأ أركان المكان . كان لآخر لحظة يملؤه الأمل الخادع بأن كل شيء سيكون على ما يرام وأن الصبح سيأتي بالقوات الإنجليزية وملابسها المميزة تحملها البواخر ، لقد حرم الرجل حتى من الحذر الملازم لليأس .

أمران مكنا غردون من الصمود ، شرفه كرجل ، وإيمانه كمسيحي ، الأول جعله إنسانا واضحا ينفذ ما يؤمن به بدون تردد وبلا أي أسف أما الأمر الثاني فإنه كان سر قوته الحقيقي . لقد كان مؤمنا بأنه رغم كل الصعاب التي يواجهها في هذا العالم، فإن هنالك عالما فاضلا في انتظاره .

قال مرة مازحا لأحد أصدقائه " انظر الى ، معي حفنة جنود لأقودهم وليس لدي مدن أحكمها ، يوما ما سيطلق الموت سراح حريتي، وأذهب حيث هنالك جنود حاشدة ومدن كبيرة، كلها تحت إمري " ، هكذا كان أمله الناصع في خلوده. وفي وسط شدة المعارك يشتد التحلي بالنظام والروح القتالية والمقدرة في فنون القتال، ويزيد نتلج القتال الانصياع للأوامر وتحمل المصاعب طالما كانت المعارك قصيرة . لكن عندما تدهورت الأحوال تنعدم المؤن، وتفشل كل الترتيبات يضطر الرجال لقبول ما هو متاح. لأن الرفض يعني العدم . تبقى الحقيقة المرة هي أن الخوف هو أساس الطاعة . كانت المدينة وكل ما بها يتماسك من قوة الخوف، وكتب يقول "من الحزن والمؤلم أن

تري الرجال يرتعشون وهم في مواجهة " ومع كل استعمل كل الطرق ليكون القدوة لكل مجهوداتهم .

عندما دنا الشتاء بدأت المعاناة من الحصار وتناقصت الآمال في الوعود بأن النجدة قادمة، وكان أمر التحكم في الظروف والتمسك بالروح العالية يفوق طاقة أحسن الرجال إلا أن " غردون " كان لها .

لم تشع روحه العالية كما توهجت في أحلك الأيام ظلمة وصعوبة، وعندما انعدمت النقود، كان يصنع الأوراق ويمضي عليها بنفسه ويعطيها للجنود، أمر فرقة الموسيقى أن تداوم على العزف وأن تطلق الصواريخ لطمأنة الناس ، عندما سرت إشاعات بأن القائد أصبح وحيدا بعد أن قاطعته حكومته، وليس هنالك أي نجدة قادمة، سارع الى الأمر بأن تملأ جدران المدينة بأخبار الجيش الجرار وقوة انتصاراته في طريقه للخرطوم ، وطلب أن توجر المنازل الضخمة على ضفاف النيل لسكن كبار قادة الجيش الإنجليزي القادمين !! استطاع بهذه المجهودات والمناورات أن تتماسك المدينة، وأطال الدفاع عنها طيلة صيف وخريف وشتاء عام ١٨٨٤ وحتى عام ١٨٨٥ .

خلال كل هذا الوقت كان القلق يتزايد ، إذا كانوا يتخلون عن غردون فافهم لن ينسوه، كانت أخبار حملته تتابع باهتمام في كل أنحاء البلاد، وكان فشلها يسبب ضيقا شديداً، وحلت محل خيبة الأمل نذر الخطر .

لقد أثار لأول مرة عضو مجلس العموم اللورد راندولوف تشرشل في يوم ١٦ مارس قضية سلامة المبعوث العام، وانتهز الفرصة وهاجم الحكومة على المذابح في شرق السودان وفشلهم في فتح طريق سواكن وبربر، وواصل تحذيره من خطورة موقف الجنرال غردون في الخرطوم .

أكد أيضا الكولونيل كوتكوجن بأن الخرطوم يمكن أن تسقط في أي لحظة، وأن الجنرال غردون محاط بقبائل عدائية من كل جانب، والاتصال مقطوع بينه وبين القاهرة ولندن . وسأل ما هي الخطوات التي اتخذتها حكومة صاحبة الجلالة لنجدة وإخراجه

حيا.؟ وتساءل هل ستبقى الحكومة على عدم اهتمامها بالرجل الذي، أرسلته لتد - سوية المشاكل التي تخصها وتتركه وحيدا يجاهد بمفرده دون خطوة واحدة لمساعدته .

استمرت الحكومة في سلبيتها، أعطي اللورد "في تدمورس" بعض الوردود مع مهمة وهتاف بعض النواب، ولكن طالما فتح الموضوع فسوف يستمر النقاش . - هـ ، الفضل لحماس الرجل الشاب ، فقد ازدادت المعارضة للحكومة . وردود مس - نر "قلادستون" كانت كلها قهرب، وانماالت الصحف المحافظة، وكبرت حملة المعارضة حتى من بعض نواب الحكومة ! استمر النقاش طويلا، وفي النهاية ألح اللورد "هارتينجتون" بأن هنالك حملة سترسل في الخريف .

كشف مستر "فoster" معارضته الرئيسية، وامتد النقاش خارج مباني البرلمان وأصبح الضجيج عاليا.

إن الطريقة التي عالج بها مستر "قلادستون" الأمر لم تكن إطلاقا من منطلق عدم الاهتمام، ولكنه كرجل وطني يدين للجماهير بالمكانة العظيمة التي وصل اليها كانت له وجهة نظر. إن إرسال جنود لمحاربة القبائل البدائية بالمقارنة مع إمكانيات الإمبراطورية ليس بالأمر الصعب أو مسئولية لا يستطيع تحملها رجل في مثل وزنه. لكنه شعر بأن الأمر لا يستدعي إقحام جيش الإمبراطورية في أمور تجري في قلب السودان لمجرد إنقاذ شخص وطني واحد . كان يرى أن ما على غردون لو رغب في ذلك التحرك بللبواخر لخارج السودان ، كذلك كانت مشاعر الرفض ضده وهو الضابط الذي جر كل هذه المشاكل على الحكومة، ولكن بالرغم من كل قوته و نفوذه ففي النهاية اضطر للرضوخ للضغوط الكثيرة. كأن اللورد "هارتينجتون" "سكرتير وزارة الحربية آنذاك الدينمو المحرك وراء قرار سرعة التصرف بما يمليه الشرف على المجلس ومطالبة.. الشعب، وقد أيدته كذلك القائد العام ووزير الدفاع . كانت موافقة مستر "قلادستون" مشروطة بلأن تتكون الحملة من فرقة واحدة ، ابتدأت الحكومة في التحرك، وأعلن على الأمة شـبه التحرك في هذا الاتجاه . إلا أن القائد العام أصر على أن تتكون الحملة من عشرة آلاف رجل يتم تكوينها من كل وحدات الجيش ، كان من المستحيل تغيير الخطة في هذه

المرحلة، وبدأت حملة إنقاذ " غردون " واختير القائد "سيراتش كتشنز" الذي كان على علم بالمهام التي تواجهه. لم يكن يجري خلف اندفاع مثير يمكن أن يحقق انتصارا مثيرا أو يأتي بمأساة فظيعة ، كان التخطيط المتأني هو طريقه للمعركة وخطط ودبر كل شئ لكل الاحتمالات، متى يكون التقدم بطريقة مدروسة ومعلومة .

بدأت القوات والمهام تتجمع عند وادي حلقا . تكونت فرقة الهجانة الجديدة ، تكونت من أربع كتائب بدأت الترتيبات اللازمة، ولكي تعبر البواخر فوق الشلالات أحضرت فرقة بحرية من كندا ، تمت كل الترتيبات وبدأت العملية . كانت الخطة بسيطة. أن تعبر فرق المشاة بالبواخر على النيل ، وإذا تأخرت تكون هنالك فرقة الهجانة الجديدة في طريقها عبر الصحراء ، صحراء البيوضة من كورتي الى المتمة. عند وصولها هناك ترسل قوة مع باخرة " غردون " للخرطوم لتقوية الدفاعات حتى وصول القوة الرئيسية في مارس أو أبريل عام ١٨٨٥ حتى يتم فك الحصار تدريجيا .

كانت شخصية العملية الدرامية تملأ خيال الأمة وتابع الناس أخبار التقدم عن طريق النهر باهتمام شديد وانبهار بكل التفاصيل :

كان وصف مصير فرقة النهر من نصيب الشخص الذي اشترك بدور فعال في هذه المحاولة . حملة الشلالات كانت عملا شاقا تتابع يوما بعد يوم ، صفوف الجنود معهم يجرون الحبال أو يدفعون المقاديف للمراكب ذات الأجواف العريضة ، حتى إذا ما جاء الليل عسكروا على ضفاف النيل وعلى رمال " صحراء المناصير " الموحشة ، كان ما يشجعهم أن ثمرة كفاحهم سوف تؤتي أكلها بمجرد وصولهم الى منحنى النهر عند " أبو حمد " حيث ستحملهم من هناك الرياح الشمالية بسرعة للخرطوم بسرعة هاضعاف سرعتهم السابقة .

بدأت فرقة الصحراء رحلتها من كورتي يوم ٣٠ ديسمبر وكانت قوتهم لا تزيد على ١١٠٠ ضابط ورجال، ولكنهم كانوا خيرة المقاتلين في الجيش ، أنزلوا وسائل الاتصال وأخذوا طريق القوافل الى المتمة . المعلومات التي تحصلنا عليها عن مصادر القوة عند رجال المهدي ، تجعلنا نتفهم حجم الخسائر التي منوها بالرغم من أنهم غير

مدربين ولا يملكون أي سلاح حديث، إلا أن أعدادهم كثيرة، قلوبهم لا تعرف الخوف. كانت أسلحة القوة الإنجليزية أيضا ليست في قوة الأسلحة التي استعملت في العمليات النهائية، كانوا مسلحين ببنادق "تي مدفورد" بدلا من "مارتيني هنري" يحملون "قاردنر" بدلا من "الماكسيم" المبيت تلك البنادق التي هي نفسها التي فشلت في "تامي" ومرة أخرى في "أبو كليا" بالرغم من هذا سارعت فرقة الهجانة بالالتحام بعدو يستحق أسلحة متطورة أكثر من هذه وجيش أقوى ١٢ مرة.

وصلت القوة يوم ٣ يناير آبار جقدول بعد ١٠٠ ميل من بدء الرحلة، تأخر سفرهم لانتظارهم فرقة أخرى تحمل المؤن الى "جقدول" وقضوا ذلك الوقت في بناء طابية ومخازن للمؤن حتى وصلت باقي القوة، وأصبح العدد يفوق ١٨٠٠ محارب، لم يتحركوا حتى يوم ١٣ يناير، عدد الجمال لم يكن كافيا وأكلها كان من نوع سيئ بالنسبة للعمل الشاق الذي تقوم به. وعندما وصلت القوة يوم ١٦ يناير الى منطقة "آبار أبو كيلى"، اصطدم الجيش بقوات من العدو. وصلت أنباء القوات القادمة الى المهدي بأنها لا تتعدى ٢٠٠٠ رجل من أعداء الله الكفار، هل جنوا؟ لم يسمعوا بهزيمة هيكس وجيشه العظيم، كما ذكر سلاطين سحبت قوات من قوات الحصار حول الخرطوم وأرسلت تحت إمرة أكثر من أمير حتى بلغت القوة حوالى ١٠ آلاف محارب بعد أن انضمت اليها قوات من قبائل الجعليين.

وقفت فرقة الهجانة عند "آبار أبو كيلى" وسمحت قوات المهدي للفرقة الصغيرة بأن تتقدم بحيث لا يمكنها التراجع. هنا بنت الفرقة طابية صغيرة ومخازن للمؤن ولإيواء الجرحى، بدأت القوة الهجوم في الصباح بعد أن هيات نفسها تماما للقتال.

بدأت أشرس معركة تشترك فيها قوات بريطانية اقتحمت القوات العربية معسكر القوة وألحقوا بها إصابات عديدة. قتلوا ٩ ضباط و ٦٥ جنديا، وجرحوا ٩ ضباط و ٦٥ جنديا أى حوالى ١٠% من القوة العسكرية القادمة. تم إجلاؤهم من المعسكر بعد مذبحه رهيبه، وعسكر الهجانة عند الآبار. في صباح يوم ١٨ ارتاحت القوات، دفنت موتاهها وراعت الجرحى في الطابية التي بنيت لهذا الغرض، وعند الظهر استأنفت



المسيرة، وطوال الليل حتى قطعوا ٢١ ميلا وأصبحوا على مشارف النهر حوالي يوم ١٩ .  
تجمع جيش الأعداء واستطاع بعد ضرب مركز أن يلحق بعض الخسائر ، قتل سير " هيربرت استيوارت " من جراء جراحة، وحل محله سير " شارلس وليستون " . كان الموقف متأزما فقد أصبحوا على بعد حوالي ٤ كيلوا بترات من النهر، ولكن بينهم وبين النهر قوات الدراويش الغاضبين على خسائريهم. لكنهم يعلمون الحالة الصعبة التي بقي عليها عدوهم العجيب انقسمت القوة الغازية الى قسمين قسم بقي مع المؤن والجرحى، وحوالي ٩٠٠ مقاتل زحفوا نحو النهر ، هنا انتهز الدراويش الفرصة وهجموا من كل صوب ، هلموا يا أبناء الصحراء . انتم كثرة وهم قلة. إن النصر حليفكم وفجأة وقف إطلاق النار. انتهت الذخيرة لديهم. هنا انبري الجندي الإنجليزي المدرب لإصابة الهدف في مقتل وتساقط الأبطال بجيادهم، ورجع البقية راجلين يمشون لأنهم لا يمكن أن يهربوا. المقاتل لا يجري ، عادوا الى المدينة .

جمع سير " شارلس وليستون " رجاله وبقي ٣ أيام في المتمة قبل أن يتوجه الى الخرطوم. لقد كشف الأسباب المقنعة لنقاده عن أهمية الوقوف. إذ لا ينتظر من قوة حاربت بهذه البسالة أن تسمح بضياح لحظة واحدة . في اليوم الرابع أخذ سير "ولستون" الباخرتين التابعتين لغردون اللتين كانتا في انتظار القوة، وأخذ ٢٠ جنديا بريطانيا وقليلًا من ذوي الياقات الزرقاء، "البحارة" وأبحر نحو شلال السبلوقة. لقد كسلنا ماجرى لهم أقرب الى الحكاوي الرومانسية أكثر من المعركة، كانت المراكب تندفع على مجري النهر مع تيار الشلال القوي بين طلقات بنادق الدراويش من كل جانب وأصابت غلاية الباخرة بقذيفة، وتم إصلاحها في نفس اليوم ، منظر سير "ستيوارت وورتيكي" وهو يجدف عائدا الى المتمة لطلب النجدة ، الرصاص ينهمر على الباخرتين من كل جوانب شاطئ النيل ، فجأة اتجهت أنظار الرجال الشجعان نحو القصر فلم يروا العلم، و عندها أحسوا أنهم قد جاعوا بعد قوات الأوان .

وصلت أخبار الخسائر في " أبوكلي " و " أبو كروا " الى المهدي، وكان الموقف خطيرا ولا يحتمل أي فشل آخر إن نجاح الثورة كله مبني على الانتصار، وقرر التحرك السريع، في يوم ٢٥ يناير ، وجاء اليوم المنتظر .

عند المساء عزفت الموسيقى كالمعتاد ورويدا عم الظلام.. وخلد سكان المدينة الجوعى الى النوم . شعر القائد الذي لا يقهر بأن الأزمة على الأبواب، ولكنه عاجز عن تفاديها، وكان راضياً عن نفسه لأنه عمل ما عليه ربما خلد للنوم أيضا . في هدوء الليل تسلل العدو الوحشي الى داخل المدينة. كان هنالك شك في أن الجنود المتعبين الجوعى المنهكين من الحرب قد أعدوا الحراسة اللازمة ، انتهز العدو انحسار جزء من النيل الأبيض الذي ترك فراغا بين النيل والحائط، ومع سماع دوي هائل نتيجة لانفجار البارود والصباح دخل آلاف الدراويش الخرطوم من خلال الأجزاء غير المؤمنة .

ذهب جزء من القوة الى القصر، وظهر غردون لملاقاتهم. امتلأ الجو بالرعب ولمعان الرماح، بادرهم بالسؤال. أين قائدكم المهدي ؟ لقد ظن أن بإمكانه إنقاذ بعض السكان ، كان يعرف مدي نفوذه بين الأهالي المحليين ، جاءت لحظة شعر بأنه لا يواجه نبيا مزعوما لكن أيضا أوربيين تنكروا لدينهم عندما خيروا بين الموت أو القرآن وكان محاصرا بدائرة التعصب الوحشي ، مع شجاعة تدفعها قوة العقيدة واستهتار شديد بالموت طلبا للشهادة .

لم يتمكن من عمل شي مع جنون الفرحة بالانتصار والاندفاع الديني ، هجموا عليه ولم يحاول حتى استعمال مسدسة، واهالوا عليه طبعنا في أجزاء مختلفة في جسمه ، وقع على درجات السلم، هنالك أجهزوا عليه فقطعوا الرأس وحملوها للمهدي ، وأعملوا في باقي الجثة حتي لم يتبق منه شيء إلا أكوام لحم وخرق ممزقة مليئة بالدم ، هذا الشخص العظيم الشهير ومندوب مملكة بريطانيا . ظلت بقع الدم الأسود في نفوس المكان كما قال "سلاطين" ! كان العرب يزورون المكان مرارا، وذكر "أوهرولدر" أنه شاهد بقع الدم السوداء على السلام بعد ٦ أسابيع من سقوط المدينة ، ولكنها اختفت بعد ذلك .

هكذا وباختصار كانت قصة الخرطوم ومقتل "غردون". وكان وصول الباخرتين بعد يومين من سقوط المدينة قد جعل البعض يتساءل لولا التوقف في المتمة لثلاثة أيام لكان بالإمكان تفادي الكارثة. هذه المقولة غير صحيحة. كانت الخرطوم تحت رحمة العرب منذ وقت طويل، كأن أملهم في نجاح الحصار حتى يدخلوها بدون قتال، ولا يكرروا تجربة الأبيض المريرة، غردون نفسه كتب في الجورنال. "إن المدينة لا يمكن الدفاع عنها منذ منتصف ديسمبر". إن وصول ٢٠ جنديا بريطانيا ما كان ليغير من الأمر شيئا بل بالعكس كان سوف يزيد في حجم الخسارة.

ولكن كان الشعور السائد عند الجميع وكل من يقرأ الحكاية، يأمل لو أن أي نجدة وصلت للرجل الوحيد قبل حلول الظلام، لو صافحته يد إنجليزية حتى يشعر أن أبناء جنسه لم يتخلوا عنه لم ينسوه ولن ينسوه.

من الاستحالة أن نعرف المكانة التي يتبوؤها "شارلس غردون" في التاريخ الإنجليزي ولكنها حتما مكانة سامية. هل سيوضع في مكانة القائد تماما كبيتر بروه، وولف، وكلايف، سيقدر في ذلك الذين سوف يأتون من بعدنا.

يمكننا أن نقرر على كل حال أنه رجل مثال للشرف والشجاعة المتناهية ولقد دلت شخصيته على عبقرية خلقة. لم يكن يعنيه التشريف والمباهج الدنيوية، كان على يقين بأنه سيجد المكافأة في دنيا مستقبلية. كان تشدده الديني لا يقف في طريق شخصيته الودودة. كان قلب المزاج عنده سببا في عدم رجاحة بعض أفكاره، ولكنها لم تؤثر على صدق نواياه. إن التمثال الذي وضع لغردون مع الضباط العظام الذين خدموا في البحر أو الأرض أصبح مزارا لافتا للنظر لكل المارة. لأن قصته يعرفها الجميع حتى سكان الأحياء الفقيرة في لندن ومن كل أنحاء المملكة المتحدة. يقف التمثال في هدوء بالرغم من ضجة حركة المرور، محني الرأس في تفكير عميق، حول مشاكل السودان المظلم، غير عابئ بضجيج الرجال وسائلا.. ما هو المقبول عند الرب؟ ١١.

بعد الاستيلاء على المدينة وموت المبعوث اختفت أسباب الحملة، ولم يبق إلا انسحاب القوات. المؤن التي جئ بها عبر الصحراء مع كل التكاليف، تم التخلص منها

بسرعة برميها في النيل. البواخر المصابة والتي انتظرت طويلا في المتمة تم تفكيكها ،  
فرقة الهجانة بعد أن ماتت كل الجمال التي أتت بهم رجعوا راجلين الى كورتى ، كان  
يجب الإسراع في الانسحاب نسبة لقوة العدو المنتصر. قوات النهر التي استطاعت أن  
تعبّر آخر حاجز للبواخر اضطرت أن ترجع مع التيار الذي كافحت ضده كل تلك  
المدة - سارعت بالعودة بكل قوة الحملة. وحدات الهايلنדרز ، البحارة ، الهسار ، والجنود  
الهنود ، البغال ، الهجانة ، والمدفعية كلها تراجعت زحفا على رمال الصحراء ، تاركة  
وراءها المد الهجى الذي غطي كل أنحاء البلاد . استطاع ضابط مصري شجاع  
الصمود لبضعة أشهر في حامية كسلا. لكن المجاعة والحصار أجبراهم على التسليم و  
ناولهم نفس مصير الحاميات في الأبيض ودارفور. وسوبات وطوكر وسنكات وسنار  
والخرطوم، وهكذا تم الجلاء عن السودان .





## الفصل الثالث

### إمبراطورية الدراويش

ربما تبادر للأذهان الميزات الكثيرة والعظيمة التي نالها شعب السودان ليتحول من تجمعات قبلية متناحرة الى مجتمع متحد حرر نفسه ويعيش كأسرة موحدة قوية تربطها قوانين محدودة ، ويحكمها نظام واحد للحكم . لكن كان هناك بعض أشكال الحكم المركزي السيئ البعيد عن أي إصلاح، حكم رجعي ، ومكلف وظالم ، وهو الحكم العسكري . هذه الثنائية تعتمد لا على حسن الثقة وحسن النوايا، ولكن تعتمد على المحافظة على النظام والطاعة العمياء للأوامر، الخوف المشترك، وليست الثقة المشتركة هي التي تحكم علاقات الأعضاء وتطور التعاون . أثبتت سجلات التاريخ وجود كثير من مثل تلك النظم ، سواء في العهود السابقة أو العهود الحديثة ، المتحضرة أو الهمجية . بالرغم من التفاوت حسب التعليم والثقافة، إلا أنها جميعها لا تستطيع تغيير شخصيتها النمطية، المتمثلة في تجاهل القانون وجعله وسيلة، عدم الاهتمام بمعاناة الناس، تدهور الفضائل الأساسية والمخطاط المثل وجهل تام بأمور الاقتصاد . إن الصفات الشريرة لأي إرث عسكري هي واحدة في كل الأزمان، ونتائج الحكم العسكري هي دائما سيئة عالميا .

إن الدرجات تتفاوت من مكان لآخر حسب الزمان والمكان، ولكن تبقى الحقيقة دائما ، إن السلطة العسكرية غالبا ما تفرز التمرکز في عاصمة كبيرة فيها كل شيء، مع إهمال تام لبقية الاقاليم ، يصحبه تدهور كامل لأحوال الناس المسالين نتيجة للضغط والحاجة ، خراب التجارة ، وتدهور التعليم وتدنى الروح المعنوية . حتي للضبط والربط في الجيش نتيجة للنفخة الكذابة واستمراء الزهو والإعجاب بالنفس .

ربما لم تسجل كتب التاريخ حكومة عسكرية أسوأ من إمبراطورية الدراويش . بعض الحكومات الأخرى كانت تتحلي ببعض الفضائل التي تعوض عن بعض النواقص، الشعور بالشرف الشخصي يغوض الانخفاض في العدل القومي، النزعة الوطنية،

تسامح الإخفاقات الاقتصادية يغطي على بؤس الناس ، المظهر العسكري المهول، التلذذ في المثل العليا يعوضه في بعض الأحيان حسن الخلق . كانت فضيلة إمبراطورية الدراويش هي الشجاعة، وهي صفة تنال الإعجاب وإن لم تكن نادرة ، جاءت الثورة بالحرب ، عاشت بالحرب وانتهت بالحرب.

ما بدأ يوم الاستيلاء على الخرطوم، حتى انتهى فجأة بعد ١٣ عاما في معركة أم درمان. تماما كبركان فرعي ثار بعد انفجار كبير، استمر يهدر أثناء الاضطرابات ثم خمد نتيجة لصدمة عنيفة .

بعد أن غادر الجيش البريطاني الخرطوم، أصبح المهدي هو حاكم السودان المطلق ، كل طلباته بحابة، وكعادة القادة في عهد الإسلام، كان له ما أراد من حريم، وكل ما يطلبه من غنائم الحرب الشيء الذي ربما نظرت اليه بعض العقول في الغرب كتجسولات صارخة، عم الخير على أتباعه أيضا، وحلت الجبة الزاهية محل جبة المحارب، وحتى المدينة نفسها لم تكن صالحة للمعيشة مع كثرة المستنقعات، فاختار المهدي مدينة أم درمان على الضفة الغربية للنيل، وبني لنفسه مسكنا وجامعا ومخازن لأموال الدولة وأسلحتها في منتصف شهر يونيو ولم تمض خمسة أشهر على تلك الانتصارات حتى مرض المهدي ولزم الفراش، ولم يعد قادرا على الظهور في الجامع. وظل الخليفة عبد الله بجواره، وكذلك كبار القادة والأمراء طيلة فترة مرضه، وقد قال البعض إنه قد أصيب بحمى التيفوئيد. ظل في غيبوبة إلا في لحظاته الأخيرة حيث عمالك نفسه، وأعلن للجميع حول سرير المرض أن الخليفة عبد الله هو خليفته، وعليهم طاعته والولاء له بنفس القدر، ثم تشهد وقال اللهم أرحمني واسلم روحه لبارئها.

ملأ الحزن أرجاء المدينة، وبالرغم من تحريم العويل والبكاء، ظل صوت النحيب يسمع في كل بيت. حرمان الناس من قائدهم الروحي وحاكم البلاد قد أثر في قلوب الناس وامتألت نفوسهم بالخوف. تم تكفين جثة المهدي ودفن في قبر عميق في نفس الغرفة التي مات فيها، ولم تلمس إلا بعد الاستيلاء على أم درمان عام ١٨٩٨ عندما أمر سير "كتشنر" بإخراج الجثة .

أعلن المهدي في آخر نفس له خلافة عبد الله له لكن عبد الله أراد أن يثبت أمر الخلافة بطريقة البيعة. جمع الناس في الميدان الفسيح خارج الجامع، وألقى خطبة بليغة ومؤثرة فسارع الجميع لإعلان البيعة له .

استمر هذا الاجتماع الى ما بعد منتصف الليل. أكد "سلاطين" الذي كان حاضرا أنه سمع وتأكد من التفاف الناس حول الخليفة والولاء له بنفس قدر الولاء للمهدي . استلم الخليفة مقاليد الحكم وكان عليه أن يحافظ عليه، وكانت الدعوة التي وجهها المهدي للجهاد ما زالت مشتعلة واستمرت من بعده .

بعد وفاته ظهرت حركات متفرقة لبعض التمرد والقتال. بعد رحيل المصريين حل محلهم حكام وطنيون للمدريات، وكان هناك حكام عسكريون أنيط بهم حفظ النظام وجمع الضرائب. كانت المشاكل التي تواجه الخليفة ذات طابع سياسي، عسكري وديني. كانت حدود السودان مهددة. في الشرق تلوح القوة الحبشية الجبارة، كانت الحرب مستمرة مع مصر في الشمال وحول سواكن مع الإنجليز، مع الأخذ في الاعتبار تهديد الإيطاليين من مصوع، وبقي أمين باشا، مسيطرا على الاستوائية.

انتصر الخليفة في كل معاركه في كل الجبهات تقريبا على كل أعدائه. وشهدت الفترة من عام ١٨٨٥ حتى عام ١٨٩٨م أقوى فترة للسودان، هي نتاج قوة حكمه المتمكن رغم ظروف صعبة للغاية. ظل الخليفة يواجه الأخطار متخطيا الصعاب، وجاهزا لمواجهة كل تحد. من الصعب أن نتصور أن يسجل التاريخ أحداث تلك الفترة بطريقة يمكن أن تكون ذات أهمية، خاصة بالنسبة للأجيال القادمة .

وعلى كل ليس هناك حافز. بل زاد على ذلك صعوبة الأسماء الغريبة وعدم توافر السجلات بالمراجع، الأمر الذي سوف يعجز عنه أي مؤرخ. فكل الحكاوي، هي حكايات حرب ومعارك شرسة دامية، حروب بين قبائل بدائية، نفس الحوار يكاد يكون متكررا لدرجة الملل . التصفية الجسدية سواء كان المجرم حاكما أو قائدا أو مستشاراً تجد رأسه مكانا لها في حفرة كبيرة في أم درمان .

لقد طبق كل اساليب حكام الشرق. لم يترك طريقة إلا ولجأ اليها . كانت سياسته واضحة، هي أن يزيع عن طريقه أي منافس قوي يمكن أن يطمع في الحكم، أو أي قائد طموح أكثر من اللازم يمكن أن يشكل عقبات في طريق تنفيذ السياسة التي وضعها الخليفة. والتي هي كما وصفها سير "الفريد ميلز" هي سياسة مخطط لها بعناية، تعمل على تركيز القوة العسكرية، مع عمل توازن بين قوة القبائل وقبيلته هو شخصيا . أي مغتصب للعرش في الشرق عادة ما ينصب المشائق لأي مدع أو مطالب بكرسي الحكم، ولكن الخليفة استطاع أن يتجنب هذا التصرف. استطاع الخليفة أن يبتز الموافقة على البيعة من اثنين من الخلفاء الآخرين، وأيضا من الأشراف الذين ينتمون الى نسب النبي ﷺ ولكن سرعان ما ارتد هؤلاء وأعلن كل منهم عن استقلاله . استقل كل واحد بأتباعه ونحاسة (النحاس هو رمز للمكانة والقيادة، وهو طبل كبير يقرع في المناسبات المهمة). أعلن الخلفاء المبعدون عن تمردهم ضد الخليفة، وبدأوا في الاستعداد للمواجهة. استطاع الخليفة الداهية أن يستقطب قبائل البقارة، وهي قبائل قريبة لقبيلته، وهم من أشجع الفرسان العرب. إضافة لجيش الأفارقة المهاب، المسلحين بالبنادق .

اجتمع الطرفان خارج المدينة ، بالرغم من كثرة عدد التابعين للخلفاء المتمردين إلا أن القوة كانت في جانب الخليفة . قبل أن يبدأ الصدام استطاع الخليفة "ودخلو" أن يتوسط وينهي الصراع سلميا. استسلم المتمردون وانتهت المشكلة وانتهت معها أي قوة لهم إذ جردهم الخليفة من نحاسهم، أو أي ميزات خاصة ، ترك لكل واحد منهم حوالي ٥٠ حارسا خاصا، بلا علم، أو طبول حرب، فأصبحوا من المؤيدين المهمين للحكومة لم يستطيعوا مقاومتها بالقوة.

ظهر الخليفة أكثر عنفا ضد باقي المتمردين أولئك الذين هم أقل قوة، وأولئك العنيدون منهم . أعمام المهدي، عبد الكريم وعبد القادر. تم سجنهم مقيدون بالسلاسل، صودرت كل أملاكهم وزوجاتهم ، اضطهد كل من ينتمي لفئة الأشراف، أجبروا على العبادة لأكثر من ١٨ شهرا عقابا لهم، كما ذكر أحد المؤرخين المسيحيين. كان أسوأ نصيب هو للأمير أحمد ود سليمان الذي كان مسئولا عن بيت المال. كان لا يحتفظ

بأي سجلات أيام حكم المهدي، واستطاع تكوين ثروة كبيرة. لم يكن يخفي عداؤه للخليفة، وعليه أمره الخليفة بأن يعطي تفاصيل حساباته، وطبعا لم يستطع، عندها أمر الخليفة بمصادرة كل أملاكه، واعتبر سكان أم درمان الشرسين أن عقابه هو تنفيذ العدل. واستطاع الخليفة أن ييسط سلطته من خلال مثل تلك التجاوزات ولكن استمرارية السلطة كانت تعتمد على القوة العسكرية التي طالما سعي إليها وإنه لكي يحكم السودان لابد من جيش قوي. أن تحريك آلة الحرب في أيدي القادة والذي يستطيع التحكم فيهم تماما كالذي يتحكم في مفاتيح الآلة. كانت ثقته طيلة الفترة الماضية في الجيش شيئا هو مجبر عليه، ولكن شعر بأنه يجب أن يتحرر ولا يعتمد على أحد، استطاع بمهارة تنفيذ خطته ومشاريعه .

أرسل إلى رجال قبيلته، قبيلة التعايشة، أحد فروع قبيلة البقارة، ودعاهم للحضور لأم درمان مبشرا لهم بالخيرات، والنفوذ والنساء. وضعت كل التسهيلات في طريقهم، مخازن الغلال على الطريق، البواخر على النيل الأبيض وأخلت منازل كثيرة في أجزاء كاملة من أم درمان لسكنهم. حضر أكثر من ٧ آلاف رجل تمت كسوتهم على حساب بيت المال، واستولوا على كل ما يحتاجونه من مخازن الدولة. لم يكتفوا بهذا وبدأوا في نهب الأهالي مما أثار غضبهم على هذه الفئة المميزة. لقد تحقق هدف الخليفة من خلق فئة مميزة ذات صلة وثيقة به. كانوا مثله، مرفوضون من القبائل المحلية، مثله كانوا غرباء، ومثله كانوا شجعانا أقوياء. كل المخاطر، كل أعدائه، هم أعدائهم، مصالحه هي مصالحهم وحياتهم رهن حياته .

استطاع البقارة وبخاصة قبيلة التعايشة السيطرة على الجهادية السوداء الذين كلنوا القوة الفاعلة أثناء الحكم المصري، أصبحت هي الآن قوات الخليفة الخاصة، وزادت عددا من قوات القبائل الأخرى في عاصمة البلاد، وسيطرت كذلك على باقي القوات في المحافظات الأخرى. تمركزت كل القوة في أم درمان، كل الأسلحة والذخيرة تمركزت في العاصمة. كل السلاح في أيدي الجهادية، بينما بقية الأهالي تركت لهم الحراش والسيوف، وحتى الأفارقة لا تصرف ذخيرة لبنادقهم إلا عند اللزوم .



وهكذا تركزت كل تلك القوة في قبضة رجل واحد .

المبدأ الثالث في سياسة الخليفة هو القضاء على أي فروق كبيرة بين قوة القبائل حتى لا تسيطر واحدة على الأخرى، كذلك الأمراء إذا أظهر أحدهم أي تطلعات ، أبعد على الفور وتمت تصفيته ، بنفس الأسلوب تمت السيطرة على مقاليد الأمور. ورغم تعقيدات فرض ميزان القوى ، تم فرض سيطرة قبيلة التعايشة كقوة حاکمة، واستطاع الخليفة أن يحافظ على الحكم ١٣ عاما. تلك كانت هي مميزات هذا الحاكم القادم من كردفان .

كانت أكبر انتصاراته هي الحرب مع الحبشة. من غير المعقول أو المنطقي أن تتجاوز قوتان همجيتان. عظيمنتان مختلفتان في الدين والعنصر دون ان تحدث مشاكل بينهما أو تحتاج أي مشكلة لسبب وجيه لتطفو على السطح ، كان هذا هو الحال بين الدراويش والأحباش .

في عام ١٨٨٥ ، كان أحد الدراويش، نصف تاجر ونصف قاطع طريق، قد سطا على كنيسة حبشية. راس "عدال" حاكم إقليم الأمهرا، طالب أن يسلم هذا السارق للمقدسات الى العدالة . رفض العرب هذا الطلب بشدة وجاء الرد سريعا. جمع الأحباش جيشا يفوق ٣٠ ألف مقاتل وهاجموا منطقة القلابات متوجهين نحو المدينة. أمام هذا الهول لم يستطع الأمير "ودارباب" جمع أكثر من ٦ آلاف مقاتل، مدفوعا بالانتصارات في السنوات الاربع الماضية، قبل الدراويش الدخول في المعركة، بالرغم من التفاوت الكبير في أعداد الجيشين. كان لا النظام ولا الجرأة يمكن أن تحتل مثل هذا الموقف وهذه الفروق، لذلك انكسر جيش المسلمين نتيجة للهجمة الشرسة، وقوة الهجوم نتيجة للكثرة العددية لأعدائهم، واستشهدت القوات ومعها قائدها الباسل .

لم ينج أحد ، وأرتكب الأحباش كل الأعمال الوحشية المتوقعة عند الانتصار، قتلوا الجرحي ومثلوا بجثث الموتى، أخذوا النساء في الأسر، وتم تدمير وحرق القلابات، وجاءت الأخبار السيئة لأم درمان. حياى كل هذه الضربة غير المتوقعة تصرف الخليفة بترو وحكمة، فبدأ المفاوضات مع الملك "جون" ملك الحبشة على دفع دية فك أسير

النساء والأطفال، وأرسل الأمير يونس على رأس قوة كبيرة للقلابات. الآن تم تأمين كل الامور الضرورية، بدأ الخليفة في التحضير لحرب الانتقام .

بين كل قوة العرب أثناء الخمسة عشر عاما من الحروب المتواصلة في كل انحاء السودان، لم يبرز قائد في قوة وصلابة الرجل الذي اختاره الخليفة لكي يقود جيش الانتقام لدمار جيش القلابات. الرجل الذي حقق نجاحات عظيمة ولم يفقه أحد شرفا، وإن كان هنالك من هو أشهر منه أنه "أبو عنجة" .

كان " أبو عنجة " رقيقا(عبداً) عند عائلة الخليفة عبد الله لفترة طويلة قبل دعوة المهدي في جزيرة آبا وأيام الحكم المصري في السودان، بعد أن انتهى التمرد ، أمره قائده المغامر بالحضور من كردفان البعيدة مستعدا للحرب. جاء "أبو عنجة" مطيعا كعادته دائما، وبكل الولاء. ليس كعبد ولكن كرفيق سلاح، وما أكثر المارك التي خاضها مع سيده عبد الله في بداية الثورة .

كانت معركة الأبيض هي فرصته لظهار براعته في القتال والإقدام. لاحظ الخليفة الذي كان حكما جيدا على الرجال، أن القوات السودانية التي استسلمت، وكانت تستسلم من مدينة لأخرى، يمكنها أن تجمع في قوة ضاربة، وأنها تحتاج لقيادة قوية يمكن أن تصهرها وتجعل منها سلاحا قويا. عرف الخليفة ان "أبا عنجة" هو الرجل الذي يمكنه النجاح بكل الإخلاص والقوة. أخذ أبو عنجة مهمته بكل جدية وحماس، وساعدته نشأته المتواضعة أن يندمج مع جنوده مما سبب لهم راحة كبيرة، وجذور قائدهم مثلهم وهو مثال للشجاعة والإقدام. كان "أبو عنجة" أكثر المحاربين مشاركة في القضاء على جيش "هيكس" كانت فرقته الجهادية (سميت كذلك لأنها تشترك في حرب جهاد مقدس) أكثر الفرق نجاحا وساعدت أسلحتهم المكونة من بنادق الرمي متجسون في قتل كثير من قوة "هيكس" وأوقفت تقدمهم، عندها جاء دور رجال الحراب والسيوف للقضاء على ما تبقي من القوة، وبعدها انتشرت سمعة جيش "أبو عنجة" وعرف بالشجاعة والقوة والقسوة معا. كان أفراد قوة أبو عنجة لا تزيد على ٥ آلاف مقاتل ارتفع مع إضافة مقاتلين في القرى في الطريق الى ١٥ ألف رجل. أيام حصار الخرطوم

اشتهرت قوات حاملي البنادق السود بالنهب والسلب والتحرش. فصدرت لها الأوامر بالانسحاب لكردفان. هناك زادت شهرتها في العنف بعد اشتباكها مع قبائل النوبة البدائيين الذين لم يطلبوا شيئا غير استقلالهم .

في نهاية شهر يونيو زادت قوة "أبو عنجة" عند دخوله لأم درمان من ٢٢ ألفا إلى ٣٠ ألف مقاتل، منهم ١٠ آلاف مسلحون ببنادق الرمي متجرون. استقبله الخليفة بكل الترحاب والشرف، وبعد لقاء خاص لبضع ساعات، سمح للقوات بدخول المدينة. عند الصباح دخلت القوات في موكب مهيب وعسكرت بالقرب من تلال كرري، تلك التلال التي شهدت هزيمة المهدي. لم يكن في مقدور المكان المشؤم التأثير على الخليفة والقوة التي يمتلكها. بمجرد أن أطلقت عدة طلقات مدفعية كتحية ظهر أكثر من ١٠٠ ألف مقاتل بمصاحبة طبول الحرب وعزف "الإمبايات" وراء العلم الأسود المشهور. ثار الناس في حماس اللحظة وتدفقوا حتى كادوا يعصرون قائدهم في الوسط، يلوحون بحراهم وأعلامهم. امتلأت الساحة بالمقاتلين من كل شكل، البقارة، والتعاشية، والأفارقة بجلاليهم الزاهية، والخيالة على خيولهم .

ظهرت على البعد قبة المهدي بلونها البني تعلو فوق المدينة، كأنها تمنحهم بعض الدفع الروحي، كان عبد الله في قمة مجده. إن الحركة التي بدأها رجل الدين من الجزيرة أبا قد بلغت شأنا عظيما. ظهرت سلسلة جبال درغام بمظهرها الخشن في كابة. كأنها تحرس في صمتها أسرار المستقبل. بعد نهاية عطلة عيد الفطر، تحركت قوات أبو عنجة للقلابات بعد أن تم تدعيمها من القوات في أم درمان حتى وضع أن الحرب مع الحبشة قائمة لا محالة .

اعفى القائد الحديد الأمير يونس من مهامه رغما عنه مما دعا لاستيائه ، وأضاف قواته للقوات الزاحفة حتى بلغت القوة ١٥ ألف مقاتل بالبنادق و ٤٥ ألف محارب بالحرايب. لقد خطط الخليفة جيدا لهذه الحرب. كانت قوة الحبشة معروفة للعالم، وكذلك لدى الدراويش. كان المهدي قد حذر من هذه الحرب، نسبة لرؤيا جاء فيها أن ملك الحبشة سوف يربط فرسه في شجرة في الخرطوم ويخوض في بحار من الدماء.

لكن الخليفة لم يكن يهاب الآلهة أو الرجال ، أميره "ودارباب" قد قتل، الدم وحده هو الذي سيسوي الأمر .

كان الأحباش يراقبون التكتلات المعادية بقلق ، "رأس عدال" جمع جيشا أكبر من جيش الدراويش، لكن تسليح الأخير كان متفوقا من ناحية البنادق، زيادة على جرأة المقاتلين السود من سلاح المشاة .

اعتمد الأحباش على سلاح الفرسان القوي، وتركوا العرب يدخلون الى المناطق الجبلية الى أن وصلوا الى منطقة "ممر منتك" و "سهل" دبراش" عندها أحس أبو عنجعة بأنه لو توغل حتي صارت الجبال خلفه فسوف يحاصر ويباد فأسرع بالتقهقر . هنا بدأ الأحباش بالهجوم فعمل فيهم سلاح البنادق التي ردهم، فاعادوا الكرة وردوا مرة أخرى بشجاعة وجرأة وأسلحة متطورة. بعد ان كثرت خسائرهم تردد الأحباش ، هنا بدأ العرب بالهجوم المضاد وطردهم "رأس عدال" من ارض المعركة. غرق كثير من رجاله في النهر الذي اختار بدون حذر أن يحارب أمامه، سقط المعسكر، وانتهت المعركة بعد مجزرة كاملة كما يحدث في معارك الجيوش المتوحشة، واستطاع أبو عنجعة أن يواصل زحفة حتي استولي على "راس قندر" عاصمة الحبشة القديمة .

في هذه الأثناء كان الخليفة قلقا على جيشه الذي طال انقطاع أخباره وهو يحارب بين جبال الحبشة لأكثر من ثلاثين يوما، الى أن جاءت البشائر بالنصر وعدد محترم من رؤوس أفراد العدو لتأكيد النصر .

لم يمكث الدراويش وقتا طويلا في الحبشة، وعادوا في ديسمبر الى قواعدهم في القلابات. عاد القائد الباسل الى أم درمان وحياه الخليفة بما يليق بالأبطال، وأيضا بالدموع فرحا لرجوعه سالما الأمر الذي ترك أثرا كبيرا في نفس القائد .

ما زال الصراع الأعظم على الطريق. الحبشة كلها كانت في غليان للأحداث المؤسفة والملك "جون" بنفسه بدأ في الاستعداد لمعركة فاصلة معلنا، "انه سوف يمسخ الدراويش من على سطح الأرض". كان جيشه كبيرا يقال إنه يقارب ١٣٠ ألف مقاتل منهم ٢٠ ألف من سلاح الفرسان. وصلت شائعات عن حجم جيشه الى قلابات

وأمر درمان وسبيت قلقا وحذر عميقين. كان الخليفة قلقا على حكمه بعدما سمع من تصريحات الملك "جون"، وشاءت الظروف أن يموت رجل المهمات الصعبة القائد الباسل "أبو عنجة" تحت ظروف غامضة. مات من أثر مادة سامة تناولها لمعالجة الإمساك.

اختار الخليفة "الزاكي طمل" أحد مساعدي أبو عنجة لقيادة الجيش إلى القلايل واستطاع الزاكي أن يجمع حوالي ٨٥ ألف مقاتل، وانتهى من عمل دفاعاته عن المدينة بما فيها زريبة كبيرة حول المدينة، وانتظر الهجوم.

في صبيحة يوم ٩ مارس عام ١٨٨٩ ظهر جيش الأحباش على مقربة من أعدائهم، وفي اليوم التالي بدأوا الهجوم. بالرغم من قوة نيران المدافع استمرت القوة المضاربة للأحباش في التقدم مركزه على جزء واحد من دفاعات الدراويش، الغبار الكثيف من حوافر الخيل قد حجب الرؤيا تماما. استطاع الأحباش إشعال النار في الزريبة ونجحوا في اختراق وحدة الجيش التي كانت تحت إمرة ودعلي التي تمت إبادتها بالكامل. ثم دخل الأحباش داخل الزريبة حيث كان الأطفال والنساء فأعملوا فيهم طعنا وقتلا بلا رحمة. وانتشر الجيش الغازي في كل مكان بحثا عن الغنيمة، حتى إنهم وصلوا إلى قبر "أبو عنجة" الذي كانوا مصرين على الانتقام منه لهزيمة "قندر". كان الدراويش في حالة ارتباك وأوشكت ذخيرتهم على النفاذ عندها فجأة انتشرت إشاعة قوية بأن الملك يوحنا "جون" قد قتل، وبدأ الأحباش في الانسحاب مكثفون بما غنموا وأخلوا الزريبة بالكامل.

كان العرب في حالة من الإعياء شديدة ولم يبادروا بملاحقة الأحباش. وعندما لم يتكرر هجوم الأحباش في اليوم التالي، عرف الدراويش أنهم المنتصرون وأن جيش العدو قد تراجع نحو نهر عطبرة. هنا قرر "الزاكي طمل" ملاحقتهم خاصة، إنهم حملوا معهم كثيرا من النساء بما فيهم زوجات أبو عنجة. بعد يومين من انتهاء المعركة لحق الجيش بمؤخرة جيش الأحباش واستطاع أن يياغتهم ويشنت جيشهم. كما قتل القائد الذي



حل مكان الملك "جون" وعثر الدراويش على جثمان الملك، فقطعوا رأسه وأرسلوه الى الخليفة في أم درمان كدلالة على الانتصار .

تابع الجيش الحبشي تراجعهم ولم يشأ "الزاكي طمل" ملاحقته داخل الجبال الوعرة. ومنعت المشاكل الداخلية الحاكم الحبشي الجديد "النجاشي" من متابعة القتال، وانتهى بذلك الصراع السوداني الحبشي الى معارك بين الحدود تماما كما بدأ .

كان وصول رأس الملك "جون" الى "أم درمان" قد أسكر الخليفة من شدة الفرح، كانت الحبشة في تقدير السودانين أقوى من مصر، وهاهو مليكهم مقتول وممثل برأسه. لقد كان النصر كبيرا و غاليا مات في المعركتين أكثر من ١٥ ألف مقاتل، وانتهى جيش أبو عنجة العظيم، وبالرغم من قوة الجيش الم رابط في ام درمان لكن الخليفة لن يستطيع بناء جيش يوازي القوات التي أسهمت في كسر الهول الحبشي.

وبينما كانت تدور المعارك مع الحبشة، استمرت المناوشات مع مصر. وكان المهدي معتمدا على تأييد الجماهير المصرية ، وكان دائما ما يذكر أنه ذاهب الى دلتا مصر لتحرير المصريين من الاحتلال التركي، وكان يخطط لذلك عندما داهمته المنية .

بعد وفاته رأى الخليفة أن يتابع الرسالة. لقد ورث الخليفة كل المشاكل، ولكنه لم يرث نفس القوة. لو كان المهدي حيا لأمكنه احتلال العالم الإسلامي كله، لكنه ميت، ما هو إلا قديس، كما أن مشاعر الوطنية الملهبة في مصر قد تراجعت. بالرغم من ذلك صمم الخليفة على الاستمرار، لعله كان مدفوعا بنجاحات جيوشه في الحبشة .

الأمير ود النجومي الذي كان حاكما لمنطقة دنقلا قد كلف بقيادة القوة ولكنه قتل هو واتباعه في معركة توشكي، وتأسف الخليفة لسماع هذه الأخبار. لكن البعض فسر هذا القرار بأنه جاء ليخدم اغرض الخليفة ومشاريعه الخفية لميزان القوى. إذ تكون جيش ود النجومي من بعض قبائل الجعليين والبطاحين الذين كانوا يشكلون عوائق لدي الخليفة وحتى المدد الذي أرسل من أم درمان، تكون من كتائب علم الخليفة شريف الذي بدأ نفوذه يقوي!! لم يكن الخليفة بهذه السذاجة بأن يتوقع أن يهزم مصر، كان يقول لولا القوة الانجليزية والتي حاربتنا لكننا انتصرنا على مصر، وكان هدفه، لو

حصلت المعجزة وانتصر الجيش الصغير فيكون المجد له ولو انهزم، فيكون قد تخلص من أفراد جيش قبائل أهل البحر وبالتالي لن تقوم لهم قائمة. مهما كانت أهداف الخليفة فإن منفعه كانت واضحة، ولكن ان تستمر الإمبراطورية تأكل في نفسها فسوف يقصر هذا في عمرها بلا شك .

لقد تضاعفت القوي التي زادت في إتهاك الدولة، ففي العام الذي تلا الحرب الحبشية ضربت البلاد بجاعة مخيفة، سلاطين، واهور وردد تبادلا وصف الأهوال والفظائع، وبينما اضطر الناس لأكل لحم الحمير النيئة والشوارع مليئة بالجلث، وفي وضوح النهار شوهدت الجلث وهي تطفو على سطح النهر، كانت هذه بعض الأهوال. لقد تسببت الجاعة في خفض تعداد السكان بأكثر ما أحدثته الحروب .

امتدت آثار الجاعة لجميع أنحاء السودان طوال شواطئ النيل حتي وصلت مصر السفلي، كانت آثار الجاعة، حالة يرثي لها، مناطق باكملها من أم درمان الى بربر أصبحت بلا سكان، مناطق شندي والقري المجاورة لها بلا أهالي، اضطر مربو الجمال لأكل النياق وأكل سكان المناطق النيلية البذور المعدة للزراعة .

سكان مناطق القلابات، القصارف، وكسلا انخفضوا الى العشر. يمكن أن نتخيل حجم الكارثة إذا عرفنا أن جيش الزاكي طمل الذي بلغ حوالي ٨٧ ألف رجل لم يبق منه سوى ١٠ آلاف رجل في ربيع ١٨٩٠م.

جاء الحصاد في وقت استطاع أن ينقذ أهل السودان من الانقراض، ولكن البقية كانت تنتظرها كوارث أخرى، الشح والضغط أيام الحروب كان مقدورا عليهما، لكن لا حيلة لأحد مع جحافل الجراد التي حجبت الشمس، تلك الحشرة الصفراء اللون التي يمكن أن تكون وجبة أشبه بالجميري عند شوائها وهي وجبة مفضلة لدي بعض الأهالي، انقلبت الى إعصار مدمر بالنسبة للمحاصيل، وزادت من معاناة الجاعة واطللت في عمرها. ظل الجراد يأتي كل عام بعد ذلك: وزاد من المحنة ظهور ملايين الجردان(الفئران) الحمراء التي كانت تتلف البذور قبل إنباتها، كانت أعدادها كبيرة حتي أن الامطار الغزيرة كانت تعري أعدادها الميتة على سطح التربة بكميات كبيرة .

رغم كل هذه النكبات استمر الخليفة في حكمه بلا اهتزاز، وساعدت الجماعة في تدعيم المركزية، وبينما انهار كثير من المدن والقري انتعشت أم درمان، وما زال حاكمها هو القائد المتحكم في الجيش القوي. ولترك لبرهة إمبراطورية الدراويش، لأن المدينة الكثيرة مدينة الدماء، والطين والقذارة التي ارتفعت على ضفاف مقرن النيلين، تستحق منا نظرة أخيرة وهي تنعم بالاستقلال البربري .

كان الوقت صباحا، وبدأت الشمس ترتفع عند الأفق و ترمي ظلالها على أطلال الخرطوم وعلى مياه النيل العكرة، والعاصمة القديمة شبه مهجورة، لاصوت لأحد يشق صمت الشوارع، لم تبق الا الذكريات في الحقائق التي كانت متزها للباشوات، أو القصر حيث سقط المندوب الإمبريالي. في الجهة الأخرى للنهر تمتد أميال من منازل الطين تصطف على ضفاف النيل حتي خور شمبات، ثم تمتد نحو الصحراء حتي مشارف التلال السوداء لتدل على حجم عاصمة العرب الجديدة .

ومع ارتفاع الشمس تدب الحياة في المدينة، على طول الطريق من كرري تري أعدادا من الجمال محملة بمحاصيل القري، عشرات المراكب الشراعية تحملها رياح الشمال وهي محملة لآخرها بالبضائع ترسو في المرسى، حيث تقف إحدى بواخر "غردون" وبخرة أخرى يعمل عليها نفس الطاقم الذي كان يديرها أيام المصريين، يرسلها الخليفة إلى سنار في مهمة تتعلق بالدولة. وبعيدا ناحية الجنوب، يشق غبار قوافل دارفور عنان السماء الزرقاء مثيرا للضباب والغبار. استمر قرع طبول الحرب لوقت طويل، وكان صوت الموسيقى الصادرة، من قرون البقر يشق صمت الليل .

ثم جاء يوم الجمعة وساعة الصلاة، وهذا هو اليوم الذي لن يستطيع أحد أن يتغيب فيه، يجتمع الجميع في الميدان، حيث إن الجامع لن يستطيع أن يسع كل هذه الجموع، لتادية صلاة الجمعة، داعين الله العلي القدير وللمهدي المبارك .

تنتهي الصلاة وينصرف الجميع الى مشاهدة طابور العرض. كل أمير خلف العلم المميز له، وكل فارس يجتال بملابسه وجبته الجديدة حاملا سيفاً وبعض الحراب. تنطلق سبع طلقات من مدفع محمول على ظهر جمل، يقوده أحد رجال النوبة الاقوياء ضخيم

الجلثة، ويأتي الخليفة وحوله حوالي ٢٠٠ فارس بأسلحتهم، ويطوف على كل التشكيلات. كان الجميع حضوراً، والمنظر يدل على السيطرة الكاملة، الى ان لاحظ الجميع وجوم الخليفة وبدأ التساؤل، ماذا حدث ، هل يهدد الأحباش قلابات ؟ أو هناك تمرد في غرب البلاد؟ هل تمردت القوات الإفريقية؟ أم هي مجرد مشاكل وسط الحريم ؟ ينتهى العرض، ويعود الجنود إلى ترسانة الأسلحة، تُجمع منهم البنادق ثم يتفرق الجميع. بعضهم يذهب للسوق لشراء بعض الضروريات، أو لسماع آخر الإشاعات أو لمشاهدة تنفيذ حكم الأعدام التي كثيراً ما كانت تتم علناً. البعض الآخر يتوجهون إلى سوق الرقيق حيث يدفعهم الفضول للتفرس في أجسام الفتيات المعروضات للبيع ونقد أعضاء أجسامهن.

ولكن الخليفة عاد إلى منزله وعقد مجلسه، الغرفة صغيرة فجلس هو خالفاً رجله، أمامه بعض الأمراء والقضاة، كان هناك يعقوب، الخليفة ودخلوا والخليفة شريف، لم يتغيب إلا شيخ الدين ذلك الشاب الفاسق الذى يدوام على معاقرة الخمر.

كان الخليفة حزينا وقلقا، جاءه رسول بأن الترك قد تحركوا وزحفوا الى بعد حدودهم حتى وصلوا واستقروا في عكاشة.

أبدي رد بشارة تخوفه من أن يهاجموا المندوب الموجود في "فركة" كانت هذه الحادثة بسيطة في حد ذاتها، فمناوشات الحدود لم تنته، ولكن الأمر الخطير هو أن أعداء الله قد بدأوا في إصلاح خط السكك الحديدية، وقد تم إصلاحه، حتى أنهم وصلوا به الى "صرص". وحتى الآن يرفعون هذا الطريق الحديدي نحو مركزهم في عكاشة متجهين الى الجنوب، ما هي أسباب كل هذا التعب؟ هل سيأتون مرة أخرى؟ هل سيحضر أولئك الجنود البيض الشرسين الذين أدموا قلوب الهدندوة وأبادوا دغيم وكنانه؟ ما الذي جاء بهم على النيل، هل هي غلطة أم مجرد شهوة للحرب أم حب الانتقام وحب الدماء. صحيح أنهم بعيدون الآن لكن الأرجح أنهم عائدون كما عادوا من قبل، لكن الطريق الحديدي لن يتم في يوم وليلة، الحقيقة المطلقة أن سحب الحرب قد بدأت تتجمع في الشمال .

## الفصل الرابع

### سنوات التحضير

في صيف عام ١٨٨٦ عندما تراجعت كل القوات الى وادي حلفا وتمت إبادة كل الحاميات في السودان ، حول البريطانيون أنظارهم عن وادي النيل في خجل واسي من سلسلة طويلة من الكوارث وصلت إلى نهايتها المخزية. فقد أسهمت فصول الدراما في تعميق الشعور بالمرارة ولم تخفف من عظمة المأساة. وكانت التكاليف باهظة. بالإضافة الى الخسارة والألم الذي سببه مقتل الجنرال "غردون" والفقد الكبير للضباط والرجال والتكاليف الخطيرة من تبديد للأموال العامة، وظلت الأمة تعاني من الفشل وخيبة الأمل إضافة لشعور عميق بأن الدولة قد أهينت أمام أنظار العالم .

الحالة في مصر لم تكن بأحسن حال. فالإصلاحات التي تمت بمبادرات من رجال الإدارة البريطانية لم تلق قبولا ، وتدخلات " بارنج " سببت المرض للخديوي ووزرائه، وشدة بخل " فينسنت " كانت مدعاة للتهكم وجاء " مونتجريف " وهز بعنف مصلحة الري ، أما جيش " وود " فقد كان بلا هوية. كانت تبذر بذرة جديدة . لكن إنجلترا لم تر أي تباشير للمحصول الجديد ، كل الذي رآته رجالاً عنيدون مغموسين في التواب والوحد، ورأت نفسها متورطة بلا أمل في المشاكل. قررت بكل السأم والاشمئزاز أن تضرب بكل الغمز والهمس من قبل القوي العظمي عرض الحائط واتجهت نحو بلاد أخرى وأمور أخرى .

عندما اتجهت أنظار الأمة مرة أخرى نحو مصر ، كانت الصورة قد تغيرت تماما وكأنها بلمسة سحرية من يد ملاك ، تحولت البركة الضحلة السوداء الى مرتفات مبهجة ذات نسيم على لهدأ الخديوي ووزرائه واستكانوا. بالكامل تحت قبضة القنصل العام القوية الحازمة .



أصبح للدولة - فائض في الإيرادات يصرف للإصلاحات الداخلية - مصلحة الري المضطربة أخذت تحيي في الأرض ، وصعد الجيش أي اعتداء على الحدود ووقف ضد أي مطامع .

تحولت الدهشة الى إعجاب، والإعجاب أدى الى الانشراح. انتهى الكابوس وبدأ حلم جديد ، رؤي مشرقة ، وإن لم تكن واضحة المعالم للقوة الامبريالية ، قطارات عابرة للقارات ، حكام لأفريقيا، أحلام للغزو والتجارة . ازداد اهتمام الشعب البريطاني بقصة البعث الجديد ، كان كل إصلاح جديد يلاقي الاستحسان ، كل ميزانية جديدة تتم مراجعتها بالفخر والإعزاز، هلل الناس بقصة الفشل التي تحولت الى نجاح وزادت رغبة الناس في معرفة المزيد عن مصر، عن هؤلاء الأشخاص الذين حولوا الحلم الى حقيقة .

جاء كتاب سير "الفريد ميلنر" "انجلترا في مصر" محققا تلك الرغبة ، وقد عرض بقلمه الشيق كيف تم التغلب على المشكلات أكثر من حديثه عن الإنجازات وبذلك برزت قيمة الإنجازات بصورة أقيم. ذكر "ميلنر" كيف قام أبناء بريطانيا العظمى المخلصون النجباء بينما هي مشغولة في مناطق أخرى باعادة التجربة الناجحة في الهند ، ولو على معدل اقل في مصر. إن الأعمال الصغيرة تنتشر بسرعة وقد استفاد الإداريون من التجارب وجاءت الحركة سريعة والعائد مدهشا . كانت تلك هي قصة النجاح المبهجة وكان القاص متمكنا من أدواته فحكى القصة بأسلوب شيق ليست هناك لحظة سأم وأصبح الكتاب ليس مجرد كتاب والكلمات كأفها صحيحة البوروجي تنادي الجنود لكي يتخطوا الحاجز الاخير نحو النهر .

إن قصة البعث الجديد في مصر لا تدخل ضمن نطاق هذا السرد، حتي وإن لم يكن قد تم عرضها من قبل " سير الفريد ميلنر " في كتابة المذكور، ولكن إعادة تنظيم الجيش لإعادة غزو السودان ، تمثل آليه لا بد من التعرض لها .

في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٢ تم تسريع الجيش المصري القديم ، إذ كان واضحا أنه لا بد من خلق جيش جديد- كل الخيارات التي طرحت مثل الاستعانة بجنود أتراك، إلا أن

"لورد دوفرين" أصر على التمسك بالمبدأ الذي يقول لن يدافع عن بلد مثل أبنائه وتقرر تكوين جيش مصري جديد . كان حتميا نسبة للحالة المالية الحادة للحكومة أن يكون حجم الجيش صغيرا . استقر الرأي على ٦ آلاف جندي يمكنهم حفظ الأمن الداخلي والدفاع عن الحدود الجنوبية والغربية لمصر ضد البدو والعرب، يظل السودان نائما تحت ظل الكابوس الطويل .

كان هناك ٢٦ ضابطا بريطانيا، وتولي شاويشية أكفاء تدريب القوة الجديدة على القتال. تولى سير "ايفي لين وود" إدارة العملية وأصبح أول سردار للجيش المصري . تم العمل بسرعة فائقة وبعد ٣ شهور فقط تم استعراض القوة أمام الخديوي وقد نال طابور العرض إعجاب الحاضرين. قال البعض من ذوي التجارب إن هذا الجيش يختلف كثيرا من الجيش القديم ، على الأقل سوف يقبضون مرتبات، وسيعامل الجنود بعدل، ولن تُسرق وجباتهم من قبل الضباط ، سوف يعطون أجازات لزيارة أهاليهم وإذا مرضوا يدخلون الى المستشفيات بدلا من نيل الضرب باختصار قد استبدل النظام الشرقي بالنظام الأوربي .

إن الجندي الفلاح يفقد الرغبة للقتل، حتي الديانة الاسلامية لم تستطيع أن تفجر حميته ، يمكن أن يكون قاسيا لكنه ليس شريرا ومع كل فانه شجاع يقابل الموت دون مبالاة. إنما فئة الرجال البسطاء المتواضعين يحسدها الرجال الأقوياء ولكن سوف لا تنتظر منها الإعجاب .

إن له فضائل عسكرية أخرى . إنه مطيع ، أمين ، واع ذو خلق سريع التعلم وفوق كل هذا قوي البنيان، صفة ورثها عن أجداد أجداده . خلقت الظروف القاسية إنسانا يستطيع أن يعمل مع أقل طعام وأقل حافز يعمل عملا شاقا وساعات طويلة تحت اشعة الشمس غير الرحيمة . خلال كل الحملات النيلية بالإضافة لصفوة الجيش والروح المعنوية للقوات فان مصدر القوة للحرب قد جاء من مصر نفسها .

تلك كانت هي المادة التي صنع منها الضباط الانجليز الجيش المصري الجديد في البداية، أثناء التمارين والتدريب كانوا مدعاة للتهكم بين زملائهم من الجيش الانجليزي

والجيش الهندي الى أن صدرت الأوامر المشددة بأن الاستهزاء بأي جندي مصري هو إهانة للجندي البريطاني ، هكذا تطورت العلاقات بين الضباط والجندي المصري وساعد ارتفاع المعنويات في تحقيق النجاح الذي كان يبدو مستحيلا تحت أي ظروف مغايرة .

لم يمض وقت طويل قبل ان توضع المنظمة الحربية الجديدة تحت الاختبار-إن الجيش الذي أنشئ لحراسة الحدود الداخلية قد يطلب لحراسة الحدود الخارجية. إن الثورة في السودان التي ظنها الجميع أنها أسهل المشكلات بالنسبة لمصر قد فاقت كل الأزمات وقد وجاء وقت تقييم القوة الجديدة. كتب سير هيكس في يونيو ١٨٨٣ ، وهو يحضر حملته المأسوية الى سير "ايفلين وود" يقول :- "أرسل لي أربع كتائب من جيشك الجديد وسوف أكون مكثفيا ومقتنعا" ولكن شاء الحظ ان ينقذ هذه القوة الوليدة من بداية مأسوية وبقي الجيش الجديد بمصر . بالرغم من اشتراكه فيما بعد في حملة النيل ١٨٨٤-١٨٨٥ لحراسة خطوط المواصلات لكنه لم يشترك في القتال الا عندما سحبت القوات البريطانية من دنقلا ، وبذلك تم تعميدها رسميا في معركة جيسي . ومن تلك اللحظة أصبح مكانهم في مقدمة الخطوط الامامية ومنذ علم ١٨٨٦ اثبتت القوات المصرية انها أهل للمسئولية في مقاومة أي خطر للدراويش نحو الشمال.

تضاعفت أعداد الجيش مع زيادة مسؤولياته ، حتي عام ١٨٨٣ لم يكن هناك سوى ثماني فرق من قوات الفلاحين في عام ١٨٨٤ تم تكوين فرقة السوادانيين، إن الجندي الأسود الذي كان نقيضا للفلاح، المصري قوي ، صبور صحته مكتملة ومسال . الزنجي كان أقل شأنا في كل هذه الصفات ، رثاء حساستان، ارجله ضعيفة ، وتكوينه الجسماني في غير تناسق بعكس الحجم الكبير والتكوين الحديدي لفلاح الدلتا. الجندي الأسود سريع الانفعال وغير مطيع يحتاج دائما للنظام الحازم ، كان يكسره التدريب ويحب زوجاته ، شخصيته مرحة "سامبو" التي تعادل "تومي" كسول شرس طفل غير محترم ولكنه قد امتلك قلب أسد، يحمل وفاء الكلب لسيده ، يحب ضابطه ولا يخشى شيئا في الوجود .

بإضافة هذا العنصر أصبح الجيش المصري آلة حرب مهولة، شاءت الظروف أو كانت خطة موضوعة ، كان الجنود السود دائما في مقدمة القوات المقاتلة .

في معارك لورد "كتشنر" كان عدد الضحايا من هذه القوة يفوق العدد الكلي لعدد كل الضحايا من الجيش كله . لقد كانت خطوة طيبة تقوية القوات المصرية بهذه الإضافات الجيدة إذ تنتظرهم حروب مرهقة . لقد وضع سير "ريقنالد ونجت" كفاح مصر ضد المهدي" ووصف المعارك للدفاع عن حدود وادي حلفا وسواكن .

السنوات العشرة اللاحقة لمعركة "جيسي" والتحركات الأولى لإعادة غزو السودان كانت سنوات متعبة للجيش المصري. كانت الخدمة شاقة رقم تفرق المعارك ، كان لابد من التحلي بالحذر والحرص الشديدين. فقد تم عزل الرأي العام عما يحدث. وبدأ تطبيق اقتصاد "سد البطون" وترشيد الإنفاق في كل مناحي الحياة، فحرم الضابط من أجازاته والجندي من التعيين والوجبات حتي يتم توفير أي مبالغ للخرينة المصرية .

كانت ملابس الجنود دائبة وأحذيتهم ممزقة وكانت أرجلهم تدمي عند التمارين في مناطق صخرية ولكن لم يمنع كل ذلك من الاستمرار في الاستعداد وتحسنت قدرات الجنود حتي الفلاحين من جنود المشاة وانتظر الضباط ساعة التحرك من وادي حلفا وسواكن لملاقاة جيش الدراويش المتآكل .

تقف القوة التي انشأها "ايفي لين وود" وقد جربها "قرينفلد" على أهبة الاستعداد وهنا ظهر الرجل الذي سوف يقودها .

كان هواتيو هيربرت كتشنر الابن الاكبر لضابط برتبة كولونيل . ولد عام ١٨٥٠ بعد أن تلقى تعليما خاصا التحق بالاكاديمية الملكية للحرية في وولوش كطالب حربي في سلاح المهندسين. تخرج عام ١٨٧١ وظل يعمل لمدة عشر سنوات كضابط عادي يؤدي أعمالا عادية ، لم يلفت النظر اليه كشخص له ملكات خاصة أو قدرات تميزه عن غيره .

شاء حظه ان يلتحق بسلاح المساحة في ١٨٧٤ وأرسل الى قبرص وفلسطين وهناك تعلم اللغة العربية. لم يستفد من هذه الميزة لأكثر من ٦ سنوات إلا أن ذهب

للاسكندرية بعد ان تعرضت لضرب الأسطول البريطاني وانزال الجنود البريطانيين ، كان وجود ضابط انجليزي يجيد التحدث باللغة العربية في مصر في تلك اللحظات أمر مرغوب فيه بشدة وهكذا هيأت الظروف الفرصة لكتشنر الى طريق الشهرة . جاء "كتشنر" الى مصر وهي تعاني من شدة البؤس والاحباط وبقي ليشاهدها تزدهر بعد إعادة البعث لاحقا، وقد كتب التاريخ أن يكون له الدور الثاني في هذا التحول. كان ضمن الـ ٢٦ ضابطاً الذين تم تعيينهم واشترك عام ١٨٨٢ في الحملة برتبة عقيد. وقد قادته إجادته للعربية الى قسم الاستخبارات العسكرية. وبالرغم من المجهود الكبير الذي ظل يبذله إلا أن خدماته لم ترق الى حيازة إعجاب " غردون " عندما كان يتعاون معه، لكنه نال رضا رؤسائه وعين حاكما لسواكن في عام ١٨٨٦ واستطاع أن ينظم دفاعات المدينة . وطورها حتى اثنى عليه القائد دورمر في تقريره لمجلس الحرب بالإنجلترا ولم يكن كل هذا كافيا فانه شخص طموح يحب المخاطرة والمبادرات وسرعان ما بدا الالتحام مع القبائل في المناطق المجاورة لسواكن. أوقف كل أنواع التجارة فأثار هذا سكان المناطق وكانت نتيجته بدء تحرك قوات عثمان دقنه. كانت الأوامر لكتشنر واضحة بالألا يشرك جندي بريطاني أو مصري في أي معارك هجومية لذلك استغل بعض الجماعات الصديقة وكون منها قوة حاولت مهاجمة عثمان دقنه في منطقة هيلاندوب. عندما خسرت القوة المعركة انضم كتشنر ليحمي تراجعهم عندها أصيب بجرح في فكه عانى منه كثيرا . نقل في صيف ١٨٨٨ للقاهرة رئيسا للأركان للجيش المصري حيث ظل يعمل لمدة اربع سنوات استطاع خلالها إجراء إصلاحات اقتصادية وبرهن على مقدرة فائقة في الادارة. كانت هذه سببا في اختياره سردارا للجيش المصري بالرغم من احقية الكولونيل "وودهاوس" الذي هو أكثر خبرة منه في قيادة قوة كبيرة ، اذ كان قائدا للقوات المربطة في حلغا واشترك بالفعل في معارك مع العدو . يعرفه الجميع " القائد الذي هزم ود النجومي " في معركة ارقين ايضا استحق التقرير وكانت إدارته لشئون مديرية الحدود الأمامية "حلغا" مثارا للإعجاب، ولكن في النهاية رجحت الكفة مساندة سير "ايفي لين بارنج" وفاز "كتشنر" بالاختيار.



كانت اكبر معاناة "للورد وولزلي" هي جهله التام بشئون السودان و أهل السودان . وقد خبر الجندي البريطاني اساليب قتال الدراويش فقط عند ملاقاتهم وكانت تجربة مريرة .

وعليه فان سنوات التحضير قد تم الاستفادة منها لأبعد الحدود . كان الكولونيل (أصبح الآن سير "ريجينالد ونجت" هو مدير قسم الاستخبارات العسكرية بالجيش المصري الذي استطاع ادارته بمقدرة فائقة . لمدة عشر سنوات ظلت الاستخبارات تجمع المعلومات عن السودان تاريخه ، الطقس ، جغرافيته وأهاليه ، اعتبرت وادي حلفا الخط الفاصل بين المدنية والهمجية حتي حائط أم درمان العظيم ، داخل ترسانة الأسلحة ، في الخزانة في الجامع حتي منزل الخليفة نفسه كان مرصودا بتسجيل كل حركة وكل حديث يدور في أي شأن كان . انتشر جواسيس الحكومة داخل السودان مرة كتجار ومرة كمحاربين أو نساء وتغلغلوا وسط الجماهير .

كان الجواسيس يسلكون كل الطرق المؤدية لأم درمان ، عندما يتعسر السير على النيل، كانوا يأتون عن طريق دارفور ثم يعبرون الصحراء الى أم درمان أو مرات عن طريق سواكن أو من مناطق الاحتلال الايطالي في مصوع. كانت المعلومة يهمس بها في حلفا وتدون في القاهرة حتي تضخمت السجلات وتم رصد كل معلومة مفيدة عن كل الأمراء ، وكل الحاميات ، حتي أخبار المشاجرات التي لا تنتهي تم تسجيلها بدقة متناهية.

ساعدت المقادير أن يتم تأكيد المعلومات التي جلبها الجواسيس ، عن طريق اهم شاهدين . مع نهاية عام ١٨٩١ استطاع القسيس "اوهر وولدر" أن يهرب من أم درمان ووصل للحدود المصرية . بالاضافة للمعلومات القيمة التي أمد بها قسم الاستخبارات طبع كتابة الشيق "عشر سنوات في الاسر" الذي ترك انطبعا جيدا في إنجلترا. وفي عام ١٨٩٥ ، جاء لاجئا آخر الى أسوان.

في صباح ١٦ مارس دخل عربي متعب من عناء السفر يلبس جبة مرقعة ويمتطي جملا أعرج ، دخل على القمندان ، استقبل استقبالا حاراً وأعطى أحسن حمام موجود .

خرج بعد ساعتين رجل نمساوي مهذب واشتعل خط التلغراف بالأخبار السارة،  
"سلاطين" الذي كان حاكما للدار فور قد هرب من أغلال الخليفة .

جاء الآن الرجل الذي يعرف كل شيء عن امبراطورية الدراويش ، كان خدام  
الخليفة الموثوق به بل كان صديقه وكان هو الوحيد الذي يسمح له بتناول الطعام مع  
الخليفة . لقد حضر كل مجالسه ، عرف كل الأمراء وهو كرجل عسكري واداري  
يستطيع أن يميز بين الأمور . أعطي لقب الباشا وألحق بالاستخبارات العسكرية .

بينما اكثرت المعلومات الوثيقة التي اعطاها للحكومة عن تدهور أحوال وقوة  
الدراويش ، أثار كتابه "السيف والنار في السودان" سخط الشعب البريطاني على قسوة  
الخليفة وانحاز الرأي العام نحو سياسة إعادة الغزو تماما .

جاءت حكومة المحافظين عام ١٨٩٥ بأغلبية كبيرة وادارة اتحادية وتأكد للجميع  
أنها باقية خمس أو ست سنوات على الأقل الأمر الذي ضمن للوزراء الاستمرارية  
وتنفيذ كل مشاريعهم ، وجاءت الفرصة لاصلاح ما أفسده "منافسوهم" . كان عقد  
مثل تلك المقارنات المطلوبة والمتوقعة ، فكرة استعادة غزو السودان عادت بقوة  
وتبلورت كسياسة، كما حكمت بذلك الأحداث غير المرئية .

في ١ مارس عام ١٨٩٦ تعرضت إيطاليا الى هزيمة ساحقة في معركة "عدوة"  
بالحبشة، وجاءت هذه الحادثة بأمرين أثرا على باقي الدول. الأول الضربة القوية التي  
وجهت لنفوذ أوربا في شمال أفريقيا ، وأصبح من المحتمل أن يشجع بجحاح الأحباش  
الدراويش لمهاجمة الإيطاليين في كسلا أو حتي مهاجمة سواكن أو وادي حلفا .

الأمر الثاني تضاعف دور إيطاليا كلاعب أساسي في أوربا وحقيقة إن السلاح الذي  
حارب به الأحباش كان من مصادر فرنسية وروسية قد عقد الأمور وسوف يؤثر سلباً  
على التحالف الثلاثي. كان لابد من أن تقوم بريطانيا بعمل يحمل رسالة لطمئنة  
الإيطاليين معلنا التعاطف حتي يعود الميزان للاعتدال .

سرعان ما تحققت توقعات السلطات المصرية، بمجرد أن سمع الدراويش بانتصار  
الأحباش في معركة "عدوة" هددوا كسلا وظهرت بوادر نشاط غير عادي في أم

درمان. كان أنسب تحرك لمساندة إيطاليا أن تقوم بعمل حربي في وادي حلفا ولجأ البريطانيون الى مصر. كان أمر استرداد المديرية والأسلحة المفقودين في السودان يشغل تفكير المصريين إلا أنهم كانوا يعتقدون أن الأمر يحتاج لتحضير ولبضع سنوات . ثم كانت هنالك أولويات مشاريع الخزانات التي ظل الخديوي يطالب بها لاكثر من سنتين، وبينما كان "كتشنر" يكافح من أجل معركة إعادة الغزو كان سير وليام كارستن يطالب بالخزان وقد نجح أخيرا في إقناع لورد كرومر حاكم مصر .

لقد تعجب المصريون من قرار بريطانيا الدخول في معركة محدودة في وادي حلفا لإرضاء الإيطاليين على حسابهم لم يقدم الدراويش على أي مبادرات هجومية تستدعي الرد فظلت الجبهات هادئة وكان كرومر على يقين من أن بناء الخزان سوف يجد كل اعتبار بينما لا يتوقع أحد من حكومة الأحرار أن تساند إعادة غزو السودان . وبناء عليه تم تعديل الخطة أو الاقتراح البريطاني ليشمل احتلال دنقلا بأكملها بدلا من وادي حلفا، كخطوة أولى نحو احتلال السودان .

لعله من الضروري قبل الدخول في تفاصيل المعارك أن نصف كيف تم توفير المال اللازم لتمويل الحرب .

بدون أي رغبة في الدخول في أضابير السياسة المالية المصرية وتعاريفها المدهشة أري لزاما على أن أعرض كم المشاكل التي كانت تواجهها الإدارة البريطانية والصراع الذي تتعرض له الحكومة المصرية في تأمين احتياجاتها الضرورية من الأموال وهذا هو أمر من صميم امور السيادة، لعل تناول هذه الأحوال ينال بعض عطف القارئ ، او حنقه أو حتي ابتسامه ساخره.

كان نصف دخل مصر يصرف على التنمية في البلاد والنصف الآخر يذهب لسداد فوائد الديون والمنصرفات الخارجية. وحتى يوضع حد للصرف البذخي الذي كان سائدا في الماضي تقرر في مؤتمر لندن عام ١٨٨٥ ألا تزيد ميزانية مصر عن رقم معين في السنة ومقابل أي جنيه زيادة يوضع جنيه آخر في حساب مراقب الديون. معني هذا أنه بعد تجاوز الميزانية فان الحكومة يلزمها تدبير جنيهين عن كل جنيه مطلوب. لم

يحتمل الناس الضرائب التي فرضت للايفاء بهذا الغرض وصرف النظر عن ذلك المشروع واستبدل بآخر على أن يوضع الجنيه الثاني في صندوق احتياطي يصرف منه فقط في الحالات غير العادية .

بدأت حملة دنقلا بدون الرجوع للحالة العامة في مصر. وكان الوقت مناسباً ولكنه ليس أفضل الأوقات وكان من غير المعقول أن تستطيع مصر توفير المال اللازم في الميزانية . تقدمت مصر بطلب سلفية من صندوق النقد الأوربي بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه إسترليني . اجتمع المحافظون الستة للصندوق الذين يمثلون إنجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، والمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا. فوافق أربعة وعارض اثنان وتمت الموافقة على القرض وسلم المبلغ للحكومة المصرية وخصص للمجهود الحربي .

مصر التي هي قوة ذات سيادة ، طالبت بكل تواضع أن يسمح لها باستعمال جزء من فائض اموالها لتحقيق أهدافها الخاصة ولكن سوف تتلاحق المصاعب. العضوان الفرنسي والروسي اللذان خسرا في عملية التصويت على منح القرض طعنا في قرارات بقية المحافظين الأربعة وطالبا أن يلغى القرض لأنه قد تم عن طريق الخطأ كما يجب إرجاعه. حرضت فرنسا بعض جماعات من حملة السندات بأن هذا الأمر يضر مصالحهم عرضت القضية على المحكمة المختلطة الموجودة في مصر ولكنها مستقلة تماماً عن سيادة الدولة.

دافعت مصر وكذلك المحافظون الأربعة بأن المحكمة المختلطة ليس لها صلاحية نظر القضية وليس هناك حق للذين يهاجمون القرار لأن الحكومة المصرية اتبعت كل الطرق القانونية للحصول على القرض وأن القرار أصبح سارياً بمجرد أن وافق عليه صندوق المحافظين وهو الممثل الشرعي لحملة السندات .

كانت الحجة قوية ولكن حتي ولو كانت اقوي عشرة أضعاف فان النتيجة كانت ستكون واحدة، فأعضاء المحكمة العالمية قد استندوا في قراراتهم على اعتبارات سياسية وتسلموا توجيهاتهم من حكوماتهم أعلنوا بكل بساطة أن نفقات الحرب ليست "نفقات

فوق العادة" أما أمر تحطيم جيش الخليفة أعتبر كأمر عادي يحدث كل يوم،  
أما حالة

الحرب فأعتبرت أمراً عاديلبناء على هذه الأسس الواعية والحكيمة أموت مصر برد مبلغ  
الـ ٥٠٠ ألف جنية قيمة القرض بالإضافة للفوائد والتكاليف الأخرى بعد تردد ملحوظ ،  
وما إذا كانت الساعة والوقت قد أزف لتعميق الضغوط المالية على مصر، اتخذ القرار للاحتناء  
لأمر المحكمة ، وكان لابد أن يعاد المبلغ الذي تم صرفه بالفعل.

كان الجيش قد احتل دنقلا والمعارك مستمرة ولا يمكن ايقافها ولم يكن في وسع مصر  
رد المبلغ الذي حرمت منه بعد ان تحصلت عليه متبعة كل الطرق القانونية .  
هكذا كان أهم المشاكل للمؤلة ذات الصعوبة البالغة أن تبادر دولة في كامل وعيها وملمه  
بكل حقوقها القانونية، تنجح في خلق أزمة في بلد طالما بالغت في التظاهر بالاهتمام بمصالحه  
وخير أهله.

هكذا كانت الدبلوماسية الفرنسية. فرنسا التي تعتبر نفسها صديقة لمصر ولها نفوذ  
قوي للغاية في القطر المصري، مارست دهاء الدبلوماسية الخفية وراء الكواليس، رغم مكرها  
ستجد يوما المكر الأكبر.

الآن وكما حدث من قبل نفس دهاء وذكاء الوزراء الفرنسيين سوف يتسبب في لطمة  
قوية ضد المصالح الفرنسية في مصر. في تلك المرحلة مارست فرنسا نفوذا كبيرا على الساحة  
السياسية في مصر. إن الجانب المصري وأن كان ضعيفاً الآن ولكن لمصر شأن عظيم، التفتت  
فرنسا لتقف معه مسانده. كانت أنخبار نجاح فرنسا قد اثلجت قلوبهم ورفعت من روحهم  
المعنوية . إن الرجل في الشرق تهمة النتائج وكان الانحياز كاملاً ضد بريطانيا .

كانت الاستنتاجات في عقول الأهالي واضحة للعيان ، بريطانيا تم تقيمها كقوي  
أوروبية ، وأثبتت غيابا كاملاً. في بلاد الشرق تظل مشاعر الناس تتارجح بين قوي جامحة  
أن تكون مع الجانب الفائر. ومع كل هذه الإثارة بدأ الرأي العام ينحاز نحو الجانب الأقوي  
. وعليه عندما رفضت المحكمة المختلطة في الإسكندرية استئناف مصر، كانت هزيمة بريطانيا  
كبيرة بالمقارنة مع انتصار فرنسا.



في الثاني من ديسمبر أسرع القنصل العام البريطاني وأبرق بنتيجة حكم الهيئة الى "لورد سالزبوري" وطالبا التصديق ليعلم أن حكومة صاحبة الجلالة قد قررت أن تدفع القرض لمصر حسب الشروط التي سوف تعلن فيما بعد. عندما أعلن في ٣ ديسمبر أن بريطانيا سوف تؤمن القرض اندهش الجميع وترك هذا الامر إحساسا غير مريح لـلدي الساسة الفرنسيين. كان بإمكان فرنسا بالرغم من تلك الظروف أن تلعب دورا مؤثرا في مصر وان تعرقل مساعي بريطانيا لنيل هذا النصر . ظن الفرنسيون ان الامر سيحتاج لموافقة البرلمان الانجليزي، ولن تستطيع مصر الحصول على المال اللازم. تماماً كما يحدث في البلدان الأخرى ، فان الضرائب لا تجمع بالتساوي مع شهور السنة في بعض الفصول تكون الخزانة ملاءى بالنقود وفي الفصول الأخرى تكون قليلة. شاءت الظروف أن تكون الخزينة عامرة في تلك الفترة.

خاب ظنهم تماماً إذ كانت الخزانة ملاءى بالنقود من عائد الضرائب على القطن، وقرر لورد كرومر دفع القرض في الحال .

في الخامس من ديسمبر اجتمع مجلس الوزراء المصري برئاسة الخديوي وقرر مبادرة إرسال خطاب شكر للحكومة صاحبة الجلالة معرباً عن الامتنان للمساعدة المالية. وكتب " بطرس باشا " أرجو أن تنقلوا لسمو اللورد ماركيز سالزبوري خالص تعبيرنا بالامتنان من جانب الخديوي والحكومة المصرية للعطف الكرم من حكومة صاحبة الجلالة تجاه مصر في هذه المناسبة .

في يوم ٦ ديسمبر وضعت ٥٠٠ ألف جنيه بالاضافة الى ١٥,٦٠٠ ألف جنيه عبارة عن الفوائد والتكاليف، من الذهب وسلمت لمكتب الصندوق الأوروبي بالقاهرة. كان رد الفعل عظيماً كل الناس كانوا يعرفون المشاكل وعرفوا كيف تم التغلب عليها. كان الدرس واضحاً للعيان في عقول الاهالي وكان تراجع النفوذ الفرنسي اكبر من أي نجاحات لفرنسا التي لم يشهد نفوذها في مصر مثل تلك الضربة وسوف تشهد هذه القصة في الزمن القصير الذي ترصده، كيف ستصاب فرنسا بجرح اكثر فظاعة .

## الفصل الخامس

### بداية الحرب

قبل منتصف ليلة ١٢ مارس عام ١٨٩٦ ، تلقى السردار تعليمات من اللورد كرومر تأمره بتحريك الحملة لمديرية دنقلا واحتلال عكاشة ، في صبيحة اليوم التالي. نشر الخبر في جريدة التايمز بتمويه كأنه آت من مراسل الصحيفة بالقاهرة، واجتمع مجلس الوزراء المصري ليعطي الموافقة الرسمية. واستدعي الاحتياطي يوم ١٤ وفتش الخديوي طابور العرض يوم ١٥ وعند انتهاء العرض أخبر سير . هـ : كشف الخديوي ان الكتاب الأولي سوف تتوجه الى الجبهة تلك الليلة .

كانت القوة الامامية في حالة استعداد دائم بفضل تحركات العدو القلق ، وجاءت أخبار التحرك الذي طال انتظاره ، رحب بها الضباط البريطانيون الذين ملو الانتظار عند "وادي حلفا" و"صرص". في يوم ١٥ مارس أي بعد ٣ ايام من تسلم السردار للتعليمات، وقبل تحرك أول الإمدادات من القاهرة ، جهز العقيد هنتر فصيلة مكونة من عدة أسلحة لدخول واحتلال "عكاشة" في يوم ١٨ تحركت الفصيلة الصغيرة وبدأ بذلك الغزو الذي توقف لعشره سنوات تاركاً الأمر للدراويش .

كان المسار يقع على طريق مجري وعمر في الارض المتنازع عليها التي تم هجرها لسنوات بسبب الحرب لذلك عانت القوة من السير في صف واحد في ممر ضيق، وتأخرت أكثر من ساعة كاملة لتعدية صف واحد بين الصخور المتراكمة بسبب الزمن والعواصف حتي استحققت الاسم الذي يطلق عليها "بطن الحجر". كان النيل على يمين القوة وبالرغم من اضطرار الجنود لترك النهر لتفادي مناطق وعرة وغير صالحة للسير، الا انهم دائما ما يعسكرون بالليل قرب النهر. قامت وحدات من الهجانة وسلاح الفرسان بعدة طلعات نحو الجنوب والشرق تحسبا لقدم جيش الدراويش لصدهم الهجوم.

كانت القوة تزحف قرب النهر وعلى أهبة الاستعداد للنهوض في لحظات قليلة ومستعدة لأي نزال . واصلت سيرها ووصلت "وادي عطيرة" يوم ١٨ ويوم ١٩ إلى

"تانبجور" ثم دخلت الفصيلة الى "عكاشة" يوم ٢٠ مارس ظهرت بعض أجزاء الطابوقة البريطانية القديمة وبعض المخازن من بقايا "حملة إنقاذ غردون" ١٨٨٥، خط السكك الحديدية من صرص تم نزع كل الفلنكات إلا أن الخط الحديدي ترك متناثرا بقرب الخط. كل شيء مهجور ، لم يدل أي شيء على وجود الدراويش سابقا إلا منظر كتيب، عند نهاية المحطة القديمة هو بقايا مقصلة، صنعت من قضيب السكة الحديد، بالقرب من بقايا جبل دائب وعلى البعد جمجمة ناصعة البياض بفضل الريح والشمس. لم يكن هناك أكثر من ٦ أعراب مسالين هم سكان الجزيرة خلف الشلال هم كل ماتبقى من السكان في المنطقة .

بدأت القوات في تحضير دفاعاتها بسرعة فائقة - يوم ٢٢ رجع جزء من الهجانة والفرسان إلى "صرص" ليصبحوا فصائل اكبر للجهة بقيادة الرائد "ماكدونالد" وتكونت من الفرقة السادسة والسابعة السودانية. تركت فرق من الكتيبة الثالثة المصرية لحراسة آبار "امبول" .

تحرك كرفان كبير يتكون من مخازن محملة على ظهر ٦٠٠ جمل يوم ٢٤ مارس من صرص ووصل دون أي حادثة الى عكاشة بعد أربعة أيام وتسلم الرائد ماكدونالد قيادة كل القوة المتقدمة .

تحولت عكاشة الى معسكر منيع يضم ثلاث كتائب ، سلاح مدفعية وقوات راكبة يحصلون على طلباتهم بالجمال من "صرص". ظلت الدوريات تجوب المنطقة الى الجنوب والشرق لمراقبة تحركات العدو وقويت خطوط الاتصالات بتكوين نقاط عند "سيمنا" "وادي عطيرة" "وتانبجور" وكانت القبائل الصديقة من البدو، الكبايش والفقراء تحتل الآبار المتناثرة في المنطقة . ظل الدراويش كل هذا الوقت في تكاسل عجيب يراقبون ما يجري من مواقعهم في "فركة" دون القيام بأي مبادرات أو نشاط يمكن أن يعرقل سير العمليات .

استمر تدفق القوات المصرية الى الخطوط الأمامية وانصاع الجنود الاحتياط للأوامر طواعية، وتم تصعيد كل الكتائب الى حالة الاستعداد القصوي للحرب . تكونت كتيبتان من قوات الاحتياطي، الكتيبة ١٥، ١٦ وتركت ١٥ في "أسوان" و "كوروسكو" وارسلت ١٦ الى سواكن لتخلف الأولى. رحلت قوات شمال الاستفورد شير من القاهرة لتعسكر في حامية وادي حلفا لتحل محل كتائب الست التي تحركت الى صرص وعكاشة وكونت فرقة للدفاع المكسيم، أربعة مدافع من قوة : سيتفورد شير و "كونوت رنجرز" وأرسلت بسرعة جنوبا.

جاءت الكتائب الثانية، والرابعة، والخامسة ، والسادسة المصرية عن طريق السكة الحديد وطريق النهر وكلها والانسياب الكامل في سيرها للجبهة يدل على حسن التخطيط لمكتب الحرب وقدرته التنظيمية .

خطوط المواصلات من القاعدة الرئيسية في القاهرة الى النقطة المتقدمة في عكاشة يبلغ طولها ٨٢٥ ميلاً، ولكن تبقى فقط المنطقة جنوب أسوان ضمن مسرح الحرب . تم إنشاء قاعدة نهرية عند بعلانة حيث تتصل بالقاهرة عن طريق السكك الحديد ذات القضبان العريضة ، يتم نقل المؤن والمهمات والإمدادات من بعلانة الى أسوان عن طريق مجموعة البواخر الخاصة بشركة كوك - يتم جر بوارج كبيرة بمجموعة صغيرة من الجرافات البحرية مع استخدام المراكب الأهلية أيضا لاجار الصنادل حتى أسوان . للالتفاف حول أول شلال تم بناء خط سكك حديد لربط المنطقة من أسوان للشلال ومن هناك تواصل البوارج والبواخر الرحلة الى وادي حلفا، ومن هناك يستعمل خط السكة حديد الحربي الى " صرص " ثم تستعمل الجمال لتوصيل المهمات الى جنوب "صرص". تم شراء ٤٥٠٠ جمل من القاهرة وشحنت بالبواخر الى أسوان، ومن هناك عن طريق البر الى "كوروسكو" تم الجبهة. وافقت الحكومة البريطانية على مد الخط الحديدي من " صرص " الى عكاشة، وتم تكوين كتيبة خاصة لهذا المشروع وبدا شحن كل المعدات الى "صرص" سوف يجد القاري معلومات لتغطي الجزء الخاص بهذا الخط الحديدي الاستراتيجي في قسم منفصل ما كنت اتوقع التعرض له.

اكتملت كل خطوط المواصلات في واحد أبريل أي أقل من ٣ أسابيع من بداية التحرك وكل شيء عمل بكفاءة عالية ، رغم تكديس القوات الوافدة .

بمجرد وصول الكتيبة ١٦ (الاحتياطي المصري) الى سواكن تم إرسال الفرقة السودانية الرابعة الى قصر ومن هناك عن طريق البر الى قنا المسافة ١٢٠ ميلاً ، وبالرغم من العواصف التي لم تشهدها المنطقة سابقاً، استطاعت الكتيبة قطع المسافة في أربعة أيام مما يدل على مقدرة الجندي الأسود على السير كان مقرراً للفرقة الخامسة السودانية أن تلحق فوراً بالكتيبة الرابعة، إلا أن أحداثاً جرت في منطقة سواكن أدت الى تأجيل سفرها، وسوف يعرف القاريء الأسباب في حينها .

إن تاريخ ميناء سواكن وأهميته ربما يقدم لحظات مفيدة للسياسي الساخر. كل المنازل تقف على جزيرة يربطها ممر طويل باكر العمارات البيضاء العالية وظهورها المفاجئ ربما يوحي للمشاهد أنه أمام مجمع صناعي. ولكن هذه بعض المرشحات لمياه البحر حيث لا توجد أي مياه عذبة في المنطقة. كما أن المنظر من قرب يثبت الخراب الذي تعيش فيه المدينة. فجزء كبير من المدينة مهجور، وشوارعها الضيقة تتعرج حول منازل متهدمة ومهجورة تلهوا الرياح بنوافذها والواجهات مغطاة بالألواح الخشبية. حتى في التربة تفوح منها رائحة الركود والصدأ، ويضج المكان بذكريات الضياع والفشل ، هذا هو ما يحسه أي زائر يري تلك المناظر. فالمسافر الذي يصل الى جزيرة تكون الكرنتينه اول ما يشاهده ثم بقايا خط حديد سواكن بربر، وثلاث قاطرات يملؤها الصدأ، وعربات بضاعة مهشمة وأدوات كثيرة تخص الخط ملقاة في العراء بدون حراسة أو اهتمام قرب الورش القديمة .

المكان الوحيد المتطور هو المدافن المسيحية حيث صفوف الشواهد والصلبان البيضاء للمقابر التي تحمل جثث الجنود البريطانيين والبحارة الذين قتلوا أما أثناء المعارك الحربية أو نتيجة للمرض ، مع وجود مساحة خالية لاستقبال أي جثث جديدة مما يزيد إحباط الزائر. أما مقابر التجار الاغريق والاسماء المكتوبة بالاغريقي فتذكر الزائر بدروس اللاتيني الكلاسيكية. وكما الحوائط العالية المتهدمة الخالية تؤكد للزائر أن سكان هذه



البلاد يقدرّون الحياة في المناطق الريفية، وأن حياتهم قد صبغت طباعهم بالوحشية والقسوة المتناهيتين .

لقد توقفت التجارة لأكثر من أحد عشر عاما، أي نشاط تجاري كان نشاطا غير مشروع بين العرب ومهربي الشرق ، وكان لابد من الانتظار لأيام أحسن قادمة .  
وعرف المصريون عدم نفع المنطقة فتركت المنطقة بلا نشاط فلا يماثل المكان إلا بؤس وفقر سكانه .

في نهاية الممر القادم من الجزيرة توجد بوابة مكتوب عليها " باب السودان " يليه حي بشكل الهلال يسمى الكاف به منازل الطين يحيط بها جميعا حائط بارتفاع ١٥ قدما سمكه حوالي ٦ اقدام ، تركت فتحات للبنادق وايضا مواضع متفرقة لمدافع كبروب .  
هنالك ثلاث حاميات قوية تكمل الدفاع عن سواكن . عشرة أميال ناحية الشمال هاندوب التي شهدت حادثة " كتشور " ، بينما تقع تمبوك وسط التلال داخل البلاد وحامية طوكر التي أنشئت لكي تحرم العرب من الاستفادة من دلتا طوكر الخصبة .  
طوكر حامية قوية وتحتاج لكتيبة كاملة لحراستها .

لا يكون أي وصف لسواكن كاملا بدون ذكر الرجل الذي أسهم في شهرتها ذلكم هو " عثمان دقنة " . كان " عثمان دقنة " تاجر رقيق مشهور وعندما حاولت الحكومة المصرية وقف نشاطه اضطر للجوء للمعارضة فانضم لثورة المهدي واستطاع نسبة لنفوذه القوي تجنيد كل قبائل الهدندوة على شاطئ البحر الأحمر للوقوف مع المهدي . لقد عانت الحكومة الامبريالية سنة وراء سنة وضحت بكثير من الرجال والمال في معارك أشبه بصراع الذئاب حول عظام الناشفة ضد عثمان دقنة . في بيكر تيب ، التيب تامي ، توفريك ، نحاسين ، هاندوب ، جيمند وافافيت وهي كانت المعارك التي خاضها " عثمان دقنة " ولم يصب فيها يجرح واحد . لقد هزم مرات ولكن لم يتم القضاء على قوته ، هذا القائد الماكر يمكنه أن يقول إنه حارب أكثر من أي أمير في جيش الدراويش .



لم يتوقع أحد أن يكون التقدم نحو دنقلا ذا اثر على الموقف حول كسلا ، ولكن أثبتت الأحداث نجاح الخطة البريطانية إذ مجرد ما سمع " عثمان دقنة " باحتلال عكاشة، أخذ قوته المكونة من ٣٠٠ من الفرسان ٧٠ هجانة و ٢٥٠٠ مشاة ورجع الى قاعدته القوية في دلتا طوكر . بمجرد سماع الاشاعة بتحركه نحو طوكر، تم إلغاء سفر الفرقة السودانية الخامسة التي كان مقررا لها أن تبحر إلى قصر ومنها إلى قنا عبر الصحراء ، وبقيت لحراسة حامية طوكر .

نسبة لحساسية موقع سواكن سارعت الحكومة البريطانية بوضع خطط لتقوية الدفاعات عن سواكن بقوات قوية .

كانت الاحوال دائما مضطربة في شرق السودان ، لم يكن لحاكم البحر الأحمر أي وجود أو احترام بأبعد عن مدي مدافع سواكن ، كانت قبائل المنطقة تدين بالولاء لمصر لمجرد أن تعيش في هدوء وعلى نحو ٢٠ ميلاً حول سواكن كان بعضها يتعامل مع عثمان دقنة ولو بالرغم منه أحسن مثال لذلك عمر تيتا شيخ منطقة أركويت. في أوائل أبريل أعلن عمر تيتا أن قوات عثمان دقنة شوهدت بالقرب من منطقة أركويت وأعلن أنه وهو حليف الحكومة قد اشتبك معه يوم ٣ وهزمه بخسارة بلغت أربعة جمال وأضاف إذا رأت الحكومة إرسال قوة لمحاربة عثمان دقنة فإنه الحليف المخلص وسيواصل مناوشة إلى حين حضور قوات الحكومة .

بعد اتصالات مع السردار قرر العقيد لويد حاكم سواكن الذي كان يعاني من شدة المرض أنه لا يملك قوات كافية للهجوم على عثمان دقنة عند منطقة أركويت . من سواكن حتى حدود الهند، إن قيام معركة أمر سهل وبمقدار قوة و ثراء الجهة المعتدي عليها يكون الرد . إذا كانوا فقراء يرسل أفراد من القبائل الصديقة أما اذا كانوا أغنياء فتجد فجأة اثنين أو ثلاثة لواءات قد جهزت تشترك في حملة حتى تضاف أيجاد جديدة لسجلات الجيش البريطاني .

في تلك الظروف كانت الحكومة المصرية فقيرة ولم ترغب الحكومة البريطانية الاستفادة من تلك الفرص بل كانت مصممة على إرسال قوة صغيرة لعملية محدودة .

قرر الحاكم إجراء مناورة تحت تلال فور ويتري مشتركة بين القوات من سواكن وطوكر. كانت حامية سواكن تتكون من الفرقة الأولى ونصف الفرقة الخامسة المصرية وفرقة الاحتياطي ١٦ المصرية التي حلت مكان الفرقة الرابعة السودانية ولم يكتمل تشكيلها بعد وسرية من الفرسان وفرق هجانة وبعض وحدات من المدفعية. وكانت حامية طوكر تتكون من الفرقة الخامسة السودانية وبعض المدفعية، هكذا تكونت من هذه القوات في ثاني أسبوع من أبريل "قوة دفاع سواكن" مع احتفال لائق .

كانت الخطة بسيطة فقد قرر العقيد لويد أن يلتقي مع قوة طوكر عند مفترق الطرق تحت تلال بداية الطريق لاركويت ، على أمل أن يزل عثمان دقنة وقوته لتبدأ المعركة في العراء وبعدها عند الانتصار تعود القوات إلى سواكن وطوكر .

وحتى تكون قوات سواكن متحركة ، ركبت القوات في أكثر من ألف جمل و ٦٠ بغل و ١٢٠ حماراً و ٢٠٠ من العرب لقيادة هذه الحيوانات، صرفت تعيينات لسته أيام واحتياطي ماء يوم واحد، وتم صرف عدد ٢٠٠ طلقة لكل رجل وحوالي ١٠٠ قذيفة لكل مدفع. وفي عصر يوم ١٤ أبريل تم استعراض طابور القوة خارج أسوار سواكن ثم عسكرت في العراء جاهزة للتحرك عند الصباح .

في الصباح تحركت القوة المكونة من ١٢٠٠ مقاتل، وبعد مشوار ٤ ساعات في اتجاه جور ويتري ، بلغ الفرسان عن وجود بعض الدارويش من دوريات المراقبة . عندها أخذت القوة تشكيل مستطيل ، الفرقة السودانية المختلطة و ٢ مدفع في الأمام والفرق المصرية الثلاثة الجانبين والهجانة في المؤخرة ، لم تكن الجمال مدربة فخلقت بعض المشاكل عند المرور في المناطق الحجرية ورغم التأخير تم الوصول إلى آبار تيروي في حوالي الرابعة بعد الظهر وهي تبعد ٨ أميال من خور ويتري ، هنا كانت القوة قد قطعت ١٩ ميلاً وقرر الحاكم العقيد لويد أن يتوقف . بينما كانت فرقة المشاة تجهز الزريبة، أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة النقيب " فيونيك " ( ضابط مشاة عـين ضمن المجموعة ) لكي يتم الاتصال بالقوة القادمة من طوكر التي كان من المفروض أن تكون وصلت الى نقطة الالتقاء .

٠ على اعقاد أن عمر تيتا سيرسل تحذيرا عند قرب وصول قوات عثمان دقنسة لم تتخذ القوة أي احتياطات وفي حوالى الخامسة وجدت نفسها فجأة أمام حوالى ٢٠٠ من فرسان الدراويش وعدد كبير من المشاة .

بدأت السرية في تراجع سريع للرجوع الى آبار تيروي ، كان الانسحاب غير منظم كما أسرع بعض الفرسان حول الاحجار والخيران المنتشرة، فسقط ١٦ جنديا من خيولهم وقتل راکبوها فى الحال بالحرا ب ، أخذ النقيب " فيونيك " ٣٦ من المقتلين واحتل قمة تل وأخذ استعدادة كضابط مشاة مدرب للدفاع عن نفسه، بينما واصلت بقية القوة اندفاعها للرجوع للقاعدة . وصل ٣٢ من الجنود بقيادة ضابط مصري يقلل إن حصانه قد حرن وفر الى زريبة تيروي وأبلغوا بأنهم هوجموا وأن بقية القوة إما أبيت أو رجعت لسواكن وما زال العدو يطارهم . كانت الأخبار مخزنة وزاد فى المحنة وصول مجموعة من الدراويش حاملى الحرا ب الى خارج الزريبة فى تيروي . تبرع اثنان لمحاولة الذهاب لتفقد باقى قوة الفرسان أو جيش طوكر لكنهما سقطا قتلا بعد أن طاردهم الدراويش . وانتظرت بقية القوة متوقعة هجوما وشيكا .

زاد القلق فى منتصف الليل عندما شوهدت جموع الدراويش تتحرك فى الخور المقابل للجهة الجنوبية فى نفس الوقت الذى سمعت فيه صيحات العدو القوية من الجانب الآخر واهمرت طلقات الرصاص وكذلك قذائف المدفعية نحو العدو بدون تصويب تضرب فى جنح الظلام ، انسحب الدراويش بعد فترة تاركين وراءهم قتيلا واحدا، وتم تبادل للطلقات متفرقة لكنه لم يجدد الهجوم حتى الصباح ..

فى هذه الأثناء استمر النقيب " فيونيك " فى الدفاع عن موقعه، وصدت الهجمات بنسبة لقلة البنادق عند العدو وأيضا بجدارة القوة فى تصويب نيرانها حتى استطاعوا ان يجبروهم على التراجع. فى الصباح اكتشفت السرية انسحاب العدو فركبوا خيولهم وانضموا لباقي القوة وواصلوا السير حتى وصلوا الى وينتري ، حيث وجدوا أن قوات طوكر قد وصلت بالفعل. لقد استطاع الرائد " سينيدي " الذى كان على رأس ٢٥٠ جنديا فى الفرقة الخامسة السودانية، (القوة الوحيدة التى يعتمد عليها) أن يطرد



المجموعة من الدراويش التي كانت تحتل الخور في ويتري. وهنا وقبل أن تستريح القوات هاجمتهم مجموعة من العرب تتكون من حوالي ٨٠ من الفرسان و ٥٠٠ مشاة ، تصدي لهم رجال الفرقة السودانية ببسالة، وانتهت المعركة بقتل ٣٠ من أفراد العدو مقابل ٣ جرحي من قوات الاحتياطي .

نجحت خطة العقيد لويد وتم لقاء القوتين من سواكن وطوكر في مفترق الطرق مع طريق أركويت لكن ألغيت فكرة انتظار عثمان دقنة لقتاله ورجعت القوات إلى سواكن تاركين ١٨ قتيلاً مصرياً و ٣ جرحي. كان قد أعقب وصولهم فترة قلقه على مصيرهم لدى النقيب " فورد هتشنسون " الذي ترك لحراسة سواكن ، خالية تماماً من أي جنود. وفي حوالي الساعة الثانية ظهراً، وصلت إلى أبواب المدينة بقايا الفرقة ١٦ من الفرسان المصرية مع ٦ جياد بدون فرسان. أنتشرت إشاعة بأن الفرقة قد أسيدت ولم يخف العرب من سكان سواكن سرورهم وبدأ كأن البقية تستعد للتحرش بالموقع. ولكن أنقذت الموقف السفينة الحربية "سكاوث" التي كانت راسية في الميناء حين وجهت مدافعها نحو الأحياء العربية وانزلت عدداً من جنود البحرية بطاير في الشوارع للسيطرة على الموقف إلى أن وصلت القوة المنتصرة واستقبلت استقبالا لائقا وأقيمت الاحتفالات .

أعلن أن نجاح العمليات قد كسر شوكة عثمان دقنة وأمنت دلتا طوكر ومنعاً لحدوث أي حادث يعبر صفو الانتصار أعيدت القوة الخامسة لطوكر عن طريق البحر أولاً إلى ترنكتات ومنها لطوكر. وبقيت قوات سواكن داخل المعسكر في مهام دفاعية بحثة. ثم سمع إن " عثمان دقنة " قد أغار على بعض القرى. وعند وصول الفرقة الهندية كان من المفروض أن يكون عثمان دقنة على بعد ١٢ ميلاً من المدينة، لكنه تراجع إلى أدراما على نهر عطبرة وبقي هناك أثناء الحملة على دنقلا .

لم تتكرر أي عمليات هجومية بعد ذلك في شرق السودان، ولكن رغم عدم مقدرة الدراويش على مهاجمة المصريين نظراً لاستحكامات دفاعاتهم حول المدينة إلا

أنهم بقوا في المنطقة إلى أن تغير الحال بعد سقوط بربر على أيدي القوة الجبارة خلفهم على النيل .

بعد معارك وينتري وضع أن دفاعات سواكن لا يمكن أن تترك للفرقة ١٦ المصرية وحدها بالرغم من مطالبة سير ( هـ . كتشتر ) بارسال أي جندي من الجيش المصري ليشترك في المعارك التي تجري حول النيل وعليه تقرر احضار لواء من الهند ليحل محل الفرقة الخامسة السودانية والكتائب المصرية حتي تتوجه للاشتراك في غزو دنقلا .

اختير اللواء الهندي من الفرقة ٢٦ مشاة البنغال ، ٣٥ السليخ الأولي بومي لانسرز، الخامسة بومي بطارية الجبال ٢ مدافع مكسيم وجزء من الفرقة الملكية (مدراس ) سابرز ومايندز وبلغ العدد الكلي حوالي ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة العقيد ايفرتون من فرقة المرشدين .

وصلت الفرقة الهندية التي كانت تعتبر أقوى فرقة في السودان يوم ٣٠ مايو متحفزة للقتال ولكنها صدمت عندما علموا أنهم باقون في سواكن للحراسة ، لم تتحقق كل الأقوال من أنهم في انتظار ٥٠٠٠ رجل قادمة من الصومال لتقلهم لكسلا وبربر ، وعرض العقيد "ايفرتون" التوجه نحو نقاط اركويت. ولكن رفض عرضه وأبلغ بالبقاء في سواكن وطوكر .

جاءت موجة الحر الفظيع حتي وصلت الحرارة إلى ١١٥ درجة ومعها العواصف الرملية ، ساءت أحوال الجنود وبانعدام الاغذية واللحوم أصيبت نصف القوة بـداء "الاسقربوط" "سكيرفي" الذي من أعراضه الأنيميا الحادة، الضعف العام، تساقط الأسنان ونزيف حاد من جروح مفتوحة وأعراض مؤلمة ومقززة. وهكذا فإن أعداداً كبيرة من الهنود والانجليز تم اعتبارهم غير لائقين للخدمة وأعيدوا للهند وانجلترا وأخيرا أعيد بقية اللواء إلى الهند مما أسعد القلة الباقية. لعله من الأفضل أن تترك الحديث المشعوم الكثيب عن أحداث شرق السودان لتتحول إلى الحديث إلى الحملة الناجحة على النيل .

في منتصف أبريل تمت عمليات تجميع القوات في مناطق الحدود ، تركت كل سبل المواصلات لترحيل المعدات والمهمات إلى الجنوب لأكثر من ١١ ألف جندي

وصلوا الى ما بعد وادي حلفا لكن سوف لا تبدأ أي معارك قبل وصول الامدادات واكتمال القوة الكاملة .

وزعت القوات الى ثلاثة معسكرات قوية ، في وادي حلفا ، صرص وعكاشة ووحدات صغيرة تسيطر على النقاط الصغيرة بين المعسكرات الثلاثة .

بلغت القوة وادي حلفا ٣٠٠٠ رجل بما فيهم "ستانفورد شير شمال" بلغت حدود المدينة. والمعسكر حوالى ٤٠٠ ياردة في العرض محصورة بين شاطئ النهر والصحراء في مسافة ثلاثة أميال، وكانت مكاتب الضباط من الطين ، منازل قليلة ترتفع ما بين دور ودورين على الأكثر. وفي شمال المدينة توجد منازل متينة البناء على شاطئ النهر حول أشجار النخيل، كما أن الحوائط البيضاء ومبارة الجامع تغري المسافر القادم من كوروسكو والشلال بأنه سيجد الترفيه وحسن الاستقبال في منطقة عصرية .

المدينة كلها محمية بخندق طويل وحائط عال من الطين ياتجاه الصحراء مثبت به مدفع كروب حتى التقاء الحائط مع حافة النهر مع خمس حاميات صغيرة للحماية من داخل البلاد لهذا أصبح أي هجوم للعدو الآن علم الفائدة. لقد أصبحت حلفا الآن المحطة الرئيسية، تصلها أطنان من المواد، وبها المخازن والورش مما أضاف ضجة المدينة الى هذه البقعة الافريقية .

لقد تم بناء حامية صرص على ربوة صخرية سوداء على حافة النيل ٣٠ ميلا جنوب حلفا، وخلال سنين التحضير الطويلة اكتسبت صرص أهمية كمركز للقوات القادمة وكآخر محطة لسكة الحديد حتى صارت معسكرا يضم ٦ آلاف مقاتل. تم عمل حائط حجري قوي من أول بداية الصخرة حتى تلتقي مع النهر في الجانب الآخر مع تقوية من السلك الشائك. امتدت صفوف الخيام والحيوانات داخل هذا المعسكر وأصبح العقيد "هنتر" هو قائد الحامية التي عرفت باسم "حامية صرص والجنوب" .

اختار الجيش المتقدم طريقين واحد لبناء السكة الحديد على نفس طريق الخط القديم عبر الصحراء الذي بني عام ١٨٨٥ وقافلة أخرى عن طريق شاطئ النهر، وكانت الفرقة المصرية السابعة تحرس الخط الحديدي بينما كلفت نقطة صغيرة لمرافقة

الحملة بطريق النهر لتأمين الطريق حتي عكاشة. وكبرت القاعدة المتقدمة خلال شهور أبريل ومايو وحتى أصبحت في موقف قوي. في مرة واحدة حاول العدو الاقتراب تصدت له المدفعية طويلة المدى وانسحبت القوة المعادية بعد اول قذيفة ، لم يكن احد يتصور فعالية المدفعية لهذه المسافة حتي اكتشفت في ثاني يوم جثة متفخخة تحت جبة بيضاء عندها هلل رجال المدفعية لقوة مدافعهم . كانت هذه القذيفة إنذار كاف ، لم يحاول بعدها الدراويش التقدم مرة أخرى. لقد ترك السردار القاهرة يوم ٢٢ مارس بصحبة العقيد رندل نائب القائد وبقي فترة قصيرة في أسوان ثم واصل المسير حتي وصل حلفا يوم ٢٥ ، وبقي هناك كل شهر أبريل يشرف ويطلب بسرعة نقل المواد وامتداد الخط الحديدي. ووصل عكاشة في أول مايو بصحبة سرية بقيادة الرائد بيرن ميردوخ، وكانت سرية أخرى قد وصلت عكاشة في اليوم الماضي فاصبح هناك سريتان للفرسان أضيفتا للقوة المتقدمة .

في نفس اللحظة التي وصل فيها السردار جاء بعض الأعراب وذكروا كيف انهم فوجئوا بوجود بعض الهجانة من الدراويش وكيف انهم خسروا اثنين وهم يحاولون الهروب منهم . فامر السردار السريات المصرية الثلاث مع الفرقة السادسة السودانية بملاحقة أي دوريات معادية وعمل استكشاف نحو في ركة .

تحرك الرائد بيرن ميردوخ حوالي العاشرة صباحا مع أربعة ضباط بريطانيين و ٢٤٠ من جنود اللانسز. وبعد مسافة سبعة أو ثمانية أميال من عكاشة مرت القوة بمنطقة تلال رملية تحيطها من كل جانب مرتفعات حجرية تمر بوادي ضيق وقبل أن تتخلص القوة من هذه المنطقة، شاهدت في المقدمة بعض أفراد قوة من الدراويش، هنا ذهب الرائد ليلقي عليهم نظرة ولم تكن فئة من بعض راكبي الجمال لكنها قوة كبيرة تتكون من ١٥٠٠ مشاة و ٢٥٠ خيالة . كانت فرقة الفرسان قد ابتعدت عن باقي المشاة وكان منظر العدو خطيرا. لم يكن فرسان العدو يعدون اكثر من ٣٠٠ ياردة وبدأوا في الاستعداد للهجوم تساندتهم بعض الهجانة من الطرف الأيمن وخلفهم مجموعة كبيرة من حاملي الحراب .

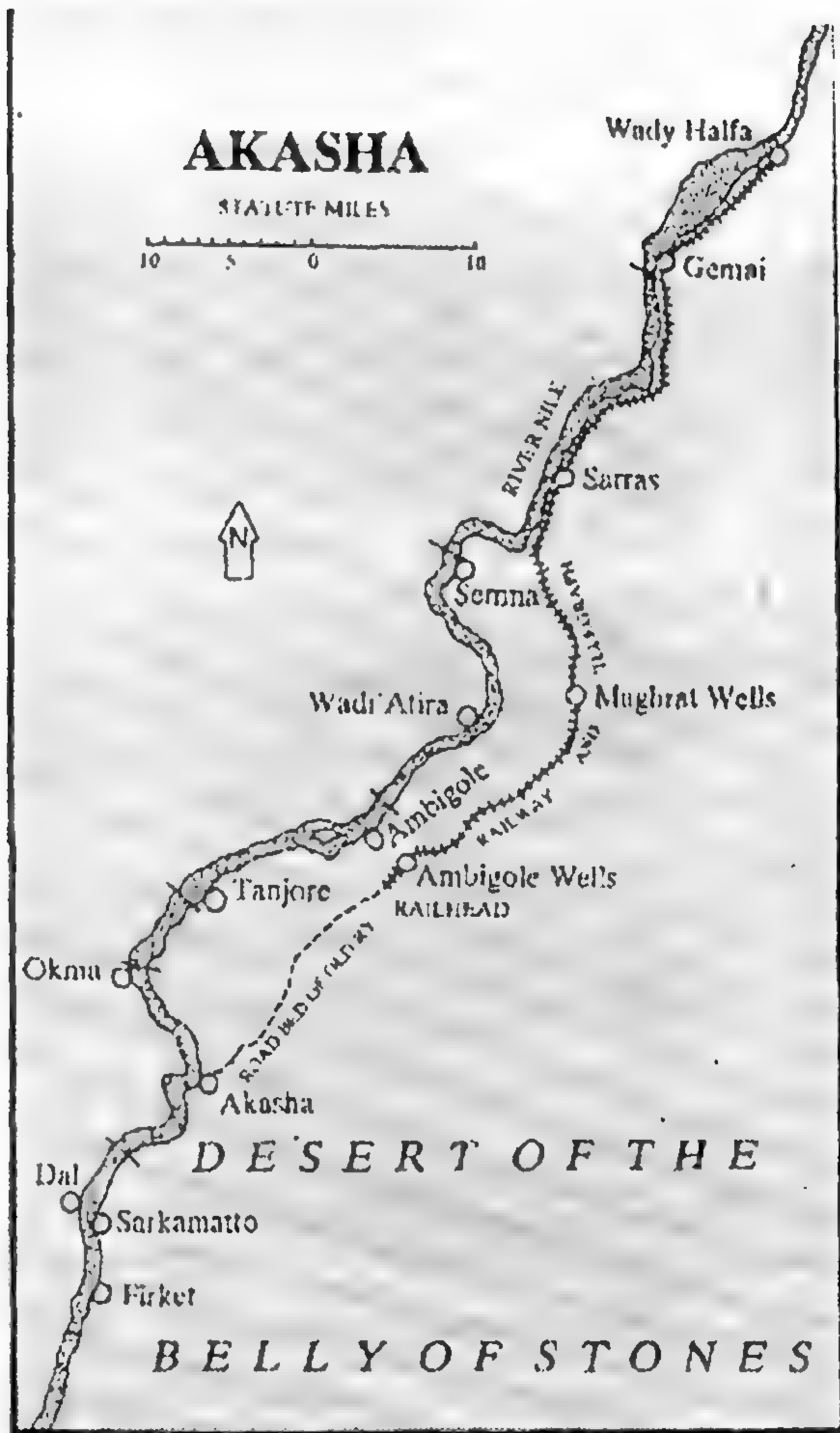




لذلك قرر الرائد الانسحاب من هذه المنطقة ، استمرت السريات في التراجع يلاحقها الدراويش حتي التحمت مع مؤخرتها واضطر الضباط البريطانيون لقتال بالسيف والمسدسات. وسط هذه الضوضاء والارتباك تصاعد الغبار من حوافر الخيل وما كان يجدي أي تقدم في مثل تلك الحالة. لم تبد قوة الفرسان المصرية أي نية للرجوع لملاقاة العدو لكن الضباط البريطانيين الذين كانوا في مقدمة القوة أصبحوا الآن في مؤخرتها وقرب العدو استطاعوا أن يوقفوا تقدم العدو ومعهم مجموعة من الجنود، فتراجع خيالة الدراويش تاركين حوالي ١٢ قتيلًا في أرض المعركة وانضموا لأفراد المشاة. أغلقت سريتان الوادي الضيق لمسافة ٧٠٠ ياردة بينما رجع بيرن ميردوخ مع السرية الثالثة واستطاع تشتيت العدو وطردهم من الوادي ، رجعت السريتان ونزل الفرسان وأخذوا وضعًا مناسبًا لاطلاق النار من التلال القريبة من مدخل الوادي مستعملين بنادق الهرين السريعة الطلقات، كان انهيار روح فرسان الدراويش عاملاً في غدم مغاودة الهجوم المضاد، ولكن إطلاقهم للرصاص بدون فعالية لم يسبب أي خسارة .

إن شدة الحرارة والعطش أثرت على الجنود والخيول خاصة السرية التي كانت ترافق السردار فقد كانت مجهدة من عناء السفر لكن فرقة الفرسان تثبتت في مواقعها واستطاعت ردع القوة المهاجمة التي انسحبت بعد حوالي ساعتين من القتال. وصلت الفرقة السودانية متحفزة لقتال العرب لكن كان العدو قد تم انسحابه بالكامل ورجعت القوة للمعسكر ومعها الخراب وستة خيول كانت غنيمة المعركة، ولكي نتخيل شدة الحرارة فإن أحد الجنود الأفارقة قد مات بسبب ضربة شمس .

هكذا كانت أحداث أول مايو رغم القتال الشرس لم تكن الخسارة تذكر. لقد جرح النقيب البريطاني "في تول" وقتل جندي محلي وجرح ثمانية جنود جراحاً خطيرة. لقد استمرت الاستعدادات لاحتلال في ركة واكتملت تمامًا مع نهاية الشهر. إن وصول المعدات والمهمات المستمر الى عكاشة قد جعلها قاعدة قوية يمكن للقوة أن تستند عليها لمدة شهر بدون الرجوع الى الشمال ، واصل تقدم الخط الحديدي بما يوازي نصف ميل في اليوم حتي وصل آبار أم بكونل حيث أقيمت حامية بها أربعة مدافع وقوى في



الاستحكامات ، انخفضت المسافة التي يجب أن يقطعها مسافر من صرص الى عكاشة الى النصف وتضاعفت كمية المؤن المرسلة ففقدت صرص مجدها المؤقت وتحولت عكاشة الى القاعدة الجديدة. لم يبق أي جنود حتي وادي حلفا بها كتيبة الجنود البريطانيين فقط، ووصلت الكتيبتان المصريتان من سواكن كذلك الفرقة السودانية الخامسة في الطريق . تم رصد كل المنطقة بعد عكاشة ورسمت الخرائط أصبح كل شيء جاهزا .

بدأ التجمع في أوائل يونيو عندما تحرك السردار من حلفا الى الجبهة . وقف العمل في خط سكك الحديد وترك الجنود "الكواريك" وحملوا بنادق الريمنجتون وأصبحوا حراسا لنقاط المواصلات . سمح للمراسلين الحربيين بالتحرك الى عكاشة يوم ٢ يونيو، وفي ٣ يونيو تحركت الفرقة السودانية مرورا بابار امبكول في طريقها جنوبا تبعثها المدفعية المحمولة على الجياد والسرايا والكتائب المصرية التي كانت تعسكر على طول خط النهر في النقاط المهمة بين امبكول وعكاشة أيضا تحركت الى الجبهة مقابل أو كما وتحركت الفرقة المصرية الرابعة والسابعة من عند رأس الخط الحديدي وبذلك وصلت آخر الكتائب الى الجبهة .

بلغت القوة تسعة آلاف مقاتل مع كل احتياجاتهم وتم تجميعهم بالقرب من قوات العدو .

ظل الدراويش في فرقة يشاهدون، بيلادة وتراخ وبلا اهتمام كل ما يجري من استعدادات لإبادتهم . وكان من المفروض أن يكونوا ملمين بمعلومات أكيدة عما يجري. إذا كانت دوريات الخيالة المصرية قلز منعت أي مناورات لهم فإن عيونهم كلنت في المعسكر عن طريق سائقي الجمال وحاملي المياه وغيرهم من العرب المتصلين بالقوة القادمة . صحيح لم يكن في مقدورهم معرفة التاريخ المحدد للهجوم لكن ما كان امامهم غير التراجع لأن الهجوم لابد أن يكون وشيكا بعد اكتمال القوة في عكاشة .

كان الأمير حمودة لا يملك أكثر من ٣ آلاف رجل على الأكثر ولا يمكن حتي مع سبعة وخمسين أميرا أن يرجح هذا قوة الدراويش على كفه الجيش الكبير ، فبنادقهم

سيئة والمؤن شحيحة وكان أمامهم وقت للانسحاب لمنطقة كوشية أو صوارده حتي  
يعدوا عن سيف العدو البتار. لكنهم لم يرضخوا لهذا الخيار. عناد وغباء للآخر  
ومضيعة للوقت حتي هبت عليهم فجأة فاجعة كبرى وابداهم عن الوجود كقوة  
عسكرية .

## الفصل السادس

فرقة ٧ يونيو ١٨٩٦

كانت قوة الدراويش في فرقة تحت إمرة الأمير "حمودة" منذ نهاية عام ١٨٩٥ . وكان لتراخي وكسل هذا العربي الفاجر السبب المباشر في تمكين القوة المصرية من تقوية مواقعها في عكاشة بدون أي قتال ، أسبوع تلو الآخر ظلت هذه القوة تكابد في مناطق وعرة بين صرص وعكاشة دون أي مناوشات أو دون أن تتعرض الأورطة في عكاشة للهجوم أو تظهر هذه القوة أي محاولة لعرقلة سير خطوط اتصالاتها .

لم تغب هذه النتائج الفاذحة التراخي وعدم فعالية الأمير "حمودة" عن "ود بشارة" حاكم مديرية دنقلا وبالرغم من سلطته على كل القوات في المنطقة إلا أنه كان يفتقد بسط سيطرة بشكل فعال. وعندما تكررت شكواه من حمودة بدأ الأخير بعض التحرك، فأرسل فرق استطلاع أغارت على مواقع القوة المصرية في عكاشة لأكثر من مرة ولكن هذا لم يرض "ود بشارة" فاقصاه من منصبه وعين بدلا منه "عثمان ود أزرق" .

عثمان كان درويشا من نوع مختلف ونوعا آخر من الرجال.. كان من أخلص المتعصبين والمؤمنين بالمهدي مع إخلاص قوي للخليفة ظل يعمل في الحدود الشمالية لسنوات طويلة وكان معروفا لدى السلطات المصرية من الغارات الجريسة الوحشية وكان قاسيا على الأهالي المساكين الذين يسكنون في قري الحدود وبالتالي ما كان لينال أي رحمة لو وقع في أيدي العدو .

مهارته وخبرته قد حمته ولكن بين كل الأمراء الذين اجتمعوا في فرقة فان موت "ود أزرق" سوف يسعد السلطات العسكرية أكثر من أي قائد آخر خاصة وأنه الآن تسلم القيادة من حموده .

لا يمكن الجزم بأن "عثمان ود أزرق" قد تسلم القيادة من حموده في يوم ٦ يونيو ولكن من المحتمل أن حموده لم يعترف له بذلك الحق واستمر الخلاف بينهما . وعلى



كل حال اراد " ود أزرق " أن يأخذ زمام المبادرة ولكي يثبت سلطته ببساطة ، اخذ كتيبة هجانة قوية عند الظهر وترك فرقة لاستطلاع مواقع العدو في عكاشة .  
تحرك بحذر ووصل لمشارف معسكر عكاشة بدون أن يلحظه احد، وكانت القوة التي سوف تهاجم فرقة في الفجر تجري طوابير العرض ، لكن شدة الغبار منعت الرؤية ولم تكتشف الكتيبة أي شيء غير عادي. لقد رسم الدراويش خمس الاضلاع على الأرض لجلب الحظ وعاد إلى فرقة ليستمر في حوارهم مع حمودة بعد أن أعلن أن الأتراك هادئين.

كانت القوة التي أعدها السردار للاستيلاء على فرقة تسعه آلاف مقاتل مكونة من الآتي: -

القائد - السردار

\* سلاح المشاة تحت قيادة العقيد " هنستر

اللواء الاول	اللواء الثاني	اللواء الثالث
الرائد / لويس	الرائد / ماكدونالد	الرائد / ماكسويل
الفرقة المصرية الثالثة	الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة الثانية المصرية
الفرقة المصرية الرابعة	الفرقة السادسة السودانية	الفرقة السابعة المصرية
الفرقة الخامسة السودانية	الفرقة السابعة السودانية	الفرقة الثامنة السودانية
الفرقة الثامنة السودانية		

\* سلاح الفرسان تحت قيادة الرائد " بيرن ميردوخ " :

٧ سرايا سلاح الفرسان المصري

٨ فرق قوات الهجانة

\* سلاح المدفعية :

١ بطارية تجرها الخيول

٢ بطارية ميدان

١ بطارية مدافع مكسيم

كان هناك طريقان من عكاشة لفركة ، أحدهما يحاذي النيل والآخر عن طريق الصحراء على خط السكك الحديدية المتوقع وقرر السردار أن يستعمل كلنا الطريقين وقد قسمت القوة الى قسمين ، القسم الاول بقيادة السردار تسلك طريق النيل وتتألف من سلاح المشاة ، مدفعية الميدان ومدافع المكسيم .

وقوة الصحراء تحت قيادة الرائد " بيرن ميردوخ " تكونت من القوة الراكبة ، المدفعية التي تجرها الخيول وفصيلة من مشاة الفرقة السودانية السابعة بقيادة "ماكدونالد" ، وأعطيت جمال وكان العدد الكلي حوالي ألفي رجل . أعطيت تعليمات محددة للقوة الصغيرة وكان على "ميردوخ" احتلال التلال جنوب شرق فركة عند الساعة الرابعة والنصف صباحا على أن ينشر قوته بحيث تحتل موقعا نحو الغرب ، الخيالة على الشمال ، الهجانة في الوسط والفرقة السودانية السابعة على الجنوب ، الخيار الوحيد الذي يترك لتقديره هو قوة المدافع التي تجرها الخيول، وقد حذر من ان تكون قوته على مدي نيران المشاة . بمجرد أن يتم طرد العدو ، تنضم الفرقة السودانية السابعة لقوة السردار على أن تواصل باقي قوة ميردوخ، الهدف أولا كويكا ثم صواردة .

تحركت لواءات المشاة من عكاشة حوالي الساعة الثالثة والنصف عصر ٦ يونيو على طريق النهر. كان لواء لويس في المقدمة مع الفرقة السودانية الخامسة ومدفعية مكسيم ، باقي المدفعية ثم لواء ماكدونالد وبعده لواء ماكسويل تتبعه مستشفى الميدان ونصف كتية كاحتياطي. سار السردار خلف المدفعية وترك آخر خط القوة المعسكر في الرابعة والنصف ، وبعد ساعتين تحركت قوة الصحراء الراكبة . حققت قوة طريق النهر بعض التقدم قبل حلول الظلام بعدها كان التقدم بطيئا ومرهقا ، سار الطريق في منعطفات ضيقة وأرض ملأى بالحجارة لم تسمح بمرور أكثر من أربعة رجال في الوقت الواحد، وتعثرت البغال لعبور الطريق الضيق ، لم يظهر القمر وكان الظلام كاملا واستمر تدفق الرجال في صفوف طويلة لا يسمع صوت سوي صوت أقدام المشاة والعتاد الذي يحملونه. حوالي الساعة العاشرة والنصف وصل لواء لويس لأول منطقة

رملية مسطحة حوالى ميل واحد شمال قرية ساكاماتو ، هذه النقطة هي التي قرر السردار أن يتوقف عندها للراحة وهي بالكاذ تبعد حوالى ثلاثة أميال من العدو .  
كان شاطئ النيل مناسبا للتمويل من المياه زودت القرب والزمزمينات بالمياه شرب الجنود والبهاائم وقدم بعض الطعام وتوالى وصول القوات واحدة خلف الأخرى الى أن اكتمل وصولها عند منتصف الليل، وبذلك تم تركز كل قوة لويس وماكدونالد برئاسة السردار .

فى ذات الوقت كانت القوة الراكبة فى طريقها المرسوم، وكما حدث لقوات طريق النهر عانت القوة من وعورة الطريق ولأن الفرقة السودانية السابعة لم تعتد ركوب الجمال حل الارهاق بافرادها وبعد الساعة الواحدة حل التعب والنعاس بكل افراد الفرقة وعانى الضباط الكثير وهم يحاولون الابقاء عليهم يقظين وهم على ظنهور الجمال. وصلت على أى حال الفرقة نقطة فرقة فى الساعة الثالثة الا ربعا . عندها ترحل افراد الفرقة السودانية من الجمال وعملوا تشكيل قوة مقاتلة من جديد .

ترك الرائد ميردوخ الجمال الزائدة تحت حراسة خاصة وتقدم لاحتلال التلال فى المواقع المحددة له قبالة قرية فرقة .

تحرك السردار مع المشاة حوالى الساعة الثانية والنصف بدأ يظهر القمر على قمم التلال شمال طابور القوة وكان ما زال هلالا يرسل ضوءا ضعيفا . تم التقلب على اصعب جزء فى المسيرة بمجرد أن بدأ التحرك بعد الراحة وبدأ زحف ٦ آلاف جندي فى طابور واحد مع قرب طلوع الفجر واقترب معسكر الدراويش بدأ القلق يظهر على السردار وأعوانه وأرسل مناديب لباقي القوة لتسرع فى الخطي حتى عبرت القوة كالقطيع متزاحمة ومتدفقة من باب واحد وفى الرابعة تخطي اللواء المتقدم آخر العوائق وانتهت بذلك مرحلة عصبية فى تخطي المعر الضيق .

وفجأة ومن ناحية الجنوب بدأت أصوات الطبول تعلن أن الدراويش مستعدون وربما هاجموا القوة قبل أن تستعد، صمت صوت الطبول فجأة، فلقد كانت إشارة

لموعد صلاة الفجر لم تكن انذارا وظل الدراويش على جهلهم بالقوة القادمة لهلاكهم السريع، مضوا في طريقهم لأداء شعائر الصلاة .

ظهر جبل فركة الكبير مع بصيص الضوء الضئيل في الأفق، على شمال القوة ظهر بينه وبين النهر شريط ضيق من الشجيرات والأعشاب وبعض أشجار النخيل وهنا طلب من اللواء الذي في المقدمة أن يترجل ويستعد .

كان الموقع يسع بالكاد الفرقة السودانية الخامسة لتكوين طابور اصطفااف واكتفت الفرقة الثالثة والرابعة المصرية بتوسيع رقعة التشكيل بالنسبة للسرايا الثالثة على يمين مؤخرة الفرقة الخامسة ، الرابعة في مؤخرة الوسط وبدأت القوة تظهر الآن في الفضاء الواسع كلما اتسع الطريق الخارج من الوادي الضيق على شاطئ النيل . توزعت بطاريات المدفعية الاولى شمال الخامسة السودانية والثانية على يمينها . ظهر ضوء النهار وبدأ أن قرية فركة تبعد نحو ميل واحد ترقد خلف كثبان التراب ولم يظهر أي دليل على أن الجيش الغازي تم اكتشاف تحركه، واكد الصمت بعد احتمال أي هجوم مضاد .

توقف اللواء الذي في المقدمة والمدفعية حتى تتاح الفرصة لماكدونالد تجهيز كتائبه الى سرايا . عند الساعة الخامسة بدأ التقدم هنا جاءت طلقة من عند كتف الجبل معلنة أن النقطة المتقدمة لجيش الدراويش قد شاهدت الخطر القادم . جاءت طلقات اخري متتابعة رد عليها من الفرقة السودانية بمجموعة ( ضرب جماعي ) سرعان ما تبعتها طلقات المدفعية من مدفع الميدان ومدافع الخيالة ، مفاجأة العدو كانت كاملة . أصوات دانات المدفعية زادت في حماس القوة الغازية وشجعهم أكثر عنصر المفاجأة للهجوم عند طلوع الفجر .

وصلت الفرقة السودانية الخامسة الى أعلى نقطة كانت تحفى قرية فركة وظهرت القرية كاملة أمامهم تمتد على طول الشاطئ ، عبارة عن مجموعة متناثرة من بيوت الطين بطول ميل واحد وعرض حوالى ٣٠٠ ياردة تتخللها جدران من الطين ومنازل صغيرة في نهاية شمال القرية وظهرت أشجار النخيل وأيضاً بعض المراكب الراسية على

النيل التي يستعملها العرب وعلى شمال القوة هناك ما يشبه تل من الحجارة على رأسه  
أعلام يبدو كمعسكر للقرية .

على طول الفضاء الواقع بين التل ظهر مثلث الدراويش على ظهور الخيل وراجلين  
يسرعون في تنظيم دفاعاتهم ظهر بعضهم على أعلى تل الحجارة لينظر بنفسه لمشاهدة  
القوة القادمة للآعداء وانهاالت بعض الطلقات على بيوت الطين وحجارة التل الأسود .  
تطور الهجوم بسرعة تدفقت اللوآت في المر الضيق بين الجبل والنهر وانهمرت النيران  
من الشمال واليمين من القوات المهاجمة، فتحت الفرقة السودانية الخامسة نيرانها على  
بيوت القرية من المنطقة العالية التي احتلتها ، المصرية الثالثة والرابعة نزلت على شمال  
ويمين القوة الأساسية المهاجمة. وبدأت مدافع البطاريات ومدافع المبكسيم تفتح نيرانها  
على قوة المشاة المتقدمة نحوهم . هجم لواء " لويس " على القرية من الجنوب وجاء  
ماكدونالد يتقدم لواءه من جهة الشمال حول نهاية التل الحجري جانبا نحو الشمال  
كانت هناك شجيرات وبعض الحجارة وبحور صغير مما أخر تقدم قوته قليلا .

ظهر جليا الموقف الحرج الذي وضع فيه العدو فبدأ في إطلاق النيران بصفة  
مستمرة ولكن الفرقة السودانية المتحمسة واصلت هجومها نحو التل وعندما أصبحت  
على بعد ٢٠٠ ياردة ظهر حوالي ٥٠ خيالة من الدراويش تهاجم الجناح الشمالي للفرقة  
ولكنها لم تستطيع مقاومة النيران الشديدة المركزة .

عندما رأى باقي الرجال إبادة الخيالة وهي تضم الأمير حموده والأمير النور عنقرة  
أمير الجهادية أخلوا التل وتراجعوا لموقع آخر ، تابعت الفرقة السودانية بالسلاح الأبيض  
والذخيرة مطاردة العدو وفوق وتحت التلال حتي تمت تصفية المنطقة من المقاتلين لم يبق  
إلا الجثث وسارع الفاريون نحو شاطئ النهر .

نظم اللواء نفسه متجها للغرب والجنود لاهثيون ينظرون إليهم بينما كان لواء  
ماكدونالد يهاجم التلال ، دخل لويس الى القرية ومعسكر الدراويش ، أبدي العرب  
من خلال الفتحات الموجودة في المنازل مقاومة صلبة وانشغلت الفرقة الرابعة في معركة  
حقيقية ، أصيب جواد كابتن الفرقة " سباركس " في أربع مناطق ، واستغل المصريون

تفوقهم العددي والتسليح القوي في البلاء بلاء حسنا في المعركة كانت نقطة تحول في هذه الحرب .

عندما جنح اللواء " لويس " الى اليمين واتجه نحو لواء " مكدونالد " الى الشمال انفرجت مساحة واسعة عند الوسط فجاء لواء ماكسويل واحتلها وكونت اللجواءات الثلاثة خطا واحدا ثم كونت شبه نصف دائرة متجهة نحو الغرب الى اتجاه النيل والعدو بعد ان فشل في صد الهجوم الكاسح لم يكن أمامه سوى التقهقر نحو النهر . كان في مقدور القوة على طريق الصحراء التحرك وقطع خط الرجعة على تراجع العدو ولكن الانحدار الشديد في المنطقة الممتدة على شاطئ النهر من الناحية الجنوبية كانت تقع خلف مرتفعات حجبت الزاوية تماما ووجد الفاريون فيها ملجأ .

بدلا من أن يقطع سلاح الفرسان والمهجانة جناح اكتفوا بمطاردة العدو الذي كسر خطوطهم ، وقد استطاع بعض الفارين الهروب ناحية الجنوب واستطاع اخرون السباحة الى الضفة الغربية . عثمان أزرق العنيد وسلطته الآن بلا منافس إذ يرقد منافسه جثة هامدة ( حميدة ) ، استطاع أن يركض مع خيوله من أرض المعركة ووصل الى صواردة .

ظل باقي الدراويش يحاربون داخل البيوت حتي النهاية مفضلين الموت والشهادة بدلا من التسليم للغازين .

طوقت اللجواءات الثلاثة القرية بالكامل واستطاعت تطهيرها خطوة خطوة وتقدمت الى حافة النهر ولم يتوقف لواء مكدونالد وواصل ودخل المياه الضحلة حتي احتل الجزيرة .

رفض العرب الرحمة واستمروا في مقاومة ولو انها كانت بلا فعالية ، وجدت اكثر من ثمانين جثة هامدة داخل بعض البنايات وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة أوقف ضرب النار واصبح كل معسكر الدراويش تحت قبضة القوات المضربة ، وانتهت بذلك معركة فركة .



شغل السردار نفسه الآن بمطاردة القوة المتقهقرة وأخذ كل القوة الراكبة وتوجهه الى موجراكا حوالى ٥ أميال جنوب فرقة واصلت فرقة الفرسان والهجانة مسيرتها حتى وصلت صواردة واستطاع عثمان أزرق ان يجلي النساء والاطفال الى الشاطيء الغربى للنيل مصحوبة ببعض القوات والمؤن قبل أن تصل القوة الى صواردة. عند وصول سلاح الفرسان ، لجأ الى التراجع شرق النيل بدون قتال وكان معه بعض القوة الراكبة. تأخر الأمير الذي انيط به مرافقه الأهالى الى الشاطيء الغربى وتعرض لوابل من الدانات من مدفعية الخيالة طويلة المدى ، عندها قرر الأهالى الذين أرهقتهم المعارك، الكثيرة التي اجتاحت المديرية الشمالية وكل هذه المدة الطويلة ، قبول قدوم الحكام الجدد بترحاب وتوقف النشاط عند صواردة .

ولكن بعد أسبوعين توجه النقيب " ماهون " بسريتين و ١٦ من قوات الهجانة لمسافة عشرين ميلا جنوبا واستولي على شونة من الجنوب .

كانت خسارة الدراويش كبيرة إذ بلغت ٨٠٠ قتيل على أرض المعركة ٥٠٠ جريح و ٦٠٠ أسير. بينما كانت الخسارة من الجيش المصري واحد ضابط بريطاني و"النقيب الى جي" جرح وقتل ٢٠ مقاتلاً من السودانين وجرح ٨٣ .

تم تصنيف معركة فرقة على أنها المعركة الكاملة وتم كتابة التقارير الرسمية ويبقى للقارئ أن يتخيل قوة التلاحم وفضاعة القتال. لقد كانت العملية كلها مخططاً لها تخطيطاً جيداً ونجاح والتنفيذ كان مثاليًا. وصول القوة بالليل بعد المشوار الطويل ووصول اللوائين في توقيت واحد برهن على النظام والتدريب برهنت وأسهم في نجاح المعركة ، النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه هو فشل قوة طريق الصحراء في وقف القوات المتراجعة نحو النهر ولكن يجب أن نتذكر طول سكة السبقر وأنه لم يكن أحد يدرى مدي القوة الراكبة . كانت أخبار المعركة الناجحة ذات صدى طيبا في إنجلترا وظل الجميع يترقب أخبار الحملة بفضول واهتمام شديدين .

## الفصل السابع

### استعادة مديرية دنقلا

ان الفرص في الحرب كثيرة بحيث لا يمكن تقديرها، إن القاريء للقصة أو المحارب المشترك فيها ليشعر بأنه كانت هنالك عدة احتمالات وحوادث كانت إحداها كفى لـ بتغيير سير الأحداث اذا تمت بالفعل. وأصبحت حقيقية . لاشك أن سطوة الإمكانيات تلعب دورا مهما في اللحظات الخاطفة عند الصراع تموج خطوط الحقيقة المؤكدة لترمي بظلالها المبهمة على كل جانب، ماذا إذا من الاحتمالات . نحن نعيش في عالم مليء بكلمة لو ، ماذا حدث أو ماذا كان سيحدث لو ، ولن نستطيع التحكم في هذه القوة غير الحبلى باليقين وستذهب كل محاولتنا أدراج الرياح وعليه لعله من الحكمة وراحة البال أن نتخيل أن كل الفرص الجيدة والفرص السيئة سوف تتساويان في النهاية وعلىنا إبعادها تماما من حساباتنا .

لقد كان حظ السردار في السودان مضرنا للأمثال كما سوف تتضح الصورة ونحن نواصل السرد والأمثلة كثيرة : -

كان من حسن الحظ أن الدراويش لم يهاجموا خطوط المواصلات ، أو الانقضاض على عكاشة قبل الاستحكامات ، كان من حسن الحظ أنهم حاربوا في فرقة، وانسحبوا من بربر وأن محمود لم يتقدم في يناير وتقدم في مارس ولم يتراجع قبل عطبرة، وأن الخليفة لم يحتل السبلوقة ولم يهاجم بالليل وانتظر حتى الفجر .

ولكن بعد فرقة كانت كل الأشياء على العكس تماما، أصاب سوء الحظ القوة مرة بعد أخرى كل الصعاب التي يتم التغلب عليها تأتي غيرها في الحال . شهد خريف ١٨٩٦ كثيرا من التأخير وخيبة الأمل . حالة النيل ، العواصف الفيضانات وباء الكوليرا ومشاكل أخرى كلها كدرت القائد ولكنها لم ترهقه ، كانت هناك وقفة طويلة للعمليات بعد انتصار معركة فرقة .

حقق الجيش وثبة للأمام ، يجب أن يستعد ليحقق قفزة أخرى ، استمرت الاستعدادات بخطى سريعة وقد انشئ معسكر قوي في فرقة ووصل لواء ماكدونالد الى صوارده بعد يومين من المعركة وأصبح هذا الموقع الجديد هو النقطة المتقدمة للقوة تماما كما كانت عكاشة في المرحلة الأولى للحملة . بدأت المعدات ترد الى فرقة وصوارده بشكل منتظم ونسبة للتخطيط المسبق للعمليات كان بالامكان تجهيز - وفي ظرف أسبوع واحد كل المؤن التي تكفي حامية صواردة المكونة من ألفى مقاتل لمدة شهرين وتكفي القوة العسكرية في فرقة وقوامها ٧ آلاف جندي لمدة شهر . تكثف النشاط بعد هذا في الإسراع في بناء الخط الحديدي لتأمين الاحتياجات اليومية لتسعة الآلاف مقاتل على أن تنمو القوة تدريجيا .

وصل الجيش الآن الى نقطة هي أبعد ما تكون عن صلاحية الجمال وأي نظام تموين يعتمد على ظهور الحيوان اللهم إلا إلى مسافات قصيرة وأصبح من الواضح منذ الآن أن السبيل الوحيد للتقدم هو إما عن طريق خط السكك الحديد أو طريق النيل إلا إن الأفضل عن طريق كليهما .

من عند شلال دال بالقوب من كوشة يفتح طريق النيل الى مروي عند ارتفاع منسوب النيل فكان لزاما اذا تم توصيل خط السكك الحديد الى كوشة قبل ان يبدأ أي تحرك جديد فعال . كانت هناك ملاحظة أخرى وهي وجوب اشتراك البوارج مع الجيش الزاحف لطرد قوات الدراويش من كرمة ودنقلا . كانت هناك أربع بوارج هي "التامي" "التيب" "التمة" "وابو كليا" وثلاث بواخر "الكيار" و " دال " و " عكاشة " وكان من المفروض تسليحها . كانت هذه البواخر تبحر من اسوان لواء حلفا وساعدت في حماية الحدود من الدراويش . تجمعت كل هذه البواخر عند الشلال الثلثي في انتظار ارتفاع منسوب النيل حتي تعبر . لزيادة هذه القوة البحرية لقد تم طلب ثلاث بواخر حربية جديدة من إنجلترا لتنضم للأسطول النهري كانت ستحضر مفككة حتي الشلال الثاني يتم تركيبها هناك .

كان لزاما أولا وصول خط السكك الحديد الى كوشة - ثانيا أن يرتفع النيل -  
ثالثا على البواخر الحاملة للمدافع القديمة أن تتخطى الشلال - رابعا على أن تبحر  
البواخر الجديدة في المجري الرئيسي الواسع في النيل خامسا بجميع المون والعتاد - وهكذا  
شغل السردار نفسه بكل تلك المهام الجسيمة .

استمرت إعادة بناء خط السكك الحديد الى عكاشة وامتداده حتي كوشة وقد  
وصل الخط الى عكاشة في ٢٦ يونيو . انتهى هنا الخط القديم وكان لزاما على  
المهندسين عمل دراسات جديدة ومسح شامل للمنطقة لتحديد خط سير الخط الجديد .  
تم الاستعانة بفرق من كتائب المصريين والسودانيين وظل العمل متواصلا حتي وصل  
الخط الى فركة يوم ٢٤ يوليو والى كوشة يوم ٤ اغسطس .

تبعد كوشة ٦ أميال جنوب فركة وتتكون كباقي السودان الحربي من بضعة  
منازل من الطين هي بقايا قرية متهدمة استقر الرأي على تحويل المعسكر من فركة الى  
كوشة لأسباب واضحة وجيدة إذ تقع بعد شلال دال وينفتح بحري النيل بدون عوائق  
الى ما بعد دنقلا .

ساءت الأحوال الصحية في فركة بعد المعارك وانتشار الجثث التي تحللت  
وأصبحت مصدرا للعدوي وظهرت أمراض الدوسنتاريا كأنها انتقام من الأرواح التي  
مازالت على قيد الحياة وتلوثت مياه النيل بالإضافة لما تحمله أول أيام الفيضان من  
رواسب الأحراش من الاستوائية في جنوب البلاد، لقد كانت المياه غير نقية وخطرة ولم  
يعد ممكنا بقاء المعسكر في مثل تلك الأحوال .

كانت أولى الشحنات على القطار القادم الى كوشة هي البواخر الحاملة للمدافع  
ومعداتها وأطنان من الحديد والماكينات والأسلحة والورش التي تم تجميعها على رصيف  
كوشة ومئات الأجزاء بدأ تركيبها حتي تحولت كل تلك الأكوام الى آلة الحرب الهائلة .

كانت البواخر الجديدة ذات صفات كثيرة ، كان طولها ١٤٠ قدما بالمقارنة مع  
البواخر القديمة ٩٠ قدما وعرضها ٢٤ قدما تبعد ١٢ ميلا في الساعة ولها اضلع سميكة  
تحميها من القذائف بالإضافة الى تسليحها القوي . لقد تم تركيب عدة مدافع قوية في

كل باخرة بالاضافة لمدافع الماكسيم وأماكن لحفظ الذخيرة وتلغراف وكشافات واوناش ومعدات حديثة ومع كل هذا لا تحتاج لغاطس أكثر من ٢٣٩ بوصة من المياه .  
نص العقد على تسليم الباخرة " الظافر " في ٥ سبتمبر لكنها وصلت مصر يوم ٢٣ يوليو . تم بناء الباخرة ومعداتها في لندن ثم رقت أجزاؤها وفككت وشحنت لمسافة ٤ آلاف ميل تم إعادة شحنها سبع مرات خلال تلك الرحلة ومع هذا لم يفقد أي جزء منها شحنت من لندن للاسكندرية ثم تم ترحيلها الى كوشة حيث تم تركيبها كاملة .

كان قرار نقل معسكر الجيش من فرقة الموبوءة قرارا صائبا . إذ سرعان ما ظهر وباء الكوليرا في مصر ووصل الوباء مع خطوط امداد السردار من حلفا بسرعة شديدة . وكانت أول ضحية في صفوف الاستفورد شير واستمر الوباء حتي نصف أغسطس في معسكر جمعي واستمر حتي وصل المعسكر في كوشة وتوفي أكثر من ثمانمائة جندي وضابط ، كان هذا عدوا لا يمكن بمجاهته ، سلاحه أخطر من أي سلاح في المعركة لم يتدربوا قط على مواجهته . أصاب الإحباط كل أفراد القوة بالرغم من محاولات الضباط الانجليز للتماسك ورفع الروح المعنوية الا أنهم أكثر من عاني بحكم معرفتهم بخطورة الداء فرص في مثل هذه الحالة هنا أن تصبح نعمة الخيال نقمة . كانت أياما عصيبة وكان الإحساس بفقد الأصدقاء والزملاء في لحظة إحساسا مدمرا كانت حصيلة الإصابات والخسائر من جراء الكوليرا على حملة دنقلا كما يلي :

وفيات	عدد الإصابات	
١٩	٢٤	أفراد الجيش البريطاني
٢٦٠	٤٠٦	أفراد الجيش الأهلي
٦٤	٧٨٨	المرافقون

خطف الموت نتيجة للوباء الرهيب خيرة الرجال من خطوط المواصلات والجيش البريطاني والجيش الميداني ، الشجاع في نيك "بول هويل" ضابط سكك الحديد الذي ملك حب المصريين ، الدكتور الشجاع "تراسك" المهندس "نيكلسون" من لندن

و"فارمر" كبير ملا حظي الميكانات في حلقا، "ورودي اويين" طيب القلب كنهم  
ضمتهم المقابر في حلقا أو تحت سفح جبل فركة. مع منتصف أغسطس انتهى شط-  
الكوليرا ولكن كان لزاما التشديد في النواحي الصحية واتباع نظم الكرتينه مما قل من  
مستوي التقدم في جميع العمليات .

كانت هناك مشاكل من نوع آخر أراد السردار استخدام المراكب الصميرة  
الخاصة بالأهالى للمساعدة في نقل التموين وبعض العتاد وبدأ بالفعل في هذا العمل  
مستفيدا من الرياح الشمالية الى أن تغيرت الرياح فجأة من الجنوب الى الشمال  
واوقفت ذلك النشاط .

كان من الأهمية بمكان الإسراع في نقل البوارج الى ما بعد الشلال الثاني الذي  
ينخفض ٦٠ قدما وطوله حوالى ٩ أميال . يمر النيل على عدة مساطب حجرية داخل  
الماء باندفاع شديد ولكن سطح منبسط وعندما ينحسر النيل تبدأ الحجارة في الظهور  
ويهبط النيل بعنف تاركا وراءه الزبد الأبيض يغطي الحجارة السوداء .

يمر النيل عند الشلال الثاني بمنطقة ضيقة بين كتل الصخور تشكل عقبة كبيرة لاي  
ملاحه ، اكثرها صعوبة هي ما يعرف بالبواب الكبير التي يبلغ عرضها ٣٠ قدما ،  
وينخفض النيل هنا لعشرة أقدام في سبعين ياردة وينحدر ٥ أقدام في المرة الواحدة ،  
تتكون بحيرة من اندفاع المياه عند زراعي النيل مما يجعل الملاحه في غاية الصعوبة .

كان من المتوقع أن يرتفع منسوب المياه في أوائل يوليو عند الشلال الثاني بالدرجة  
التي تمكن عبور البواخر ولكن لم يكن ذلك ممكنا قبل نصف اغسطس .

في ١٤ اغسطس جرت أول محاولة لعبور الباخرة " المتمة " زحفت كتيبة النورس  
ستيفوردشير ، والفرق المصرية السادسة والسابعة من كوشة الى البوابة ، لكي تجر جسم  
الباخرة عكس التيار. تحت إشراف العقيد " هنتر " والقائد البحري "كولفيل" وضباطه.

جهزت الباخرة بحذر لهذه العملية ورفعت المدافع والذخيرة ثم حوطت الباخرة  
بسور خشبي من مقدمتها حتى المؤخرة لتحمي من أي اصطدام بالصخور ثم لف سلك  
حول جسم الباخرة وثبت في اكثر من موقع وعطلت الماكينات حتي يكون الاعتماد



كلية على القوة البدنية تم است ندام ألفين من افراد القوة لجذب الباخرة حتي عدت الشلال بدون خسائر واستمر نقل باقي البواخر حتي انتهت العملية بسلام وبعد اسبوع كان كل الأسطول النهري في الطرف الجنوبي للنيل والنهر المفتوح .

بدا الآن أن الحظ قد عاد للحملة، انتهى وباء الكوليرا والباخرة الجديدة "الظافر" الآن شبه جاهزة في كوشة وقد سر منظرها افراد الجيش ، وصلت قطع الأسطول النهري السبع الى شاطيء المعسكر في ٢٣ اغسطس وجاءت رياح شمالية منعشة في نفس الوقت وأصبحت كل البواخر التي كانت خلف الشلال منذ ٦ اسابيع محملة بالمؤن والعتاد ومستعدة للتقدم وجاءت البرقيات تأمر بالاستعداد للتحرك وعندها تنفس الجنود الصعداء باعتبار أن الانتظار الممل قد انتهى .

تبعد المسافة بين كوشة وكومة حيث يتمركز الدراويش حوالي ١٢٧ ميلا عن طريق النيل ويمكن اختصار هذه المسافة بأكثر من ٤١ ميلا عن الطريق البري تفادي منحنى النيل من كوشة " لصاعدين فاني " واختصار ١١ ميلا بتفادي الزاوية من فريج الى أبي فاطمة . ومن كومة لدنقلا وهي الهدف من الحملة هناك مسافة ٣٥ ميلا مما يجعل المجموع ١٢٠ ميلا بالطريق البري و ١٦١ ميلا عن طريق النهر . الطريق الصحراوي الطويل من كوشة الى " صاعدين فاني " كان هو الصعوبة الوحيدة إذ بالرغم من أن النهر به شلالات صغيرة من كوشة الى كومه أهمها شلال العمارة لكنها لن تمنع البواخر من الملاحة ، من العمارة الى شلال "كبير" حوالي ٦٠ ميلا من المياه المفتوحة و لا يشكل شلال " كبير " أي عائق للملاحة الا عند " حنيك " على بعد ٣٠ ميلا توجد جزيرة حوالي ٣ اميال مع حجارة وشلال يسمى الشلال الثالث وهو مانع رهيب ، بعده يظل النيل مفتوحا تماما لمسافة ٢٠٠ ميلا حتي مروي .

شواطئ النهر تمتد منبسطة ومنخفضة حتى اقترابه من " صاعدين فاني " حيث تتلاقى التلال مع حافتي النيل وينتشر على الشاطئ الشرقي بعض أشجار النخيل ويمتد شريط من المزروعات فيما يعرف " بمديرة دنقلا الخصيبة " أما في الجانب الآخر فتكاد الصحراء أن تلامس سطح النهر. لقد تقرر أن يسير الجيش على يمين النهر .

أول مرحلة للتقدم كانت احتلال ابسرات، حيث تقدم لواء "ماكدونالد" يوم ٢٣ اغسطس من صوارده عبر الصحراء الى "صاعدين فاني" ثم بمحازاة النيل ثم تلاها احتلال "أبسرات". عندها أمر اللواء "لويس" بالتقدم لتقوية ماكدونالد. المسافة بين كوشة وصاعدين فاني ٣٧ ميلا، وما كان بإمكان لواء لويس قطع هذه المسافة في الصحراء بدون تأمين احتياجات القوة من مياه الشرب وقد أمر السردار باقامة نقاط مياه حيث وضعت فناطيز وقرب يتم تموينها بالمياه بواسطة الجمال يوميا. ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.

في يوم ٢٥ هبت رياح جنوبية عاتية أعقبتها عاصفة رملية ورعدية ممطرة ضربت كل خطوط المواصلات للجيش من صوارده الى حلفا، وجاءت موجة أخرى في اليوم التالي وأخرت تحرك لواء "لويس" لكنه تحرك في يوم ٢٧ غير أن كانت النتائج كانت مأساوية. وهاجمتهم عاصفة ثالثة قبل أن يصلوا الى أول نقاط المياه، تخلف ٣٠٠ فرد وعادوا أدراجهم الى كوشة، وقبل أن يصل الطابور الى "صاعدين فاني" سقط أكثر من ١٧٠٠ جندي على الأرض من شدة الإرهاق والعطش ولم يصل إلا ٦٠ فردا من كتيبة قوية قوامها ٧٠٠ مقاتل. مات ٩ وأصيب ٨٠ بجفاف شديد، سميت تحركات اللواء من "كوشة" الى "ابسرات" "بطابور الموت".

لم يكن "طابور الموت" هو سوء الطالع الوحيد أو الحادثة الوحيدة من جراء العواصف. تسببت الأمطار في فيضانات عارمة لم تشهدا المنطقة منذ خمسين عاما، أطاحت باثني عشر ميلا من خط سكك الحديد - تعرجت القضبان الحديدية والتوت، وهدم كل الأساس وانقطع خط التلغراف وضاع مجهود أسابيع في لحظات، وأوقف التقدم قبل أن يبدأ. في الوقت الذي يتطلب فيه الموقف الحربي سرعة التحرك وأخذ المبادرة يصبح التأجيل القاتل أمرا لا مفر منه.

مع تزامن هذه الازمات أصبح مصير نجاح الحملة كله مرهونا بالشكوك، ولم يكن سير "هيربرت كتشنر" قد حقق أي نجاحات تكسبه تعاطف ضباطه ونيل ثقتهم بعد، ولم يكن الرأي العام قد كون رأيا قاطعا في موضوع الحرب برمته. إن سوء

الحظ الذي لازم في البداية قد أخاف الكثيرين وكان النقاد بالمرصاد وبدأ النقيض "حكومة طنانة" "جنرال غير كفؤ" كارثة اخري في السودان . كانت تلك هي الهمسات . لم تصل اخبار " طابور الموت " الى أنجلترا بعد ولكن مناديب الصحف الذين أجبروا على البقاء في رئاسة القوات سوف يسارعون الى نشر الأخبار . ومع كل هذا كان هناك الجيش الذي يجب إطعامه والذراويش الذين يجب محاربتهم .

في هذه اللحظات الحرجة التي كادت تقضي على مشروع السردار ، برزت مواهبه التنظيمية أكثر من أي وقت آخر في كل هذا السرد . سافر سريعا الى مفرات واستطاع الحصول على تليفون وكان يعمل ، وعرف كل أخبار أفراد الحملة من جنود وجمال وبغال وأمر أكثر من ٥ آلاف رجل بالعمل المركز لإصلاح خط سكك الحديد حتي ينتهي العمل . بعد أسبوع واحد بدأ سير القطار من جديد وهكذا فان التقدم قد تأخر ولكنه لن يمنع .

في الخامس من سبتمبر تحرك لواء " لوبيس الأول " ولواء " ماكدونالد الثاني " الى دلقو وتحرك في نفس التوقيت كل أفراد الجيش من كوشة الى أبسرات عن طريق "صاعدين فاني" وتم بذلك حشد آخر جندي للعمليات الخاصة بالحملة .

كان تنظيم الحملة كما يلي :

القائد العام : السردار

سلاح المشاة ( العقيد هنستر قائد سلاح المشاة )

اللواء الثاني

رائد ماكدونالد

الفرقة السودانية السادسة

الفرقة السودانية السابعة

الفرقة الخامسة السودانية

اللواء الاول

رائد لويس

الفرقة المصرية الثالثة

الفرقة المصرية الرابعة

الفرقة الرابعة السودانية

الفرقة السودانية الثامنة

## اللواء الثالث

رائد ماكسويل

الفرقة الثانية المصرية

الفرقة السابعة المصرية

الفرقة الثامنة المصرية

## اللواء الرابع

رائد ديفيد

الفرقة الاولى المصرية

الفرقة الخامسة المصرية

الفرقة الخامسة عشر المصرية

سلاح الفرسان والقوة الراكبة ( رائد بيرن ميردوخ )

٦ فرق هجانة

٨ سرايا سلاح الفرسان

١ بطارية مدفعية الخيول

سلاح المدفعية ( الرائد بارسون )

٢ بطارية مدفعية ميدان

١ بطارية مدفعية مكسيم ( بريطانية )

قوات مركزية ( الرائد كيري )

١ كتيبة شمال ستيفورد شير

الأسطول النهري ( قائد الأسطول كولفيل )

بوارج : الظافر - طماي - أبو كليا - متمه - التيب

زوارق مدفعية : خير - دال - عكاشة

المجموع ١٥ ألف مقاتل - ٨ بوارج حربية - ٣٦ مدفعا

وهكذا فان ١٣ كتيبة من مجموع ١٦ كتيبة مصرية قد تم إرسالها للجبهة ،

الكتيبة السادسة والرابعة عشرة تركت لحراسة خطوط المواصلات لتحرس الحاميات

المحصنة وبقيت الكتيبة ١٦ للاحتياطي بسواكن . كان كل الجيش الأهلي ( السوداني )

مشاركاً في الحرب وترك أمر حفظ الأمن الداخلي بالنسبة لدولة الخديوي لقوات

الشرطة وقوات الاحتلال البريطاني . وصلت اللوائيات الأربعة لنقطة اللقاء في دلقو

يوم ٩ .

سافرت الفرقة البريطانية بالقطار من صرص وجميعي إلى كوشة وتقرر إرسالها بالبواخر من هناك . جهاز السردار نفسه ليرافق الأسطول النهري في يوم ١٢ سبتمبر . .  
لقد توالىت خيبات الأمل . البارجة " الظافر " التي تم تجهيزها في الوقت المحدد وتوقع الجميع أن تكون عنصرا فاعلا في الحملة تم أخيرا إنزالها للماء في أروع صورة للقوة والجبروت وحضر الضباط لمراقبة التجربة الأولى يوم ١١ سبتمبر واصطفوا الجماهير على شاطئ النيل لمشاهدة الحدث ، وكان السردار والقائد كولفيل على ظهر البارجة . ولم تكذبدارات المحرك تدور إلا وسمع صوت انفجار أشبه بصوت انفجار قبلة ، نزل القائد كولفيل للاستفسار عن الأمر فاكشف أن أسطوانة الضغط قد انفجرت ولا بد من إحضار قطع غيار من حلفا .

بالرغم من ذلك الحادث لم يتأخر الهجوم ، في يوم ١٣ احتل اللواء الأول والثاني والثالث كاديرما وقد سبقتهم بوارج الأسطول النهري وتباعا وصلت أعداد الأسطول حتى وصلت فريج يوم ١٤ ووفرت أشجار النخيل في المنطقة موقعا مناسباً للتوقف ليومين . حتى وصل اللواء الرابع يوم ١٦ ، وبذلك اكتمل عدد القوات بالكامل .  
كان الأمير ود بشارة بعد إبادة قواته في المركز المتقدم في فرقة قد لجأ إلى دنقلا وبقي فيها كل الصيف حيث وصلته بعض الإمدادات تحت إمارة أحد الأمراء من ام درمان . لقد وعد الخليفة بأن إمدادات إضافية ستكون في الطريق ولكنها بقيت وعود بلا تنفيذ .

وعليه فقد شملت كل القوة تحت إمرة ودبشارة على ٩٠٠ فرد من الجهادية و ٨٠٠ من البقارة و ٢٨٠٠ حراة و ٤٥٠ هجانة و ٦٥٠ من الخيالة مجموع ٥٦٠٠ رجل ، و ٦ مدافع صغيرة ومدفع مترليوز واحد كانت هناك أعداد كبيرة من الأهالي يمكن أن تضاف لزيادة هذا العدد ولكن لأن هذه الأعداد كانت تنوي الانضمام لجيش الحكومة لذلك لم يكن لها أثر إيجابي بالنسبة للصراع فيما يختص بقوة ودبشارة .

قطعت دورية الدراويش خط التلغراف يوم ٦ سبتمبر، وكانت هذه هي أول إشارة بأن قوات العدو تقترب، سمع السردار في يوم ١٠ أن هناك تحصينات قوية في كرمه

ورفعت مناوشات يوم ١٥ بين فرقة الفرسان المصرية وبعض أفراد الاستكشاف للدراويش. تحرك الجيش يوم ١٨ إلى منطقة صارديك ، أصبح احتمال الاشتباك كبيراً خاصة أن كرمه تبعد نحو أربعة أميال ولكن مضت الليلة بسلام . عند إصباح بدأت الحموع في التحرك ، لقد كان منظراً مهيباً آلاف الجنود والأسلحة والبوارج على النيل قد ملأت نفوس الجميع بالطمأنينة وقد تمهياً الجنود للمعركة مع العدو . ما إن ظهرت معالم كرمه حتى سرت معلومة بأن كرمه خالية وأن الدراويش قد أخلوا مواقعهم فيها ولم يتبق إلا الطابية الطينية دليلاً على إقامة ودبشارة في الموقع، ولم يبق السؤال، أين ذهب ؟ بلا إجابة لمدة طويلة .

حوالي نصف الميل جنوباً وفي الشاطئ المقابل للنهر ظهرت استحكامات وخنادق على طول الشاطئ- حوائط بها فتحات للأسلحة بين صفوف أشجار النخيل ثم كانت قوته في المستنقع الذي يمتد من النهر جنوباً وشمال الحفير . ظهرت بعض المراكب الصغيرة وباخرة مع بعض القوارب ترسي من بعيد ، وضحت أن القائد قد شعر بنقطة ضعفه فقام باجلاء قواته لإبعادها عن طريق الزحف القادم لإبادتهم .

في هذه الأثناء فإن البواخر الثلاث الباقية من البوارج الحربية في الأسطول النهري، (البارجة " التيب " تعرضت لحادثة اصطدام بالحجارة في شلال "حينيك" ، كانت تبخر نحو العدو بينما انحرف الجيش ناحية اليمين، وتكون بذلك منظر رائع مثير للاهتمام.

في الساعة السادسة والنصف بدأت مدفعية الخيالة تمطر أطراف المياه بعرض النهر وتطلق النيران بشكل بيضاوي وبدأ الدخان يتصاعد من مواقع الدراويش وسارعوا هم بفتح نيران بنادقهم . لقد كانت المسافة بعيدة بحيث لم تكن لبنادقهم السيئة أو ذخيرتهم المتخلفة أي أثر ، حتى الطلقات التي كانت تسقط على مقربة من الأرض التي اصطفت عليها المشاة لم تسفر عن أية خسائر وسط صفوف الجيش الذي وقف يراقب نشاط العدو وتحركاته.

كان موقع الدراويش بطول ميل ونصف ونجحوا أن وصلت زوارق المدفعية الى الطرف الشمالي بدأت في إطلاق نيران مدافعها بتركيز أدى الى تحطيم الاستحكامات



والتاريس مع كل دانة شوهدت أجزاؤها تتطاير في الهواء ، بدأت رشاشات الماكسيم في التعامل مع السور بحثا عن أفراد العدو ، وبدأت في نفس الوقت فصائل الستيفورد شير البريطانية المحمولة على الباخرتين غير المسلحتين " دال " و "عكاشة" في إطلاق مجموعات طويلة المدى في ضرب جماعي .

انتزع الدراويش، كما يحدث دائما ، إعجاب أعدائهم لشجاعتهم القتالية، وقد شجعهم وصول نجدة من أم درمان في ذلك الصباح المكونة من ١٠٠٠ من الجهادية السوداء و ٥٠٠ حراة بقيادة عبد الباقي. استطاعت مدفعية الدراويش الثبات في أماكنها، وكذلك حاملوا البنادق بالرغم من كثافة النيران وكبر حجم الخسائر وكانت نيرانهم سامية .

استمر إبحار الزوارق بطيئا ضد التيار القوي وبمجرد أن وصلت الى أضيق نقطة عند الحفير حوالي ٦٠٠ ياردة فوجئت بكمين محكم ونيران مدفعية شديدة من مدافع وضعت باحكام في مواقع حساسة وأيضا طلقات بنادق من جنود في خنادق داخل الماء أو من على أسطح أشجار النخيل ، لم تستطع مصدات الزوارق حمايتها من هذا الهجوم العلوي وتحولت المياه حول الزوارق الى كتل من الزبد جراء انفجارات الذخيرة . اخترقت بعض الرصاصات أجزاء الزوارق غير المحصنة وسقطت دانة على " ابو كلي" اخترقت خط الماء ولكنها لم تنفجر لحسن الحظ ، فقد نسي الدراويش ضبط الفيوز . أصابت " المتمة " ثلاث قذائف إما على ظهر "تامى" التي كانت تقود الهجوم فقد جرح القائد كولفيل بجرح في راسه وقتل المدفعجي الشاويش رتشاردون فوق مدفعة المكسيم، وكانت هناك إصابات على كل باخرة وقد بدأ القائد يشك في جدوى الاستمرار في القذف من شدة نيران العدو وأعاد خط سير التامى، وعاد مسرعا مع التيار ليبلغ الأمر للسردار .

استمرت الزوارق الأخرى في المعركة وبعد حين عادت " التامى " واشتركت في قصف مواقع الدراويش .

كان المنظر الذي يشاهده أفراد الجيش مثيرا للغاية على مدى النظر خلف مياه  
فيضان النيل والسماء الزرقاء الصافية والشمس الحارقة ظهرت كل مواقع العدو ظاهرة  
للعيان . كانت سلسلة الخنادق يظهرها الدخان الأبيض الصادر من البنادق وفوقها  
الأعلام الزاهية ترفرف في تحد ظاهر، ثم يأتي لمعان القذائف في وضوح .

ظهرت خلف الاستحكامات وبين بيوت الطين مجاميع من العرب لابسين الجبة  
المشهورة بينما ظهر سلاح الفرسان على البعد في السهل الممتد خلف البيوت ينم عن  
وجودهم لمعان أسنة الرماح العريضة وتحركاتهم ومناوراتهم . على شاطئ النيل امتلأت  
أعلى أشجار النخيل بمقاتلين يحملون بنادقهم في منتهى الجرأة يظهر مواقعهم الدخان  
الصاعد من أفواه البنادق أو عندما يصاب أحدهم ويسقط جسمه من على النخيل تمام  
كالغراب النوحى .

عاودت الزوارق الكرة وبمجرد أن قاربت للمضيق في الحفير ، حبس أفراد الجيش  
أنفاسهم وللمرة الثانية شاهدوا تقهقر بانخرة القيادة المتمة وهي تعود لمنطقة السلامة  
وسط تهليل وتكبير العرب . كان واضحا أن هذه الزوارق لن تستطيع إسكات نيران  
الدراويز ويتحسر الجميع على الفراغ الذي تركه عدم اشتراك " الظافر " في هذه  
المعركة .

استمرت المعركة ساعتين ونصفا واستمرت مقاومة العدو بنفس القوة التي بدأت  
بها . عندها قرر السردار تغيير الخطة لعدم مقدرة هذه الزوارق على إخماد النيران القوية .  
أمر "دي روقمنت" الذي تسلم القيادة من "كولفيل" أن يسرع ويتخطى  
الاستحكامات بدون أن يحاول إسكات النيران حتي يصل الى دنقلا ولكي يعطيه التغطية  
الكافية أمر سلاح المدفعية بقيادة الرائد بارسون بالتمركز في جزيرة ارتقاشة الضحلة  
التي ترتبط بالشاطئ بجسر صغير وفي نفس الوقت تحركت ثلاث كتائب من المشاة  
وحتى تكون قبالة العدو . في الساعة التاسعة بدأت الـ ١٨ مدفعا إطلاق نيرانها على  
المتاريس بطول ١٥٠٠ ياردة، وفي نفس الوقت صب جنود المشاة نيرانهم على أسطح  
النخيل .

استطاعت المدفعية أن تصيب وتخرس ثلاثة من مدافع الدراويش الخمسة وتغرق باخرة الدراويش " الطاهرة " ونجح سلاح المشاة في تطهير أعالي النخيل من المقاتلين .  
استغلت الزوارق هذه الفرصة وبدأت الملاحاة على خط واحد متجاهلين رصاص العرب الذي استمر في تحد عنيد الى أن أعدت الاستحكامات وواصلت سيرها لدنقلا .  
بعد هذا استمر إطلاق النار على فترات، وقد انتهت هذه المعركة على الأرجح على هذا الموقف .

ظلت القوتان المتصارعتان كل تواجه الأخرى طيلة اليوم من جانبي النهر، وبدأ ان الدراويش فيما يبدو لم يعلنوا استسلامهم للهزيمة وظلوا ملوحين ببنادقهم واعلامهم وتواصلت صيحات التحدي حتي بلغت مواقع القوات الغازية، ولكن في الحقيقة كلنت خسائرهم كبيرة. أصيب قائدهم الماهر الشجاع أصابه بليغة بشظية دانه وأصيب عثمان أزرق العنيد برصاصة وقتل أكثر من مائتي انصاري بينهم سبعة أمراء بالإضافة لطاير طويل لنقل الجرحي شوهد متجها جنوبا إلا أنه لم يتم التأكد من تراجع ودبشارة أو عدمه . يبدو أنه كان على يقين بأن السردار سوف يعبر لغرب النيل ويزحف بجيشة نحو دنقلا تحت غطاء زوارقه المسلحة وكأي قائد إسلامي كان قلقا على خطط الرجعة وخطوط الامداد بالنسبة لقواته، ولا يمكن ان يلومه أحد مع قوة الجيش الذي يواجهه .  
كان هناك سبب أكثر إلحاحا من هذا السبب الاستراتيجي وهو ان كل مخازن الغلال كانت محملة على المراكب الشراعية التي ترسو على الشاطئ الغربي وكانت كلها على مرمى من نيران المدفعية ورشاشات المكسيم في جزيرة ارتقاشة وقد بادت محاولات عديدة للدراويش للوصول لهذه المراكب بالفشل نتيجة لقذف المدفعية . وكان القمر ساطعا وأعطى رجال المدفعية فرصة كافية لرد أي اقتراب من مخازن الحبوب وعندما أصبح الصباح اكتشف الجيش أن الحفير قد تم إخلاؤها وأن العدو قد تراجع الى دنقلا .

قلق ودبشارة على خطوط إمداده، لم يكن له ما يبرره إذ كان من المستحيل أن يتقدم السردار بجيشه تاركا خطوط ومواصلاته تحت رحمة قوة كبيرة من الدراويش أو

أن يقسم الجيش وترك جزء كبير الاحتلال الحفير، ولكن بمجرد أن أخلي الدراويش استحكاماتهم أصبح الأمر أكثر سهولة .

جاء القرويون بكل المراكب التي تركها العرب الى يمين الضفة وأعلنوا أن ودبشارة قد أخلي دفاعاته ورجع الى دنقلا .

طمأن هذا الخبر السردار الذي باشر في عملية نقل قواته للشاطئء الغربي للنيل بكل نظام وظهرت هنا كفاءته التنظيمية وتم ترحيل كل أفراد الجيش من سلاح وفرسان وهجانة ومشاة وأسلحة للبر الغربي في ظرف ٣٦ ساعة وبدون أي مصاعب تذكر .

لم تكن الخسائر كبيرة في معارك يوم ١٩ فهي بالنسبة لقوة تبلغ ١٥ ألف مقاتل تكاد لا تذكر، جرح القائد "كولفيل" قتل جاويش بريطاني وضابط مصري وجرح ١١ جنديا أهليا ، المجموع ١٤ أي أقل من واحد في الألف من مجموع القوة المقاتلة .

على كل حال لقد وصفت تلك المعركة ذات المشاهد الرائعة والتي حسمت بغير دماء اسم "معركة الحفير" كتبت عنها رسائل ميدان خاصة واعتبرت في السجلات الرسمية "كعمل عام" وصلت برقيات التهاني من صاحبة الجلالة ومن الخديوي دلالة على الرضا .

كان نصر معركة الحفير أرخص نصر تشهده الحروب في تاريخ المعارك القريبة .

استغل يوم ٢٠ وجزء من ٢١ في نقل الجيش للشاطئء الغربي للنيل، وكانت القوات ما زالت تتحرك عند رجوع البواخر المسلحة من دنقلا . المسافة بين دنقلا والحفير حوالي ٣٦ ميلا نهريا وكان الأسطول النهري قد وصل قبالة المدينة في عصر يوم ١٩ وتم إنحلاء الحامية بعد إطلاق عدة قذائف وتم أسر عدد من المراكب الشراعية .

إن النتائج التي حققتها الزوارق المسلحة كانت بسبب المناورة الناجحة للسردار عند الحفير، وجعل إنحلاء الاستحكامات البواخر تسير بسلام على طول النهر دون أي تهديد .

واصل ودبشارة تراجعه طيلة يوم ٢٠ ووصل دنقلا في المساء يعاني من جرحه،  
وأعاد احتلال المدينة وبدأ في استعداداته للدفاع عن المناطق الحصينة .  
لم تغب هذه الأنشطة عن أعين أعدائه فارسلت الباخرة " أبوكلي " تحت قيادة  
الملازم " بيتي " لكي تناوشه وتشغله وبدأت معركة يوم ٢١ طيلة اليوم بين الباخرة  
واستحكامات المدينة وعند شروق فجر يوم ٢٢ أرسلت باخرة أخرى لتساند " بيتي "  
واستمر القذف للمدينة ودفاعاتها .

اكتمل عبور قوات الجيش للنهر في عصر يوم ٢١ ولكن إصرار السردار أصر على  
التقدم، وأمر القوة بمواصلة المسيرة حتي قطع ١٢ ميلا جنوبا فعسكر الجند قبالة جزيرة  
" ارقو " . في صبيحة اليوم التالي أمر بالتحرك قبل أن تشتد حرارة الشمس حتي وصل إلى  
" زورات " . تبعد هذه المنطقة بحوالى ستة أميال من دنقلا وعندما كان من المقرر أن تبدأ  
المعركة في اليوم التالي كان لابد من الراحة والاستجمام التام للساعات الثماني عشرة  
القادمة، الأمر الذي قدره الجنود فقضي الجميع طيلة تلك الساعات تحت اشجار النخيل  
على شاطئ النيل .

كان الضباط يراقبون من مناظيرهم المعظمة زوارق المدفعية وهي تطلق قذائف  
مدفعتها على دنقلا ، واستمر الضرب طيلة اليوم .  
بين حين وآخر تقدمت طلائع من مشاة وخيالة الدراويش نحو النقاط المتقدمة  
للجيش وتم تبادل إطلاق النار .

ظلت هذه المناوشات والشعور العام بأن المعركة الفاصلة قادمة يسيطر على الجميع  
وبالكاد استسلم البعض للنوم العميق بينما سري قلق الترقب في الكثيرين . أيقظت  
القوات في الساعة الثالثة صباحا وبدأ التقدم نحو دنقلا .

كان الوقت مازال ليلا ، القمر الكامل يسطع في السماء الصافية في هذا الجو  
الاستوائي البديع بالكاد يعري تلال الرمال الممتدة أو الجموع الهائلة للجيش الغازي .  
ظلت القوة طيلة الليلة في تشكيلاتها كتائب رباعية ومع بداية شروق الشمس تدرج  
الجيش حتي امتد إلى جبهة طولها أكثر من ميلين . كان لواء " لويس " على الشمال





بالقرب من النهر ثلاث كتائب كاملة وكتيبة رابعة كاحتياطي. تبعها لسواء "ماكسويل" ثلاث كتائب كونت امتدادا للواء "لويس" كانت المدفعية في الوسط تدعمها سرية "الستيفوردشير" مدفعية المكسيم بزيها الأحمر المميز كانت تمثل فاصلا بين الألوان الصفراء والبني، بينما وضع لواء "ماكدونالد" على اليمين يتبعه لواء "ديفيد" في مؤخرة وسط القوة كاحتياطي أما سلاح الفرسان والهجانة وبطارية الخيالة فجنحت لتحرس يمين القوة بينما تبخر زوارق المدفعية بطول النيل على الشمال .

كانت قوة الجيش هي الشيء الوحيد المتحرك وسط الرمال ولمدة ساعتين حتى الساعة السابعة ظهرت قوة سلاح الفرسان على يمين الجبهة، وبعد تقدم نصف ميل ظهر جيش الدراويش ، إعدادهم أقل من القوات المصرية لكن ملابسهم البيضاء وأعلامهم الملونة وهي ترفرف فوق الرؤوس قد جعلت للمنظر هيئة خاصة، وبما عرف من شدة عزمهم وجسارة قائدهم ودبشارة ، توقع الجميع أن يهجموا في الحال .

كان التفاوت في إعداد القوات كبيرا تقدمت القوات المصرية وتراجعت قوات الدراويش يكفل ستر تراجعها بعض خيالة البقارة التي استطاعت تأخير تقدم القوة بتهدبها لقطاع الصحراء . لم يدخل ودبشارة الى دنقلا التي لاتزال تحت حصار الأسطول النهري المسلح وتقهقر الى الدبة جنوبا عندما دخلت قوات المشاة الى دنقلا وجدت المدينة بالفعل تحت سيطرة قوات الاسطول النهري الذين كانوا يتبادلون الاحاديث الودية مع رصفائهم من الفرق السودانية . سقطت حامية الجهادية السوداء المكونة من ٤٠٠ مقاتل وانضموا للجيش القادم .

بينما احتلت قوات المشاة المدينة ، واصلت قوات الهجانة وسلاح الفرسان ملاحقة العدو .

استطاع فرسان الخيالة البقارة الصمود وتنفيذ هجمات عديدة لتغطية انسحاب المشاة وفي إحدى تلك الهجمات تم التلاحم مع سرية الكابتن آدامز من سلاح الفرسان المصري، وقتل ٦ أفراد للعدو وجرح ثمانية أفراد من القوة . خسر الهجانة وسلاح الفرسان حوالي ٢٠ ضحية في الملاحقة بالرغم من أن انسحاب الدراويش تم بنظام تام

إلا أن الروح المعنوية تأثرت جدا وتركت أثرها في انضباط القوة ففرقت في شكل مجموعات صغيرة سهل أسرها وتم العثور على كميات مختلفة من الأسلحة والعتاد وأيضا أعداد كبيرة من الأطفال الذين هجرهم أبائهم عند الانسحاب، حتي استعانت القوة بإحدى عربات المدافع لحملهم الى بر الأمان .

واصل القادة ودبشارة وعثمان أزرق وفرسان البقارة تقهقرهم عبر الصحراء الى المتمة، وبالرغم من معاناة قاسية من شدة العطش تم الانسحاب بانضباط كامل وتركت قوة عند ابار "ابو كلي" حتي تتعامل مع أي قوة مطاردة .

أما فرق مشاة الدراويش فقد اختاروا ان يسلكوا طريق النهر متراجعين الى أبوحمدة، تعرضوا بذلك لنيران زوارق المدفعية حتي ظهر الشلال الرابع وانتهى عنده أي نشاط للمتابعة والملاحقة .

كانت خسائر الجيش المصري لاستعادة مديرية دنقلا وملاحقة العدو - لاصابلت بين البريطانيين - قتل جندي واحد من الأفراد المحليين وجرح ٢٥ المجموع ٢٦ . وهكذا أنهى احتلال دنقلا حملة ١٨٩٦ ، تم أسر ٩٠٠ أسير أغلبهم من الجهادية السوداء ، تم الحصول على كل المدافع الستة مدافع وكميات كبيرة من مخازن الغلال وكميات كبيرة من الحراب والسيوف والأعلام كلها وقعت تحت يد الجيش المنتصر . وأصبحت كل مديرية دنقلا التي تعتبر من أخصب المديريات في السودان محرة وعادت للسيادة المصرية .

إن انفتاح مجري النهر مباشرة بعد الشلال الثالث وحتى مروي أتاح أكثر من ٢٠٠ ميل من المياه الصالحة للملاحة بالنسبة للبواخر، وبذلك تم تمركز كل القوات في المنطقة الواقعة بين الدبة وكورني ومروي ، كانت تصلها الإمدادات عن طريق خط سكك الحديد ومن ثم بالبواخر في الممر النيلي المفتوح .

كان وجود قوة كبيرة في مروي التي تبعد عن أقصى نقطة شمالية لقوة الدراويش عند أبوحمدة مهما للغاية لاستمرارية الحملة عندما يحين الوقت . كان تأخير أي تقدم

بعد هذا أمر لامقر منه وبالفعل انقضي عام كاملا بدون أي اشتبكات بين قوات الخديوي وقوات الخليفة.

كان لنجاح الحملة صدي طيبا وردود فعل حيدة في اوساط الجماهير بالبحر. فقد تم اتخاذ الخطوة الاولى. إذ تم اعادة دخول السودان بعد عشر اعوام من حرب دفاعية، و تمت مهاجمة الدراويش ، وعندما يهاجمون بجيش كافى فانهم ليسوا بالفظاعة المتصورة وتم اخراس الاصوات المعارضة .

كان هناك شعور ورغبة عامة في كافة القطر بأن العمليات يجب ان تستمر بالرغم من عدم تغيير الحكومة لسياستها تجاه السودان او رغبتها في القضاء المبرم على جيش الخليفة ، قد تقرر ، طالما ان الطريق سالكا وامنا بلا مكدرات حتي الان فليس هناك ما يدعو للتوقف والرجوع .

لقد نشرت سجلات الشرف في الغازية الرسمية للدولة وانهاالت الاوسمة وانواط الشرف والشجاعة وبلا استثناء ذكر كل الضباط الذين خدموا في الجيش المصري. رقي سير "هيربرت كتشنر"، العقيد هنتر والعقيد رندل الى رتبة القائد العام تقديرا لخدمتهم المتميزة في ميدان المعركة وتم صنع ميدالية مخصصة بشكل النيل الازرق الشريط الخاص بها وتم تخليد معركتي فرقة والحفير .

كانت الخسائر من جراء الحملة بما في ذلك معارك سواكن هي عبارة عن ٤٣ قتيلا و ١٣٩ جرحا و ١٣٠ ضابطا توفوا من وباء الكوليرا وتوفي ١٢٦ من اسباب اخري واصبح عدد كبير من الضباط البريطانيين من المعاقين .

## الفصل الثامن

### سكك حديد الصحراء

أصبح عرفاً سائداً أن مؤسسات القطاع العام الرائجة هي التي تنال كل الشناء من الدولة فتنهال عليها الهبات والحوافز خاصة تلك التي تتقن عرض نتائجها بشكل دراسي مؤثر بينما تكون هناك مؤسسات لا تقل أهمية ودورها فعال للنجاح الكلي في أي نسيان . اذا كان هذا القول صحيحا بالنسبة للنفس البشرية فانه أيضا ينطبق على طبيعة الاشياء .

عندما تسرد قصة الحرب يكون عقل القارئ كله مركزاً على المعارك مشاهداها الحية ولحظاتها المؤثرة وبمجرد النتائج البسيطة الواضحة التي تشعل الخيال وتجبر على الإهتمام . بينما تظل العين ثابتة على اللواعات المقاتلة وهي تتحرك خلف الدخان وعلى أسراب أعداد العدو ، وعلى القائد وكله إصرار وثبات مزهواً وسط رؤساء أركان جيشه ويبقي الخط الطويل المتتابع من خطوط الامتدادات بلا ملاحظة . ذلك أن النصر العظيم الذي يأتي على أسنة الرماح والسنج وهي ملطخة بالدماء الحمراء القانية يتملك كل مشاعر المراقب فلا يأبه بالنظر الى الخلف حيث آلاف الأميال من خطوط السكك الحديد ، والطرق البرية والملاحية على طول النهر ، ومئات الأفراد والمؤن والعتاد وهي تزحف نحو الجبهة بدون انقطاع الواحدة بعد الأخرى .

إن النصر هو زهرة جميلة والمواصلات هي الساق الذي لا يمكن أن تنمو بدونـه ومع هذا فان الطالب الحربي في غمرة حماسه لتحليل العوامل المثيرة للصراع الحقيقي كثيراً ما ينسى التعقيدات الحساسة لعنصر الإمداد .

لا يمكن لأحد أن ينكر أن ذروة المعارك الحربية لا يمكن أن يتحكم فيها التنظيم والاستراتيجية وحدهما ، قد تكون الخطة محكمة الاضلاع ، والقوات غذاؤها جيد ، أسلحتها وافرة وفي المقابل قوة العدو مشتتة ، جائعة وأقل عددا ثم تأتي كل تناقضات أرض المعركة وتقلب وتعكس كل شيء . إن العنصر البشري وهو يتحدي الخبرة وكل

الاحتمالات ربما يأتي بنتائج فوق التصور وضد كل طبيعة الأشياء، قد يكون جائعا يفوقه عدوه مناورة وتسليحا ، لكنه يكتسب السلامة والطعام والشرف لشجاعته .  
ان كل هذه الاعتبارات قد تكون أكثر ملاءمة لحروب يكون فيها الطرفان المتقابلان كفتهما راجحة بالنسبة للعتاد والإعداد والنظام لكن في حرب وحشية على ارض منبسطة فان قوة الآلة الحربية الحديثة من العنف والضراوة بحيث لا يمكن ان تصمد أمامها قوة الجسد والدماء فقط، وتكاد تنعدم فرصة التلاحم والمركة الحقيقية ، مقاتلة الدراويش كانت عبارة عن مسألة سبل مواصلات . لقد هزم الخليفة بخط السكة الحديد .

حتى هذه اللحظة والعمليات العسكرية تتقدم كنا نتحدث على خط سكك الحديد في إشارات عجلي ، كيف يتم بناؤه اتجاهه خلف المعارك خطوط إمداد واتصالات ، فاني أدعو القارئ أن يلقي نظرة وثيقة.. هذا الجزء سوف نتحدث فيه عن البواخر ، خط سكك الحديد ، الحيوانات المرافقة للحملة ، ولكن بتركيز أكثر على خط سكك الحديد .

كان النيل هو خط الاتصال الوحيد بين القاعدة بمصر وكل خطوط حملة استعادة مديرية دنقلا لعام ١٨٩٦ . لقد تم إرسال كل العتاد والمؤن للجهة عن طريق النيل ، وحيثما لم تكن هناك موانع فقد ظل النهر هو الوسيلة الوحيدة. لقد كانت كل الوسائل الأخرى من نقل بري على ظهور الحيوانات أو عن طريق خط سكك الحديد ، هي وسائل مساعدة، ذلك أن البواخر تحمل أكثر وتكلف أقل من أي نوع آخر من المواصلات. إن الملاحة لا تتعرض الى أي مقاطعات ، ماكينات البواخر تحتاج الى تصليح وصيانة بسيطة وبحري النيل قد شقه الخالق .

ومع هذا فان مجري النيل لا يصلح كله للملاحة كل الاوقات اذ تعترضه شلالات كثيرة في مواقع عدة تكون الملاحة لمسافات بعيدة ممكنة فقط أثناء فيضان النيل وعليه كانت هناك ضرورة لأشكال أخرى من المواصلات للالتفاف حول تلك الشلالات لضمان الاستمرارية. كانت الحاجة ملحة لاستعمال خطوط سكك الحديد والقوافل.

لتنفيذ حملة استعادة دنقلا كان لزاما بناء خط سكك الحديد ليربط الأجزاء الصالحة للملاحة التي تمتد من أسوان لوادي حلفا ومن كرمه الى مروي . أمكن تقصير هذه المسافة لأن النيل في ذروته تكون الملاحة ممكنة بين الشلال الثالث وكرمه . وعليه فكان من المقرر أن يتم بناء الخط لمسافة ١٠٨ أميال بين وادي حلفا وكوشة . خلال السنوات التي كانت فيها وادي حلفا هي أقصى نقطة جنوبا للقوات المصرية ، كانت هناك حامية قوية في صرص . في حملة النيل عام ١٨٨٥ تم ايصال الخط الحديدي مابين وادي حلفا عن طريق صرص وحتى عكاشة لمسافة ستة وثمانين ميلا . بعد أن تم جلاء القوات المصرية عن السودان حطم الدراويش الخط شمالا حتي صرص، لكن بينما كانت الردمية القديمة لا تزال موجودة ، تم خلع الكتل الخشبية ( الفلنكات ) وتم إحراقها وكذلك حطمت أجزاء الخط الحديدي وتركت ملتوية في كثير من المواضع. يمكن تلخيص الموقف عام ١٨٩٦ كما يلي : -

كان الجزء الممتد ثلاثين ميلا من وادي حلفا الى صرص في حالة جيدة ويمكن استعماله في الحال . الجزء من صرص الى عكاشة بطول ثلاثة وخمسين ميلا كان يحتاج الى اصلاح وترميم جزئي، الجزء من عكاشة الى كوشة بطول اثنين وثلاثين ميلا يحتاج لبناء من جديد ما عدا عشرة أميال بها ردمية تم بناؤها أثناء حملة ١٨٨٥ . وأخيرا فان الجزء من عكاشة الى كرمه يجب أن يتم بناؤه قبل انحسار مياه الفيضان .

كانت المهمة الاولى التي أوكلت للمهندسين هي إعادة بناء الخط الحديدي من صرص حتي عكاشة ، ولعدم وجود العمالة المدربة تم تكوين ما عرف بكتيبة سكك الحديد وتتكون من ٨٠٠ فرد أقوياء تم اختيارهم من كل القبائل المرافقة للحملة . كل مؤهلاتهم قوة الاحتمال والرغبة في العمل. كان منظرهم مزرياً، أسري من قوات الدراويش تم إطلاق سراحهم ولكنهم ما زالوا يلبسون الجبة كلفوا بمساعدة العمال المصريين في تفريغ الكتل الخشبية والخط الحديدي بينما انهمك افراد من قبائل الدينكا، الجعليين الشلوك والبرابرة في بناء الردمية اللازمة لغرس الفلنكات للخط الجديد . تم تعيين مائة من الجنود المتقاعدين من بين المواطنين السودانيين كملاحظين للإشراف على



العمال لسهولة التفاهم بينهم وأيضا لأنهم أهل ثقة . سرعان ما اكتسبوا الخبرة وأصبحوا فخورين بعملهم . بعض الملاحظين من عمال السكك الحديد في صعيد مصر تم إحضارهم للمشاركة، وفيما بعد تم استبدالهم من أفراد كتية سكك الحديد الذين اكتسبوا الخبرة مع مرور الزمن وامتداد الخط الحديدي . كان خط السير والاتجاه وتنفيذ كل العمل على مسؤولية الضباط الانجليز من سلاح المهندسين كان أشهرهم "ادوارد جير وارد" "جرد" .

بدأ العمل جنوب صرص في أواخر مارس . في البداية كانت أعمال العمال غير المهرة مدعاة للاستهزاء أكثر من الحصول على أي نتائج ولكن قليلا ما تبلورت خبرة قائدهم الشاب ووضع حماس وتفاني وذكاء مساعديه الشبان في ازدياد معدلات العمل نسبة لاستنباط أساليب من وحي الخبرة العملية التي زادت من كفاءة العمل .

عندما ازداد الخط طولاً ، تم اختيار بعض أعضاء الضباط الاحتياطي من بين قوات الأهالي ومن بين القوة المصرية وتم تعيينهم كنظار للمحطات . اختير البعض من ضباط الاحتياطي لوظائف العطشجية والحراس ورجال الإشارة واستعمل التليفون لمراقبة سير الحركة . اختير لقسم الحركة الأفراد الذين يمكنهم القراءة والكتابة ، حتى هؤلاء كانوا يفضلون البصمة على الامضاء، ثم أصبح هؤلاء هم الكتبة بعد أن تم فرزهم عن طريق التجربة.

لتعليم هؤلاء ومدتهم بالخبرة اللازمة لإدارة سكك الحديد تم إنشاء مدرستين للسكك حديد حلفا . تلك المؤسسات التي لم تخرج عن كونها ظلال شجرتي نخيل استطاعت استيعاب عشرين طالبا لتلقي علوم إدارة سكك الحديد، وكان حماسهم وسر تفوقهم وسرعة استيعابهم تحت ظلال النخيل ليفوق رصفائهم في أعظم المدارس في البلاد المتمدنة .

كانت معدات التشغيل لخط حلفا - صرص كافية وبجالة جيدة إلا أن القاطرات الثمانية كانت دائمة العطلة وتحتاج لصيانة باستمرار وبشكل مكرر ومؤلم . كان تكرار الأعطال سببا في عدم استمرارية الطريق حتي اكتسب خط حديد "السودان الحربي"

سمعه سيئة في الأيام الأولى لحملة استعادة دنقلا وسارع هؤلاء الذين لم يكونوا مقتنعين  
بالمشروع بصب جام غضبهم وتهكمهم على المهندسين . بالرغم من ذلك استمر العمل  
بلا توقف .

ضاعفت من حدة المشاكل الأولية التي صاحبت هذا العمل ، كارثة لم تكن في  
الحسبان تلك العاصفة الترابية الممطرة التي جاء ذكرها في الجزء الخاص بمديرية دنقلا .  
لقد أوضح أحد الكتاب وهو يتعرض للمرحلة الأولى من هذه الحرب خطورة ما  
قد يترتب على تلك الحادثة ( هيلارد أتروج نحو الخرطوم ) .

في البلاد التي تسقط فيها الأمطار بشكل عادي لا يمكن لمهندس أن يبني خط  
سكك الحديد في بطن الوادي ولكنه يختار اكتاف المنخفض لبني الخط، وعندما يمر بأي  
بحري أو منخفض فانه يترك جزءا من الاستحكامات لكي تمر منه مياه الأمطار أو  
السيول الموسمية . اما هنا في هذه المنطقة الصحراوية الخالية من الامطار وفي هذا الجزء  
بالذات فقد بني الخط ميلا بعد الآخر في بطن وادي طويل يعرف باسم خور أهروسة  
على طول الخط من صرص جنوبا، وبالطبع لم يصنع أي حساب لمخار للأمطار أو يعتقد  
أحد بأهميتها وهكذا عندما جاء الفيضان فانه لم يقطع الخط لمسافات متباعدة متباعدة  
عدة امتار، ولكن أغرقت المياه الخط كله وجرفت كل الاستحكامات من تحت القضيب  
الحديدي حتي ظهر في بعض المواقع معلقا في الهواء تاركا فجوة كبيرة تمتد لمسافات  
طويلة .

لقد تم تدمير أربعة عشر ميلا من الخط الحديدي كما دمر معسكر عمال الإنشاء  
تماما واختفت بعض بنادق حراس المعسكر حتى تم استعادة بعضها مدفونة بعمق ثلاثة  
أقدام تحت الرمال . وفي المناطق التي صمدت فيها الردمية، تكونت بحيرة كبيرة بمساحة  
عشرات الأميال المربعة. لكن تم إصلاح كل التلفيات في ظرف أسبوع وأحد بمجهود  
غير عادي وخارق للعادة .

بمجرد أن اكتمل بناء الخط حتي كوشة بدأ التقدم نحو دنقلا وما إن تم تطهير  
منطقة الحفير من الدراويش حتى واصلت الحملة تقدمها حتي وصلت مروي وكان

اعتمادها في كل هذه الفترة على الملاحة النيلية بدأت مياه النيل في الانحسار وبسرعة وأصبح الجيش في خطر لأن يبقى فاقدًا للحركة نسبة لعجز الحركة بين الشلال الثالث وكرمه، وعليه كان امتداد الخط من كوشة الى كرمه في غاية الأهمية .

تمت أعمال المساحة على عجل وتم اختيار المسار في المنطقة المحررة حديثا كانت المسافة الكلية خمسة وتسعين ميلا منها خمسة وستون ميلا أراض صحراوية وقد كسب رجال الإنشاء خبرة كافية في التعامل مع مثل تلك التربة التي كان لها أبلغ الأثر في اكتمال الخط العظيم من وادي حلفا الى عطبرة .

كتائب من القوات تم نشرها على طريق الخط وأمرت بالعمل لبناء الاستحكامات المطلوبة من ردميات وارصفة في التاسع من أكتوبر بدأ العمل بمهمة ونشاط ومع تقدم الخط وقبل اكتماله أصبح الجزء من النهر الواصل بين الشلال الثالث وكرمه غير صالح للملاحة وأصبح الجيش الآن يعتمد على الجزء الذي تم إنشاؤه من الخط الحديدي تم على نظم ترحيل أخرى من عند نقطة النهاية تعتمد على قوافل الجمال ، يقل حملها كلما تقدم الخط .

كانت أكبر مشكلة هي إطعام هذا الجيش بدون التأثير على عمل بناء الخط الحديدي، ولقد كانت مشكلة من الصعوبة بمكان وشديدة الحساسية .

حمولة القطارات كانت ضعيفة فثلاث قطارات فقط صالحة للاستعمال بينما تجري أعمال صيانة ثقيلة لباقي القطارات على أن تمتد في عمرها قليلا وتكون ذات نفع مستقبلا. توقف العمل ثلاث مرات حتي يعاد تنظيم الجيش وتم التغلب على المصاعب واحدة تلو الأخرى . وصل الخط الى كرمه مع بداية مايو وتم إخلاء سبيل "كتيبة سكك الحديد" ضباطها ومديرها، ووجهت كل الجهودات للعملية الرئيسية .

في الأسبوع الأول من ديسمبر عاد السردار من إنجلترا ومعه التعليمات والتصديق بالتقدم نحو الخرطوم ، وطفا على السطح موضوع خط السير الذي يجب أن يسلكه الجيش الغازي . كان من السهل جدا اعتبار الاستمرار في العمل على طول النيل مع ربط الأجزاء غير الصالحة للملاحة بأجزاء من خط السكك الحديد ، ولكن المسافة من

مروي الى أبو حمد تتخلها شلالات كثيرة وطبيعة الأرض في كلا جانبي النيل لا تصلح لبناء خط سكك حديد. وإذا كانت تحركات الحملة الفرنسية نحو أعالي النيل تستوجب الاستعجال ، فإن الحالة الاقتصادية لمصر تستوجب التدبير .

إن محور طريق النيل سيكون مكلفا جدا، ويجب البحث عن طريق مختصر. لهذا عرضت للاعتبار ثلاثة مشاريع جريئة وطموحة (١) الطريق الذي سلكته فصيلة الصحراء عام ١٨٨٤ عبر الصحراء من كورقي للمتمة (٢) الطريق المشهور أن لم يكن خطرا من سواكن الى بربر (٣) عبر صحراء النوبة من كورسكو أو وادي حلفا الى أبو حمد .

لم يواجه سير " هيربرت كشنر " سؤالا أكثر أهمية من هذا السؤال سوي في النواحي الادارية المكتبية أو شئون المعارك إذ أنه وثيق الصلة باستراتيجية الحرب كلها . الطلب لأورطة بريطانية ، الهجوم على زريبة جمودة، التوجه شمالا نحو أم درمان أثناء تلك المعركة أو التعامل مع حملة المارشاند ، كانت كلها أمور مقدور عليها بالمقارنة مع اختيار خط سير التقدم .

كانت قوة الخليفة الجبارة المعروفة تستوجب حشد جيش كبير وقوي حتي تتم هزيمته والاستيلاء على عاصمته . كان الاعتماد على استعمال خط سكك حديد لربط الأجزاء التي تصل الى مجري النهر المفتوح للملاحة أمر في غاية الأهمية .

إن بربر والمتمة معروفتان ولكن أبو حمد سوف توفي بهذا الغرض مع العلم بأن كلا بربر والمتمة هي نقاط استراتيجية مهمة .

ما كان من المنظور أن يترك الدراويش هاتين المدينتين بربر والمتمة الضروريتين. للدفاع عن الخرطوم ، بدون مقاومة . إن الصحراء بين كورقي والمتمة وبين سواكن وبربر توجد بها بعض الآبار المتناثرة ويمكن لأي هجوم أن يقطع خط سكك الحديد ويهلك الجيش جوعا . ولهذا كان من المستحيل التفكير في توصيل خط سكك الحديد الى بربر والمتمة قبل أن تسقط هاتان المدينتان في أيدي القوات الغازية. رفض خيار طريق كورقي المتمة وأيضا سواكن - بربر وما ساعد في استبعاد الخيار الأخير صعوبة

بناء خط سكك حديد في سلسلة التلال خلف سواكن . تم اختيار مسار حلفا- أبوحمدة بعد استبعاد الخيارات الأخرى . كانت أبوحمدة لها امتيازات وأضحة ، أولا لقربها من الجيش في مروي وهي ليست ذات أهمية بالنسبة للدراويش أو لدفاعاتهم كأهمية بربر أو المتمة . ومن الممكن إرسال فصيلة هجانة بمحاذاة النهر للاستيلاء عليها .

لم تكن هنالك آبار في الصحراء التي سيقطعها خط سكك الحديد أبوحمدة مما يصعب مهمة أي غارات من قوات العدو لمهاجمة عمال إنشاء الخط وقبل ان يهمل الخط الى أبوحمدة تكون قد سقطت في قبضة الجيش .

كانت الخطة جيدة والحجج في صالحها مقنعة لكن بقي السؤال ما هي إمكانية بناء خط حديد الصحراء، واجه السردار هذا السؤال ولجأ لاستشارة الخبراء من اكفاء المهندسين المختصين في شئون السكك الحديدية. كان الرد بلا استثناء هو استحالة تنفيذ المشروع خاصة عند الأخذ في الاعتبار ظروف الحرب الدائرة . استشار محاربون مشهود لهم بالكفاءة لكن كان الرد بأن المشروع غير ممكن ولا يقبله عقل ، حتي الذين لم يستشاروا وتبرعوا بأرائهم قالوا إن الفكرة فكرة مجنونة جملة وتفصيلا . استمع السردار لكل هذه الآراء والنصائح وقرر البدء فورا في تنفيذ إنشاء الخط وبلا تأخير .

برز في الحال سؤال آخر، هل يبدأ الخط لأبوحمدة من كورسكو أو وادي حلفا؟ وكانت هناك آراء مؤيدة لكل من المسارين. اختيار مسار كورسكو سيقصر طريق النيل من أسوان بثمان واربعين ساعة، كان طريق القوافل القلم الذي سلكه جنرال غردون في رحلته الأخيرة للخرطوم يمر من كورسكو عبر آبار مولرت الى أبوحمدة في الجانب الآخر إن وادي حلفا كانت هي آخر نقطة شمال المحطة الرئيسية لسكك حديد دنقلا وبها ورش مجهزة ومعدات كثيرة يمكن استخدامها وهي ميزة كبيرة . تم إجراء مسح شامل للطريقين وتم اختيار مسار وادي حلفا وبدأ العمل في الحال .

كلف الملازم " جيروارد " بعمل التقديرات اللازمة وعكف الملازم على تحضير الكشوفات. لم يغفل أي شيء وضم كشفه كل ما يمكن أن يحتاج إليه ، تخيل كل الصعوبات التي يمكن أن تواجه المشروع وكانت الاسئلة كثيرة عن أنواع الأشياء التي

يجب طلبها والتي شملت: كم سعة الحمولة المطلوبة ؟ كم عربة وكم قاطرة وكميات قطع الغيار اللازمة ؟ كمية الزيوت عدد المخارط والقاطعات، وأجزاء معدات الورش .  
ماذا عن ترتيبات الإشارة اللازمة- عدد اللمبات وعدد النقاط ؟ كم أعداد من التزولي ؟ كمية الفحم التي يجب إحضارها ؟ كمية المياه اللازمة ؟ كيفية حملها ؟ وكيف سوف يؤثر هذا على القوة الساحية بالنسبة لكل الحسابات السابقة ؟ وكم عدد القطارات ؟ وكم ميلا من الخط الحديد ؟ كم ألف كتلة خشبية كفلنكات ؟ ومن أين يمكن شراء كل هذه المواد في هذا الوقت الضيق ؟ كم عدد بلنجات سكك الحديد سيحتاجها المشروع ؟ وما هي الآلات اللازمة ؟ أي أنواع الماكينات . كم عدد العمال المهرة وما هو العدد المتوافر منهم ؟ كيف يمكن توفير الطعام والمياه للعمال ؟ كم كمية الطعام المطلوبة ؟ كم عدد القطارات التي يجب تسييرها يوميا لنقل الطعام للعمال وجنود الحراسة ؟ وكم قطاراً لحمل المعدات ؟ كيف تؤثر هذه الاحتياجات على التقديرات بالنسبة للقوة الساحية ؟

الأجوبة عن كل تلك الأسئلة وغيرها الكثير الذي لأري داعيا لكي أثقل بها على القاريء ضمنها الملازم " جيروارد " في ملف بلغ سمكه عدة بوصات . كانت دقة وشمولية كشف الاحتياجات من الاتقان بحيث لم تتأثر الحملة وفرق إنشاء الخط أو تعطل أو تحتاج حتي لسلك نحاس في كل مراحل المشروع .

تحت أي ظرف فإن العمل كان سوف يكون شاقا ، وقد تضافرت خمسة عوامل لكي تعقد الأمور. كان يجب تنفيذ المشروع مع حماية حرارية ، ليست هناك أي مياه على طول الخط، وكان إطعام حوالى ألفين من عمال الدريسة في صحراء مكشوفة مشكلة في حد ذاتها، وكان يجب الانتهاء من العمل قبل حلول فصل الشتاء وخامسا وأخيرا فإن الأموال المطلوبة غير متوافرة، تركت كل هذه المهمة للسردار .

أرسل الملازم " جيروارد " الى إنجلترا لشراء المعدات والقوة الساحية، التي طلبت ضمن خمس عشرة قاطرة جديدة ومائتي عربة وتم إنشاء الورش الجديدة في حلفا وعين الميكانيكيون من ذوي الخبرة لإدارتها ، تم إضافة ألف وخمسمائة فرد لكتيبة سكك



الحديد وتم تدريبهم . تم التعامل مع مشكلة المياه . أوضحت تقارير فرق المساحة أن الخط جيد لمسافة مائة وعشرة أميال وحسب رواية العرب لا توجد أي ميساه للمائة وعشرين ميلا التالية ، كانت هناك منطقتان فقط لاحتمال حفر آبار ولاستعمال الجمائل للترحيل أمر غير وارد وكان يجب أن يبنى التخطيط على أن تحمل القاطرة المياه حتى آخر الخط وللعودة ومع فائض للطوارئ أو الحوادث .

كان من الواضح أن كميات المياه التي سوف تحملها القاطرات سوف تزداد مع زيادة طول الخط ومع تقدم الخط وتقدم العمل حتى يأتي وقت سوف تضطر فيه القاطرة لتخصيص ثلث حمولتها لنقل المياه اللازمة لاستهلاكهم . كميات المياه تحددها درجات الخط واتضح أن الصحراء المسطحة ما هي إلا منحدر مستمر حتى ارتفاع ألف وستمائة قدم من حلفا مما عقد كل الحسابات . كان لابد من حسم المشكلة ، تم شراء مائة فنتاز سعة ألف وخمسمائة جالون، وتم تركيبها على عربات سكك حديد متصلة بخرطوم كان من الظواهر العجيبة منظر قطار سكك حديد " السودان الحربي " وصفوف الفناطيز تجري على عجلات عليها تتوقف حياة القاطرة وحياة الركاب بنفس القدر .

بدأ حفر أول حفنة رمال في بناء خط حديد الصحراء في أول ايام عام ١٨٩٧ وحتى أول مايو عندما انتهى خط كرمه لم يكتمل إلا بناء أربعين ميلا من الخط الحديدي ولم يبذل أي مجهود كبير . استمر تدريب " كتيبة سكك الحديد " الجديدة واستمر تدفق وصول المعدات والماكينات والعتاد من كل نوع من إنجلترا . بدأت الورش الجديدة في وادي حلفا تباشر أعمالها ، أصوات المطارق والماكينات تملأ أرجاء المكان ويطير الدخان الأسود من عمليات التصنيع ليملا السماء الافريقية . بخور المدينة الكريه قد قدم للآلهة المصرية، كل هذه هي تحضيرات ولم يبدأ بناء الخط الحديدي حتى يوم الثامن من مايو .

جاء كل فريق بناء خط سكك حديد كرمه الى وادي حلفا ، جاء رواد الحرب الحديثة بكل الجرأة وخلفهم عبر الصحاري الموحشة يجرون خط سكك حديد خلفهم ،

طريق سالم وأكد لقوات المشاة ، الفرسان ومدفعتها والبوارج سوف تلحق بكل السرعة والأمان .

لا توجد كلمات يمكن أن تصف قسوة ووحشية المناطق التي سيمر عليها الخط وعمال البناء ، كالمحيط الأملس الناعم كانت تمتد ذرات الرمال اللامعة الى مدي البصر حتي الأفق ، وتحرق أشعة الشمس الاستوائية سطح الأرض حتي يصعب ملامستها باليد المجردة ويزجر الهواء الحار مثل النار على الفرن وبين ألفينة والاخري تظهر كتل الحجارة كأنها جزر من الحجر في بحر من النار.

وقف رأس خط سكك الحديد وحيدا في كل هذا الفضاء الواسع مدينة من الخيل تتسع لألفين وخمسمائة نسمة كاملة بمحطة ومخازن ومكتب بريد ومكتب تلفراف ، وكتبتين لا يربطها بالعالم الخارجي وعالم الحياة إلا خطين حديدين متوازيين بعرض ثلاث أقدام وست بوصات يتواري عن الأنظار وينكمش في المنظور الطويل حتي يتلوي ويختفي حول السراب الى ما لا نهاية .

كل صباح وسط هذه العتمة والعدم يظهر شبح أسود ، يكبر كلما قربت المسافة الى أن تشق صافرة القطار صمت القرون معلنة الترحيب بأول قطار للمواد يحمل المياه الخاصة به والفين وخمسمائة ياردة من قضيب سكك الحديد ، الفلنكات ولوازمها . عند الظهر تظهر بقعة سوداء أخرى ، قطار تموين يحمل المياه الخاصة به والطعام والمياه الكافية لنصف الكتبية الحارسة ، والفني عامل وفني ، والخطابات والصحف والمقناتق (السجك ) والمربة والويسكي والصودا والسجائر التي تمكن البريطاني من هزيمة العالم دون أن يشعر بأي ضجر .

وتبدأ القاطرات رحلة العودة عاكسة الرحلة الأولى فتختفي تدريجيا على الخط كأنها تطير في الهواء وتختفي في ظلال عالم غير حقيقي .

كانت الحياة في هذه المدينة الغريبة الموحشة تسير على نمط واحد لا يتغير كآله ، كأنها تستمد من الطريق الحديدي خصائصها خاصة أنه سر بقائها . في تمام الساعة الثالثة صباحا تبدأ ماكينة المعسكر وتبدأ الاستعدادات لوجبات الطعام عند الفجر يصل

قطار الإمداد ويلتف حوله عمال الدريسة تماما كالذباب ويحملهم الى آخر مرحلة من الخط . الكل يعرف مهام عمله ويعرف الأرجوع للمعسكر قبل الانتهاء منه يبدأ الجميع العمل دون الحاجة الى تعليمات يبدأ تفريغ مائة ياردة من المواد توضع الفلنكات على شكل صفوف متراصة - ثم يبدأ تثبيت القضيب على الفلنكة الثانية ثم تبدأ القاطرة الضخمة التي تزن ثمانين طنا في التحرك الى الامام بحذر شديد كأنها فيل يحاول المرور فوق كوبري ضعيف . تعاد العملية باستمرار طيلة الساعات المحرقة لكل يوم . تأتي خلف القطار المجموعات التي تقوم بغرس الفلنكات وتثبيت القضيب الحديدي على طول الردمية المعدة للخط . بعد أن يكونوا قد أنهوا عملهم . وعندما تغيب الشمس خلف الرمال فوق الافق الغربي يأتي القطار بالعربات الفارغة حاملا مئات الأجساد المجهدة راجعين الى رأس الخط حيث المعسكر الدائم هنا يكون سير القطار على خط حديدي تم اكتماله .

تأتي فترة قصيرة للراحة تتوهج خلالها أنوار المعسكر كأنها أنوار سفينة ركاب عملاقة تبحر في المحيط بينما يتحادث الضباط ويدردشون أثناء تناولهم طعام العشاء . ثم يأتي الظلام ولا شيء يكسر صمت الصحراء حتي يأتي الفجر بنوره الساطع ومعه يوم آخر من العمل الشاق .

وهكذا أسبوع بعد الآخر تتابع العمل ومع مرور الأيام يتم التقدم نحو الجاهل . يتغير المنظر ، ولكنه يبقى نفس المنظر ، وكلما بعدت وادي حلفا واقتربت أبو حمد ظهرت بوادر الخطر لتضيف للمعاناة العجيبة التي يعيشها سكان معسكر رأس سكك الحديد . ماذا لو أقدم الدراويش على قطع الخط الحديدي ، كان لديهم كميات مياه كافية لمدة ثلاثة ايام كاحتياطي وبعدها ما لم يتم التغلب على أسباب العوارض وتستأنف الحركة فان الموت والهلاك سوف يكون مصير الجميع وسوف لا تبقى سوى عظامهم وأواني الأكل كشاهد على مصير مشروعهم .

في العشرين من يوليو تم انجاز مائة وثلاثين ميلا من الخط وأصبح من الخطورة بمكان التقدم بعد هذا حتي يتم تطهير أبو خمد من قوات الدراويش . صحيح أنهم

يعدون مسافة مائة ميل ولكن الجمال تسافر سريعا وبعيدا ولم تكن إمكانات العبدو معروفة وظن الجميع أن التقدم سوف يتوقف ولكن في السابع من اغسطس تحرك الجنرال "هنتر" من مروي مع محازاة النهر وهاجم ابو حمد واستولي عليها في عملية سنيأتي وصفها لاحقا. وهكذا بدأ العمل من جديد ونشاط أصبح معدل الإنجاز الآن رائعا فقد تم مسح وبناء خمسة آلاف وثلاثمائة ياردة من الخط في يوم واحد . وصل الخط الى أبو حمد يوم أول نوفمبر وهكذا التحم الرجال الذين خاضوا معركة الانتصار على الصحراء مع أولئك الذين شقوا طريقهم عبر النهر ، عندما تم اللقاء على ضفاف النيل .

كانت هناك آثار سلبية للمتاعب والمعاناة فقد توفي اثنان من شباب المهندسين هما "بوهويل" و "كاتور" من بين الثمانية مهندسين ، وقد تم شغل أماكنهم بآخرين بكل الحماس .

لقد تم الانتهاء من الخط قبل شهر تقريبا من مواعده المحدد نسبة لحسن الطالع والتوفيق في العثور على المياه حيث أثمرت الجهود التي استمرت الى ستة أسابيع عن حفر بئر في المحطة رقم ٤ التي تبعد سبعة وسبعين ميلا من وادي حلفا وجدت المياه بوفرة على عمق تسعين قدما وتم تركيب طلمبة مياه واستمر تدفق المياه العذبة بلا انقطاع .

تم حفر بئر أخرى على بعد خمسة وخمسين ميلا من البئر الأولي عن المحطة رقم ٦ وجاءت بكميات أوفر من المياه . لقد ساهمت تلك الاكتشافات في تقليل مشكلة المياه رغم انها لم تحلها تماما، لقد زادت من حمولة الخط وقلت الخطورة على أرواح المجموعات العاملة على الخط. كانت فكرة حفر الآبار هي من اقتراحات السردار بالرغم من تمكّم الأعراب الأصدقاء ولكن يبقى السجل أن النجاح كان بفضل ضربة حظ ، إذ لم يسفر حفر ثمانية آبار أخرى عن نقطة ماء بالرغم من الوصول بالحفر لأعماق أكثر .

كان لابد للتلغراف من متابعة الخط وكانت رسائل الفلنكات تأتي ومعها ما يحتاجه الخط من أعمدة التلغراف والأسلاك والعازلات وقد أتم الملازم "مايني فولد" الذي اشترك في المعارك ضد العرب، وكان من سلاح المهندسين، بناء خط تلغراف من مروي الى أبي حمد وبذلك اكتملت دائرة الاتصالات التي ربطت بين سكك الحديد والنهر .

لم تنته أعباء "كتيبة سكك الحديد" وضباطها بانتهاء العمل في خط حلفا - أبو حمد ، لقد تم بناء خط سكك حديد الصحراء ويجب أن يستمر العمل ، لتشغيله ، وصيانتة وامتداده . أصبحت المحطة الأخيرة في وادي حلفا مدينة مزدحمة ، تحولت قرية الطين الى مجمع صغير شبيه بمدينة "كروي" تم تطوير الورش التي ازدهرت مع نمو الخط الحديد وتأهلت بأحدث الآلات من جميع الأشكال والأنواع. كما تم استيراد الورش الكاملة أما من مصر أو طلبت من إنجلترا حتي اكوام الخردة التي كان يحتفظ بها "اسماعيل" كان لها دور في توريد بعض الأجزاء ذات النفع .

وهكذا امتلات المخازن بأشكال متنوعة من المعدات بشكل غير عادي من المسابك والمخارط والدينموهات ومطارق البخار ومكابس هايدروليكية أفران وماكينات قاطعة للمسامير ، ومداقيب قد تم توفيرها وكانت كلها تعمل باستمرار. كل ذلك استدعي اهتمام مستمر ، كل جهاز لإصلاح الأعجز. كان متوافرا .

لتوفير القوة الساحبة للحمولات اللازمة لتموين الجيش وامتداد خط سكك الحديد، تم استيراد أربعين قاطرة ، طلبت من عدة بلاد في أوقات مختلفة كانت تمثل عشرة أنواع مما استدعي أن يتم حفظ عشرة أنواع من قطع الغيار . تضاعفت التوليفة والاستبدال في المخازن كانت بعض قطع القوة الساحبة عبارة عن قاطرات قديمة استهلكت بالكامل وكانت اعطائها متكررة وقد أثرت الرمال الناعمة على كل أجزاء الاحتكاك وكان لابد من متابعة عمليات الصيانة بشكل مستمر . كانت الورش مشغولة صباح مساء ، طيلة أيام الأسبوع السبعة .

أضف الى تعقيدات الماكينات فوضى اللغات. فلقد تم التعاقد مع جنسيات مختلفة من الملاحظين من عدة بلاد من اوربا وكان التفاهم يتم بسبع لغات داخل الورش- تحولت وادي حلفا الى بابل جديدة ومع كل انتعشت الاعمال . استعمل ضباط سلاح المهندسين الدبلوماسية وطول البال وكان قائدهم بارد الأعصاب لا يكل ولا يعمل وفرض السردار سيطرته الكاملة على الجميع دون أن يأبه لمشاعر الآخرين ولكنه طويل البال لا ينفعل بسرعة واحكامه معقولة . كان يتجول داخل الورش أو وسط صفوف الجنود حتي يطمئن بأن العملية تسير حسب ما خطط لها ، باقتصاد في النفقات مع الإنجاز المطلوب . لقد نال تعاطف العمال العاديين مما اكسبه احترام وحب ضباطه .

لم يعرف في أي مكان من السودان كما عرف في سكك الحديد ، ولم يؤمن به في أي مكان مثل ما يؤمن به هناك .

الآن آن لنا أن نتخيل سير الأحداث . استغني الجنرال "هنتر" عن استعمال الجمال لخطوط مواصلاته الى مروي بمجرد أن وصل القطار الى (أبو حمد) وصار يطلب تموينه رأسا من وادي حلفا عن طريق الخط الجديد .

بعد الانتهاء من خط سكك حديد الصحراء بقيت معدات تصلح لبناء خط لمسافة سبعة عشر ميلا إضافية وعلى الفور تم إنشاء خط حتي (دقش) بطول ستة عشر ميلا جنوب ابو حمد . تم الاستيلاء على بربر في هذه الاثناء وحتمت الضرورة العسكرية بقاء قوة كبيرة في هذه المدينة للدفاع عنها تم إرسال الكتائب الأربع التي بقيت في مروي بالبواخر الى كرامة ومنها بالقطار لحلفا، ثم رحلت بقطار الصحراء الى دقش عن طريق أبو حمد الرحلة كانت بطول اربعمائة وخمسين ميلا .

عندما بدأ العمل في خط سكك الحديد عبر الصحراء كأن الاعتقاد بأن النهر صالح للملاحة بعد أبو حمد بدون أي عوائق وقد أكد هذا المسح الذي تم ولكن بعد انحسار مياه النهر اتضح أن هذه المعلومة غير صحيحة. بمجرد أن انحسرت مياه النيل ظهرت الشلالات وعليه كان لزاما ان يمتد الخط أولا الى (باشطناب) ثم الى العبيدية وأخيرا حتي عطبرة. لتنفيذ هذه المرحلة احتاج الأمر لاعتمادات مالية إضافية في وقت



كثرت فيه المشاكل المالية ولكن تم التغلب على الصعاب واستؤنف العمل بمعدل ميل واحد في اليوم . تختلف طبيعة البلد كثيرا في المنطقة الواقعة بين أبو حمد ونهر عطبرة . يحاذي الخط نهر النيل لمسافة ستين ميلا يسير على حافة النهر على يمين الخط تقع الأراضي الزراعية التي هي لا تزرع تراكمت عليها الأتربة وكونت تلال من الرمال من جراء الإهمال - تنمو فيها مجموعات أشجار الدوم والسنت ويطل النيل من بين أغصان هذه الشجيرات بفى ضان منعش . على الى سار تمتد الصحراء تظهر فيها بعض الأحجار والخيران - من الباشنطاب الى العبيدية كان لابد من الاتجاه بالخط نحو الصحراء نسبة لطبيعة الأرض المحاذية للنيل غير الصالحة للخط . وذلك لمسافة خمسين ميلا من العبيدية الى عطبرة يسير الخط على أراضي طينية تنمو عليها الأشجار الظليلة التي ترويه مياه الأمطار . دخل الخط مناطق نزول الأمطار فيها احتمال وارد وكان لابد من الاحتياط بعمل كباري واستحكامات وفتحات لمياه الخريف والسيول حتى لا تحطم الخط مما زاد من كمية العتاد والمواد المطلوبة بلغت في جملتها حوالى ألف طن إضافة على المواد المطلوبة . عندما وصلت القوات الإضافية لمنطقة بربر تضاعفت القوة الموجودة وتضاعفت أيضا مهام التموين . أن إطعام الجيش في الصحراء وعلى بعد ألف ميل من قاعدته ومع عدم وجود أي وسيلة للغذاء على مسيرة يوم كامل ، ليست بالأمر السار وإن لم تقل أهمية عن بناء خط سكك الحديد الذي ترتبط به حياتهم لنقل التموين الى الجبهة . إن التموين أو الأفراد والمواصلات ترتبط مع بعضها تقف او تنهار معا ويعتمد التاريخ على كليهما . ولكي نوضح دور ادارة التموين والمؤن الحربية، أجد لزاما على أن أكرر وأوضح بعضا من التفاصيل . كان السردار يشرف اشرافا مباشرا على ادارة الإمدادات إلا أن دوره اقتصر على الإشراف على توزيع الوجبات أما تحضير الطعام والتموين المستمر وقد أوكل الى العقيد " روجرز " الذي اثبت خلال ثلاث سنوات أنه فعلا يستحق لقب " مطعم الجيوش " لدقة حساباته والتفكير السليم الذي لا يغفل أى احتمالات .

كانت المهمة الحربية الاولى كما أشرنا هي تركيز أكبر قوة من القوات المصرية في  
عكاشة وما كان لمسائل التمويل أن تشكل أي متاعب لأن هذه طوارئ كل شيء  
محسوب حسابه. شاءت المقادير أن شهد بداية عام ١٨٩٦ نقضا كبيرا في الغلال بسبب  
لانخفاض محصول عام ١٨٩٥ الى أقل من المتوسط فأضطرت مصر التي عرفت آنذا  
صومعة غلال ضخمة الى استيراد الحبوب واستورد جنودها أربعة آلاف طن شعير من  
الهند وروسيا حتي تبدأ الحملة .

إن الوجبة الرئيسية للجندي في أغلب الجيوش تتكون من الخبز ( الرغيف ) ودون  
تسبب الخبز السيء والبديل الذي لا يخرج عن البسكويت الناشف ، في مشاكل صحية  
للجنود في كثير من المعارك الحربية . كان الجيش يحتاج لعشرين طنا من الدقيق يوميا  
ويمكننا تخيل المشاكل والمناوشات التي كانت سوف تنشأ بين ضباط الإمدادات  
والمقاولين عندما يصير العنصر الأول على النوعية الجيدة ويكون هم العنصر الثاني هو  
الربح لا أكثر . لم تتعرض إدارة الحملة المصرية المنظمة الى أي من تلك المشاكل .

استولت وزارة الحربية في عام ١٨٩٢ على مصنع اسماعيل باشا لصناعة الأسلحة  
بالقرب من القاهرة وحولته الى شونة ومطاحن للغلال ومصنع للبسكويت ينتج ما  
يكفي ستين ألف وجبة يوميا وأنشئ مصنع للصابون في نفس المنطقة . كان لهذه  
الترتيبات أثر كبير إذ ساهمت في تأكيد جودة الدقيق وبذلك انعدمت الشكوى من  
الخبز السيء وحل الصابون محل الدبش والشحم الذي كان يورده المقاولون فيما مضى  
واستطاع الجندي ان يغتسل وان يغسل ملابسه أيضا مما كان له اثر عظيم .

ثانيا انعدمت مشكلة التأخير في التسليم في الموعد، كما كان يحدث مع المقاولين  
وأخيرا استخدم الفائض في إنشاء مائة وخمسين مخبزا ، وهكذا بالرغم من الأموال التي  
صرفت لاستيراد الحبوب جاءت بداية الحرب ووجدت إدارة المؤن والتمويل في الجيش  
المصري في حالة جيدة وكفاءة عالية .

لقد خصصت مخازن في أسوان وأيضا في وادي حلفا وتم تخزين كميات هائلة من  
المواد التموينية ، ولم يكن يسمح بسحب أوقية واحدة بدون تعليمات من السردار

شخصيا. كان القائد يتحمل المسؤولية كاملة ولا يخضع لتعليمات من أحد وقد تحاشي المشاكل الناتجة من كثرة الآراء من رؤساء الأركان . عندما اكتملت الإمدادات الكافية في عكاشة ، تمت معركة فرقة بعدها جاءت الصعوبة في الحفاظ على اطعام الجنود وفي نفس الوقت الاستمرارا في بناء خط سكك الحديد وترحيل الطعام اللازم لذلك صرفت عينات صغيرة للمسافة بين حلفا وكوشة ، تعرضت للسرقة والتلف من جراء المياه حتي أثرت على خطوط الامداد وأعيد بعض أفراد من الجيش الى الشمال لتفادي الجماعة. لقد تدهور الموقف عندما تحركت القوة جنوبا الى دلقو وقدرت المسافة حتي دنقلا بمسيرة عشرة أيام وهي كانت الحمولة القصوي لقوافل الجمال والحمولة البواخر . استعملت بعض المراكب الشراعية لنقل الحبوب وكانت الوسيلة الوحيدة لكنها تأخرت بسبب التيار والهواء ، ربما استطاع الجيش أسر بعض المراكب الحاملة للحبوب وربما يلتقط الأفراد بعض ثمار البلح ولكن بالكاد يوجد أي مصدر للطعام . جاء الفرج بعد ان قلب الهواء جنوبا وتم شحن تموين يكفي اثني عشر يوما على المراكب الشراعية والبواخر ووصلت مع القوة الى دنقلا ومع وصول هذا الاحتياطي المهم تمت عملية احتلال مديرية دنقلا وبالرغم من أن الجيش عاش بتموين يوم يوم حتي وصول الخط الى كرمه لم تكن هناك أزمات في تموين الجيش يمكن أن تؤثر على سير الحملة . انتهى الى هنا سرد قصة إدارة المؤن الحربية مع نهاية الاستيلاء على مدينة دنقلا ولكننا سنستمر معها وهي ترافق بناء خط السكة حديد .

في مرحلة أبوحمد كانت الامدادات تصل بصورة منتظمة ومتابعة ، كانت الفرقة التي تتبع طريق القوافل عبر آبار مورات تأتي بانتظام حتي أن أحدي هذه الرخلات وصلت في اليوم التالي لانهاء المعركة، وتم بعد ذلك فتح خط إمداد من مروي . كسان دخول بربر بعد أبوحمد غير المتوقع سببا في أرباك الامدادات حتي تم توصيل الخط الى بربر كان الاعتماد قبل هذا على عدة أصعدة ، قوافل الجمال وهي تعبر الأراضي بين مروي وأبوحمد وسط أشجار وأشواك كثيرة وطرق غير معده مما أدي الى ازدياد الفاقد

أثناء الرحلة وايضا واستخدمت القوافل عبر آبار مورات اتية من رأس الخط الحديدي بالإضافة للمراكب الشراعية من مروي توزع المؤن والإمدادات للجهات المحددة لها .

حتى بعد وصول الخط الى دقش لم تهدأ حالة القلق إلا قليلا . أن تموين قوة كبيرة من الجيش على بعد مائة وثمانية أميال من رأس خط سكك الحديد ، تطلب الاحتفاظ بنظام تموين يعتمد على قوافل الجمال وحمولات المراكب الشراعية .

قل الاعتماد على هذه الطريقة كلما تقدم الخط الحديدي وقلت المشاكل ايضا عندما تم استبدال قوافل الجمال والمراكب الشراعية بالقطار الحديدي .

لكي نعطي القارئ فكرة عن حجم المسئولية وأهمية دور الإمداد ندعوه لتابعة رحلة لصندوق بسكويت من القاهرة الى البربر . كان الطريق كما يلي : - من القاهرة لنجع حمادي ( ٣٤٠ ميلا ) بالقطار ، من نجع حمادي الى أسوان ( ٢٠٥ ميلا ) بالمراكب ، من حلفا لدقش رأس الخط ( ٢٤٨ ميلا ) بالقطار الحربي من دقش الى الشريك ( ٤٥ ميلا ) بالمراكب ، من الشريك بالجمال ( ١٣ ميلا ) حول الشلال الى الباشطناب ، من هناك بالمركب الى أم شيو ( ٢٥ ميلا ) من أم شيو حول شلال آخر بالجمال ( ١١ ميلا ) الى قينبيطة ومنها ( ٢٢ ميلا ) بالمركب الى بربر . إن الطريق الذي سلكه صندوق البسكويت سوف يسلكه كل طن من المؤن والعتاد التي يحتاجها عشرة آلاف مقاتل على أرض المعركة . كان لذلك أهمية عملية الإمدادات علنى أن تسير وسط خطة محكمة عبارة عن سلسلة من العمليات كلها تخدم بعضها في تناسق تام دون أي اختناقات كانت سوف تؤثر على سير بقية العجلة الدائرة . كان هذا هو الأمر الذي شغل بال ضباط المواصلات واحتاج القرار الصحيح لكل الوقت وكل مرة .

بالرغم من اعتماد المراكب على تقلبات الهواء التي ربما تؤخر الملاحة ، وبالرغم من تعرض الجمال للأمراض والموت أحيانا وبالرغم من أعطال الماكينات المستمر وفي مواجهة كل الصعاب أمكن تحقيق إمداد مستمر ولم يتأثر بناء خط سكة الحديد ولم يسجل أي نقص في إطعام الجنود .

استمر الخط الحديدي في النمو ومع كل تقدم تقل مشاكل التمويل انتقلت  
الأحمال من على ظهور الجمال وبطون المراكب الى داخل عربات النقل على الطريق  
الحديدي ، توجهت كل الجهود الآن الى خدمة الحرب ، وقد حلت سرعة القطار  
محل زحف القوافل البطيء .

أثرت غارات الدراويش على تقدم الخط الحديدي لبربر وكان الحذر الحربي  
واجبا، تم توقف العمل لمرور اللواء البريطاني الاول الى الجبهة وأيضا لتتابع وصول المؤن  
والمعدات بشكل يومي. اكتمل بناء الخط حتي الباشنطاب في العاشر من مارس ووصل  
الى العبيدية في خمسة مايو ووصل الخط الطويل من حلفا الى عطبرة يوم ثلاثة يوليو.  
واكتمل بناء رئاسة السكة حديد الجنوبية عند المعسكر الحصين الذي اقيم عند ملتقي  
النيل مع نهر عطبرة. من الآن فصاعدا انتهت مشكلة الامدادا نهائيا. لقد وصلت  
الامدادات التي تكفي الحملة لمدة ثلاثة اشهر في أقل من أسبوع وانتهت بذلك متاعب  
ضباط إدارة المؤن الحربي وانتهى معها العمل المرهق . أضيفت إنجازاتهم للنجاحات  
العظيمة التي حققها رجال السكة حديد، لقد كافح القائد ورجاله طويلا وقد كللت  
بجهوداتهم هذا النجاح الهائل . إن أول قطار وصل حاملا للجنود الى المعسكر الحصين  
على ملتقي نهر عطبرة مع النيل قد حدد مصير الدراويش ونهايتهم . أصبح الآن متاحا  
وممكننا إرسال قوة وبسرعة الى قلب السودان بصرف النظر عن المواسم مع إمدادهم  
ليس بالأسلحة والأطعمة ولكن بآلة الحرب العلمية الحديثة ومساندة جهودات القوية  
الزاحفة بأسطول نهرى مسلح يمكنه السيطرة على النهر وشواطئه ويستطيع الأسطول في  
أي وقت تجاوز الخرطوم نفسها وحتى الوصول الى سنار وفشودة والسوبات .

إن النصر قد تحقق قبل ان تبدأ المعركة. إن الخليفة وعاصمته وجيشه وجميعهم  
الآن تحت قبضة السردار، تبقي عليه فقط التقدم لقطع الثمار في الوقت المناسب له  
وبدون عناء وبأقل التكاليف .

## الفصل التاسع

### أبو حمد

مما لا شك فيه أن الجزء السابق " سكك حديد الصحراء " قد قاد الى سرد أخبار الحرب بسرعة مذهلة وأن القارئ الذي وصل الآن الى استحكامات الجيش الغازي على ملتقى نهر عطبرة والنيل قد هيا نفسه للتقدم الكبير نحو الخرطوم . لعله من الضروري ان يسمح لذاكرته بالرجوع للفترة عندما كانت الحاميات المصرية تعج بالجيش المصري على طول خط النهر في حاميات، دنقلا ، الدبة ، كورتي ومروي ، وعند بدء الاستعدادات لاعادة الاستيلاء على مديرية دنقلا وعندما كان خط سكك حديد الصحراء يتمدد بصورة مرضية نحو أبو حمد .

أخبار سقوط دنقلا قد سببت الهلع في أم درمان فتركت أعدادا كبيرة من الغرب المدينة عندما احسوا بأن سلطة الخليفة سوف تنهار ، توقفت جميع الأعمال وتوقفت عمليات الإعدام لعدة أيام الخليفة نفسه لزم منزله حتي يخفى قيطة وتكدره من أفراد رعيته .

في اليوم الخامس بعد وصول تلك الأخبار ، ذهب الخليفة الى الجامع لأداء صلاة الفجر، ثم اعتلى المنبر الخشبي المعد للخطبة وخطب في المصلين . بعد ان اعترف بانسحاب الدراويش تحت قيادة " ودبشارة " ، هول من حجم خسائر الاتراك ووصف الحالة الى ائسة التي يمرون بها . كرر الخليفة استيائه الشديد من استسلام بعض افراد الجهادية مذكرا مستمعيه ، كيف يعذب الانجليز والمصريون من يقع في الأسر وكيف يتعرض لعذاب فظيع . لقد ناح وكاد يبكي وهو يصف عدم الايمان بالله الذي جعل حفته من الأنصار تهجر الجهاد ضد الكفار وقلة الايمان والتقوي التي تسببت في هذا العار .

وعاد وأكد ثقته في رعاياه وفي وقوف الله ثم المهدي لنصرته واستمر حتي ألهب مشاعر الجماهير وعندها بدأ خطبة رنانة قائلا: صحيح أن قوادنا قد انسحبوا من دنقلا ولكنهم لن ينهزموا ، وأن الذين هلكوا هم الذين عصوا أمرنا فقط فأنا الذي أصدرت أوامري بانسحاب القوات الى المتمة وعدم مواصلة القتال ، وهكذا فانهم قد نفذوا الأوامر التي أرسلتها لهم .

لقد جاءتني رؤية في المنام من الروح القدس والملائكة وروح المهدي تحذرنى بأن الأعداء الأشرار والانجليز البؤساء سوف تتناثر عظامهم البيضاء بين دنقلا وام درمان في منطقة معينة



وهكذا سوف ينهزم الكفار ، ثم سل سيفه وصاح بصوت جهوري " ان الدين منصور " وسوف ينصر الله الاسلام .

كانت في هذه اللحظة الجماهير التي يزيد تعدادها على عشرين ألفا من المصلين قد ملأت أركان الميدان للمربع وإن لم تكن تسمع صوته الا أنها قدرته واستل كل فرد سيفه أو لوح بحرته مكبرا الله اكبر.

عندما هدأت الضوضاء أعلن الخليفة ان الذين لا يرغبون في الاستمرار في الايمان يمكنهم أن يذهبوا الى أين يشاءو اما هو فهو باق وواثق من نصرة الله وهكذا اعاد الطمأنينة للجماهير .

عرف الخليفة أن البركة الالهية يجب أن يساندها المجهود البشري وعليه انكب على تخطيط الاستعداد ولم يترك أي سائحة الاوفكر فيها. في البداية كان الخليفة على يقين أن جيش السردار سوف يتقدم فورا الى أم درمان سالكا نفس الطريق الذي سلكته قوة الصحراء عام ١٨٨٥ من كورتي الى المتمة وعليه فقد أصدر أوامره لعتمان ازرق رغم جرحه أن يأخذ ماتبقي له من قوة ويحتل أبار أبوكلي- أما ودبشارة الذي كان يجمع ماتبقي من قوتة بعد معركة دنقلا فقد وصلته الأوامر لاحتلال المتمة عاصمة الجعليين، كما بعثت الرسل من أجل أن يتم حشد القوات في أم درمان. وطلب الأمير إبراهيم خليل من الجزيرة - المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض - فوصل الى المدينة ومعه قوته المكونة من أربعة الاف جهادية من البقارة. صدرت الأوامر لأحمد فضيل الذي كان في طريقة الى القضارف بالعودة للعاصمة. عثمان دفنة جاء على جناح السرعة من ادراما ولكن يظهر أن الخليفة أراد أن يستشير فقط لأنه لم يامر بتخفيض القوات في الحاميات الصغيرة على طول خط عطبرة الدامر في ادراما واصبري والفاشر وعليه عاد عثمان دقنه الى ادراما بعد زيارة قصيرة .

وأخيرا ولكن ليس من حيث الاهمية أمر محمود قائد الجيش في الغرب بترك قوات صغيرة في كردفان ودارفور والتوجه بما تبقي من قوته التي ربما بلغت عشرة الاف مقاتل الى النيل ومن ثم الى ام درمان .

محمود الطموح الجامح بنفس درجة غروره وقله كفاءته استلم الأوامر بسعادة وبدأ في تجميع قواته .

كان واضحا للخليفة أنه لن يستطع وضع كل ثقته في افراد القبائل النيلية -أولاد البلد- كان عدم الرضا عند الجعليين والبرارة الذين يمسوا من حكمه ومن الحرب وكانت كميبة الاخلاص والضرائب تقل كلما تقدم الجيش المصري، لهذه الأسباب صرف النظر عن أي مواجهه في بربر وأمر الأمير يونس قائد للمنطقة بعد عودته من دنقلا عام ١٨٩٥ الى جمع كل الجمال والمراكب والحبوب وكل المؤن التي يمكن أن يستفيد منها جيش الغزاه بجميعها وارسالها الى المتمة .

وقد أنجز المهمة على خير وجه . أجبر السكان على التخلي عن ممتلكاتهم والآشياء الضرورية لحياتهم مما تسبب في تدميرهم من هذه المعاملة القاسية مما يفسر سير الأحداث فيما بعد خاصة بعد سقوط أبو حمد . كانت ابو حمد هي اخر نقطة شمالية للخليفة ولم تعتبر نقطة مهمة وعليه فقد كانت تحت إمرة محمد زين مع قلة من الدراويش ولم تضيف إليه الا قلة من الامدادات .

عرف العرب جيدا قوة البواخر المسلحة وقوة مدافعها بعد معركة دنقلا . بدأ الخليفة محاولات لقفل الشلال السادس في مضيق السبلوقة وشوهدت الباخرة "بوردين" إحدى بوادر غردون -وهي تحمل المدافع والمهمات من أم درمان الى ود حامد وقد أرسل أحمد فضيل مع قوته ليعسكر هناك بعد الانتهاء من حمل الطايبات شمال السبلوقة. كانت نبوءة المهدي ذات أثر كبير في تفكير وتصرفات الخليفة فيما يختص بالمعركة الكبيرة عند تلال كرري ، بالرغم من انه لم يغفل أي تفاصيل لكن كانت تلك الفكرة مسيطرة عليه تماما . كان يشاهد طواير جيوشه بانتظام وهي تستعرض في ام درمان ، وكان كل يوم تستمر فيه القوة في تمارينها على الساحة التي سوف تتناثر أجسادهم عليها .

بعد مرور فترة قصيرة ظهر أن الأتراك سوف لا يتقدمون. يظهر انهم اكتفوا بالأراضي التي احتلوها ، البواخر لم تبحر بعد من مروي والخط الحديدي لم يتجاوز كرمه. لماذا لم يواصل الغزاة نجاحهم ، لعلمهم يخشون الجيش الكبير الذي ينتظرهم في أم

درمان !. تشجع الخليفة وبدأ استعدادات لعمل هجومى فى يناير ١٨٩٧ حتى يطرده الغزاة من دنقلا .

يتجمع الجيش عند سفوح تلّال كررى واستمرت طواير التمارين وتجهيز المؤن مع تحضير كميات من الخبز البلدى "الكسرة" الناشفة وهى غذاء الدراويش فى حملاتهم. لم تختف كل تلك الاستعدادات عن علم السردار لقد كانت عيون استخباراته تمده بمعلومات كاملة عن تحركات الخليفة ، فأرسل لتمرّكز القوات فى دنقلا ولقفل أى ثغرات يمكن ان تهدد امن قواته.

أرسلت فرق الاستكشاف من سلاح الفرسان عن طريق الصحراء حتى آبار جقدول وعلى طول النهر . علم أن الأمير يونس قد عبر النهر فى آخر مايو وبدأ مهاجمة القرى الواقعة تحت أبو حمد. أمر، بناء عليه السردار بقيام دوريات تحت قيادة النقيب "لى قالياس" مكونة من ثلاث سرايا من سلاح الفرسان بقيادة النقيب ماهون ، ثلاث فرق هجانة ومائة رجل من الفرقة السودانية الرابعة على ظهور الجمال مع مدفع ماكسيم للاستطلاع اعلى النهر من عند ممر شكوك حتى سلامه .

لم تتعرض هذه القوة لأي حادثة فى رحلة الذهاب ولكن وقع تصادم عند رحلة العودة ، جرح خلاله الضابط البريطانى بيتون جرحا شديدا وقتل تسعة جنود مصريين وجرح ثلاثة آخرون . كانت هذه الحادثة دليلا على تحرك الدراويش مما استدعى أن تكون القوات حذره وعلى أتم استعداد .

وصل محمود بقواته من الغرب فى نهاية مايو واستعرض الخليفة القوات بكل الترحاب خارج المدينة . لم يكن لمحمود أى خبرة بالاسلحة والبنادق بالرغم من ذلك كان واثقا أنه يستطيع هزيمة الأعداء ودحرهم . وكان متحفزا إما أن يخضع قبائل الجعليين للولاء أو أن يشوروا قبل وصول الجيش المصرى لنجدتهم عندما علم أن الخليفة مصمما على إرسال جيش كردفان الى المتمة، أحضر الخليفة زعيم الجعليين عبد الله ودسعد وأخطره بنيته فى الدفاع عن الجعليين فى المتمة وأنه قرر إرسال جيش محمود لذلك الغرض وعلى قبيلته أن يمدوهم بكل ما يحتاجون اليه من مؤن وأغذية ومسكن .

هنا احتج زعيم الجعليين وذكر للخليفة الحالة البائسة التي عليها اهل المتمة وقال  
انهم على استعداد لصد العدو وطلب ألا يرسل جيش محمود ليزيد الأعباء عليهم .  
طلب العفو لتقدم هذا الاحتجاج الذي املته الظروف الصعبة التي تمر بأهله .

هنا فقد الخليفة أعصابه وتوازنه المعهود في المجالس العامة ونعت عبد الله ودسعد  
بكل الصفات السيئة قائلا انه كان يشك منذ مدة طويلة في ولائه ، وأنه لا يستحق  
انخص ميتة وأن قبيلته لا تستحق إلا أن توصف بأنها لطخة على الأرض وأنه يرسل  
محمود القادر لتأديبهم، هم وزوجاتهم . اعتذر عبد الله ودسعد لما بدر منه وخرج .

رجع عبد الله ودسعد الى المتمة وحكي لقومه ما تم بينه وبين الخليفة وذلك اللقاء  
العاصف . وعرف الجميع معني إرسال محمود وجيشه الذي لن يتورع عن مصادرة  
أموالهم وخراب بيوتهم وانتهاك حرماهم فقرروا بالاجماع الاستسلام لجيش السردار  
وطلب النجدة منه سواء كانت عبارة عن جنود أو أسلحة . كتبوا خطابين - للسردار  
الأول يطلب المساعدة وعزمهم على محاربة الدراويش إذا وصل الدعم أو عدمه والثاني  
خطاب سباب شديد الى الخليفة . وصلت الخطابات مع رسول الى الجنرال "رندل في  
مروي يوم ٢٤ يونيو، ووصل الخطاب الثاني للخليفة يوم ٢٧ يونيو .

استجابة الجنرال " رندل " كانت فورية ، أرسل ١١٠٠ بندقية وممتهجون وكمية  
كبيرة من الذخيرة محملة على جمال على طريق كورتي - المتمة مع حراسة قوية من  
الهبجانة . عندما تسلم الخليفة خطاب السباب من الجعليين يوم ٢٧ كانت بعض قسوة  
محمود قد اتجهت بالفعل نحو الشمال وتبعها محمود وباقي القوة يوم ٢٨ يونيو ووصلت  
القوة الأولى الى المتمة يوم ٣٠ يونيو .

استطاع عبد الله ودسعد ان يجمع كل الرجال الموجودين في المتمة حوالي ٢٥٠٠  
رجل وحوالي ٨٠ بندقية مع ١٥ طلقة ذخيرة لكل بندقية . تولوا حراسة الجهة الجنوبية  
من المتمة والبقية على الجهة الشمالية يحملون الحراب . كما توقع عبد الله ودسعد جلاء  
هجوم محمود في أول يوليو من الجهة اليمنى للمتمة وأبدى أفراد عبد الله مقاومة شرسة  
سقط على أثرها الكثير من أفراد جيش محمود . كانت قوة محمود حوالي ١٠ آلاف الى

١٢ ألف جندي ، نفذت ذخيرة رجال عبد الله ودسعد فأنهال جيش محمود عليهم من الجهة اليمنى والشمالية ودخلوا البلدة وكانت مذهبة حقيقية لم يسلم فيها النساء أو الاطفال وكان عبد الله ودسعد أحد القتلى .

وصل بعض أفراد قبيلة الجعليين الى آبار جقدول ، وهنا وجدوا قوة النجدة من الهحانة والبنادق والذخيرة المرسلة من جنرال رندل ، ولكنها كمثيلتها التي ارسلت لنجدة أولئك الذين كانوا يعانون من أسوأ الظروف ، قد وصلت متأخرة . رجعت القافلة وحملتها الى كورتي .

بينما كان الخليفة مشغولا بهذه الامور ، كان هناك خطر داهم يترصد به ألا وهو خط السكة الحديد الذي ظل يمتد عبر الصحراء ، سواء علم به أم لم يعلم الدراويش لكنهم لن يقدروا مدي خطورته ، وصل الخط في منتصف يوليو الى ١٣٠ ميلا، وكما ذكر في الجزء السابق كان العمل قد أوقف لحين الاستيلاء على أبو حمد ووصول الجيش المصري اليها . كان ارتفاع منسوب النيل في استمرار وسوف يمكن البواخر من الملاحة متى ما عدت الشلال الرابع وكان احتمال تقدم الأتراك واضحا متى ما ارتفعت مياه النهر . وكان الخليفة على علم بهذا الاحتمال فسارع يأمر " الأمير يونس " أمير بربر للتحرك الى منطقة المناصير ويناوش دوريات الاستكشافات القادمة من مروي ، لم ينفذ " الأمير يونس " هذا الامر وبقي على الشاطئ الشمالى قبالة بربر حتى أرسل الخليفة واستعاه للحضور الى أم درمان ليوضح موقفه .

الحسابات الدقيقة لارتفاع النهر وتقدم خط السكة حديد قد حددت موعد تقدم الجيش المصري .

تمت التحضيرات بكامل السرية لارسال فرقة سريعة لأبو حمد. كانت حامية الدراويش هناك تحت إمرة " محمد زين " لا تتعدى ٦٠٠ محارب. ولكن لضمان نتائج مؤكدة تقرر إرسال لواء كامل .

كان اللواء يتكون من كل الأسلحة وتشكل كما يلي : -

القائد " جنرال هنتر "

سلاح الفرسان : كتيبة

المدفعية : بطارية الميدان رقم ٢ ( ٦ مدافع كروب ، ٢ مدفع مكسيم ، واحد قاردر  
وواحد نوردين في لد )

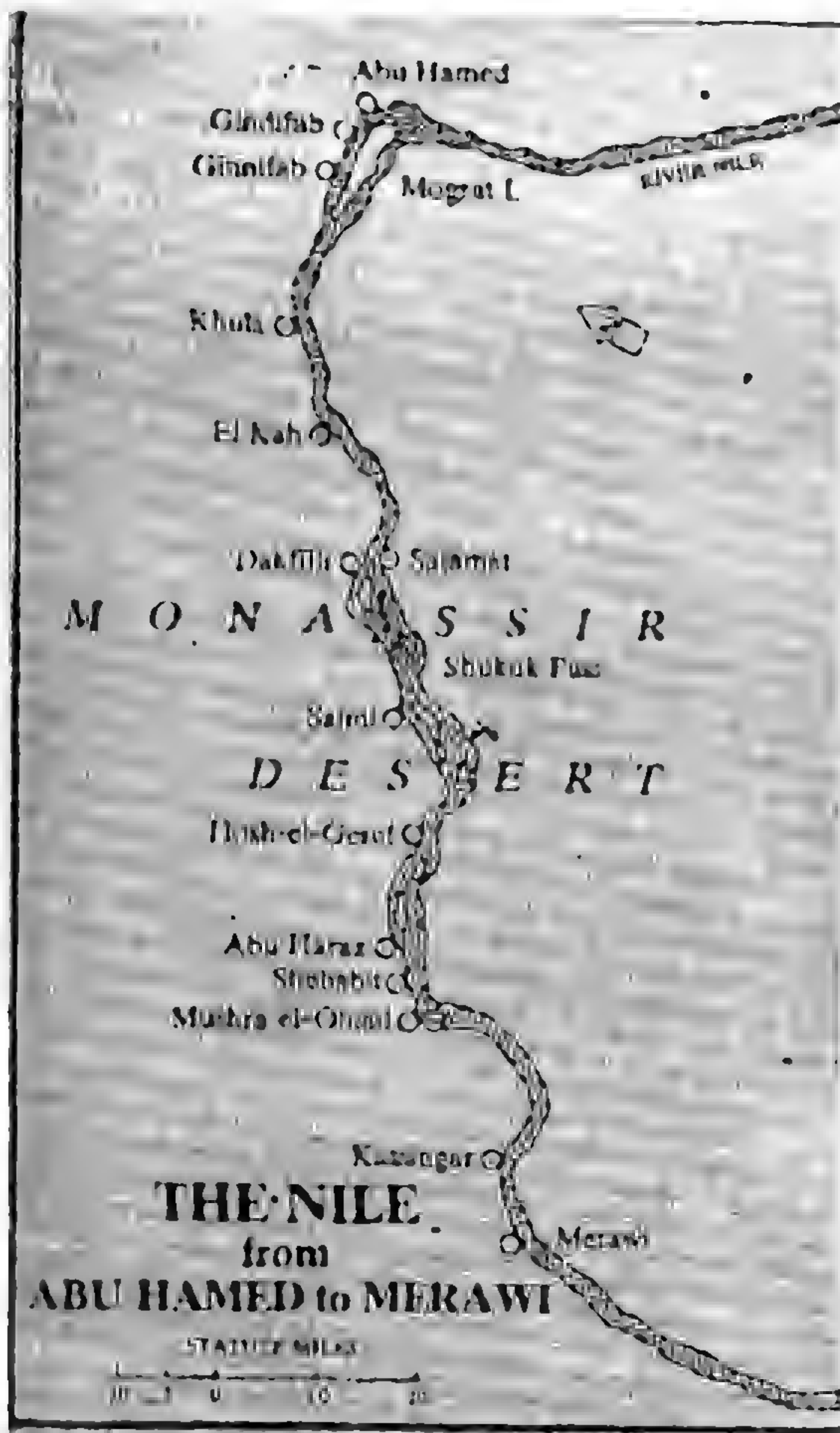
المشاة : لواء ماكدونالد

كان سير ارشبولد هنتر الضابط الذي كلف بقيادة الحملة أشهر ضابط في الجيش  
المصري وقد نال هذه السمعة لجرأته واقدامه فقد سبق ان خدم جيش الخديوي أثناء حملة  
النيل لعام ١٨٨٥ - ١٨٨٤ . وتقلد كل المناصب متدرجا من رتبة نقيب حتي وصل الى قائد  
عام وقد نال هذه الرتبة لخدمته الممتازة فقد جرح مرتين ، مرة وهو على مقدمة اللواء الذي  
يقوده وعليه اكتسب احترام رؤسائه وأعجاب زملائه في القتال في أثناء "حرب النهر" ومن  
العجيب أنه رغم قسوته أصبح معبود الجنود. لقد كان أهم عناصر لجناح حملة السررار،  
روحه المرحه وقيادته الحكيمة عرف كرجل المهمات القتالية . كانت القوة التي وضعت  
تحت إمرته تتكون من ثلاثة آلاف وستمئة جندي و قد أوقفت جميع العمليات حتي الانتهاء  
من هذه العملية حتي خط سكك الحديد أوقف نشاطه في قلب الصحراء .

تجمعت قوة اللواء الطائر في قرية الكاسنجر التي تبعد عن مروي بضعة أميال على يمين  
النهر أو الشباطي الذي تقع عليه ابو حمد .

بدأ الجنرال "هنتر" مسيرته يوم ٢٩ يوليو، لقطع المسافة بين الكاسنجر وأبو حمد والتي  
تبلغ ١٤٦ ميلا. بالرغم من السرية الكاملة التي ضربت على تحركات الحملة إلا أنه كان  
من الوارد انه بمجرد أن تتحرك القوة سوف يعلم بها الدراويش فيسرعون الى إرسال  
النجادات لأبو حمد مما قد يصعب للمهمة ويجعل القوة غير قادرة على الاستيلاء على القرية.  
اذن السرعة مطلوبة ولكن حرارة الطقس وتأثير الشمس الحارقة قد اضطرت القائد أن يتم  
السير ليلا في أغلب مراحل المشوار ولكن لم يمكن هذا الحل القائد من الاستفادة الكاملة  
نسبة للسير في أراضي رخوة وفي جناح الظلام. تعتبر صحراء المناصير من أكثر المناطق وعوره  
على طول النيل في رحلته الطويلة وهي منطقة خلوية غير مأهولة بالسكان. إن النهر يتقطع  
في أجزاء كثيرة حتى تظهر الصخور التي تكون شلالات صغيرة خطيرة وتزحف الصحراء  
الى حافة النهر.





الشاهد الوحيد للحياة في المنطقة ظهور بعض أشجار النخيل أو بيت من الطين. كان الطابور يسير محازيا للنهر، ولم يكن هناك ثمة طريق واضح المعالم يمكن للجنود أن يسيروا عليه كان الجنود يعانون من الرمال الناعمة الرخوة، وقد غاصت أقدامهم في بعض الأحيان حتى الركبة داخل الرمال وامتلات أحذيتهم بالرمل والوحل أو يعاني الذين يسيرون على النهر نفسه من الحجارة البارزة التي لاتزال تحتفظ بحرارة الشمس بالرغم من طلوع القمر . استمر طابور القوة في خط طويل يصارع ويتلوي بألم تماما كالثعبان الذي قبل فيه : " تماما كما يتلوي جسدك على التراب ، فان التراب سيلتهمك " .

تحرك الطابور في الساعة الخامسة والنصف مساء ووصل بعد ستة عشر ونصف ميل الى "مشرع العبيد" عندها أمر القائد بالراحة حتى يسقي الجميع. هذه المنطقة لا تقارن بالشاطئ الغربي للنيل ، بالكاد عشر شجيرات ملاهى بالشوك ولكنها مناسبة كنقطة تزود بالمياه. أمر القائد بالتحرك في الساعة الثالثة والنصف صباحا يوم ٣٠ يوليو حتى وصلوا بعد ثمانية أميال الى قرية شيبات . كان السير بطيئا وصعبا وكان الجنود في حالة من الإعياء والتعب اضطر القائد الى وقف الاستمرار الى حوش الجريف ، خاصة أن بعض الأفراد قد ضلوا من بقية الفرقة ووصلوا في حالة يرثي لها من الإعياء .

وعليه لم تصل القوة لحوش الجريف حتى أول أغسطس . عندما اضطرت القوة بعد ابو حراز إلى الابتعاد عن مجري النيل لمسافة خمسة أميال ، افادت الراحة إذ استطاعت القوة تعويض التأخير فيما حققته لاحقا .

تحركت القوة مرة أخرى بالليل وعسكرت بالنهار في سالمي . استمر السير في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي . كان من المستحيل استمرار مدافع المكسيم المحمولة على عجلات أن تستمر فاشترفت داخل الصحراء لمسافة ٢٨ ميلا لقطع نفس المسافة التي قطعتها القوة وهي ١٠ أميال . وحتى لاتصل المدافع الى داكفى ل بدون حماية سبقها القائد "هنتر" الذي تحرك مع الفرقة السودانية الرابعة في الساعة ١١ مساء اليوم السابق. لقد وصلت الحملة بعد أن قطعت مسافة ١٨ ميلا من الرمال الموحلة الى قرية الكاب . جاءت طلقة واحدة من الشاطئ للمقابل لمجرد ان دخلت القوة القرية الكاب دلالة واضحة ان أمر

الهجوم القادم قد انكشف لدى الدراويش . استمرت القوة المنهكة في التقدم ومعها خطوط مواصلاتها باعجاب ، رغم معاناتها القاسية .

استهلكت الليالي في السير ، لم يستطع الجنود التقدم بالنهار لانعدام الظل ، وصل الارهاق بكل الرتب حدا جعل بعض الجنود يسقطون أثناء السير ليلا ويغطون في النوم العميق الى ان يحضر من يوقظهم بلهجة أمر حادة . استمرت المسيرة مسرعة حتي وصلت نخوة بعد مسيرة ١٤ ميلا . انضم اليهم في هذه النقطة الشيخ " عبد العظيم " ومعه ١٥٠ رجلاً من العبادة على ظهور الجمال . توفي ثلاثة مصريين من إرهاق الرحلة وتركت القوة ٤٨ رجلاً أمهكهم السفر مع مخازن المؤن ، صرفت كميات من اللحمة كتعيين مضاعف لكل أفراد القوة وواصلت السير حتي وصلت الى الجنيقاب الساعة الثامنة من صباح يوم ٦ أغسطس . وجاءت اخبار من العدو كانت مزعجة ، اتضح منها عزم " محمد زين " للقتال وأن هناك نجدة كبيرة أرسلت من بربر لتدعيم الحامية في أبو جمد .

بالرغم من المسيرة الطويلة للمرهقة قرر الجنرال " هنتر " الإسراع ، وكان قد عوض اليوم الذي ضاع عند أبو حراز وأراد أن يقدم برنامج خطته وعليه استمرت القوة في السير كل ليالي يوم ٧ و ٦ ولم يتوقف فيها الا لساعة ونصف حتي يهاجم أبو حمد عند الفجر . وصل الى الجنيقاب في الساعة الثالثة والنصف صباحا وهي تبعد ١٤٤ ميلا من الكاسنجر وعلى بعد ميلين فقط من العدو . أمر براحة لمدة ساعتين حتي تستعد القوة ، ترك الكتيبة المصرية الثالثة لحراسة خطوط مواصلاته و الإمدادات وتحرك بباقي القوة نحو موقع العدو .

ترقد قرية أبو حمد على شاطئ النيل تتكون من مجموعة من بيوت الطين تتخللها بعض الأزقة والطرقات الضيقة ، طولها حوالي ٥٠٠ ياردة وعرضها ١٠٠ ياردة ، وعلى الناحية الشمالية والجنوبية لبعض بيوت الطين المتهدمة وكميات من الحجارة في المنطقة الجنوبية .

يحيط بالقرية من ثلاث جهات مرتفع لمسافة ٣٠٠ ياردة ، في أعلى هذا المرتفع ثلاثة أبراج بنيت من الحجارة كان قد شيدها الجنرال " غردون " .

احتلت الأبراج بعض أفراد الدراويش للمراقبة وتمركزت قوتهم في الخنادق والاستحكامات داخل بيوت الطين ذات النوافذ المفتوحة .

انحرفت القوة شمالاً ثم استدارت يمينا حتى تكون في اتجاه النهر وتحرك اللواء "هدوء" نحو مواقع العدو وقد احتلت المرتفع في الساعة السادسة . على اليمين ، المدفعية على شمال شرق القرية تتبعها بقية الفرقة المصرية الثالثة ، السودانية الرابعة في الوسط والخامسة على شمال القوة ، تراجعت قوة الدراويش التي كانت عند نقاط المراقبة في الأبراج عندما تحرك الجيش القادم ، عندها ظهرت كل القرية من المرتفع أمام أفراد القوة الغازية .

بدأت خيوط الفجر الأولى ، ارتفعت شبورة بيضاء على سطح النهر الرمادي وظهرت ملامح القرية بوضوح ومنازل الطين على خلفى المنظر . جسم أفراد قوة الدراويش داخل الخندق الذي حفر حول القرية ، أما الفرسان الذين قد يربو عددهم المائة فارس أسرعوا بجيادهم لاحتلال المنطقة المرتفعة الجنوبية حيث كتل الحجارة وخلفها أراض رملية أكملت سلسلة التلال على شكل حدوة الحصان والخط الأسود من القوات الصورة . في هذا المسرح الدائري الصغير سوف تعرض دراما حربية صغيرة .

عند الساعة السادسة والنصف فتحت المدفعية نيرانها على بيوت الطين وبعد بضع دقائق أمر القائد هنتر بالتقدم الكامل في تشكيل رائع ، الكتائب الثلاث السودانية مع القائد هنتر والمقدم ماكدونالد وبعض الضباط البريطانيين على ظهور جيادهم في الخط الأول ، تقدموا ببطء نازلين من التلال وصبوا نيران رهيبية على الاستحكامات . المسافة لم تكن بالكاد ٣٠٠ ياردة وقبل منتصفها اضطرت الفرقة السودانية الخامسة للتوقف حتى تنفادي نيران الفرقة السودانية السادسة من على اليمين . صمت الدراويش حتى أصبحت القوة على بعد ١٠٠ ياردة عندها فتحوا مجموعة تليها مجموعة أخرى على القوة الواقفة وكانت ذات أثر كبير توفي الرائد سيدني والنقيب في تزلارنس، و ١٢ جندي في الحال وجرح أكثر من خمسين من أفراد القوة .

هجمت القوات السودانية على استحكامات الدراويش وطاردتهم داخل بيوت الطين وهي تطلق صيحات عالية واستمر القتال في الشوارع، ولم يتوقف حتى وصلت القوة الى شاطئ النهر في الساعة السابعة والنصف وهي منتصرة وهكذا استولى الجيش المصري على ابو حمد. وتراجعت خيالة الدراويش الى بربر عندما رات انتصار القوة ولم ينج أحد من المشاه.

أسفرت المعركة بالإضافة الى قتل الرائد سيدني والنقيب في تركزلارنس البريطانيين الى قتل ٢١ من الجنود الأهلية وجرح منهم ٦١ جنديا أرسلت أخبار سقوط أبو محمد عن طريق الجمال والاسلكي الى من يهمه الامر واصدر السردار الذي كان يتربص الأخبار أوامره للبواخر كي تبدأ الاستعداد لعبور الشلال الرابع، وكذلك لخط السكة حديد كي يواصل العمل وبدأ الخط ينمو بخطوات سريعة .

أما الذراويش الذين جاءوا مسرعين من بربر لتقوية الحامية في أبو محمد فقد قابلوا فلسول القوة المنسحبة على بعد ٢٠ ميلا من أبو محمد وعليه عادت أدراجها وانسحبت الى الشلال الخامس لبضعة أيام ثم وأصلت انسحابها. كان موقعهم من أبو محمد يظهر قصر الوقت الذي كان متاحا لجنرال هنتر، ويؤكد صحة تقديره وصواب قراره بالأسراع في المسيرة. وصلت أخبار سقوط الحامية المتقدمة لأمر بربر يوم ٩ مارس فأرسل للأمير محمود الذي أفاد يوم ١١ أنه قادم بكل جيشة لنجدة بربر ولكن كان واضحا انه لن يستطيع التحرك بدون أوامر من الخليفة إذ كان مازال بمعسكره حتى يوم ٢٠ وظل سؤال أمير بربر عن أخبار الترك وكانت للحقيقة الأخبار كثيرة .

بدأت يوم ٤ أغسطس محاولات عبور البواخر التيب والتامي للشلال الرابع حتى تزل الى النهر عند أبو محمد بربر. كانت العملية تحت قيادة الرائد ديفيد وتولي قيادة الباخرتين النقباء هود وييتي من سلاح البحرية الملكية. كان ٢٠٠٠ فرد من الفرقة المصرية السابعة قد حملوا على صنادل لكي يساعدوا في تعدي البواخر عند النقاط الصعبة لأن التيار كان قويا وتركت ثلاثة صنادل تتحمل ١٦٠ جنديا عند حافة الشلال .

لم يكن هذا المانع من اللوائح التي تعتبر جبارة وعلى أية حال قرر الرائد ديفيد بدأ العملية وبدأ في اليوم الخامس محاولة عبور التامي فأحضر ٣٠٠ فرد من قبيلة الشايقية، وترك أمر توجيههم لاثنين من المصريين أو على الأصح سوء توجيههم إذ لم توضح لهم الأوامر ماهو المطلوب بالضبط ودخلت التامي الشلال وماكينا كما تدور بسرعة كاملة وما إن وصلت الى نصف المسافة حتى اندفعت المياه القوية وجرفت فدارت مقدمتها دورة كاملة وكانت بين قوسين أو أدنى من الفرق لولا جرفها التيار القوي بعيدا الى مجرى النهر .

ظن الضابط أن الفشل يرجع لقلة القوة أو التحكم في السلسلة التي تربط الباخرة - تم جلب ٤٠٠ فرد إضافيين من الشايقية وبدأت عند العصر محاولة تعدية التيب كان حفضه . أسوأ بكثير من التامي . فقد كان انعدام التعاون والنظام وسط المجموعة التي كلفت بحمل السلسلة (الحبل) وعدم وضوح التعليمات سببا في ضعف القوة الجاذبة وعدم تصرفها كما يجب ، وهكذا اندفعت المياه فوق سور الباخرة الحصين حتي غطت أرضية المركب بالكسادل وفي لحظات دارت مقدمة الباخرة دورة كاملة قبل أن تنقلب رأسها على عقب ولم يظفر منها غير أسفلها هنا ترك الرجال الحبل تحت ضغط قوة الاندفاع وجرفت التيب مع التيسار الى مجري النهر . قفز النقيب بيتي وبعض البحارة وسقط البعض الآخر في المياه الفواردة وزبدها الأبيض وجرفهم التيار الى مجري النهر الرئيسي تلقفتهم التامي التي كانت لحسن الحظ في حالة تشغيل ومكنتها دائرة . كانت نجاتهم معجزة اذ من كل العدد الذي سقط وقفز للماء غرق مصري واحد واعتبر اثنان في عداد المفقودين . حجزت بعض الصخور الباخرة "التيب" الغارقة فذهب الضابط والبحار على ظهر التامي للنظر في امر انقاذها كلان أسفلها فقط ظاهرا فوق سطح الماء وبدأ للجميع ان اصلاحها سوف يستغرق شهرا على الأقل . في اللحظة التي قرر فيها الضابط ترك الباخرة سمع - خبط على هيكل الباخرة من الداخل .

لهذا احضرت الآلات وتم رفع الصاج فخرج بالسلامة وصحة تامة مساعد المهندس والعطشقي من المخبأ الذي ضمهما . اذا اخذنا في الاعتبار انقلاب الباخرة والماكينات دائرة ، والغلايات ملأى ومع الظلام الذي ساد والمياه المرتفعة تبقي نجاة مساعد المهندس والعطشقي تجربة لا يمكن ان تنسى وامر عجيب حقا .

تم البحث عن ممر آخر وقد وجد على الجانب الأيمن للنهر وصلت الباخرة "التمه" يوم ٨ وعلى ظهرها ٣٠٠ فرد من القوة المصرية السابعة هذه المرة استغرقت الاستعدادات ثلاثة أيام وانتظرت الحملة حتي ارتفعت مياه النيل قليلا في يوم ١٣ عبرت "التمه" بسلام ورسست على الشاطي تبعثها "التامي" في اليوم التالي في يوم ١٩ ، ٢٠ عبرت البواخر "الفتح" "الناصر" و"الظافر" وهي أقوى باخرة على النهر . في هذه الأثناء كانت التمة التامي قد



واصلت الملاحه لأعلى النهر. في يوم ٢٣ عبرت الباخرة غير المسلحة دال ووصل كل  
الأسطول النهري بسلام لأبو محمد يوم ٢٩ .

تطورت الأمور بشكل سريع بعد وصول البواخر الحربية. فأخبار الهجمة السريعة على  
أبو محمد قد أربكت كل حسابات الدراويش، وعندما شعر زكي عثمان أمير بربر بعدم تقدم  
محمود لنجدة بربر انسحب هو وقواته وترك بربر يوم ٢٤ واتجه نحو الجنوب. عندما علم  
القائد هنتر أرسل فرقة استكشاف من ٤٠ من العبابدة وعلى رأسهم عبد العظيم شيخ  
العبابدة وشقيقة أحمد بي خليفة على ظهور الجمال الى بربر لاستجلاء الأمر. شقت هذه  
الزمرة الشديدة البأس طريقها الى بربر والتحمت مع دورية من الدراويش ودخلت بربر. في  
الطريق وجدوا الأهالي في كل مكان مرعوبين أو يائسين فنشروا بينهم حكايات مرعبة عن  
الجيش القوي القادم، ولم يكن هناك أي أفراد لقوة الدراويش فاحتل عبد العظيم شونة  
الحبوب باسم الحكومة وارسل للقائد بخطرهم بما فعل وفي انتظار التطورات .

وصلت الأخبار للدهشة عن سقوط بربر للقائد هنتر يوم ٢ سبتمبر ففارق مروي في  
الحال. واجه سير هيربرث كتشنر سؤال مهم هو هل يحتل بربر ؟ في أول الأمر بدأ هذا  
الاحتمال واردا خاصة إذا عرفنا أن هدف الحملة هو أم درمان وأن احتلال فرقة مصرية  
بربر سوف يؤمن طريق سواكن على الفور والمعروف أن بربر هي ميناء مفتوح للملاحه  
لعاصمة البلاد. احتلال بربر سوف تكون له آثار نفسية بالغة على كل سكان المناطق النيلية  
بل كل أنحاء السودان. لأن بربر هي أخطر نقطة استراتيجية على كل طريق الزحف وهامي  
تعرض نفسها كجائزة عند الطلب .

كانت الاحتمالات الأخرى رهيبه ،إن احتلال أبو محمد كان نقطة تحول خطيرة في  
مسيرة التقدم والزحف. فالمنطقة من مروي الى كل الحاميات في دنقلا أصبحت مواقع  
حصينة، ويمكن الدفاع عن كل الخط من أبو محمد حتى الدبة بسهولة ويمكن تحصين أبو محمد  
بحيث تصبح قلعة منيعة ضد أي هجوم للدراويش. والقوات الموجودة في دنقلا يمكن  
تركيزها لحماية أي نقاط ضعف في هذه المرحلة من الحملة. لعله من المناسب أن يقف  
الزحف بكل سلامة و ينتظر بينما يضعف موقف الخليفة فان خط السكة حديد سينمو

و بمجرد أن يصل الى نقطة تكون زاوية للنهر عند ابو حمد يمكن للزحف أن يستمر بحذر وحسابات مدروسة .

لكن احتلال بربر يعرض القوة الى جيش محمود وقواته المنتصرة للرابطة في المتمة وأيضا يجعلها على مسافة بسيطة من عثمان دقنة الذي يحتل ادراما مع قوة تبلغ ألفى محارب هذا بينما كان خط السكة حديد لا يزال يترنح في الصحراء وإرسال قوة من دنقلا للمحافظة على بربر سوف يضعف الموقف في دنقلا، إضافة الى أن وجود الدراويش في المناطق الداخلية تحت زاوية أبو حمد يمكنه أن يهدد خطوط امدادات الجيش مما يجعله يعتمد على مؤن تحملها الجمال عبر الصحراء من مروي ونظرة سريعة للخريطة تبين خطورة هذا الموقف. إن دخول بربر سوف يؤثر على مجرى الحرب باكملها وربما اضطرت القوات للدفاع عن وجودها إذ قطعت خطوط مواصلاتها. احتلال بربر لن يكون كمعركة حربية شبيهة بمعركة الحفير أو ابو حمد مع ترجيح كفة الجيش المصري من حيث العدد لكنها ستكون معركة متكافئة. ان وجود قوة بريطانية ضرورة ملحة لمثل هذه المعركة ولكن تحت تلك الظروف لا يوجد احتمال بالحصول عليها. أما إذ تقرر التقدم واحتلال بربر قبل وصول القوة البريطانية إليها مستكون مخاطرة متروك امر نجاحها للظروف. لقد نجح حتى الآن السردار وبسلام شديد فهل ينتظر في سلام أم يجازف للخطر؟ كانت الحالة غير واضحة المعالم وانتظر الضباط الذين خدموا في الجيش المصري لمدة طويلة بحثاً عن حل لهذه المعضلة انتظروا القرار بلهفة وترقب وتحمل السردار والقنصل العام المسؤولية معا. الى أن تسلم القائد هنتر أمراً بحتلال بربر في الثالث من سبتمبر.

بدأ على الفور بقوة ٣٥٠ من الفرقة السودانية الرابعة على ظهر البواخر "التامي" "الظافر" "ناصر" و"الفتح" عند صباح يوم ٥ سبتمبر رفع العلم المصري على المدينة بعد أن تم إنزال أفراد المشاة في المدينة وواصلت قطع الأسطول النهري للملاحة جنوباً لملاحقة الأمير الذي تمكنوا من اللحاق به في اليوم التالي على شاطئ النهر في حالة فرضي وعدم انتظام سير هو ومعه فلول اللاجئيين. فتح الأسطول نيران مدافعه و فرق شملهم فهرب الجميع خيالة وراجلين الى الصحراء بعيدا عن نيران الأسطول. ورجعت البواخر الى بربر بعد أن غنمت دسته مراكب محملة بالحبوب وهي خسارة كبيرة للعدو ومكسب كبير للجيش. في هذه

الأثناء لهذا قرر السردار زيارة الجبهة شخصيا فسافر من مروي عبر الصحراء مع بعض الحرس الى أن وصل الى مشروع البقارة وعبر النهر الى بربر يوم ١٠ سبتمبر. وبعد ان فتش الخطوط الدفاعية واصل سيره ورجع الى أبو محمد فبدأ التحضير للتطورات القادمة التي يعلم أنها قادمة لاحالة وفي غضون الشهور القليلة المقبلة .

## الفصل العاشر

### بربر

تقع مدينة بربر على مسافة قصيرة من النيل على يمين مجري موسمي ، يمتلئ بالمياه عند حدوث الفيضان . بين هذا المجري والنهر يمتد شريط من التربة الغنية التي يغذيها الفيضان كل عام بالطمي المخصب للأرض . عند انحسار مياه الفيضان تمتلئ هذه الرقعة بشقي المحاصيل أغلب أوقات العام . وقد حدد هذا الشريط الخصيب حدود بربر إذ أنها تمتد معه على مسافة تزيد على سبعة أميال . تماما كبقية قري النيل فإنها ضيقة ، عرضها لا يزيد على ثلاثة أرباع الميل . هناك طريقان يشقان القرية طوليا من الشمال الى الجنوب تتفرع منهما الأزقة والحواري والطرق الفرعية التي أما إن تتجه الى الصحراء او الى النيل . بقايا مدينة بربر أيام المصريين ترقد على جنوب الطرق الرئيسية بينما شيد الدراويش المدينة الجديدة على شمال الطرق كلاهما كرية وغير صحي . وإن بدأت بربر القديمة كالأطلال فإن المدينة الجديدة لا تفوقها في شيء وتبدو للناظر كأنها في حالة انهيار . التصميم الهندسي يكاد يكون مطابقا . يتم البناء بطريقة سهلة وبسيطة . تحفر حفرة كبيرة يستعمل التراب في عمل الطين لبناء الجدران ثم تسقف بأغصان الشوك والجريد والسعف من أشجار الدوم والنخيل . هكذا كانت تبدو بربر "مركز السودان التجاري" كما كان يسميها المتحمسون كان لها عند استيلاء الجيش المصري حوالي ٥٠٠٠ رجل و ٧٠٠٠ امرأة يفتقرون لأي ممتلكات كافتقار بيوتهم لأي رونق حسن (١) .

تكونت الحامية المصرية في بربر في الايام الأولى من ٣٥٠ رجلا من الفرقة السودانية الرابعة بالإضافة للفرقتين هجانة التي وصلت يوم ١٦ سبتمبر عبر طريق الصحراء من مروي . كان من الضروري تقوية الحامية نسبة لقرب موقع عثمان دقنة في ادراما .

في أواخر سبتمبر تحركت قوة ماكدونالد، كل اللواء ما عدا نصف الكتيبة المصرية الثالثة تحرك جنوبا من أبو حمد حتى وصلت القوة مع نهاية الشهر لثلاث ونصف كتيبة . في ١١ أكتوبر وصلت الفرقة السودانية الثالثة عشر وباقي نصف الكتيبة المصرية الثالثة وهكذا

بلغت القوة في حامية بربر خمس كتائب (الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، السادسة ، والثامنة) مع الفرقة الثانية مدفعية ميدان وفرقتي الهجانة . بعد أن تراجع الدروايش عن يمين شاطئ النيل واتجهوا جنوباً رثي أن ترسل قوة هجانة بصحبة جماعة الأعراب الحلفاء الى الدخيلة ، على ملثقي فمر عطبرة ونهر النيل . كانت هذه البداية للتواضعة هي نواة تطور عطبرة الى استحكامات عظيمة في وقت قصير .

كان لاحتلال بربر أثر كبير على القبائل التي تعيش حول سواكن فقد عاد الهدوء وولاء القبائل بعد أن عم السلام وانتهى نفوذ عثمان دقنة ، ولم تعد هناك غارات على القبائل الخليفة . أصبح حاكم المدينة اسما على مسمي حاكم ساحل البحر الأحمر وفتح الطريق من سواكن الى بربر ، وجاءت فرقة هجانة بصحبة بعض قوافل التجار وبمجموعة من المراسلين الاجانب الذين يحق لهم أن يعلنوا أنهم أول أوروبيون يسلكون هذا الطريق بسلام منذ ١٣ سنة .

لعله من الضروري الآن أن نلقي نظرة على العدو . لو أن الخليفة قد سمح لمحمود بالتقدم للدفاع عن بربر ، لكان قادراً على الدفاع عنها بجيشه القوي ، وكان سير الأمور سيكون مختلفاً تماماً . بعد سقوط أبو حمد ، كان من المحتمل أن يتأخر التقدم حتي يصل خط السكة حديد إلى النهر وربما تأخر الهجوم لعام كامل . ولكن كما جاء ذكره في الجزء السابق ، الاستيلاء المفاجئ لأبو حمد وهروب القبائل النيلية ثم ظهور البواخر الحربية بعد الشلال الرابع كل هذا قد اوحى للخليفة أن المعركة الفاصلة قادمة وأن الجيش الغازي لابد واصل الى عاصمته .

لذلك كرس كل جهده في عمل استحكامات دفاعية ومنع أي من قواده من أي نشاط هجومي شمال المتعة . كانت النتيجة سقوط بربر وقد أكد هذا للخليفة ان قراراته كانت صائبة !! سار العمل بجهد مضاعف فقد تم بناء طابيات للمدافع في سور على طول ضفاف النهر المواجهة لمدينة أم درمان ، وتم حشد القوات من القضايف ، كردفان ، ودار فور . كميات كبيرة من الحبوب والجمال واللون الأخرى يتم جمعها من منطقة الجزيرة (الأرض الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض ) وتم تخزينها في المدينة . كان عدم الرضا

واضحاً لدى القبائل لهذه الضرائب الاضاقية ولكن لم يشفع لهم ، وكان الرد حاسماً من الخليفة وهو أن الكل يجند في سبيل المعركة .

تم تجنيد أفراد القبائل للمتضررة وأجبروا على التمارين العسكرية بانتظام، الخليفة شريف الذي اهتم بتعاطفه مع قبيلة الجعليين أدخل الى السجن وأي عصيان قوبل بأشد العقاب ، ثم قرض حصار على المدينة ومنع أي اتصال بالشمال مما صعب وصول المعلومات للجيش المصري . وبالرغم من حدوث تمرد صغير في كردفان بعد انسحاب محمود وجيشه إلا أن الأحوال كانت هادئة وتمت السيطرة الكاملة للخليفة الذي استطاع ان يجهز القوة الباقية لمواجهة هجوم الأعداء المتوقع .

في الأسبوع الأول من أكتوبر قرر السردار إرسال البواخر الحربية التي تركزت بصعوبة خلف وبعد الشلال الخامس ، لكي تسمح منطقة المتمة وتستكشف قوة وموقع جيش محمود . في يوم ١٤ أرسلت البواخر "الظافر" و "فاتح" و "ناصر" للملاحة جنوباً من بربر تحت قيادة القمندان كييل، وحملت كل باخرة بالاضافة لطاقمها من البحارة المحليين ، ٥٠ فرداً من الكتيبة السودانية الرابعة ، واثنين ثاوشية بريطانيين من مدفعية البحرية . بمجرد طلوع الفجر تحرك الأسطول نحو مراكز العدو، وكان الصمت شاملاً للدرجة التي فاجأت قوة صغيرة من الدراويش في النقطة المتقدمة وهم نيام . استيقظوا على أصوات طلقات مدافع المكسيم . وليشاهدوا هذه الماكينات الفظيعة وهي تحاصرهم . واصلت البواخر الملاحة صوب شندي ولم تابه لبعض الطلقات التي جاءت من اطلال شندي ووصلت الى مشارف المتمة حوالي الساعة السابعة ، على مدي النيران ، كانت المدينة تبعد بحوالي ١٠٠٠ ياردة من النيل، ولكن كلنت هناك ٦ طابيات من الطين بها مدافع على طول الشاطئ للدفاع عنه . ابتعدت البواخر الى الجهة الشرقية للنيل حتى تبعد عن مدي نيران مدفعية الدراويش . ومن على بعد ٤٠٠٠ ياردة بدأت البواخر الضرب المركز واستهدفت أول طابيتين وشوهت اجزاؤها تتناثر في الهواء ، رد الدراويش النيران ولكن لم تكن بالفعالية للوثة، لقد وصلت دانه الى سطح "الظافر" وقتلت جنديا سودانيا ووصلت دانتان الى "الفتح" واستمر القذف لمدة ساعة تحرك بعدها التشكيل النهري الى الجهة الأخرى للعدو وامطرت باقي الطابيات حتى اسكتها تماماً . بدأ بعض أفراد القوة التي كانت عند الطوابي وبعض الخيال من البقارة في الركض بجيادهم على



ضفاف النيل وكانوا هدفا سهلا لمدافع المكسيم التي لحستهم رغم المدى البعيد . بمجرد أن عبرت البواخر منطقة الطايات توقفت نيران الدراويش لصعوبة توجيه المدافع الثابتة. نحو الجنوب وعرف القادة أنهم في أمان ولكن بينما هم يهتثون أنفسهم فجأة جاءهم مجموعة من الرصاص يطلقها حوالي ٢٠ أو ٣٠ درويشاً من مخبئهم قرب الشاطئ تحت ظلال أشجار السنط، ولم يصب أحد بالرغم من انهيار الرصاص . دارت مدافع المكسيم على محاورها وامطرتهم بسيل دامي انتقاماً لفعاليتهم . تعدت البواخر حدود المدينة وأكملت استكشافها ثم رجعت مع ٦ راكب حاملة للحبوب كغنيمة. في طريق العودة تبادلت إطلاق النيران مع الدراويش ووصلت الى جزيرة صغيرة تبعد ٦ أميال من المتمة حيث رست لقضاء الليلة . كانت النيران قد أوقفت تماماً منذ الساعة الثانية والنصف ظهراً .

كان واضحاً أن تبادل إطلاق النيران كان ممتعاً ومثيراً وعليه قرر الأسطول الصغير تكرار التجربة، وتحركت القطع صباح اليوم التالي في الرابعة صباحاً حتى اخذت موقعها قبالة المتمة قبل طلوع الشمس. مع طلوع الفجر بدأ تبادل إطلاق النيران وظهر فجأة أن الدراويش كانوا في حالة من النشاط بالليل . عندما أحس محمود بأن توقعاته لهجوم قادم من جهة آبار جقدول غير وارده ، أحضر المدافع التي كان قد وضعها على الشاطئ الشرقي مع قوات لملاقاة العدو والتعامل معه احضرها الى الطايات وبني طليتين اضافيتين، وهكذا تسنى للدراويش ١١ مدفعاً من ثمانية مواقع صغيرة. لم تكن لنيرانهم فعالية ولم تسبب أي خسائر للأسطول الذي استمر تفوقه لليوم الثاني على التوالي والحق خسائر جسيمة بأعدائه . بعد أربع ساعات من الضرب للمركز أمر القائد كييل الأسطول بالانسحاب . بالرغم من خسائرهم الكبيرة، هلك الدراويش لمنظر انسحاب الأسطول واستمروا في إطلاق النيران عليه حتى غاب عن الأنظار . بينما يواصل الضباط انسحابهم فجأة شاهدوا منظراً غريباً ومختلفاً تماماً من الطايات عديدة الفعالية ، شاهدوا جموع غفيرة تتحرك واعلام ترفرف فوق التلال الرملية خلف القرية . ظهر جيش الدراويش بالكامل حوالي ١٠,٠٠٠ مقاتل من خيالة ومشاة ينشدون الاناشيد وأهازيج النصر ، لكنه كان نصرهم الوحيد !..

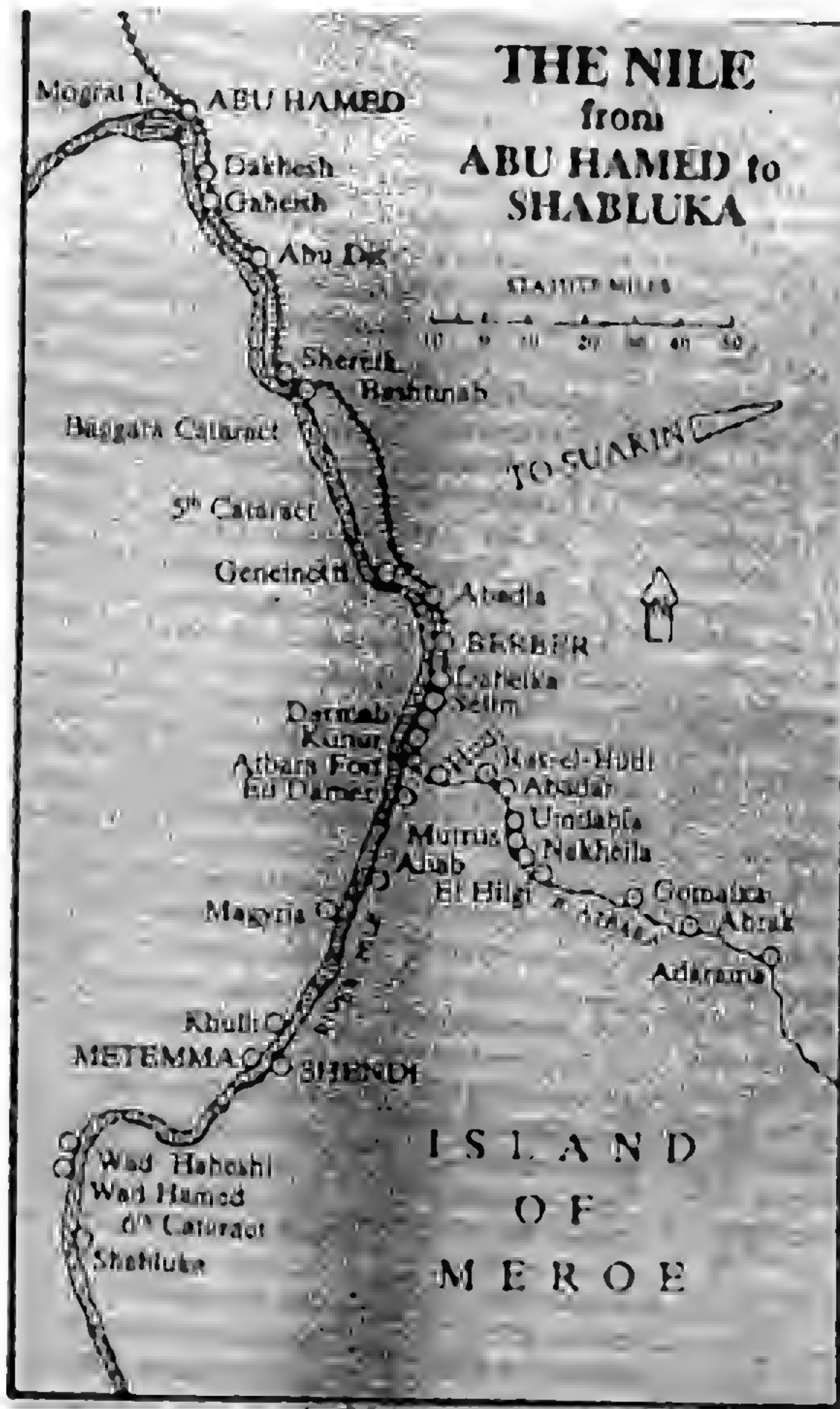
كانت الخسائر بالنسبة للأسطول قتيل واحد ، الجندي السوداني الذي توفي متأثراً بجراحة وبعض الإصابات الخفيفة بينما بلغت خسائر العدو من اللذبة حوالي ١٠٠٠ قتيل

أو إن لم نرد المبالغة نصف هذا العدد. استخدمني في يومي القتال ٦٥٠ دانة مدفع وبضـع  
آلاف من رصاص المكسيم الرشاش . رجع الأسطول الى بربر وتم الإبلاغ عن مواقع العدو  
وقواته .

بمجرد أن أحكمت القوات المصرية قبضتها بعد احتلال بربر بدا لعثمان دقنة خطورة  
موقفه في ادراما وعدم جدية بقائه هناك، وكان محمود قد كرر طلبه له للانضمام إليه  
وبالرغم من كرهه الشديد للقائد الكردفاني لسوء استعمال سلطاته، فان للضرورة أحكام،  
هنا أخذ قوته المكونة من ٢٠٠٠ مقاتل همدلوي وسار شمال نهر عطبرة حتي وصل نقطة  
يضيق فيها النهر مما يسهل عبوره وعبر مع جنوده وواصل الى شندي بكل سهولة . تم هذا  
أثناء هجوم البواخر على المتمة .

عندما بلغت السردار هذه الأخبار أراد أن يتحقق منها وأيضاً لكي يدمر أي ممتلكات  
يكون قد تركها خلفه عثمان دقنة ورائه بعد انسحابه . أرسل في ٢٣ أكتوبر "فرقة طائرة"،  
تركت بربر مكونة من الفرقة الرابعة السودانية تحت إمرة الرائد جاكسون ٢ مدفع، فرقة  
هجانية وعبدالعظيم وبعده ١٥٠ من الحلفاء غير النظاميين بأسلحة خفيفة ، يحملون الإمدادات  
على ظهر ٥٠٠ حمل تحت قيادة الجنرال " هتزر " وصلت الحملة لملتقي النهرين يوم ٢٤  
وواصلت سيرها حتي وصلت ادراما يوم ٢٩ بعد أن قطعت ٨٤ ميلاً . ثبتت صحة  
الأخبار عن رجوع عثمان دقنة الى النيل . دورية من ٦٠ من افراد الهجانة استطلعت مسلفة  
٤٠ ميلاً على طول نهر عطبرة ولم تجد أثراً للعدو. أحرق معسكر عثمان دقنة عن آخره  
وعادت القوة الى بربر .

جاء نوفمبر وبدأت مياه النيل في الانحسار سريعاً ، ظهرت شلالات على بعد أربعة  
أميال شمال ملتقي النهرين، سوف يصعب عبورها وكان لدي السردار مهلة قصيرة لكي  
يقرر ما إذ كان سيترك أسطوله النهري خلف هذا الشلال، وبالتالي تنعدم قدرتها على  
المنورة متى ظهر الشلال كاملاً، أو يحركها ويتركها جنوب الشلال ناحية العدو حتي  
يستطيع استطلاع مواقعه عند المتمة. في النهاية تقرر أن تعبر البواخر قبل قوات الآوان ولكن



بأي أعمال ضرورية لقطع الأسطول . لتأمين هذا الميناء الصغير في الدخيلة ، تحركت نصف الفرقة المصرية الثالثة من بربر وأقامت في معسكر عند الملتقي . بعد أسابيع قليلة لحقت باقي الفرقة الثالثة، وهكذا سوف يتحول هذا المعسكر الى سكنات جيش هائلة بعد شهور قليلة . استمرت المناورات العادية بالنسبة للبواخر على طيرل رأس النهر وفي أول نوفمبر تحركت البواخر الثلاث ، الظافر ، المتمة وناصر وأبحرت جنوباً تحت قيادة كييل . في اليوم التالي لحقت بهم الباخرة "فتح" . في ٣ نوفمبر ، طلعت البواخر قبالة التحدي ، طاييات العدو- أطلقت بعض القذائف ولكن تصويب الدراويش لم يكن مضبوطاً كالعادة ولم تصب أي من البواخر. لو حظ أن قوة العدو لم تتغير إلا أن هناك ثلاث طاييات جديدة أقيمت جنوب المدينة . استمرت البواخر في الملاحة جنوباً حتي وصلت واد حبيشي ، تراقبها نخيالة العرب من على بعد على طول الشاطئ . بعد أن أثبتت المناورة عادت البواخر متخطية الطاييات في المتمة .

هذه المرة لم تمر البواخر بدون خلش ، سقطت دانة على سطح الباخرة فتح وجرحست ثلاثة رجال .

لم تأت حادثة تعكر ملل شهر نوفمبر . استمر الخليفة في استكمال استعداداته . بقسى محمود بدون حركة ، بالرغم من توسلاته الكثيرة للتقدم والالتحام بالقوة القادمة عند بربر ، قوبلت بالرفض الدائم فاكتفى بالإغارة على بعض القرى الواقعة يسار شاطئ النيل وسلب كميات كبيرة من الحبوب لإمداد شونة الحبوب لديه، استمر خط السير الجديد في التقدم وكان لابد للمعاناة التي سببها الاحتلال المفاجئ لبربر لخطوط الإمداد أن تنتهي. ويتخف مع تقدم الخط . الهدوء الذي ساد بعد احتلال بربر كان فرصة بقرر ما كان غير متوقع. سعد السردار كثيراً أن مغامرة لم تتعرض الى أي حادثة سيئة ، لم يهاجم أو يناوش، لذلك سافر الى كسلا ليعد الى استعدادها.

الموقع المميز لكسلا حيث إنها تقع على بعد نفس للمسافة من أم درمان، بربر، سواكن ومصروع ، تربتها الخصبة تجعلها في مصاف ارقى المدن في شرق السودان كله . تربتها غنية جداً ، الطقس معتدل طيلة العام ما عدا أثناء موسم الأمطار ، وهو صحي جداً ، النسيم العليل بالليل يلطف حرارة النهار ووجود كميات وفيرة من المياه الجوفية على عمق أقدام

قليلة يعرضها عن وجود النهر . كان تعداد السكان عام ١٨٨٣ أكثر من ستين ألف نسمة، قدرها المصريون جداً وأقاموا بها حامية عليها ٣٩٠٠ جندي . كان هناك مصنعاً لنسيج القطن به معدات كافية وتصاعد الدخان من المدخنة يعطي إحساساً بالأمل في التصنيع مستقبلاً وأثبتت الوردات للبحرية أن هناك نشاطاً تجارياً ملحوظاً. ولكن جاءت الكوارث متلاحقة وعطلت ازدهار عاصمة الشرق الجميلة ، في عام ١٨٨٥ سقطت حامية كسلا بعد صراع مرير، في أيدي الدراويش ، كانت مذبحه ، من لم يقتل ضم إما لزمرة الرقيق أو لجيش المهدي . انهارت المدينة ومعها النشاط التجاري . لأكثر من عشرة أعوام احتل الدراويش المعسكر والمباني المحطمة وأصبحت كسلا هي نقطة الحدود بالنسبة لهم . كان يمكن أن يبقى الحال كما هو عليه ، الى بعد معركة أم درمان لو اكتفى الدراويش باحتلال كسلا ، ولكن قائد المنطقة لكي يثبت جدارته اغراه طموحه بمهاجمة الايطاليين في أغوردات في أريتريا حتى بدون موافقة الخليفة . هاجم بقوة المقدرة بحوالي ٨ آلاف محارب قلعة اغوردات المحصنة خلف الجبال وكان عدد القوة الإيطالية ٢٣٠٠ جندي بقيادة المقدم "اريموندي".

بعد هجوم عنيف ، ولكنه بلا أمل تم صد الدراويش بعد أن خسروا ٣٠٠٠ مقاتل في المعركة على رأسهم قائدهم المتهور . كانت هذه المواجهة كارثة لإيطاليا كما هي كارثة للخليفة . كانت ضربة قوية للسياسة الأفريقية لدى سنور كرسبي، وكذلك وتمشياً مع سياستهم التوسعية في الحبشة ، تقدم الايطاليون واحتلوا كسلا تحت قيادة الجنرال بارتيري من منطقة اغوردات . اعترفت مصر بهذا الاحتلال بدون التغريط في الاحتفاظ بحقها وجلاء ٩٠٠ جندي إيطالي وأقاموا معسكراً وقلعة حصينة . كانت الهزيمة المهينة لجنرال بارتيري في معركة عدوة على أيدي الجيش الحبشي عام ١٨٩٦ الذي أباد قوة بارتيري ، وتلاها سقوط حكومة سنور كرسبي قد انتهت أي طموحات أفريقية لإيطاليا. وهكذا أصبحت تركة ثقيلة، خاصة عندما شجع انتصار الأحباش الكبير الدراويش، وبدأوا مهاجمة الحامية الإيطالية ، مما اضطر الإيطاليين للدفاع والصمود بقوة للدفاع عن مراكزهم ، بالرغم من عدم حماس أو رغبة حكومتهم في هذا الأمر . هنا قررت الحكومة الإيطالية أن تعرض التخلي عن كسلا للقوات المصرية، وقد قبل العرض وتمت الترتيبات اللازمة . كان تقدم قوات الخديوي

لاحتلال دنقلا أثره عليهجمات الدراويش، كما جاء ذكره. فقد احتل العرب بعض النقاط حول نهر عطبرة وبالقرب من المدينة، واكتفت قواتهم بالاغارة فقط دون المواجهة، وصمد الطليان في موقف المدافع فقط. ينتظرون بلهفة الفرصة لتسليم القلعة للقوات المصرية .

لم يجد السردار أي صعوبة في الاتفاق مع القائد الجنرال كانيفا لكي تحتل القوات المصرية الحامية، ويتم شراء الأسلحة والمعدات الموجودة بعد تأمينها وينضم أفراد القوة العربية غير النظامية المحاربة مع الطليان إلى الخدمة في صفوف الجيش المصري. رجع السردار لليل، حيث أصبحت الحالة فجأة حرجية . خلال شهر نوفمبر وترك العقيد بارسونز الفرقة ١٦ المصرية وبعض المدفعية من الأهالي من سواكن ووصلوا إلى كسلا يوم ٢٠ ديسمبر. قوة الأعراب غير النظامية ، التي سوف نطلق عليها من الآن فصاعداً اسم "الكتيبة العربية" والتي أرسلت على الفور لمهاجمة الدراويش في منطقتي الفاشر واصبري، تمت مفاجأة الدراويش واحتلت القوة هذه النقاط بدون أي خسائر . إن الضباط الإيطاليين رغم مرارة استمزازهم من مجريات الأحداث ، عاملوا ممثلي مصر بكل احترام و تمت إجراءات التسليم والتسليم على أن تنتهي في يوم عيد الميلاد "الكريسماس" .

احتفالية التسليم والتسليم تمت بمراسيم تستحق الذكر، كانت الطابية على شكل مستطيل جدرانها من الطين جوانبها سور كساتر وبه فتحات للبنادق . بالداخل الخيام والمخازن وفي الوسط تماماً مصنع النسيج ، كل الماكينات تحطمت و لكن شكل المبنى الرئيسي رئاسة للطابية واستعملت المدخنة الطويلة كنقطة للمراقبة وعمود الإضاءة لرفع العلم. كانت بيوت الطين المهتمة على جنوب الطابية ترقد في حيرة ، خلفها سلسلة جبال الحبشة السوداء . رفع العلمان الإيطالي والمصري واصطف الجنود في طابور طويل تبادل التحية العسكرية الواجبة وسار الحرس المصري لتسلم مواقع الجنود الإيطاليين ، عزفت موسيقى النحاس التابعة للكتيبة ١٦ بعض للارشادات، وانزل العلم الإيطالي وباطلاق ٢١ طلقة تمت استعادة كسلا بالكامل.

دعونا الآن نترك ولمدة سنة كاملة، العقيد بارسون وقوته الصغيرة ، مع حرب طابية الطين في كسلا، يشغل نفسه برد غارات الدراويش وهو يرنو نحو القضاء آملاً أن دوره



قادم لا محالة متى ما سقطت أم درمان . وتاماً كالسردار، على القاري أن يسرع الخطى الى النيل مرة أخرى.

عندما جاء آخر نوفمبر ، تحقق للخليفة أن الأتراك سوف لن يتقدموا إلا بعد سنة عند وصول فيضان النهر القادم وسوف تبقى القوة بالقرب من بربر ، وخط السكة حديد لا يزال على بعد مسافة جنوب أبو حمد . الضربة قادمة لكنها تأجلت . عندما وصل الى هذا الاستنتاج أصبح أكثر استجابة لطلبات محمود المتكررة. كان يعتقد أن انحسار مياه النهر سوف تعوق تحرك البواخر جنوباً وان كل القوة الموجودة ببربر لا تزيد على ألفى جندي. لم يقدر القوة الكبيرة التي جاء بها خط السكة حديد مما ساعد أعداءه لحشد تلك القوة الهائلة، ففكر في المبادرة بعمليات هجومية ولكن محمود يحب ألا يترك وحدة ، كل قوات الدراويش يجب أن تجهز لطرد الغزاة .

تقرر أن تتحرك كل القوات الى الشمال. وبدأ حشد القوات في كرري وتم مغسـكر كبير في كمرري ، جُمعت الاف الجمال وبدأت الاستعدادات للتقدم المهم. أرسل الخليفة سكرتيرة الخاص يبلغ محمود بالخطة واعداء اياه بكل الامدادات من عتاد وجنود. أعلن الخليفة حرب جهاد جديدة لطرد الكفار، وكان غريباً أن يوجه المجاهدين للنيل من الكفار وليس أفراد الجيش المصري ، كان واثقاً من المخرض الرئيسي لمهاجمته وتهديد دولته . كان عدد الأوربيين في السودان في هذه الأثناء حوالي ١٥٠ فرداً وكان لهم دور واضح ومعروفون للجميع .

كان السردار عائداً من كسلا عندما سمع إشاعة نية الدراويش بالهجوم ، فطلب من الاستخبارات سرعة التعامل لجمع أي معلومة في هذا الخصوص ، عند وصوله لوداي حلفا يوم ١٨ ديسمبر تأكدت له الأخبار ، أن الخليفة ، ومحمود وكل جيش الأنصار وأمرائه سوف يتحركون شمالاً . مما لا شك فيه أن هذه التحركات من جانب العدو سوف تؤثر على سير الحملة ووضح أن ثمة معارك لا بد أن تدور حتي لا يجبر الجيش الغازي على التقهقر . كان رد السردار على نوايا الخليفة الواضحة أن أمر بحشد القوات حول بربر، أبرق لورد كرومر طالبا لواء بريطانيا وقفل طريق سواكن بربر .

ظهر الآن وجود الأسطول النهري ناحية العدو في حماية نصف لواء فقط في منتهى الخطورة ، ولأن الأسطول لن يستطع أن يعود شمالا نسبة لانسحاب المياه تماما في الشلال ، كان مجبرا للبقاء حيث هو ومع مراکز الصيانة التي أقيمت وأصبح حمايته بقوة كبيرة امسر مهم. بالرغم من شعور السردار بضعف موقفه حتي على اللفـاع إلا أنه وجد من الضروري ان يستمر في التوجه جنوبا. وفي ٢٢ ديسمبر تحرك لواء لويس وكتائبه الأربع مع المدفعية عن طريق النيل الى ملتقي النهرين وبدا بسرعة اقامة معسكر حربي عند زاوية الملتقي، وهكذا ظهرت حامية عطبرة الى الوجود .

استمر حشد القوات ، كل القوة التي كانت في دنقلا ما عدا أفراد قلائل تركوا لحراسة الحاميات في كورتي والدبة ومروي ، ثم نقل القوات بالمراكب مع أسلحتها الى كرمة ومن هناك بالسكة حديد لحلفا وأسرع بها بخط سكة حديد الصحراء من وادي حلفا لأبو حمد، ثم واصلت الرحلة الى نهاية الخط الذي كان قد وصل في أول يناير الى دقش . كل هذه الرحلة من مروي الى دقش استغرقت اربعة أيام ، بينما أخذت ثمانية أيام من الجنرال هنتر وفرقة الطائرة ، برهانا حقيقة، أنه في بعض الظروف تكون زاويتا المستطيل معا هما أقصر من الضلع الثالث ، وهذا برهان لم يفطن له "أوكليد" عالم الرياضيات اليوناني القديم. وصلت الأوامر الى سلاح الفرسان المصري يوم ٢٥ ديسمبر ، فترك الضباط الانجليز غداء عيد الكريسماس مسرعين متجهين الى بربر عن طريق منحي النهر. وزعت الثمانية سرايا الثماني بحيث أرسلت ثلاثة لتلحق بلواء لويس في معسكر عطبرة ، أو ما عرف "بالعطبرة" ثلاثة انضمت للحشد الكبير في بربر وبقيت الاثنتان في دنقلا للوقت الحاضر، تراقبان أن الطريق القادم من آبار حقدول والمنمة بكل اهتمام وترقب .

ازداد قلق وزارة الحربية مع تطور الأحوال ، واحداث اعوام ١٨٨٤-١٨٨٥ مازالت حية في الأذهان ، وأسرعت بارسال القوة البريطانية التي طلبت على عجل، مما يثبت الإمكانيات الجيدة لادارة العمليات عندما يستدعي الأمر الارتفاع لمستوي الحدث .

الفرق العسكرية ، كتائب الفرقة ورويك شير الملكية ، فرقة لينكون والكمرون هايلنדרز تجمعت كلواء وارسلت من القاهرة الى الجبهة في السودان . احضرت فرقة سي فورس هايلنדרز من مالطا الى القاهرة في حالة استعدادا للذهاب للجبهة بأسرع وقت .

وصلت فرق أخرى تحمل محل الفرق للمسافرة للجبهة وذلك حتى لا تتأثر قوات الاحتلال بمصر.

الضابط الذي اختير لقيادة اللواء البريطاني كان الجنرال كاتاكري المشهور بالكفاءة ، عندما قاد لواء في حملة شيتال في الهند، وعندما كان يعمل تحت قيادة سير روبرت لو وسير بندون بلود. وقد اكتسب سمعة طيبة عندما اقتحم ممر مالكاند والمعارك اللاحقة في سهول خار ، تم ابداء اللواء مع لواء الجنرال كينلوخ وأرسل الى شيتال. ونقل الجنرال من جبال الحدود في الشمال الغربي الى بومي، حيث بدأ في محاربة داء الطاعون الذي انتشر في المنطقة وهكذا وحول مجهوداته من المعارك الحربية الى معركة محاربة الطاعون وعمل التفرقة اللازمة لعزل المصابين من بين الأصحاء . كان قذعين برجدار قبل اندلاع التمرد في الحدود عند الرشوط تجده الآن يرسل بسرعة للسودان. كان متوسط الحجم ، قوي البنية ، قوي الحركة شجاع دائم القلق ، لا يعيبه إلا النشاط المستمر حتى يصيبه الإعياء ويكون ضحية لطاقتة . احتشدت القوات الضاربة على طول النهر من أبو حمد حتى عطبرة ولم يتحرك الدراويش حتى هذه اللحظة .

تجمعت قوات الخليفة في كرري وتمت الاستعدادات لكن ظهرت على السطح مسألة القيادة . كان الخليفة قد اوعز لامراءيه أنه سيعلم بأنه سيقود الحملة بنفسه، ولكن عليهم الالحاح عليه بعدم اتخاذ مثل تلك الخطوة حتى لا يعرض قداسته لمثل هذه التجربة . التفت الى قواده فتقدم الأمير على ودحلو لنيل هذا الشرف الكبير بالنسبة لأهل السودان . فاجأ الخليفة الأمير ودحلو بأن القوة سوف تذهب بدون بنادق لعدم وجودها، وأن هذا لن يؤثر لن في شيء . رأى ودحلو أن الأمر خطير وسحب ترشيحه للقيادة فتقدم عثمان شيخ الدين، إذا سمح له بتسليح القبائل النيلية وضمها لقوته ، هنا اعترض يعقوب بشدة واصفا تلك القبائل بالخيانة وانهم كلاب لا تستحق إلا الذبح، واسترسل في وصف طرق التعذيب التي يمكن أن تتبع مع أفراد تلك القبائل .

استمرت المناقشة والتراع ، عندما ينس الخليفة من حل الاشكال قرر أن يرسل مدداً عسكرياً فقط لمحمود يتكون من ٥٠٠٠ مقاتل تحت قيادة يونس . اكتشف أن محمود لا يطيق

يونس بولن يقبل أي تعامل أو تعاون معه. أمر الخليفة بفض المعسكر ورجع الجيش للمسرة الثانية للمدينة مع شعور الغيظ والاشمئزاز .

كان ظاهرا للذين يعلمون تصرفات حركة الدراويش أنه قد صرف النظر من أي خطط هجومية بمجرد أن انفض المعسكر، وقد تأكدت الاستخبارات بأن هذا معناه عدم وجود أي نية للتحرك شمالاً.

سيمر الصيف بدون أحداث ومع وصول فيضان النيل سيتحرك الجيش الغازي للمعركة الفاصلة . كانت أخبار ساره تلك التي وصلت يوم ١٥ فبراير بأن محمود قد عبر النهر بدون أي مدد من أي نوع . لم يصدق السردار هذه الأخبار السعيدة وبدأ على الفور في تركيز قوته عند المتلقى . في ٢١ فبراير صدرت الأوامر للقوة البريطانية لتكون على أهبة الاستعداد: وتحركت فرقة السي فورس من القاهرة وتحركت الكتائب المصرية المختلفة تجاه بربر. والمعسكر الكبير في عطبرة. ووصل خبر عبور محمود للشاطئ الأيمن للنهر في يوم ٢٥ وأعلنت التعبئة العامة بين الجنود .



## الفصل الحادى عشر

### الاستطلاع

بالرغم من أن حكاية الحملة تتكون بالضرورة من تفاصيل كثيرة لا يمكن إغفالها ، إولا لإظهار الحقيقة ثم لمصلحة السرد نفسه فانه من الضروري جداً للقارئ أن يختزن تصوراً عاماً على مدى السرد كله . والا فان كل قصص التقدم والمعارك والاستطلاع قد تبدو كاحداث لاترابط بينهما وان الأمر لا يخرج عن وصف معركة كبيرة تمت بشكل عشوائي ؛ لكي يتم تقدير هذا العمل ؛ ليس من المهم أن يري القارئ المعارك الوحشية والأحداث المثيرة بقدر ما يكون له تصور كامل عن للنطق وراء كل الأحداث التي تكون في النهاية الحكم على اختبار القوة. لقد تم رصد الأخطار التي صاحبت الاستيلاء الجزئي لبربر في الجزء الأخير . في الفترة من أكتوبر لديسمبر كانت الأخطار محبقة وتازم الموقف في ديسمبر فجأة. ولو كان الأمير محمود كان تقدم حتي منتصف يناير، لكان بإمكانه استعادة بربر، أما إذا كان الجيش الكبير قد قدم لمساندته من أم درمان لكان هذا الواقع حقيقة مؤكدة. لقد قرأ القائد الصغير القادم من كردفان الموقف جيداً وطالب مراراً متوسلاً أن يعطي الإذن لانتهاز الفرصة، ولكن لم يأت الإذن إلا بعد أن عاد جيش الخليفة أدراجه إلى المدينة، وكلن عنده سوء تقدير رهيب عن إعداد قوة العدو في الجيش المصري والإمكانات المتاحة. تسلم محمود الأمر في نهاية يناير وكان للموقف قد تغير تماماً. لقد تم حشد الجيش المصري، ووصل اللواء البريطاني، كما وصل خط سكة الحديد إلى القنينة. أما المخازن والورش المتواضعة في الدخيلة فقد تحولت إلى حامية، ومن حامية إلى معسكر ضخيم للجيش الغازي تعسكر عند ملتقى النهرين، عطبرة والنيل. لم يكن للدراويش لاعلم ولا قوة يمكن أن تقف أمام هذا الحشد. لعل محمود لم يقرر مقدرة السكة الحديد في حشد كل تلك القوة ربما ظن مثل الخليفة أن القوة التي دخلت بربر لا تزيد على ألفى رجل مصري ، أو قد أعماه غروره واستهتاره عن وعي الحقيقة وهذا هو الأرجح. على كل حال لقد بدا في الأسبوع الأول من فبراير بتحريك قواته شمالاً. مع كل مما طلة العرب، زحف بقوته على مهل إلى ملتقى النهرين. وعندما وصل إلى الزيداب تصرف كأنه أحس بقوة أعدائه توقف بدون قرار



وعقد مجلس الحرب. كان محمود يرى التقدم الفوري ومهاجمة العدو الا أن القائد المحنك عثمان دقنة قد عارضه، والمعروف أن عثمان دقنه كان قد اكتسب خبرة طويلة في محاربة العدو خاصة القوات النظامية، وخبر عن قرب قوة البندقية الحديثة، لقد قدم حجة للقائد الذي ينفر منه ويحتقره، بشكل واضح. إن المشكلة التي تواجههم جد كبيرة، وإذا كان لابد من التصرف فيجب تجنب المواجهة المباشرة. اقترح عثمان دقنة الالتفاف حول المعسكر في عطبرة بالاتجاه نحو الصحراء ثم الهجوم على بربر واستعادتها مع أمل أن يساعد أهالي بربر في العملية، ثم يتم قطع السكة الحديد الذي يعتبر شريان الحياة بالنسبة للغزاة ومي ما وصل الدروايش خلف القوة فانها انتهت. ووافق مجلس الحرب على رأي عثمان دقنة مما أضعف موقف محمود وقلل من هيئته، فكره عثمان دقنة أكثر. تحرك بقواته يوم ١٨ مارس عبر الصحراء الى قرية الهدي على نهر عطبرة، ومن هناك مع مسيرة طويلة يصل الى النيل ثم الى بربر. بينما لم تكن معلوماته عن أعدائه كافية عن طريق جواسيسه من الحلفاء، كان السردار يمتلك كل المعلومات عن تحرك محمود مرة بالبواخر ومرة غن طريق سلاح الفرسان. أول ما علم بخطته محمود للالتفاف حول الجيش، حرك السردار القوات عبر عطبرة الى الهدي. وهكذا وضع محمود في موقف صعب أما أن يهاجم السردار وهو في مركز قوي أو يتحاشاه، وقد اختار القرار الأخير وتوغل أكثر في الصحراء متجها الى الشرق بالتفاتة حول الهدي، ووصل الى نهر عطبرة مرة أخرى عند النخيلة. المسافة من هنا لبربر بعيدة والأبار قليلة مما يهدد محمود وخططة وعليه كان أي تقدم جديد مستحيل. قرر محمود أن يعسكر في ذلك المكان، ولكن بدأت المؤن والأغذية تتناقص. فقد دمرت كل مخازنة في شندي بمجرد أن تركها، ومع أن الدرويش يمكن أن يعيش على أكل الدوم، ولكنهم لن يستمروا على ذلك طويلا. فعلاً بدأ بعض الجنود في الهرب. وعثمان دقنة كان في حالة عدا و غضب مستمر طالما كانت الثورة شورية، ورأي قواته تتناقص.

كان العدو الرهيب في هذه الأثناء يتابع محمود كالنمر الذي يحوم حول فريسته المضمونة التي لا حول ولا قوة لها، كان يتابع في صمت بلا رحمة ومنتهي الجبروت. بمجرد أن وصل التكتيك الى حد أضعف والعدو واصفا معنوياته الى درجة الاستكانة والعجز عن الهرب عندها ينقض عليه النمر بخطوات محسوبة في الهدي، وابدأ ومن ابدار حتى أم ديبه

وقطعت تقطيعاً. هذا وصف موجز لاستراتيجية المواجهة في حملة نهر عطبرة ولكن سرد الحكاية يجب أن يكون كاملاً .

علم الخليفة يوم ٢٣ يناير بوصول القوة البريطانية قرب أبو حميد وعندما أُرهِقته المناقشات حول من يقود الجيش الى الشمال ، أمر بانتهاء المعسكر وعوده القوات للمدينة التي بدا في عمل التحصينات حولها . بعد أيام قليلة من هذه الخطوة أصدر أوامره لمحمود بالتقدم ، لم يجرؤ على هذه العملية بقوة ٦٠ ألف مقاتل ، يحاول الآن بقوة ٢٠ ألف مقاتل، الحسم الذي كان سيكون فعالاً لو تم خلال الثلاثة شهور الماضية يمضي فيه الآن ليقود الى خراب وتدمير كامل . أصدر الأمر بعد أن أصبحت المحاولة ضرباً من الجنون القاتل . كيف يأتي هذا التصرف من رجل اشتهر بالذكاء والمهارة في إدارة العمليات الحربية وقد أثبتتها المعلوك الدامية ؟.

استمرت البواخر في درويات مستمرة على طول النهر وتم تبادل إطلاق بعض الدانات مع طابية الدراويش، ولكن مضي شهر يناير بدون أي حوادث تستحق الذكر. لقد جاءت تقارير الجواسيس بأن الخليفة إما في كرري أو في أم درمان، وان أحمد فضيل في منطقة السبلوقة بينما عثمان دقنة في شندي وكانت الطابيتان الاضافيتان اللتان تم بناؤهما جنوب المدينة شاهدتان على وجوده. لقد كان موقف الدراويش سلبى حتى تلك اللحظة . في يوم ١٢ فبراير انسحبت قوتهم من خولي وتخليل الجميع أن هذا دلالة على نشاط جديد ، اتضح فيما بعد أن محمود كان يعبر النهر بقواته فحاولت البواخر تأخير مواصلاته واستولت على بعض المراكب الصغيرة ولكن محمود نجح في العبور بكل قواته يوم ٢٨ فبراير وأقام معسكره شرق النيل في حوش بانقا، وهي قرية صغيرة على بعد خمسة أميال جنوب شندي . تأخر التقدم لمدة أسبوعين كانت خلالها البواخر في منتهى الى قطة تحسباً لأي تحركات. وتم قفل طريق سواكن - بربر أمام القوافل ووصل السردار الى بربر يوم ١١ مارس . ماتبقي من أفراد قبيلة الجعليين التي تركزت حول آبار جقذول وصل المتمة لتجدها خالية الأمن بقاينا الجثث الخاصة بأهاليهم. أما الفرقة المصرية فقد عسكرت في جزيرة شبلاي يوم ١٣، حيث هاجمتها قوة من الدراويش هجوماً أصيب خلاله الرائد سيتول بجروح ، في نفس الوقت جاءت الأخبار أن محمود اتجه الى العاليا ب شمالاً وكان هذا دليلاً على أن تقدمه قد بدأ.

تحرك محمود من شندي بقوة قدرت بـ ١٩ ألفا فيها نساء وأطفال وتبع، وقدر عدد  
المقاتلين بـ ١٢ ألفا مع كل واحد مؤن تكفى لشهر و ٩٠ طلقة. بينما أمر السردار كل  
القوة البريطانية / المصرية للتمركز في كنور ، ما عدا سلاح الفرسان ولواء لويس الذي بقي  
ومعه ثلاث فصائل لحراسة المعسكر عند ملتقي النهرين . . .

تحرك برودود مع الفصائل الخمس الباقية يوم ١٦ ومع كل سلاح الفرسان وقوة  
الهجانة لمراقبة المنطقة على طول نهر النيل وعطبرة .

استمر الحشد في كنور واتحدت اللوآت السودانية تحت قيادة الجنرال هنتر، ووصلت  
مع سلاح المدفعية الى كنور في ليلة يوم ١٥ وواصلت الفرق البريطانية- الوردوك، اللينكون  
والكمرون سيرها الى الدخيلة . فرقة السي فورس هايلندرز التي كانت لاتزال في وادي  
حلفاء، تم إرسالها بالسكة الحديد على وجه السرعة عبر الصحراء الى القنينيطة ، من هناك  
أرسلت نصف الكتيبة بالبواخر الى كنور ونسبة لقلة البواخر وضرورة الاستعجال، أرسلت  
البقية على ظهور الجمال من راس خط السكة الحديد وعبر الصحراء الى كنور ، وهي تجربة  
لم يتمرن عليها أحد حتي ملابسهم لم تكن مناسبة لمثل هذه الرحلة .

اكتملت القوة كلها يوم ١٦ وجاء السردار في اليوم التالي لتفتيش قواته. وأمضي  
الجميع الأيام الثلاثة التالية في قلق وترقب. فقد جاءت شائعة تقول أن محمود قد عبر نهر  
عطبرة عند الهدي وعلى بعد عشرة أميال من المعسكر وفي حركة التفاف ليتجه الى بربر .  
معني هذا ان المعركة على الأبواب .

أمسك الضباط بنظاراتهم المعظمة يستكشفون الرمال وكل الأفق لاي بادرة للعدو،  
ولكن ظل الموقف صامتا لا حركة إلا للريح والغبار وعاد الهدوء مرة أخرى . هنا تأسف  
الضباط على الأشياء المهمة التي تركوها في الديبيكة وهم على عجلة لتنفيذ الأوامر بالتوجه  
الى كنور بأخف الأغراض

في يوم ١٩ مارس أبلغت البواخر أن محمود قد ترك النيل دلالة على أنه بدأ مشروعه،  
وهنا أمرت كل القوة بالتوجه في اليوم التالي من كنور الى الهدي. كان منظر الجيش مهيبا  
وسلاح الفرسان والهجانة، فالمدافع المحمولة تجرها الخيول غطت كل الجبهه اليمنى للقوة،  
والمشاة وعلى يمينها القوة البريطانية تحركت في شكل اصطفااف المعركة - كتله من اللوآت

خلفها الإمدادات والاتصالات . هبت عاصفة رملية مخيفه ، قطعت القوات مسافة ١١٠ أميال في خمس ساعات لكنها وصلت قبل الليل واستطاعت بناء زريبة كبيرة وقوية . هنا جاء لواء لويس المصري قادماً من معسكر عطبرة وتركت الكتيبة ١٥ لحراسة عطبرة. فأصبحت القوة التي تحت إمرة السردار الآن ١٤ ألف مقاتل ، تشكلت القوة كما يلي :-

القائد العام - السردار

اللواء البريطاني - الجنرال كاتاكري

الكتيبة الأولى وورويك شير الملكية ( ٦ فرق )

الكتيبة الأولى لينكون شير

الكتيبة الأولى سي فورس هايلندرز

الكتيبة الأولى كامرون هايلندرز

قوة المشاة المصرية - الجنرال هنتر

<u>اللواء الثالث</u>	<u>اللواء الثاني</u>	<u>اللواء الاول</u>
<u>العقيد لويس</u>	<u>العقيد ماكلونالد</u>	<u>العقيد ماكسيول</u>
الفرقة المصرية الثالثة	الفرقة المصرية الثانية	الفرقة الثامنة المصرية
الفرقة المصرية الرابعة	الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة السابعة السودانية
الفرقة المصرية السابعة	الفرقة الخامسة السودانية	الفرقة الثامنة السودانية
	الفرقة السادسة السودانية	الفرقة الرابعة عشر السودانية

قوة سلاح الفرسان

١ العقيد برودود

٨ فصائل

٢ متلفع مكسيم

## قوة سلاح الهجالة

الرائد تودوي

٦ فرق

## سلاح المدفعية

العقيد لوتج

جزء من الفرقة ١٦ - ٦ مدافع خمسة بوصة ب د . هاويتزر

مدفعية خيول مصرية ٦ مدافع

البطاريات للميدان المصرية ، الأولى والثانية والثالثة ١٨ مدفعا

بطارية للمكسيم البريطانية ٤ مدافع

بطارية الصواريخ ٢ قسم .

عندما علم محمود بتحركات الجيش المصري الانجليزي ، غير من خطته الأولى للعبور عند الهدي لأنه سوف لا يستطيع ملاقات جيش السردار باكملة ، وعليه فقد كان مصرا على الاستمرار الى النخيلة . اشتهر العرب بالترحال واتقان دروبة ولذلك فلا غرابة في أن تتحرك محمود بكاملها وتواصل السير من العالخاب الى النخيلة عبر صحراء لاماء فيها ، وبدون توقف ، بما تشمل من مشاة وخيالة ومدافع ، ونساء ورجال وأطفال لتقطع مسافة أربعين ميلا في يوم واحد وتصل النخيلة مساء يوم ٢٠ . كان هدف السردار أن يبعد العدو على طول نهر عطبرة بحيث لا يشكل أي تهديد ليرير أو راس خط السكة حديد ، فاصدر أوامره لتتحرك كل القوة الى راس الهدي حتى تكون على بعد ١٥ ميلا من العدو ، كما كان يعتقد . فضاعت هذه الحركة من للمسافة التي يجب على العرب قطعها لتنفيذ خطة الالتفاف حول الجيش ، وأصبح من رابع للمستحيلات لقوهم التقدم ، للالتفاف حول جيش يحتل محور الدائرة بالكامل .

كانت تحركات القوة المصرية / الانجليزية تحت حراسة سبع سرايا من سلاح الفرسان ومدفعية الخيول ، وقد أمر العقيد برودود باستمرار مناوراتهم على طول النهر حتى يتقصي تحركات ومواقع العدو . المنطقة الواقعة على جاني نهر عطبرة غير صالحة لتحركات الجيوش الحديثة ، لأنها لما بها من أشجار شوكية ، وأشجار اللوم التي تمتد بعرض ثلاثة أرباع الميل

بجريدها الأخضر الكثيف لتعطي منظراً ساراً يعكس المنظر عند شاطئ النيل، فهنا الخضرة وأصوات العصافير الجميلة وبعض البيغاوات وطيور الزينة . بعد رأس الهدي يتحول نهراً عطيرة الى كتل رمال بيضاء في الفترة ما بين مارس وأبريل، بحيث نجد هناك بعض البرك التي تحتفظ بالماء الصافي تجد فيها الأسماك والتماسيح ملجأً لأخيراً بعد انحسار مياه النهر.

الجو رطب مما يزيد من الشعور بالحر ويزيد من العرق . بينما لا يحب الأهالي مياه العطيراوي لأن طعمها به بعض للمرارة بالمقارنة مع مياه النيل الحلوة ، وجد البريطانيون أن ماءه طيب ومقبول . الأرض خارج هذه المنطقة ليست منبسطة تماماً فالسطح إما حجري أو عبارة عن مجري لمياه الفيضان والأمطار، ملأى بالحفر ، والخيران ملأى بالأعشاب الموسمية الطويلة مما أعاق تحركات الفرسان والدفعية بشكل خاص .

تحت مثل هذه الظروف تحركت الفصائل بحذر وبعد أن قطعت ١٥ ميلاً بعد الهدي وصلت الى طابية قديمة في أبعاد ، هنا عسكر برودود مع جنوده وواصلت المسير فصيلة واحدة تحت قيادة النقيب كالياس . رجعت هذه الفصيلة في الساعة الثانية صباحاً بعد ان قابلت دورية صغيرة للعدو وليس القوة الكاملة .

بينما كانت القوات تسقي خيولها بالدور من النهر ، كلف النقيب بارنج مع فصيلته لعمل حراسة على مسافة ميل وربع ناحية الجنوب الشرقي كنقطة حراسة متقدمة . كانت هناك قوة من خياله الدراويش قد تبعت فصيلة النقيب لي كالياس وجاءت مستترة داخل الأعشاب الطويلة والأشجار وانقضت على النقطة المتقدمة وقتلت ثمانية وجرحت سبعة من الجنود وفقدت النقطة ١٣ حصاناً ، بعضها بعد أن تخلص من فارسه، اسرع بالركوض خلف مهر الخيل التي كان يمتطيها الدراويش .

جاءت عصر ذلك اليوم أخبار عن هجوم وقع على ادراما، واستطاع العقيد بارسسونز صد العرب بقواته من الأحباش الحلفاء لكن لاداعي للدخول في تفاصيل ذلك الهجوم إذ ليس به ما يستحق الذكر ونسيانه أفضل ، وليس هذا مجال سرد أساطير النضال للحلفاء من الأهالي .

وقفت القوة المصرية الانجليزية لأكثر من أسبوع في رأس الهدي، تنتظر أن تنهار الروح المعنوية للعدو وتجعله في حالة من اليأس حتي يقدم على الهجوم. كل صباح يستعد سلاح



الفرسان ويتوجه نحو معسكر الأعداء ، يشاهد فرسان البقارة أو يناوش بعضهم ، وفي المساء تعود الفرقة المتعبة الى المعسكر . كل صباح تستعد القوة لصد الهجوم ولكنها ترجع في نهاية اليوم الى الزريبة في حالة من اشمئزاز وتنام في سلام . في هذه الفترة بدأت تسري روح الاستقرار في المعسكر، فكبرت الزريبة وتوسع للطبخ ، واتسخت البرك في نهر عطبرة . استمرت الشمس تلسع الرجال البيض بلارحة ولا انقطاع أينما كانوا تحت أكواخ القش أو في الخيام ، سجلت درجات الحرارة أثناء النهار أعلى معدلاتها حيث بلغت ١١٥ درجة، أما في المساء فان الطقس رطب ومنعش .

بالرغم من شعور القوة الرئيسية بان اليوم يمر طويلا ومملا إلا أن الوقت الذي قضاه الجيش في رأس الهدي لم يكن خاليا من النشاط . كان عمل الفصائل والدوريات اليومية عملا شاقا على الجنود والخيول التي لم تجد الراحة إلا في المساء. كان السردار يعلم تفوق فرسان العدو وكان لابد من الى قطة التامة لقائد سلاح الفرسان. البواخر المدرعة ايضا وجد لها بعض المهام .

عندما ترك محمود شندي كان قد ترك بها مخازن لباقي المؤن وزوجات الأمراء تحست حراسة ٧٠٠ مقاتل من حملة البنادق و ٢٥ خيالة . بالمنطق العسكري العادي أو حتي لاغظة العرب وإغضبهم قد تقرر احتلال هذه الحامية وبعثة ما بها من مدافعين . وعليه عادت الكتيبة الثالثة المصرية يوم ٢٤ بقيادة لويس من رأس الهدي الى عطبرة ، لتحل محل الفرقة ١٥ الموجودة هناك. وتجمعت قوة صغيرة تحت إمرة القمندان كييل تتكون من الفرقة ١٥ بقيادة الرائد هيكممان مع مدفعي ميدان من بطارية بيك و ١٥٠ من الجعليين من القوات غير النظامية. ركبت القوة على مراكب كانت تجرها البواخر، الظافر وناصر والفتاح، التي ابجرت الى شندي في نفس تلك الليلة .

في فجر يوم ٢٧ ظهرت وحدات الأسطول النهري على مشارف شندي، وشعر بها الدراويش وجهازوا دفاعاتهم لكن كانت قوتها بالنسبة لهم مهولة. تحت ستار مدفعية البواخر تم انزال المشاة والمدافع وبمجرد أن بدأ تعامل المدفعية . هرب العرب وهم يطلقون رصاص بنادقهم عديمة الفعالية. ترك أمر المطاردة لأفراد قوة الجعليين الذين كان يهمهم جدا الثأر لأبناء قبيلتهم فقتلوا ١٦٠ من الدراويش وكان انتقاما محسوسا خاصة أنه في نفس الموقع

الذي سقط فيه أهاليهم صرعي. كان كل ما في البلدة غنيمة ، امتلأت البواخر بأغراض كثيرة، وبينما هربت نساء وزوجات الأمراء بقيت ٦٥٠ امرأة باطفالهن من الطبقات الشعبية تم ترحيلهن الى عطبرة ، سرعان ما اتحدن مع افراد الجنود السودانيين وكما كان ظاهراً عاش الجميع في سعادة وبناء أسر جديدة . لم تكن هناك أي خسائر في القوة للهاجمة، لكن الجعليين فقدوا بعض الأفراد أثناء مطاردتهم للعدو ، تم عادت القوة الى عطبرة.

كان الثالث من أبريل هو آخر يوم للجيش في رأس الهدي ، انتهت فترة الانتظار. وجري استطلاع كامل عن قوة العدو التي تستمر في التدهور بحيث لا يجرؤ على الهجوم لكن في نفس الوقت تدهورت الحالة الصحية في معسكر رأس الهدي. وبالرغم من أن الموقف كان على ما يرام ، لكن السردار ما كان ليقتنع باستمرار الوضع كما هو. طيلة الوقت والجيش يركز نشاطه على طول العطبرة كانت كل إمداداته تصل مع مخصص من عطبرة قافلة تحميتها قوة صغيرة من الهجانة لمسافة أربعة أيام هي المدة التي ستستغرقها الرحلة من عطبرة الى رأس الهدي .

إن جهل الدراويش وحده هو الذي سمح باستمرار هذا التدفق بدون أي اشتباك. إن محمود يملك سلاح فرسان قوي، ولذلك وإذا نظر أي شخص الى الخريطة يتعجب كيف لم يفكر محمود في إرسال قوة على شمال النهر لتعرض سير تلك القوافل .

كان مثل هذا النشاط سوف يضعف من قوة السردار، اذ سوف يضطر لسحب بعض أفراد المشاة ليكونوا في حراسة القوافل وتأمين خطوط المواصلات، كما أن تأخير المؤن كان سيؤثر على القوة أو على الأقل يؤخر هجومها ولكن لم يفعل الدراويش أي شيء من هذا القبيل. وهنا قرر القائد وضع حد لهذه العملية، فتجركت كل القوات يوم ١٤ ابريل الى أبعدار وأقامت معسكرها على بعد ٥ أميال من مواقع العدو، لقد تعب النمر من مشاهدة فريسته فوثب الوثبة الأولى نحوها .

بالرغم من وفرة المعلومات عن حجم وأحوال قوة العدو إلا أن السردار أمر باستطلاع أخير يوم ٥ أبريل .

ابتدا برودود في الرابعة صباحاً قاطعاً الزاوية التي يكونها نهر عطبرة مع قرية أم داييسا ، متجنباً أشجار الشوك ووصل الى قرب معسكر الدراويش . لم يشاهد أي افراد داخل الأشجار ، ولا توجد أي آثار للحياة وكان الصمت كاملاً . تحركت الفصائل حتي وصلت الى حوالي ١٢٠٠ ياردة من زريبة العدو في وضع موازي للزريبة ، هنا ظهرت لهم بعض قوات سلاح فرسان العدو ، لم يتأكد من تعدادها الا أنها بدت كقوة كبيرة للاستطلاع . فرسان الدراويش استمروا في السير الى الجنوب الشرقي حتي كادوا يلامسون جناح الفرقة المصرية الشمالي، بينما تقدمت القوة المصرية وعند وصولها الى الجانب الجنوبي لنهاية الزريبة، ظهرت قوة فرسان أخرى من الجانب الشمالي مهددة خط تراجعهم . وفي نفس الوقت دب النشاط داخل الزريبة وشوهد أفراد كثيرون يستعدون لأخذ مواقعهم الدفاعية وهم يتابعون سير القتال. واقترب سلاح الفرسان الى مسافة حوالي ١٠٠٠ ياردة من الزريبة وأطلق الدراويش بعض الأعيرة، خفيفة النيران .

تراجعت فرقة سلاح الفرسان على الأجنحة بطريقة منتظمة لكن استمر فرسان الدراويش حتي كادوا يطوقون الفرقة مما يهدد باحتمال هجوم. ولكي يقابل هذا التهديد أرسل برودود إحدى فصائله من وسط التشكيل لتنضم للفصيلة التي يقودها تحت قيادة النقيب بارنج، وهكذا كانت هناك أربع فصائل لقوة الاستطلاع في الصحراء، اثنتان معهم مدافع واثنتان على ضفاف النهر . أغرى ضعف الجناح على النهر فرسان العدو فأسرعوا بالهجوم للاستيلاء على المدافع، ولقد كانت حركة جريئة وذكية ولكن قابلها قائد سلاح الفرسان بجدارة تستحق الإعجاب. كانت حركة الغبار، على بعد ٣٠٠ ياردة من الموقع هي الإنذار الوحيد له بنية العدو، فتسلم قيادة الفصيلتين تحت إمرة برسي ولي كاليبس وأمرهم بالتوجه يمينا مع الهجوم.

هجمت القوة يتقدمها ضباطها البريطانيون وأسرعت بالركض نحو خيالة البقارة ، الذين يربو عددهم على حوالي ٤٠٠ فارس ولكنها قوة مشتتة، أبادرهم. أثناء سير هذه المعركة، حاول خيالة الدراويش الهجوم مرة أخرى نحو المواقع في الجانب على الصحراء وأسرع النقيب بارنج مع فصيلتين واشتبك معهم وفرقهم مع بعض الخسائر. كان الهجوم جيداً وفاعلاً، لكنه تم بشكل غير منتظم مما سبب بعض الارتباك وسط الكتبتين عند لقاء

الدروايش على ضفاف النهر وأسرع النقيب بيرس والنقيب لى كالياس وطلبوا من جنودهم التراجع من خيولهم وفتحوا نيرانهم على الدروايش المتراجعين، ونجح هذا التصرف لينس في صد الأعداء فقط ولكنه أيضا منع اختلاط الفصائل مع تلك التي بدأت الهجوم وهي في حالة ارتباك وسوء تنظيم .

بالرغم من هزيمة فرسان الدراويش فقد استمر مشاتهم في الهجوم على فصائل الفرسان التي ترجلت وتم تبادل إطلاق النيران لفترة طويلة، وجرح النقيب بيرس جرح كبير وأصيب بعض الجنود، تم انسحاب كل القوة في الساعة الحادية عشرة بعد أن توقف الهجوم . كانت الخسائر وسط القوة مع حسن الحظ جد بسيطة، إذ جرح ضابط بريطاني واحد وتوفي ٦ مصريون وجرح عشرة، وفقدت فصائل الفرسان حوالي ٣٠ حصانا ما بين مفقود ومعاق.

لقد أصبحت الآن المعلومات عن العدو واضحة إذا تم الحصول عليها من مصادر موثوقة بها، ووضح من تكرار فرار أفراد قوته وإنهاز مغنوياته أن الأمل له في النجاح وهنا جاءت ساعة الخلاص عليه وتدميره . .

في صباح يوم ١٦ أبريل تحرك الجيش من معسكر ابعادار وسار الى قرية مهجورة اسمها أم دايا وعسكر بالقرب من بركة على نهر عطبرة تبعد بحوالي سبعة أميال من موقع العدو .



## الفصل الثاني عشر

معارك نهر عطبرة ٨ أبريل ١٨٩٨

في مساء يوم الخميس ٧ أبريل ، أقام الجيش في أم دايا استعراضاً للهجوم على زريعة محمود ، كان المعسكر داخل الأشجار القصيرة الكثيفة التي تنمو على جانبي نهر عطبرة تماماً كتلك التي توجد عند شاطئ النيل. وللإستفادة من السهل المفتوح ، تحركت اللواءات الأربعة للمشاة يتقدمهم اللواء البريطاني نحو الصحراء على طرق متوازية ، بينما بقيت في المعسكر فرق الخيالة وبطاريات المدفعية الأربع حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي وبقيت في حالة استعدادها. إذ المسافة بين الشجيرات على ضفاف النهر والصحراء حوالي الليل ونصف، لكن القوة استطاعت الخروج من تلك المنطقة حوالي الساعة السادسة مساء .

مالت الشمس الى المغيب وبدأ الوهج الأحمر يشع على التلال الرملية مما جعل الأفق بلا نهاية حتى لا يكاد المرء يفرق أين ينتهي الأفق وأين تبدأ السماء. كانت ثمة مجموعة من الغزلان في طريقها الى مورد الماء اعترضتها تحركات القوات، فركضت هذوء بعيدا عبارة عن نقاط بيضاء على سطح لون الرمال البني الوردي ، وعلى السهل الممتد وقف ١٢ ألف جندي مشاة واثقون من قوتهم ومتلهفون للملاقاة العدو ، اصطفوا بطريقة منسقة في أربع كتل بشرية صلبة. ثم بدأت المسيرة ، كانت المسافة بين المعسكر وموقع الأعداء حوالي سبعة أميال زادت بمقدار خمسة أميال أخرى نسبة لتوسيع الدائرة لكي تلتف حول الأشجار وتتجنب المنحانة النهر. كان سير القوة بطيئا، ولم تبعد كثيرا قبل أن تغرب الشمس تماما وبدون فاصل بين الضوء والليل، غطي الظلام كل شيء، واصلت القوة في السير في سكون الليل الهادي تتقدم في هدوء لا يقطعها إلا صوت الأرجل على الرمال، واصلت للانقضاض على الأعداء.

ليس هناك أخطر وأحرج من عملية حربية تتم بالليل ، كثيرا ومرارا وفي بلاد عديدة ، تعرضت القوات التي حاولتها الى كارثة وفناء حقيقي ، وفي حالة الالتحام والمصيبة، يتغير شكل الأرض وتتغير ملامحها .

مناطق معروفة بالنهار تكون مجهولة تماما بالليل واي حادثة صغيرة تؤثر في تقدم القوة التي عليها السير ببطء وحذر شديدين مع ضرورة التوقف والمراجعة بين حين وآخر . تتأثر



أعصاب الأفراد بتوقع الكارثة بنفس قدر تأثرها بطبيعة الأرض، إذ يسير الجنود ببطء وآذانهم مرهفة لسماع أي صوت قادم وتكاد أنظارهم تخترق ستار الظلام ، وكل جارحة في النفس تنهياً لتوقع المجهول .

في مثل تلك الساعات يسيطر الشك والخوف معا على عقل المحارب ، ويفكر في المصير المنتظر ، هل سيمر الأمر بسلام على الجيش وعليه هو شخصيا ؟ هل هو ناج من هذا الحدث ؟ وماذا إذا انفجر هذا الصمت الأسود فجأة وانهمرت طلقات الرصاص وصيحات الجنود المهاجمين ؟ سوف يربك هذا الأمر أثبت القوات ويحولها الى كتلة من الهلع لن يتوقف إلا بعد تدمير القوة بالكامل . كان الهجوم عند الفجر أمرا ملحا حتي ينتهي القتال أثناء النهار وعليه بالرغم من الأحداث والمخاطر فان الزحف ليلا أمر معروف في المعارك الحربية.

هكذا استمرت القوات تتحرك لمدة ساعتين، على الرمال الناعمة التي تتخللها بعض الشجيرات والأحجار، وكانت بعض الخيران المملوءة بالأعشاب الطويلة تؤخر تقدم اللوآت حتي لا تعدو السرعة أكثر من ميلين في الساعة . كانت للأعشاب رائحة حلوة ، سوف تعيش في ذاكرة البعض كل ما جاءت ذكر انطباعات تلك الليلة . النسيم الذي هب بعد غروب الشمس لطف الجو وأثار عاصفة رملية ناعمة ، عمقت الظلام برزاز أبيض .

عند الساعة التاسعة وقف الجيش في نقطة تم تحديدها مسبقا بالقرب من قرية مطسوس المهجورة وعلى بعد ميلين من النهر . هكذا تم قطع نصف المسافة الى زريبة محمود، ولم تبقى إلا أربعة أميال تفصلهم عنه ، ولكن نسبة لعدم الرغبة في الوصول قبل الفجر سمح للقوات أن ترتاح وجلست على الأرض بنفس تشكيلاتها، ووزعت عليهم وجبة من البسكويت واللحم. وكلفت قوة حراسة لمرافقة حيوانات النقل التي تسقي من البرك على نهر عطبرة، لتملأ تنوكة المياه وكذلك زمزميات المياه . بعد أن تم انتداب قوة للحراسة ، نيام افراد الجيش على حالة الاستعداد للقتال . ظهر القمر أثناء فترة الراحة ، وعندما استأنف السير حوالى الساعة الواحدة صباحا ، أظهر ضوء القمر حجم القوة الكبير وانعكس الضوء على لمعان السنج فأشاع منظرا فريدا توج المربع بشؤم ساطع .

استمرت القوة في السير في صمت كامل لمدة ٣ ساعات ومنع التدخين تماما . في هذه الأثناء وصلت قوات سلاح الفرسان وسلاح الهجانة والمدفعية وتم حشد كل القوا . ينما الدراويش نيام .

في تمام الساعة الثالثة بدأت الأنوار تظهر في الجنوب ، وهكذا وصلت الأرباع الى موقع الدراويش ، ما عدا اللواء الاحتياطي ، واصطفت اصطفا ف هجوم في خط طويل موزعة بين الشجيرات والأعشاب وبدأت تظهر على مرتفع كبير يطل على زريبة محمود من مسافة ٩٠٠ ياردة .

كان الليل مازال يرخي سدوله وشبورة الضباب تلتف حول معسكر الدراويش يسيل بينها ضوء نيران الحراسة وكان الصمت رهيبا . لا يمكن لأحد أن يصدق أن أكثر من ٢٥ ألف رجل كانوا على أهبة الاستعداد للقتال على بعد نصف ميل . لم يكن التقدم بالخفي تماما فقد علم العرب أن عدوهم اللدود يتربص بهم عند المرتفع ينتظر انبلاج الفجر وتأجلت الاثارة الى حين . وأخيرا وبعد أن مرت لحظات ظنها البعض انها بلا نهاية ، وحين تم اختراق السواد الذي كان يغلف كل الأفق بأول ضوء لوقت السحر . بدأ الضوء يقوي تدريجياً ويرتفع كستارة المسرح ، ليذهب الظلام وتبدأ الأشكال المبهمة تتحول الى واقع ملموس وتظهر الصورة كاملة .

على طول المرتفع ظهر الجيش البريطاني المصري كقوس عظيم ، اللواء البريطاني على الشمال ، لواء ماكدونالد في الوسط ولواء ماكسويل على اليمين وسطح التربة كله تـوج بلمعان السنج والآف الأجسام النحيلة من الرجال يجلسون أو يستلقون على الأرض يحدقون أمامهم في فضول ، وكانت خلفهم في مربع صلد المواصلات والامدادات يحرسها لواء لويس . سرايا الفرسان المتقدمة ، اخذت مواقعها بتمهل على شمال التشيكل تحركت البطاريات الأربع للمدفعية ووحدة الصواريخ وتمر كزت في منطقتين مناسبتين أمام الكتائب بحوالى ١٠٠ ياردة . كل شيء أصبح جاهزا ولكن ظل الموقف هادئا ومع الصمت للمصاحب لضوء الفجر ، كأنما الطبيعة تحبس انفاسها .

على بعد نصف ميل وتحت المرتفع ، ظهرت صفوف غير منتظمة من شجيرات الشوك السوداء تغلف دفاعات الدراويش وخلف هذه الزريبة سور منخفض واستحكامات تعطي

ظهرها للنهر والشجيرات حول ضفافه. ظهرت على وسط الحلقة قلعات من الطين هنا وهناك ، اظهرت مواقع المدافع وبعض الاستحكامات الأخرى .

انتظر المقاتلون في السهل المنبسط، الذي كانت بعد إخلاله تماما من الأشجار والأعشاب نفضية الرمال الناعمة، ووقفت وسط كل هذه بعض أكواخ القش ، يزداد تعدادها كلما نظرت جنوبا ومن بينها أشجار النخيل وخلفها يظهر بوضوح بحري نهر عطبرة الجاف وبركة مياه واحدة تلمع مع ضوء النهار. تلك كانت هي زريبة محمود الشهيرة التي شغلت فكر القوات لأكثر من شهر ، منظرها لا يوحي بأي انطباع بالقوة ، بل إن بعض الجنود ظنوها مهجورة. كان هناك دسته خيالة يجلسون على ظهور خيولهم ينظرون لعدوهم وبين الحين والآخر يظهر بعض الافراد خلف السور المنخفض ويختفون .

بالرغم من أن منظر الزريبة لم يكن مهابا ، إلا أن كمية النيران التي تحضر وجية الصباح ، التي لن يأكلها أحد ، تدل على أن هناك رجالا يحتلون الزريبة، وكانت الأعلام الخفاقة حول الاستحكامات أو على صدر المعسكر دلالة على أن هناك نفر مستعدون للموت دفاعا عنها .

ودوت قبلة كسرت حاجز الصمت وحالة الترقب لدى القوات ورفع الجميع رؤوسهم ناحية الصوت ، بطارية كروب على يمين الكمرون هايلندرز فتحت النيران وجاءت دانة أخرى من ناحية اليمين وانفجرت دانة في أكواخ القش داخل أشجار النخيل ، بدأت بطاريتا مدافع المكسيم نوردن فيلد إطلاق رشاشاتها. ونظر الضباط الى ساعاتهم، وكانت الساعة السادسة والرابع، وبدأ هجوم المدفعية .

انفجار تلو انفجار في دفعات متتالية ، حتي اشتركت قوة الصواريخ ، داناتها تطلق صوتا وصريرا عندما تنطلق من قواعدها متجهة نحو الزريبة حتي امتلأت سماء المعسكر بالقنابل واحدة تلو الأخرى وكونت شابورة داخل الدخان الذي ملأ المكان . بعد أول طلقة، اختفى الأفراد ذوي الرداء الأبيض ، قفزوا داخل الخنادق ، وقف بعض الخيالة لبرهة وسط المعسكر يشاهدون أثر النيران كان الأمر لا يعينهم. ووقف أفراد القوة البريطانية على أطراف أرجلهم يشاهدون منظر الحرب المثير لأول مرة ، وفي البداية تابعوا كل دانة وتفاكروا في الأثر الذي تركته ، الى أن ضاعف المدفعية من ضربهم ، وتكاثرت الدانات في

الهواء في نفس الوقت حتي أصبح المنظر يدعو للملل بعد حين، قفل الضباط نظاراتهم وجلسوا على الارض مرة اخري بعضهم قد نام بالفعل وتعب البقية من متابعة المنظر المثير الذي لن يشاهدوا مثله قط وانتظروا في تلهف الى متابعة احداث اخري ، او شيء جديد .

بعد انقضاء عشرة دقائق على اطلاق القنابل ، شوهدت مجموعة من خيالة الدراويش تمتطي جيادها وتخرج من فتحة في اخر المعسكر على الناحية اليمني الى الفسحة المفتوحة، وتطير الغبار من اثر ركضها .

لمقابلة احتمال هجوم على الناحية الشمالية للتشكيل سارعت سرايا الثمانية لسلاح الفرسان بالتوجه ناحية الخطر القادم. وغطي الغبار الكثيف الناتج من حركة الخيل كل المنطقة دلالة على كثرة عددها حتي حجبت الرؤيا امام المشاة الا ان استمرار الغبار عن ناهية الاشجار وسماع رشاش المكسيم كان يدل على اشتباك سلاح الفرسان في المعركة . امتنع فرسان البقارة من الدخول في معركة متكافئة ، اكثر من مرة شعر جنود سلاح الفرسان انهم سيلتحمون في مواجهة ولكن كان رشاش المكسيم سلاحا فاعلا في صد العدو ، في كل مرة يوقع اصابات مباشرة لا تقل عن عشرين بين قتيل وجريح ، بخلاف سرية واحدة جنحت ناحية اليمن كانت بقية سرايا سلاح الفرسان المصرية على شمال التشكيل تحمي المشاة وهجومهم.

في هذه الاثناء استمرت المدفعية التي ما عاد احد يشاهد نشاطها بنفس اللفة ، استمرت في اصابة الاهداف بدقة متناهية وظلت تختار الاهداف واشعلت النيران في اكواخ القش وتهدمت الزرية والسور في اكثر من موقع. وفي تمام الساعة السابعة والرابع امرت فرقة المشاة بتكوين اصطقاف تقدم للهجوم .

كانت خطة الهجوم للجيش بسيطة، القوات التي طال حشدتها تقتحم استحكامات العدو ، تجبر نيرانها القوية نيران العدو وتخرسها ، وتحطم الزرية وتحطما كاملا . تدخل الكتل البشرية غطاء نيرانها داخل الزرية في الفتحات التي يتم تدميرها ثم تنحرف ناحية اليمن لتظهر المنطقة من افراد العدو بالرصاص او السلاح الابيض .

في تمام الساعة الثامنة الا ثلث ، امر السردار البورجي بعزف نداء التقدم العام وقد رددته كل الوحدات وظهر النداء واضحا حتي غطي على صوت المدافع . كل الضباط

رؤوساء الوحدات ترحلوا وأخذوا مواقعهم أمام وحداتهم ما عدا القواد هنتر ، ماكسويل وماكدونالد .

تحركت كل كتل المشاة بما يقدر بأحد عشر ألف مقاتل نحو الزريبة ، كان منظر القوات وهي تنزل من على المرتفع على شكل هلال رائع ومهيب ، كتل بشرية في صفوف مزدوجة وبطابور منظم تتقدمها شعاراتها وأعلامها تتقدم للالتحام . موسيقى القرب التابعة للهايلندرز اختلطت مع موسيقى السودانيين وطبول الفرقة الانجليزية لتعطي إحساسا مشيرا للحماس ، بمجرد أن تخطي الهجوم مواقع المدفعية ، تحرك هذه الى الأمام لتشارك مسانده الهجوم. وفتحت فرق المشاة نيرانها بدون توقف على الاستحكامات مما جعل الخطوة بطيئة نوعا ما .

بقي الدراويش صامتين الى أن وصلت القوات الى ٣٠٠ ياردة فبدأ انفجار الرصاص من عند السياج المنيع تاركا الدخان يتصاعد من على طول السياج ، يزداد إطلاق الرصاص بصورة تدريجية حتي تعرضت قوات المشاة عند مسافة ٢٥٠ ياردة الى نيران مركزة حامية وفعالة وبدأت تتساقط الخسائر . غطت النيران والدخان كل الاستحكامات وحولها بندقية الدراويش ظهورا للعيان وهم يتعاملون مع كتل المشاة المتقدمة ، ظهر خلفهم مئات من حملة السيوف والحراب .

كانت هناك ربة أمام فرقة لينكون استطاعت أن تحميها ولكن بدأ الجنود يتساقطون من بين كتيتي الهايلندرز . كان الجو مشحون بأصوات الرصاص المنهمر ، الذي يثير الغبار أو يحدث أصواتا عند الاصطدام ، بدأت طلقات العرب تعلن عن نفسها بشكل فعال ، حتي غطي صوت الرصاص على صوت المدافع ، بدأت كل كتائب المشاة المهاجمة في تلقي الخسائر ولكنها هي والفرقة المتقدمة لم تتوان أو تتراجع رغم صرامة النيران ، سيل جارف من الرجال غير مباليين أو وجلين ولا يمكن مقاومتهم . لمسافة ٢٠٠ ياردة من الاستحكامات و ١٥٠ ياردة من زريبة الشوك بدأ إطلاق النار ، مستقل ، ولكنه على طول الخط من بدايته لنهايتته .

استمرت الفرقة البريطانية والسودانية في إطلاق النار باستمرار لكن دون عجلة أو ارتباك واستمر تقدم القوة بلا مبالاة أو شفقة ، وكان واضحا بالرغم من شدة نيران العدو التي بدأت تحدث خسائر كثيرة في الأرواح ، أن الهجوم سيكون ناجحا . كانت الخسائر عند اقتحام الزرية والهجوم على الاستحكامات كبيرة ومؤثرة. فقد أصيب النقيب فبندلي والرائد اركوهارت من فرقة الكمرون هايلنדרز اصابات مميتة وفلضت روحاهما وهما يشدان من أزر رجالهم ويحاثهم على القتال. وأصيب الرائد نابير من نفس الفرقة والنقيب بيلي من السي فورث هايلنדרز وتوفي في وقت لاحق متأثرين بجراحهما ، على مسافة ياردات قليلة. لكن استطاعت جموع المشاة كسر السياج في كل موقع ودخلت قلب المعسكر ، خلف السياج ظهرت خنادق ثلاثية وامتلات كل مساحة المنطقة الداخلية بالحفر والخنادق الطولية التي يشغلها الآف الدراويش الذين كانوا يحاولون باستماتة ان تكون جبهة أمام الهجوم. قتل الملازم جور ضابط صغير حديث التخرج من ساندهيرست ، بين زرية الشوك والسياج وأصيب ضباط آخرون من فرقة اللينكون وورويك شبر إصابات خطيرة وقتل جنود كثيرون وجرح آخرون في المكان الضيق . كانت هناك إصابات مماثلة لدي اللواءات المهاجمة . في زمن الدقائق الخمس التي استغرقها اقتحام الزرية بلغت الوفيات حوالي ٤٠٠ قتيل ، واستمر القتال .

اقتحم اللواء البريطاني الجانب الشمالي للزرية وهو يطلق النيران القوية على طول خط المواجه حتى جرفت أفراد قوة الدراويش أمامها وامتلات الساحة بجثثهم. وبالرغم من التقاء خطوط الهجوم بما لا يسمح إلا لنصف اللواء بالتقدم ، إلا أن اللواء بكامله استمر في التقدم، وقد أخطر قاد الفرق بالوضع وارتفع الضباط لمستوي الموقف ونظم كل قائد فرقته بحيث تنسق موقعها مع المجموعة دون فقدان للنظام ، يدفع بها كلما ظهر فراغ بين الخطوط وكل ما اتسع الفراغ في الخطوط الأمامية واندفعت القوة بالكامل ، الفرق ، الكتائب وحتى اللواءات اتحدت كقوة ضاربة تتقدم ناحية النهر تدمر الأعداء أمامها وهم لا حول ولا قوة لهم وفي حالة ذهول تام. ومع كل بالرغم من فشل الدراويش في تكوين خط مواجهة لصد الهجوم إلا أنهم لم يفروا . صمد الكثيرون يطلقون رصاص بنادقهم الى النهاية بكل شجاعة، حارب البعض بالسيوف والحراب. الغالبية منهم تراجعوا وهم يقاتلون إما للجوء الى الخنادق



أو يسرون على السهل ، يلتفون ويطلقوا رصاص بنادقهم أكثر من مرة . تعرضت الفرقة السودانية السادسة لمقاومة عنيفة بعد اجتياز الدفاعات، حيث واجهت قوة صغيرة داخل الزريبة كانت معدة لقوات حرس الأمير محمود، إذ أطلق هؤلاء مجموعات متتالية على وسط الفرقة السودانية وألحقت بها إصابات مباشرة قاتلة حتي كادت تفتي الفرقة بأكملها، وسقط الجنود وهم على هيئة التشكيل ، حتي صاح ضابط انجليزي فيهم " ماذا انتم فاعلون ، تستلقون على الأرض؟! وبلا مبالاه لما حدث لأفرادها، استمرت الفرق بقيادة عقيدهم ومساندة الفرقة السودانية الخامسة في الهجوم على تلك الزريبة حتي ذبحوا المدافعين عنها لآخر رجل .

وقد تم أسر الأمير محمود نفسه - الذي كان قد ، لجأ الى أحد الاستحكامات التي بنيت خصيصا له بعد أن أنهى ترتيبات دفاعاته. لقد تم اخراجه منها، وما إن تعرف عليه البعض حتى كادوا يفتكون به لولا أن تدخل ضابط بريطاني وانقذه من ثورة السودانيين المتحمسين .

استمر التقدم والهجوم وكان هؤلاء الذين اشتركوا فيه أشبه بكابوس مريع أكثر منه حقيقة واقعة . النقباء والضباط الصغار ، جمعوا ما تيسر لهم من مقاتلين بصرف النظر عن الجنس أو الرتبة وجاهدوا للتحكم في اطلاقهم للنيران ، وكلما هب لابسو الجيب وأطلقوا النار أو هجموا ، تم التصدي لهم وأيّدوا في كل مرة لآخر رجل . ويستمر الزحف فوق أجسادهم، فوق الخنادق المليئة بالجثث والمحتضرين ، وبين كتل من الجمال والحمير الممزقة الأشلاء مبتورة الأطراف بارزة الأحشاء ، ونتيجة لقذف المدفعية الوحشي كان هنالك عشرات القتلى والجرحى من النساء والأطفال ، والنسوة اللاتي لم يصبن يتضرعن في رعب للرحمة ، والرجال سود مقيدون بالسلاسل داخل الخنادق، قتلوا وهم لا يزالون في الأغلال ، وكان الجيش المنتصر يتقدم، دائما للأمام والدماء تقطر من سنج بنادقهم ، ملابسهم أياديهم ووجوههم ملطخة بالطين والتراب، تملأ الروائح الكريهة خياشيم أنوفهم ، وتصفّر الطلقات حول آذانهم .

وصلت كل القوة لشاطئ نهر عطبرة في تمام الساعة الثامنة والثلاث تتقدمها فرقة سي فورس هايلندرز ، بعد أن دمرت المعسكر بمن فيه ، إما طعنا بالسنج أو رميا بالرصاص ،

كان هناك مئات الدراويش يتراجعون الى الشجيرات في الجانب الآخر للنهر ، فتحت فرق السني فورس هايلنדרز ولينكون وما وُجد من فرق الكمرون نيران بنادقهم على تلك المجموعة ، حقيقة انهم لا يفرون قد جعلت خسائرهم كبيرة . وكان منظر غريباً ، آخر انطباع لليوم ، أن تشاهدوهم يصارعون الموت بين سحب من الغبار تثيره طلقات الرصاص من حولهم ، لم ينج إلا القليل وانتشرت جثث موتاهم تملأ مجري النهر الجفاف ، في تمام الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة جاء نداء وقف إطلاق النار، وبذلك انتهت معركة نهر عطبرة .

بدأت الكتائب إعادة التشكيل وتعداد الأفراد ، كانت الخسائر جسيمة . في هجوم لم يستمر أكثر من نصف ساعة ، قتل ١٨ ضابطاً بريطانياً ، ١٦ ضابطاً أهلياً و ٥٢٥ جندياً بين قتيل وجريح ، أكبر الخسائر كانت عند عبور الزريبة .

لم تواصل ملاحقة العدو . الكتبتان تحت إمرة لويس عند اتجاهها للجزء الجنوبي للزريبة وجدت بعض الدراويش يتراجعون داخل الشجيرات قبل شاطئ النهر وأطلقت عليهم الرصاص . كل سلاح الفرسان وفرقة المشاة عبرت النهر وتوغلت في منطقة ذات أشجار كثيفة وخيران وحفر مما جعل من مهمة المطاردة أمراً صعباً ، وبعد ان قطعت ثلاثة أميال أنهت المطاردة ، واستطاع العرب التراجع بسلام . كان فرسان البقارة ، بقيادة القائد المحنك عثمان دقنة في موقع يسمح له بالمناورة واستطاعت التراجع بأقل الخسائر . اما باقي الجيش إما قتل أفرادهم أو تشتتوا . هرب بعضهم على طول نهر عطبرة جنوباً تاركين الجرحى لمصيرهم المحتوم على طول خط التراجع . لم يبق من جيش محمود القوي المكون من ١٢ ألف مقاتل، سوى ٤ آلاف وصلوا القضايف بسلام ، أضيفوا لقوات أحمد فضيل وبذلك لم يذهبوا الى أم درمان لينشروا الأخبار المروعة بين سكان العاصمة، بينما رجع عثمان دقنة وود بشارة وبعض الأمراء الذين لا يشك في ولائهم الى أم درمان ، بدون مرافق .

بعد أن تم تكوين الفرق أخليبت الزريبة من القوات وتحركت القوة الى مرتفع بسانقرب من المنطقة وكانت وقتها الساعة التاسعة صباحاً فحسب، وكان الهواء بارداً ومنعشاً. أوقد الجنود النيران وحضروا الشاي ثم صرفت لهم التعيينات من البسكويت واللحمة ، بعد أن تناولوا الوجبة ، استلقوا على الأرض في انتظار للمساء. ازدادت حرارة الشمس مع مرور

الوقت، وليس هناك أي ظل سوى الشجيرات الصغيرة، واستمرت الحرارة وأشعة الشمس تحرق حتى البلاد بالرغم من الموسم، وكانت ساعات النهار تمضي ببطء وثاقل . تعكس الرمال على المرتفع أشعة الشمس فتحول الجو الى فرن مليتهب والأرض الى رمال محروقة . حتى الماء داخل الفناطيز والزجاجات كان حارا وتادرا ، البرك في العطراوي أصبحت ملوثة وكريهة بالرغم من تفاني ضباط السلاح الطبي الذين سمح لهم بمرافقة القوة ، إلا أن المعاناة بالنسبة للضباط والجنود الجرحي كانت رهيبة وأن البعض قد توفي متأثرا بجراحه، وربما كانت ستكتب لهم النجاة لو وجلوا في ظروف تختلف عن تلك الظروف .

مئات الأفراد تم أسرهم ، كان أغلبهم من الزنوج والقوات السوداء ، لأن العرب رفضوا الاستسلام إما حاربوا حتى النهاية أو تراجعوا . كانت هذه القوة السوداء على استعداد للقتال مع أي جانب لذلك تم استيعابهم مع الفرقة السودانية ، هكذا فإن الذين حاربوا الى جانب الخليفة ، سوف يحاربون لدحره في أم درمان . كان أهم سجين هو الأمر محمود ، وهو عربي طويل القامة قوي البنيان عمره حوالي ثلاثين عاما ، اقتيد الى السردار بمجرد أن وقع في الأسر .

فبادر السردار محمود بالسؤال ، لماذا أتيت الى بلادي تحرق وتقتل؟؟ أنا أطيع الأوامر، "كانت الاجابة" - وهكذا أنت أيضا رد الأسير بنذقي لا يخلو من الكرامة . كانت إجاباته مختصرة أو مراوغة وقال له إنه سوف يدفع ثمن هذه المذبحة ، عندما يواجه القوة في أم درمان . كان نموذجاً جيداً لشموخ القسوة ، وكان ربما يستحق مصيراً أكرم من أن يفني عمره في سجن رشيد .

ما إن جاء المساء، حتى تركت القوات سرير العذاب ورجعت الى أم دعيبة، وكانت العودة تجربة قاسية والقوات منهكة في طريق الذهاب، وكانت الفرقة تحمل الجرحي الذين بدأوا يعانون من الحمى وكانت آلامهم لا تحتمل ، لم تبصل القوة الى المعسكر إلا عند منتصف الليل. ظل أفراد المشاة تحت السلاح في الطوابير والسير والمعارك وفي الشمس المحرقة لأكثر من ثلاثين ساعة لم يغمض لهم جفن ليومين كاملين . جاهد الضباط والجنود البريطانيون ، السودانيون والمصريون اثناء فترة الراحة وراحوا في نوم عميق ، منهارين من التعب لكنهم منتصرون .

كانت جملة الخسائر لمعركة عطبرة كما يلي :

اللواء البريطاني

ضباط بريطانيون قتلوا او توفوا متأثرين بجراحهم (٥)

الرائد ار . اف . تابير فرقة الكمرون هایلندرز

الرائد بي . سي . ار كهارد فرقة الكمرون هایلندرز

نقيب سي . فندلي ار كهارد فرقة الكمرون هایلندرز

نقيب أ . س . بيلي فرقة سي فورس هایلندرز

ملازم ثاني . بي . فور فرقة سي فورس هایلندرز

ضباط جرحي بريطانيون (٨)

ملازم أم . جرين فرقة وروكسبر الملكية

عقيد . تي . أي . في رتزر فرقة لينكون شير

ملازم اتشي . بوكسر فرقة لينكون شير

ملازم . س . ج . ريني فرقة لينكون شير

عقيد . ار . اتش . موري فرقة فورس هایلندرز

نقيب . سي . ماك لاخلان فرقة فورس هایلندرز

ملازم . ار . اس . فاندولر فرقة فورس هایلندرز

ملازم . ان . أ . تومسون فرقة فورس هایلندرز

اسم الفرقة	قتيل	جريح	المجموع
ضابط	صف ضا	صف ضابط	صف ضابط
وروركشير	-	٢	١١
لينكون شير	-	١	١٣
سي فوري هایلندرز	١	٥	٢٢
كاميرون هایلندرز	٢	١٣	٤٤
خدمات الجيش	-	-	١
المجموع	٣	٢١	٩١

## الجيش المصري

### ضابط بريطانيون جرحوا (٥)

\*\*\*\*\*

نقيب أتشي بيوسي : الحرس دراقون الثانية والجيش المصري

نقيب سي ووش : لواء البنادق والجيش المصري

رائد أ.ك هارلي : د . أس . أو القوة الهندية والجيش المصري

رائد أتشي بي شيكلون : ساوس لا نكشير والجيش المصري

نقيب اف ولتر : لانكشير في ذليارز والجيش المصري

### ضباط بريطانيون احتياطي - ٢ جرحي

#### القوة الاهلية

سلاح الفرسان ٦ قتيل ١٢ جريح

سلاح الهجانة - ٢ جريح

سلاح المدفعية ٣ قتيل ١٥ جريح

#### سلاح المشاة :

لواء ماكسويل : قتيل جريح

الثامنة المصرية ١ -

السابعة السودانية ٤ ٤٠

الثامنة السودانية ٦ ٥٢

الرابعة عشر السودانية ٦ ٦١

لواء ماكدونالد : قتيل جريح

الثانية المصرية ٧ ٥

الرابعة السودانية ٧ ٦١

الخامسة السودانية ٦ ٣٧

السادسة السودانية ١٧ ٧٨

لواء لويس :	قتيل	جريح
الثالثة المصرية	-	٥
الرابعة المصرية	-	-
السابعة المصرية	-	٣
المجموع	٥٦	٣٧١

المجموع الكلي ، كل الرتب بريطانيون ومصريون : ٢٠ ضابطا بريطانيا و ٥٣٩ رجلا  
خسائر الدراويش قدرت رسميا ، ٤٠ أميرا و ٣٠٠٠ مقاتل لم تكن هنالك إحصائية بعدد  
الجرحي .

ولأن معركة عطبرة كانت معركة حاسمة ، وزعت القوات بعدها الى راحة صيفية ،  
ووزع الجيش المصري على ثلاث حاميات رئيسية ، ٤ كتائب لعطبرة ، ٦ كتائب مع  
الفرسان لبربر و ٣ كتائب للعبودية . وزعت للمواصلات والمدفعية بنسب متساوية . اللواء  
البريطاني كتيبتان في دارمالى وكتيبتان في سليم على بعد ميل ونصف الميل من بعضهما .  
طلبت ٣ بواخر جديدة من إنجلترا للمرحلة الأخيرة من الحملة أرسلت على أجزاء عن  
طريق سكك حديد الصحراء . كل الإجراءات اللازمة تم القيام بها من قبل ضباط الخط مهمة  
وكفاءة وركنت العربات التي تحمل الشحنة الغريبة الى خط جانبي ووصل السردار بنفسه  
ليباشر عملية تركيب البواخر في العبيدية ، هذه البواخر التي سوف يعتمد عليها كثيرا .  
وبقي كل الصيف يراقب بناء البواخر الحربية ينقح خططه ، ينتظر ارتفاع مياه النهر لكي  
يحقق اسقاط دولة أعدائه، دولة الدراويش .





## الفصل الثالث عشر

### الزحف الكبير

انقضت، كل شهور الصيف الأولى في التحضيرات للزحف الكبير النهائي. طلب لسواء بريطاني ثانٍ للتوجه إلى السودان، بطارية جديدة لمدافع الهاوتزر ٣٧ التي تقذف دانات رهيبية ومتفجرات مكونة من اللاديت المادة الحارقة أرسلت من إنجلترا. أرسل مدفعان كبيران ٤٠ رطل من القاهرة، جهزت فرقة من أربعة مدافع مكسيم في القاهرة من رجال الفرقه الأيرلندية الملكية بزيادة، ثلاثة بواخر مسلحة من أكبر الأحجام ونيران قوية، وصلت على أجزاء، وتختفى فقط على خط سك حديد الصحراء، تبحر الآن في مياه النيل المفتوحة بعد معسكر عطبرة. وأخيرا وليس آخرا تم إرسال فرقة الأنسر ٢١\* (الرماحة) لتنضم للحملة في النيل. تلاحقت الأحداث بسرعة مزهلة. بعد ثلاثة أسابيع فقط من وصول الإمدادات كانت ذروة الحرب قد انتهت، وبعد خمسة أسابيع كانت اللوآت البريطانية راجعة في طريق العودة للوطن. لم يكن هناك أي تأخير وحتى قبل وصول اللواء الثاني بأكمله، قد تم إرسال بعض كتائبه إلى ودحامد، نقطة التمرکز الجديدة.

تبعد ود حامد أميال قليلة من شلال السبلوقة، وعلى بعد ٥٨ ميلا فقط من أم دورمان. تأكد أن اللحظة الحاسمة خلال السنوات الثلاث الماضية قد حانت تم استعمال البواخر لترحيل الموظفين، مشاة الفرقة البريطانية، المدفعية والمخازن، مع استعمال صنادل، إلى الجنوب، جنوب المعسكر الكبير في عطبرة، اللوآت المصرية سارت إلى ودحامد عن طريق البر. أرسلت خيول البطاريات وحيوانات النقل للقوة البريطانية (عددها حوالي ١٤٠٠ راس)، مساعدو الضباط، بعض الأبقار، وأغلب المراسلين للصحف تم إرسالهم على الشاطيء الشمالي للنهر، تحت حماية فرقة اللانسر ٢١ (الرماحة)، سرّيتان ومراقبين و٢ مدافع مكسيم.

بقيت السرايا الـ ١٣ ثلاثة أيام في ودحامد كانت فرصة طيبة بعد عناء السفر لالتقاط الانفاس وزيارات الفرقة الأخرى، الأمر الشائع في مثل تلك الظروف ثم كتابة

\* قاد المؤلف قوة من هذه الفرقة أثناء الزحف النهائي على أم دورمان، ومن هذا المواقع يسجل الأحداث في الأجزاء اللاحقة كشاهد عيان.

الجوابات. هذه الأخيرة ، كتابة الجوابات مهمة لأنه أصبح وأضحى الآن ، سوف لا تكسون هناك اتصالات أورسائل مع مصر أو أوروبا الى ما بعد الانتهاء من المعركة الفاصلة .

الترحيب بهذه الفترة أيضا بسبب آخر ، أن للعسكر الجديد يستحق التسامح . أقيم المعسكر بشكل طولى ، على طول شاطئ النيل على مسافة ميلين ، يؤمن النيل دفاعاته من الشرق . الناحية الغربية والجنوبية تملؤها أشجار الشوك ، قطع بعضها لعمل الزريعة ، أما الواجهة الشمالية يؤمنها بحرى خور عميق يساعد النهر فى تصريف المياه من شاطئ هذا الخور تستطيع أن تشاهد المعسكر كله . فى أقصى النهاية الجنوبية تشاهد الخيام البيضاء ، معسكر الفرقة البريطانية ، ثم تشاهد بعد ذلك اكواخ القش وبعض خيام من البطاطين مقرر الفرقة المصرية والسودانية ، ثم خيمة السردار البيضاء الكبيرة يرفرف عليها العلم المصرى بلونه الأحمر فى نقطة مميزة ، وعلى اليمين حيث أشجار النخيل ، عسكر سلاح الفرسان المصرى . امتلأ شاطئ النيل على طول بهابة من الصواري ، مجموعات من المراكب الشراعية ، الصنادل والبواخر رأسية قريبة من بعضها إن المظهر العام ومداخل البواخر توحى للناظر بأنه أمام ميناء مدينة أهلة بالسكان كأي مدينة فى بلد متقدم ومتحضر . تتعاضد الصورة والرؤى عندما يسبق العقل النظر الى ما بعد التلال المنخفضة وشلال السبلوقة ، الى حيث خرابات الخرطوم ومدينة أم درمان . كان من المعروف أن الخليفة قد حشد ٥٠ ألف مقاتل فى آخر منطقة حصينة لديه . يمكننا أن نتخيل مدى الإثارة والشائعات التى تملأ العاصمة المهتدة بالقذف . أعلن الخليفة أنه سوف يحطم الغازين الوقحاء ، قد ظهر له المهدي فى المنام وطمأنه أن جيوشا من الملائكة سوف تحارب معه ومع جيوش الإسلام . سوف يفنى أعداء الله وسوف تنتشر عظامهم البيضاء على السهل العريض . كان التفاخر بلا حدود وكم قسما قد أعلن له أملة الكفار الكلاب عند وصولهم للمدينة امتلأت شوارع المدينة بحافل الرجال وأصواتهم العالية ، كل التحضيرات تجري بكل التحدى ، وبالرغم من ذلك كانت سحابة الخوف السوداء عالقة فوق الهواء . قريبا قريبا يرنو هذا الجيش كثعبان ضخم ، يتحرك ببطء ولكنه دائما متقدم . كان قبل أسبوع على مسافة ٦٠ ميلا الآن على بعد ٥٠ ميلا ، فى الأسبوع القادم ستكون المسافة بالكاد عشرين ميلا سوف تفصل القوات عن بعضها ومهما كان من أمر فإن النهاية المحتومة لا بد قادمة .

كان الطريق للمعسكر القادم طويلا ، فإن المسافة لجزيرة الرويان التي اختيرت للمعسكر تبعد سبعة أميال بالطريق المباشر إلا أنه كان من الضروري تفادي المرتفعات حول شلال السبلوقة ، بالاتجاه نحو الصحراء والسير ثمانية أميال قبل الرجوع يمينا نحو النهر مرة أخرى . رافقت المشاه بعض الجمال تحمل المياه على قناطينر حديد صغيرة ، واستطاعت أن تقطع الرحلة في نصف الطريق وتواصل سيرها اليوم التالي .

القوة الراكبة التي بقيت في ودحامد حتى غادرت كل القوة ، أمرت بالتحرك يوم ٢٧ أغسطس حتى تلحق بباقي الجيش .

ودحامد اختفت الآن إلا اسما ، تم ترحيل المخازن والمواصلات بالبر والنهر الى جنوب السبلوقة حيث أقيمت قاعدة حول جزيرة الرويان أنهت كل الاتصالات مع معسكر عطبرة والقاهرة وحملت القوة معها بالبواخر كميات من المؤن تكفى الى ما بعد معركة أم درمان على أن ترجع اللواتي البريطانية فور انتهاء المعارك . قدر أن العملية لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع ، صرف للجيش تعيينات يوم ٢٧ تكفى لواحد وعشرين يوما ، حملت هي ما يكفى ليومين ، تعيينات ٥ أيام على صنادل الفرقة ، وتعيينات ١٤ يوما على بواخر المواصلات للجيش وما تبقى من مؤن تم تخزينه في الرويان وأقيمت فيها مستشفى ميدان . كانت قوة الحملة التي تم حشدتها وتسليحها وإعدادها للمعركة الفاصلة لحرب النهر تتكون من الأسلحة الآتية :

القائد العام : السردار

## القوة البريطانية – تحت قيادة كاتاكري

### اللواء الأول

البرجدار العام : وو شهبوب :

الكتيبة الأولى فرقة وروكشير الملكية.

الكتيبة الأولى فرقة لينكون شير.

الكتيبة الأولى سى فورس ها يلندرز.

الكتيبة الأولى فرقة كامرون ها يلندرز.

### القوة المصرية تحت قيادة الجنرال هنتر

#### اللواء الأول

العقيد ماكدونالد

الثانية المصرية

الرابعة السودانية.

الخامسة السودانية.

السادسة السودانية .

#### اللواء الثانى

العقيد ماكسويل

الثامنة المصرية

الثانية عشرة السودانية.

الثالثة عشرة السودانية.

الرابعة عشرة السودانية .

#### اللواء الثالث

العقيد لويس

الثالثة المصرية

الرابعة المصرية.

السابعة المصرية.

الخامس عشر المصرية .

#### اللواء الرابع

العقيد كولينسون

المصرية الاولى

نصف المصرية الخامسة.

المصرية السابعة عشر.

المصرية الثامنة عشر.

### اللواء الثانى

البرجرار العام : ليتلتون .

الكتيبة الأولى فرقة حرس الجرينا دير.

الكتيبة الأولى فرقة بيادة نورث همبر لاند.

الكتيبة الثانية فرقة بيادة لانكشير .

الكتيبة الثانية فرقة لواء البنادق.

### القوة الراكبة

٢١ لانسر (الرماحة) .

العقيد مارتى .

٤ سرايا .

قوة المهجانة .

رائد تودوى .

٨ فرق .

الفرسان المصرية .

عقيد برورود .

٩ سرايا .

### سلاح المدفعية

تحت قيادة العقيد لونج

بريطانية :-

٣٢ بطارية ميدان مع مدفعين ، ٤ رطلا - ٨ مدافع.

٣٧ بطارية ميدان ٥ بوصة هاوتزرز - ٦ مدافع .

مصرية :-

### بطارية الخيول ارأكروب -

٦ مدافع .

الفرقة الأولى بطارية ميدان مكسيم نوردن في لير - ٦ مدافع .

الفرقة الثانية بطارية ميدان أى .أ ٦ مدافع .

الفرقة الثالثة بطارية ميدان أى .أ ٦ مدافع .

الفرقة الرابعة بطارية ميدان أى .أ ٦ مدافع .

### رشاشات (مشين قن )

بريطانية :-

الفصيلة ١٦ الفرقة الشرقية ارأ ٦ مدافع مكسيم .

الفصيلة الأيرلندية الملكية بيادة ٤ مدافع مكسيم .

المصرية :-

٢ مدافع مكسيم لكل فرقة من الفرق الخمس ١٠ مدافع مكسيم .

### سلاح المهندسين

فصيلة من فرقة المهندسين الملكية

### الأسطول النهري

بقيادة قومندان كيبل (القبطان )

### بواخر مسلحة موديل ١٨٩٨ - ٣

-سلطان تحمل كل واحدة :

-ميليك ٢ مدفع نوردن في لير

-شيخ ١ مدفع سريع الطلقات ١٢ رطلا

١ مدفع هاوتزر

٤ مدافع مكسيم

### بواخر برولاب مسلحة موديل ١٨٩٨ - ٣

تحمل كل باخرة :-

ناصر ١ مدفع سريع الطلقات ١٢ رطلا



-ظاهر ٢مدفع ٦ أرطال

٤مدافع مكسيم .

بواخر قديمة رولاب مسلحة ٤

-التامى تحمل كل باخرة

\*-الحفير ١ مدفع ١٢ رطلا

-ابو كيلي . ٢مدفع مكسيم نوردن فى لـر

٥بواخر مواصلات

دال-عكاشة-الطاهرة-عكمة-كيبـار

القوة الكاملة للحملة تكونت من ٨٢٠٠ بريطانى ١٧٦٠٠ جندى جيش مصرى مع ٤٤مدفعا ٢٠ مدفع مكسيم فى البر ، مع ٣٥٢٤ حمل ٢٢٩ حمارا بالإضافة للمرافقين وحيواناتهم ، عمالة خدمات ... الخ.

بينما يزحف الجيش غرب النيل ، الجهة التى تقع عندها أم درمان ، تكونت قوة من الأعراب الأصـدقاء كقوة غير نظامية وتحركت شرق النيل لتظهر أى قوة دراويش تكون موجودة ، وهكذا فإن بقايا القوة التى حطمتها القوات المصرية ، تساق الآن لمحاربة الدولة المنهارة .

متحفزون للسلب والنهب وحريصون ليكونوا مع الجانب الكسبان ؛ هرع شيوخ وأمرأء من قبائل كثيرة مع ما تركته لهم الحروب الطويلة ، الى ودحامد . فى يوم ٢٦ أغسطس تكنت القوة غير النظامية من ٢٥٠٠ رجل أغلبهم من قبيلة الجعليين الذين نجحوا ، وأفراد من قبائل البشارين ، هددندوه من سواكن الشكرية مربي الجمال من البطاحين الذين عانوا كثيرا على أيدي الخليفة ، من الشايقيه حلفاء غردون المتعبين ، وبعض من قبيلة الجحـيـلاب بقيادة ابن الزبير باشا الشهير . أعطيت قيادة هذه القوة الملونة الى الرائد ستىوارت ورتلى على أن يرافقه الملازم وود كاركان حرب . كان وجود هؤلاء الضباط وسط هذه الزمرة من الأعراب غير الموثوق فيهم نذرا للخطر .

عندما كانت قوات المشاة تسير حول مرتفعات السبلوقة نزلت البواخر وعدت مضيق شلال السبلوقة ساحبة خلفها كل الصنادل والمراكب الشراعية . كانت نهاية المنطقة الشمالية .

\*الباحرة "التيب" التى تحطمت عند الشلال الرابع فى عام ١٨٩٧ ، قد تم اصلاحها واعادتها للملاحة تحت اسم "الحفـير" لتغير الحظ.

للشلال محروسة بخمس طوابي التي تقف الآن خالية بعد أن انسحب الدراويش منها. كلنت الطابيات قوية ووضعت باتقان على الجانب الغربي وواحدة على الجانب الشرقي كل طابية بها ثلاث فتحات للمدافع وكانت وكان مقدرا أن تكون مانعا رهيبا للدفاع عن الممر الضيق إذ تم استخدامها .

دخلت البواخر واحدة خلف الأخرى الى المضيق . النيل تحته لمسافة ميل يضيق لمسافة ٢٠٠ ياردة حيث تزداد سرعة المياه ، هنا تظهر حجارة سوداء طويلة كأنها حجارة من البازلت ترتفع وتنخفض على سطح النهر تمر المياه الهادرة بصوت مسموع وفي شكل زبد أبيض كلما ارتطمت مع الحجارة القريبة من السطح . تنمو بعض الأشجار والأعشاب من عند المرتفع الى حافة الشلال وتكون منظرا رائعا بالمقارنة مع لون المياه البني والأحجار السوداء . إنه ممر رهيب ، بعض حملة البنادق على المرتفع وبعض المدافع في الطابيات ويقفل الباب تماما .

تحركت القوات الراكبة فجر يوم ٢٧ ضاربة في الصحراء من ودحامد وهي تعبر التلال الحجرية بجانب فرقة اللانسر ٢١ وتسع سرايا للخيالة المصرية من سلاح الفرسان ضم الطابور ٨٠٠ من فرقة الهجانة القوية ، وبطارية مدفعية الخيول .

كان منظرا فريدا أن ترى الخيول والجمال وهي تركض في الرمال بنفس تشكياتها ، من فرق وسرايا تاركة عاصفة من الغبار خلفها متجهة ناحية الشمال .

كانت القوات السودانية التي كانت أول من وصل لموقع المعسكر والقاعدة الجديدة في جزيرة الرويان قد انتهت من بناء الزريبة ونظافة الأرض ، تم إنشاء مخازن للمؤن والعتاد وأيضا مستشفى ميدان من الخيام البيضاء ووراءها غابة من صواري المراكب وشراغاتها . كانت الصنادل والمراكب الحاملة للإمدادات في انتظار القوات التي كان عليها أن تستريح وتجدها ملجأ من حرارة الشمس الحارقة . تلال السبلوقة السوداء التي شيد المعسكر حولها وتحتها كانت ترقد خلفنا . جنوب هذه المنطقة يقع سهل منبسط مليء بالشجيرات الصغيرة تظهر من حين لآخر بعض مرتفعات حجرية تقطع رقابة السهل .

النيل الخالد يجرى مسرعا بجانب الخيام والمخازن ويختفى بطريقة غامضة داخل الشلال،  
ويظهر على الجانب الآخر جبل عظيم ، جبل الرويان ، الذى يقال يمكن أن تشاهد الخرطوم  
من أعلى قمة فيه .

ترك الجيش كله معسكر الرويان يوم ٢٨ أغسطس فى حوالى الرابعة عصرا وسار حتى  
وصل وادى العبد على مسافة ٦ أميال جنوبا، وصلنا الآن الى منطقة مفتوحة يمكن أن يتحول  
فيها الجيش الى تشكيل قتال، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يمكن للمرء مشاهدة كل  
وحدات الجيش مجتمعة، المشاة ، الفرسان والمدفعية كلها زاحفة .

فى الهواء الطلق تبدأ تفاصيل الصورة مذهشة كانت هناك ٦ لواءات مكونة من ٢٤  
كتيبة من المشاة ، ومع ذلك كانت كل كتيبة ظاهرة للعيان تتكون من أحجام صغيرة.  
أرسل لواء من الفرقة السودانية الى الموقع للحراسة ضد أى تهديد للقوات حتى يتم بناء  
الزريبة . استطاع أحد أفراد الدراوينش أن يتخطى هؤلاء ومع مغيب الشمس وصل حتى  
مكان فرقة وروكشير ورمى عليهم حربته فى تحد سافر والعجيب فى الأمر أن عنصر المفاجأة  
ألجم الجميع واستطاع ذلك الفارس المغوار أن يفلت بعملته وفر بسلام .

يوم ٢٩ بقيت القوات واقفة فى موقع قبالة أم طريف فرقة الفرسان المصرية هى التى  
ذهبت للاستطلاع والاستكشاف ، عاد العقيد برودود بعد أن كشفوا المنطقة لمسافة ٨-٩  
أميال ولم يجد أى مكان مناسب للمعسكر .

أثناء ذلك النهار جاءت الأخبار بكارثتين على النيل واحدة تخصنا والأخرى تخص  
العدو . فى يوم ٢٨ أبحرت الباخرة المسلحة الظافر من القاعدة فى عطبرة فى طريقها لتعديده  
شلال السبلوقة وبلوغ ودحامد . فجأة دخلتها المياه وبالرغم من كل المحاولات لإنقاذها  
انقلبت على رأسها وغرقت فى المياه العميقة قرب المتمة . الرجال الذين كانوا على ظهرها  
ومعهم القومندان كييل قائد الأسطول النهري استطاعوا بعد جهد الوصول الى الشاطئ  
حيث وجدوا بعد حين يعانون من البرد والجوع . تماما عشية الهجوم على دنقلا ، سوء  
الطالع لازمها هذه المرة أيضا . وصلت هذه الأخبار الى السردار تأسف لفقد باخرة قوية  
ولكنه كان قد أعد فى حسبانته مجالا لخسارة وفى النهاية تقبل سوء الطالع بروح عالية ، أيام  
المعاناة الحربية قد ولت ، فهو يعرف أن الحادث لن يؤثر على القوة الكافية التى لديه .

الكارثة الأخرى جاء بها الجواسيس الذين يندسون وسط قوات الخليفة وحتى وهى تتقدم . لم يقنع الخليفة بالاستحكامات التى بناها على الشاطئء كان يخاف مواجهة البواخر المسلحة ، أرسل الى ضابط سابق فى الجيش المصرى وأحضره من سجنه وأمر بعمل لضم بحرى . جاء بغلايتين قدامى مالأها بالبارود ووضعت أحداها على الباخرة الإسماعيلية لحملها ووضعها فى مكان استراتيجى - كانت الخطة أن يتم ربط مسدس بخيط ، يطلق النار على المفجر عند جذبه انزلت الغلاية من الباخرة . كان الخليفة يناقش "أن البارود سينفجر بمجرد جذب الخيط " وقد كان محقا فيما يقول ، انجذب الخيط بطريق الخطأ أثناء تنزيل الغلاية وانفجر فى الحال ، دمرت الإسماعيلية ومن عليها الى أشلاء .

غير مبال بفقد الأرواح ، أمر الخليفة بإتزال الغلاية الأخرى ، بعد أن مات الضابط المصرى الخبير ، ترك الأمر لأحد الأمراء الذى ارتفع لمستوى المسئولية ، أخذ حذره بأن سكب الماء فى البارود ليرطبه ، نجح فى إنزالها على النيل ، الخليفة الذى يجهل أن البارود الآن عدم الفاعلية أثنى كثيرا على لجاح الأمير وأمر له بالهدايا .

فى وادى العبد ، مضى اليوم والجنود تتبادل تلك القصص وجاء الليل فظهرت العنكب والخنافس ولدغت العقارب بعض الرجال ، لدغتها مؤلمة لكنها ليست خطيرة..

عند الفجر هطلت الأمطار غزيرة بللت الكل حتى أشرقت الشمس من خلف التلال وفرقت السحاب الى كتل كأنها شعله بلون القشطة ثم ركبنا وتحركنا. فى هذا اليوم تحركت القوات وهى فى حالة استعداد للقتال وأرسلت فرق سلاح الفرسان الى الأمام كستارة جبارة تمتد من عند البواخر فى النيل حتى مشارف الهجانة عند الصحراء . بعد قليل من تحركنا ظهر أمامنا مرتفع جبلى - تلال مرج ، تحركت فرقة الأنسر ٢١ واحتلت هذه المنطقة وظهرت كل مساحة البلد أمامنا ، كنا على بعد ٢١ ميلا من الخرطوم ظهرت لنا منها على الأقل عشرة أميال ، ولكن لا أثر لأى أعداء ، هل هربوا ؟ ، ليست هناك مواجهة أو مقاومة ، هل سنجد أم درمان منهجورة ومستسلمة ؟ كانت كل هذه الأسئلة تدور فى عقل كل واحد وتمت الإجابة عنها بشكل إيجابى. كان العقيد مارتز قد بلغ السردار أن كل المنطقة خالية تماما من أى دراويش . بعد حين صدرت الأوامر أن تبقى سريقا واحدة للمراقبة

وتعود البقية الى المعسكر . أرسلنا مجموعة لمسافة ميل وانتظرنا ننظر ونراقب من التل ، مر الوقت ببطء وكانت الشمس حامية فجأة ظهر أن أحد أفراد

المجموعة يرسل إشارة بشكل قوى ، كانت إشارة وأضحة ، الضابط مع المجموعة شاهد الدراويش أمامة ، شاهدنا بحلال نظاراتنا وجدنا فعلا أن هناك أحجاما صغيرة من اللون الأسمر تتحرك نحو موقع فرقة الفرسان المصرية التى ترابط فى أقصى الغرب ، كان تعدادهم حوالى ٧٠ فارسا لم نستطع أن نرفع نظرننا عنهم ، هؤلاء القوم الذين جئنا إن أمكن أن نهلكهم . وصلت دورية الدراويش هذه الى يمين فرقتنا ويظهر أنهم كانوا أقرب مما يتصورن. فتح الملازم كوتلى نيران سلاح الكاربيلين عليهم فاستداروا عائدين دون أن يركضوا .

عند عودتنا وجدنا معسكرا يختلف كثيرا عن ذلك الذى تركناه فى الصباح . بدلا من شاطئ النيل أقيم هذا وسط شجيرات الشوك تم تنظيف المكان وشيدت زريبة كبيرة بيضاوية الشكل ضمت داخلها كل الألوية الستة، مع الفرسان والمدفعية وخطوط المواصلات. فى الساعات الأولى لوقت السحر فى اليوم التالى بدأ الجيش الطوابير على ضوء النجوم ومع طلوع الخيوط الأولى للفجر ، أرسلت فرقة الفرسان الى المقدمة . مؤمنة تماما خلف ستارة الفرسان والهجانة تحركت قوات المشاة فى تشكيلاتها العادية . بعد يوم ٢٧ الفرقة تسير كوحدات متجانسة، بعد يوم ٣٠ كان السير على شكل قوات مقاتلة . الفرقة البريطانية على الشمال والجيش المصرى على اليمين . كل اللواءات سارت فى اصطفايف المعركة الكتائب على الأجنحة شكلت قواتها على التقدم أو أرباع الكتائب البريطانية الأخرى جعلت تشكيلاتها لست فرق فى المقدمة اصطفايف تقدم رباعى وفرقتان للمساندة . سارت اللواءات المصرية عادة بثلاث كتائب فى المقدمة وكتيبة فى الاحتياطى ومعها أربع فرق فى المقدمة واثنان للمساندة .

كان منظر الجيش المتحرك ، جيش النيل العظيم وهو يتقدم لتحقيق أهدافه كان المنظر فى الصباح الباكر مع الهواء الصافى رائعا ومهييا . صفوف طويلة من كتل بشرية سمراء اللون مشاة ومدفعية وفى الأطراف جموع خيول طويلة من الفرسان وجمال الهجانة وهى تنهب الصحراء ، رجال بلون الشكولاتة على جمال بنيه اللون تنتشر فى الصحراء فى الجانب الأيمن،

والبواخر البيضاء وهي تمخر عباب الماء في صمت تام مدافعها ترصد الشواطئ وفي المؤخرة خطوط المواصلات تظهر وسط السراب ، وتظهر المناظر المعظمة مواقع العدو على الأفق البعيد، ساعة بساعة ويوما بعد يوم استمر التقدم عندما وصلنا الى مقر المعسكر الجديد، كان لابد من تشييد زريبة وقد استغرق هذا العمل الشاق كل فترة الظهيرة. كلفت قوات المشاة المتعبة بالقيام بالحراسة وظلت في مرور مستمر تحرس الزريبة وكل من بداخلها .

المعسكر التالي كان في أرض منبسطة تتيح ضرب النيران على كل الاتجاهات. نام كل واحد نوما قلقا مع شعور قوى بالترقب وعلى كل حال سوف ينجلي الموقف في اليوم التالي . ستسير قوة سلاح الفرسان الى جبال كررى إن لم تجدد قوات الدراويش تستمر حتى جدران أم درمان . إذا كان للدراويش جيش ، إذ كان هناك احتمال لمعركة سوف نعلم علم اليقين بعد ساعات قليلة . كانت البرقيات التي أرسلت في المساء هي آخر البرقيات التي وصلت الى إنجلترا . هطلت أمطار غزيرة أثناء الليل وغسلت كل البلاد بالمياه ، كان خط التلغراف قد وضع في الأرض نسبة لقلة الوقت لعمل عمدان له. الرمال المسبلة تفقد خاصيتها العازلة فقد توقفت كل الاتصالات وأصبح كل هؤلاء في الوطن من لهم أزواج ، أبناء ، أشقاء ، أو أصدقاء يعملون ضمن الحملة ، في حالة من عدم الروية تماما كتلك التي نمنا ونحن عليها وأكثر إيلا ما .

أصاب التعب الجميع من جراء هذا اليوم الطويل . كانت طيلة فترة الأربعة عشر يوما منذ أن تحركت الحملة من قاعدة عطبرة هي فترة شاقة ، وعليه كان ضباط الأنسر سعداء بتناول وجبة سريعة ونسوا هذا الإرهاق ، هذه الأرض الصلبة وتوقع الأحلام المزعجة أثناء النوم العميق . استمرت قوات المشاة في حراسة المعسكر كل الليل وحتى أثناء النهار . في تمام الساعة الثانية صباحا هطلت أمطار مصحوبة بعاصفة رعدية وبرق أضاء المكان والكتل البشرية النائمة والحيوانات والخيام تهتز من جراء الهواء والريح ، ومن وسط المعسكر كان بالإمكان رؤية أفراد المشاة والحرس الذين استمروا في أداء واجبهم بدون كلل . لم يكن هذا هو كل شيء . على البعد بالقرب من تلال كررى ظهرت قرية تشرق لا تطفى نيرانها الأمطار ، وتختفي فقط عند انتشار ضوء البرق ، كانت الحرب دائرة في الاتجاه الجنوبي .





## الفصل الرابع عشر

### معارك أول سبتمبر

كانت فرق الفرسان البريطانية و المضربة تناور و تركض الى الأمام بانتظام، سرعان ما اكتشفت مراكز للعدو تفصلها عنهم ٨ أميال . اعتادت فرقة الفرسان اللانسر ٢١ أن تكون على الناحية الشمالية بالقرب من النهر ، بينما السرايا الخديوية تشكل منحني على شكل نصف القمر (هلال) ميلها الى الخلف لكي تؤمن الجانب الأيمن وتساندها فرق المهجانة ومدفعية الخيالة ، شاهدت البواخر تتحرك، الأسطول النهري المسلح ، بدأت الملاحة في النيل ، البواخر البيضاء واحدة من خلف الأخرى تبحر بكل هدوء ، منظرها رائع . بدأت تظهر على فترات ، المسافة حوالي ميل أو ميلين بين الباخرة والأخرى التي خلفها ، الآن احتفظت المسافة المعتادة و هي ٣٠٠ ياردة . كانت الأوامر لسلاح الفرسان استطلاع مواقع العدو والأوامر للأسطول أن يدمر أم درمان .

بمجرد أن تركت سرايا اللانسر ٢١ كتف تلأل كرري ، شاهدنا على البعد قبة بنية اللون ترتفع فوق الأفق ، إنها قبة المهدي تتوسط أحياء مدينة أم درمان . تمكنا من المنطقة المرتفعة أن نشاهد بالنظارات للعظمة بيوت الطين ، صفوف خلف الأخرى ، تشكل كتلا بنية على سطح الأرض ، على الشمال بان النهر بلونه الرمادي الحديدي مع ضوء الصباح يرتفع الى فرعين وعلى اللسان الذي يفصل بينهما ظهر مبني أبيض خلف الأشجار ، كانت أمامنا بقايا الخرطوم و حطامها وملتقى مقرن النيلين الأزرق و الأبيض .

كان هناك تل أسود كبير يحتل المكان الذي يفصل تلأل كرري وأم درمان ، يمتد منه مرتفع أخفى الأرض التي تقع خلفه . باقي المنطقة عبارة عن سهل رملي بلا حدود تتخلله بعض أكوام الحجارة والأعشاب وفي منطقة أخرى تنمو الشجيرات الصغيرة . على شواطئ النهر الذي يحتضن الصورة كالبرواز ظهرت قرية ، بيوت من الطين تقف شمال الشاطئ ، كانت وإن لم نعلم وقتها ، هي ميدان أم درمان ، كانت

مهجورة ، لم نشاهد أثر المخلوق. الآن ظل البعض يردد مرة أخرى سوف لن يكون هناك قتال ، ها نحن أمام جدران أم درمان ولا أثر للعدو في طريقنا. بدت السرايا الأربع كنقاط صغيرة وسط السهل الفسيح ، تحركت للأمام ، وفي نفس الوقت تحركت فرقة الفرسان المصرية وفرقة الهجانة ودخلت منطقة السهل من ناحية الغرب ، تركض على بعد عدة أميال .

كنا على بعد ثلاثة أميال لآخر المرتفع الذي يفصل بيننا و المدينة ، إذا كان هناك جيش للدراويش ، إذا كانت هناك معركة وإذا تمسك الخليفة برباط الجأش واعتزازه بقبول تحكيم المعركة والحرب ، يجب أن يظهر الكثير من هذا المرتفع. نظرنا ، في أول الأمر لم نر شيئا سوى بيوت أم درمان و السهل الرملي الممتد من عند النهر حتى التلال البعيدة و فجأة ظهر صف طويل على بعد أربعة أميال من موقعنا صف أسود تتوسطه نقاط بيضاء ، إنه العدو. بدا لنا أن هناك حوالي ٣٠٠٠ رجل داخل زريبة من الشوك . قال بعض الضباط شيئا أحسن من لا شيء . لا يمكن أن نحتاج لوصف حالة الاضطراب النفسي الذي كنا نعانيه ونحن نتحرك نحو مواقع الدراويش. ننظر للأمر من زاوية مرة ومن زاوية أخرى مرات أخرى وفي كل الحالات نزداد اقترابا . تقدمت فرق الفرسان وتوقفت على السهل على بعد ثلاثة أميال ، ثلاثة أحناش عظيمة من الرجال . ثعبان فاتح اللون هي اللانسر ٢١ ، آخر أطول أسود اللون هي الفرسان المصرية وآخر مرقش الألوان هي فرقة الهجانة ومدفعية الخيالة. من هذه المسافة كانت الرؤية واضحة شاهدا بعض فرسان العدو على خيولها أمام الصف الأسود الطويل الذي يغطي سطح المنحدر ، أتجه بعض هؤلاء بلا حذر للنظر على السرايا ، لم يكن لهم علم بمدى رشاش الكاربين لي ما تفورد الطويلة . ترجلت مجموعة وعندما اقترب العدو لمسافة ٨٠٠ ياردة ، فتحت المجموعة النار عليهم أصيب اثنان وسقطا على الأرض ، ترجل زملاؤهما فحصرهما ، حملوا واحدا وتركوا الآخر وركبوا عاتدين من دون أن يعملوا أي حساب للرصا ص حتى بالإسراع في الخطوة .

مرت هذه الحادثة و مر معها الوقت ،إنما الآن الساعة الحادية عشرة. فجأة بدأ الصف الأسود الذي كنا نظنه زربية في التحرك كان يتكون من الرجال و ليس من الشجيرات ،ظهرت خلف هذا الصف كتل من البشر يمشون بها سطح الأرض، وبينما نحن مبهورون من هذا المشهد امتلأ كل السهل بأسراب من المتوحشين واكتست الأرض بلون السواد . غطت هذه الجموع مسافة أربعة أميال من طرف لطرف ،بدأت كخمس أوط بدأ هذا الجيش المهول في التحرك وبسرعة حتى بدا كأن التل قد بدأ يتحرك ،وسط هذه الكتل يتحرك فرسانهم بشكل مستمر ،أمامهم بعض الدوريات تظهر في السهل كنقاط بيضاء صغيرة فوقهم تلوح مئات الأعلام والشمس ترسل أشعتها على آلاف الخراب للمعادية ،فتحولها الى سحابة لامعة .

أصبح من المعلوم الآن أن الخليفة قد استطاع حشد جيش أكثر من ٦٠ ألف مقاتل في أم درمان . قد تذكر أن كل الانتصارات التي حققها الجيش المصري كان مهاجما فيها بينما دافع الدراويش في كل الهزائم الأخيرة التي حلت بهم . لذلك قرر ألا يواجه الجيش في السبلوقة أو أثناء زحفه لأم درمان . سوف يسوى الأمر كله في معركة فاصلة عند تلال كرري . لقد تحققت نبوءة المهدي ،جيش الدراويش كان مهولا ، عندما يصل الأتراك سوف يلقون في النهر .

و بناء عليه كان الخليفة يتابع مراقبة تقدم جيش الحملة من ودحامد بمجموعة فرسان أقوياء تبلغ ٢٠٠ فارس . في يوم ٣٠ أغسطس أخطر بأن الجيش يقترب، . في يوم ٣١ جمع كل قواته وقوات الحرس الخاص ما عدا الأفراد الذين يرابطون في الطايات على شاطئ النهر مع طابية المدفعية ، جمعهم في ميدان أم درمان الخاص بالاستعراضات وألقى خطبة رنانة على قادتهم و أمضى الليلة وسط معسكر قواته . في اليوم التالي أجبر كل الرجال البالغين بالتوجه نحو الجبهة ، لم يبق إلا مدفعية وحامية النهر بقيت في المدينة بالرغم من الحزم و تشديد الرقابة هرب حوالي ٦ آلاف رجل في ليلة ٣١ وأول سبتمبر ،جعل هذا مع تعداد القوة في الحامية أن ينخفض عدد القوات التي اشتركت في القتال الى ٥٢ ألف مقاتل .

عدد الذين تقدموا نحو فرق الفرسان البريطانية و المصرية حوالى ٤٠٠٠  
أشداء كان تشكيلهم فى طابور منتظم ومحدد ،يواجه الشمال الشرقى بعرض ٤  
أميال من ركن لركن ،وقفت فصيلة قوية من الملازمين فى الوسط .على ود حلو  
وأعلامه الخضراء كون امتدادا من ناحية الشمال يتبعه ٥٠٠٠ محارب أغلبهم من  
قبائل دغيم وكنانة ،أصبح يقترب من الفرسان المصرية. فى الوسط كان الجيش  
الأساسى فى تشكيلات رباعية تحت قيادة عثمان شيخ الدين وعثمان أزرق ،قوته  
١٢ ألف بندقية و ١٣ ألف حراية من القوات السوداء يتوسطها علم كبير لونه  
أخضر غامق ، اختاره شيخ الدين ليغىظ على ودحلو الذى كان يغار من لون علمه  
الأخضر الفاتح . خلفهم سار الخليفة خلف قوات الحرس حوالى ٢٠٠٠ رجل  
أشداء .. خلف كل هؤلاء ركب يعقوب وعلمه الأسود مع ١٣ ألف رجل  
مسلحين بالسيوف والخرايا مكونا مع القوة التى امتدت فى المقدمة قوات تأمين.  
تكونت الجبهة اليمنى من لواء الخليفة شريف و علمه الأحمر وقوته ٢٠٠٠ رجل  
من الدناقله ، عثمان دقنه ،وهو لا يحتاج لعلم ومعه ١٧٠٠ رجل من قبيلة  
الهندوة، كان يؤمن أقصى اليمين و الجناح الذى يقترب من أم درمان كان هذا  
هو الجيش العظيم الذى زحف سريعا نحو السرايا ،وهذه فرقة الاستطلاع كألها  
تريد أن تتحقق من أن الذى تراه هو حقيقة بعد أن وقفت برهة على المرتفع  
الرملى، تركت مجموعة لعمل مناورة أمامية محدودة .

المشهد بالنسبة للفرسان المصرية كان يختلف ،كانت تعمل بجانب اللانسر ٢١  
عند النهر وصلت سراياها المتقدمة الى أقصى موقع غرب تلال كرري حوالى  
الساعة السابعة، كانت قبة المهدي ظاهرة للعيان من هذا الموقع لم يمنع تل سبرغام  
الرؤية فتمكنت الفرقة البريطانية من اكتشاف عن طريق المنظار المعظم ، طوابير  
طويلة من الدهم البنية و هي تسير نحو الغرب على طول الصحراء التى تمتد من أم  
درمان . أثبت المنظار المعظم فائدته فى الاستطلاع ،اتضح أن هذه الدهم ما هي إلا  
قوات ومجموعات من الخيول وهي ترعى ،بعض الجمال ومجموعة من الخيام البيضاء  
ناحية الجنوب ،ولم يكن واضحا إن كان هذا تفهقر فقر العبيد بيروود أن يقترب

أكثر ليتحقق أخذ كل القوة تحت إمرته وتحرك ناحية الجنوب الغربي حيث يوجد تل مرتفع هو آخر شئ عال فوق السهل على مسافة أربعة أميال من نهاية تلال كرري. تحركت الفرقة المصرية ببطء ناحية نقطة المراقبة الجديدة ، في مسيرتها اعترضها خور شمبات ، هو مجرى لتصريف المياه من تلال كرري وأم درمان ويصب في النيل على بعد أربعة أميال من المدينة. الأمطار التي هطلت في الليلة الماضية جعلت الأرض المنخفضة عبارة عن برك مياه وابتلت التربة الرملية ، لم تشكل هذه أي عقبة وفي حوالي الساعة الحادية عشر والنصف بدأت الفرق تنزل من على التل فانفجر المنظر أمامهم فجأة ، على بعد أقل من ثلاثة أميال كان جيش الدراويش يتقدم في شكل طابور استعراض.

حمل الهواء القادم من الجنوب أصوات الطبول وموسيقى القرون التقليدية وأكثر رعباً أصوات همهمة وتكبير الآلاف وهي تصل الضباط المندهبين ، وقفت فرقة اللانسر ٢١ على بعد ثلاثة أميال من نهاية المرتفع الذي يمتد غرباً من سرغام وكذلك الجنود بقوا في السهل على حالة استعداد. تحولت الأنظار فجأة من مشهد تقدم الدراويش الكبير الى انفجار القنابل وأصوات المدافع صوب النهر.

بدأت قطع الأسطول النهري الملاحية داخل المجري النيل واشتبكت مع بطاريات العدو على الشاطئ. طيلة اليوم كنا نشاهد البواخر ونسمع أصوات القنابل ونرى البواخر البيضاء والدخان الأسود يعلو مداخنها وأيضاً الدخان الأبيض المتصاعد من المدافع . الطايبات التي كانت تملك ٥٠ مدفعاً ردت على نيران الأسطول بقوة ولكن قوة الأسطول ودقة التصويب مكنتهم من دك الطايبات وحولتها الى أشلاء ، وتعاملت مدافع المكسيم مع حملة البنادق داخل الأسوار على الشاطئ وأسكتت نيرانها . أما القذائف البعيدة المدى أصابت المنازل والمباني طيرت الغبار الأحمر في الفضاء تاركة الخراب في كل مكان .

بالرغم من تشبث وشجاعة الدراويش إلا أنهم أجبروا على الانسحاب من دشم المدافع الى داخل المدينة، وتم هدم حائط أم درمان العظيم في أكثر من موقع وقتلت أعداداً كبيرة مع الأسف من بين الأهالي.



في هذه الأثناء اشتركت القوات العربية غير النظامية ( الحلفاء ) تحت إمرة الرائد ورتلي في القتال ، كانت تعليمات الضابط لهم أن يعاونوا الأسطول النهري بمهاجمة الطوابي والقرى شرق النيل في الموقعة على شاطئ النهر وبعد أن أسكت مدافع الأسطول الطايات على هذا الشاطئ أمر القائد ورتلي بالهجوم على الطايات والمنازل . وضع الجعليين الوحيدين الذين كانوا محل ثقة في الاحتياطي ووزع البقية حسب إمكاناتهم وميولهم . تقدمت القوة المكونة من ٣٠٠٠ رجل نحو المنازل ، بدأ الدراويش ضرب النار في الحال ، وعندما وصلت القوة لحوالي ٥٠٠ ياردة من العدو ، بدأوا إطلاق رصاص بنادقهم في الهواء ثم مارسوا بعض الرقصات التي تدل على غضبهم وقوتهم رافضين أي تقدم .

أمر الرائد ورتلي الجعليين بالهجوم كونوا اصطفاوا التقدم وهجموا على القرية تدفعهم الرغبة الشديدة في الانتقام ، في خطوة بطيئة يحاصرون منزلا وراء الآخر ويلجئون كل من بداخله من مدافعين حتى الأمير نفسه قد قتل و ٣٥٠ من رجاله . كانت خسائر الجعليين أنفسهم ٦٠ قتيلًا وجريحًا في تلك المعركة .

بعد احتلال القرية والعدو في الشاطئ الشرقي إما قتل أفرادهم أو تبعثروا ، التفتت قطع الأسطول للطوابي في أعلى النهر وأنزلت مدافع الهاونز وفي الساعة الواحدة والنصف بدأت في قذف قبة المهدي . كانت هذه العمليات مثار اهتمامنا ونحن على حافة المرتفع نتظر ونراقب حتى أنها لفتنا عن مراقبة جيش الدراويش . كانت قمة القبة تقف في شموخ وإجلال أعلى من ييوت الطين في المدينة ، أصابتها دانة ليدأيت شديدة الانفجار ارتفع دخان أبيض تلتها أصوات الانفجار لدانة ثانية وثالثة وبدلا من الدخان الأبيض ارتفع دخان أحمر غطي على كل القبة . عندما انجلى الدخان شاهدنا أن قمة القبة قد تحطمت ولم تعد لها قمة أصبحت مسطحة تماما . استمر القذف أحدثت القذائف فتحات في جنبات القبة و أخرى خطمت السقف المستدير وغلقته بالدخان .

كانت في هذا الوقت قوات الدراويش تتقدم وتقترب أكثر مما أجبر فرقة الفرسان المصرية على التقهقر ، وعندما أحس العقيد بر وودود بخرج موقفه ،

تحرّكت ٨ سرايا وخيالة المدفعية أولاً ، خمس فرق هجّانة و مدافع المكسيم ، ثم تبعت السرية التاسعة في المؤخرة لحماية الانسحاب بقيادة الرائد تودوي .  
قنع فرسان الدراويش بإطلاق رصاص بنادقهم، وتم الرد عليها برشاشات الكاربين، كلما سنحت فرصة للترجل. بين الحين و الآخر يظهر فارس عربي جرئ يتقدم نحو السرايا المتقهقرة ولكن رصاصة من الكاربين دائماً تجبره على التوقف استمر تراجع القوة بدون تدخل وتم إعادة عبور خور شمبات مرة أخرى بسلام.

بمجرد أن شاهدنا الفرقة المصرية، والكتل السوداء تحت التلال السوداء ناحية الغرب قد أتمت انسحابها ، انسحبت اللانسرا ٢١ ببطء الى جبل سرغام الذي شاهدنا منه الدراويش لأول مرة ، رجعت الفرقة عن طريق الأجنحة المتتابعة ، تاركين فصيلتين في المؤخرة لتأمين الفرقة من أي هجمات وهي منسحبة وحتى تبعد دوريات العدو لمسافة آمنة . عندما شاهد العدو أن كل فرق الفرسان انسحبت أصبحوا أكثر جرأة وبدأت مجموعات من خمسة أو ستة فرسان تقترب وهي تعدو، وعليه كلما سمحت ظروف الأرض تقف السرايا وتتبادل إطلاق النار معهم، وهكذا سقط أكثر من نصف دسته بين قتيل وجريح ، لم يرتد الآخرون واستمروا في تعريض السرايا للخطر وأصبح لزاماً إرسال مجموعة لطردهم . هجمت مجموعة من اللانسرا ٢١ بكل قوة ناحية الدوريات الفضولية ، كانوا مشتين وعندما لم يستطيعوا التجمع رفضوا المواجهة . استمر جيش الدراويش العظيم في التقدم ضاغطاً على سلاح الفرسان أمامه ، وكان واضحاً أن الخليفة لو استمر في تقدمه فإن الصدام بين القوتين واقع لا محالة قبل حلول الظلام .

كان المشهد غير عادي من على قمة تل سرغام . ابتلع السهل الواسع جحافل جيش الدراويش حتى بدوا كالأقزام مجرد دهم وأحجام صغيرة على سطح الأرض البني. وعندما تتجه شرقاً تجد جيشاً آخر ظاهراً للعيان الآن: القوات البريطانية والقوات المصرية، عدت كل اللوآات الستة تلال كرري، وتقف الآن في شكل هلال ظهورهم على النيل، خطوط المواصلات و الإعدادات ويوت قرية عجيبة تماماً

الفراغ ، لا ترى القوات بعضها البعض رغم أن خمسة أميال فقط تفصل بينها. طوابير العدو كانت بلا شك طويلة وعميقة ولكن إحساس القوة كانت مع الكتائب الصلدة التي تقف صفا مستقيما كأنه رسم بالمسطرة .

دب النشاط في المعسكر ، رصت القوات أسلحتها واستعدت لتناول وجبة الغداء مع توقع بداية المعركة ، وكانت قد شيدت سورا حولها من الشوك. وفي تمام الساعة الثانية أمرت كل القوات أن تقف على أهبة الاستعداد لصد الهجوم الذي توقع الجميع أنه آت من جيش الدراويش .

في الساعة الثانية إلا ربعا وقف جيش الدراويش ، كان تمرينهم جيدا إذ وقف الجميع بأمر واحد . وفجأة أفرغ حملة البنادق ( البنداقه ) رصاص بنادقهم في الهواء مع صيحات بربرية مدوية تنادي بالنصر . ارتفع الدخان الأبيض على طول الصف من أوله لآخره ، ثم بعد هذا استلقي الجنود على الأرض ووضح أن الأمر سوف لن يسوى ذلك اليوم .

بقينا في مواقعنا بين رمال المرتفع حتى جاء المساء ، وكانت فترة الظهيرة قد شهدت عمليات متقطعة بين دورياتنا وأفراد العدو تكبدوا فيها خسائر حوالى ١٢ فرد بين قتيل وجريح ، وخسائرنا جرح عريف واحد وقتل حصان . عندما حل الظلام عدنا الى النهر لنسقي الخيول ، مرورنا بالزريبة وعندما تحدث معنا الضباط البريطانيون والجنود سائلين إذا كان العدو قادما فأجبناهم بكل ثقة الاحتمال الأكبر عند الصباح .

عندما أكملت البواخر المسلحة عملياتها ، أغرقت باخرة للدراويش ، أسكتت بطاريات العدو وهدمت قبة المهدي ، عادت بهدوء للشاطئ قبالة المعسكر حتى توفر لنا الحماية اللازمة إذا تعرضنا للهجوم.

وعند حلول الظلام وجهت البواخر أنوار كشافاتها أمام الزريبة والى التلال البعيدة . ظلت الكشافات تضيئ المساحات الموحشة في الصحراء والتي لم تكن نخالية هذه المرة ، قضى الدراويش الليلة حول المنخفض الشرقي لخور شمبات جلس كل الـ ٥ ألف محارب المخلصين كل حول علم فرقةه وبالقرب من قائده وأميره

ونام الخليفة في وسط المعسكر وحوله قاداته وفجأة أضاءت المكان أنوار كاشفة قوية آتية من شاطئ النهر أضاءت كل المكان ،عيني الشيطان الباردة، وضع الخليفة يده على كتف عثمان أزرق وهمس في أذنيه " عثمان من ذا الذي سيقود الهجوم غدا؟" ما هذا الشيء الغريب ؟ سأل عثمان ،أنهم ينظرون الىنا، هنا دخل الخوف قلوب الجميع، كان للخليفة خيمة بيضاء صغيرة لكنها ظهرت في الضوء فأمر الخليفة بفكها بسرعة ، غطي باقي الأمراء وجوههم بأيديهم حتى لا يعميهم النور الساطع، وتوقع الجميع أن تتبع هذه الأنوار قذائف طويلة المدى ،و فجأة اختفى النور.

. الجندي العامل على العدسات الكاشفة لم يكن يري شيئا غير الأرض المنبسطة ومر على أجساد الجيش النائم وبعض المحاربين كمرور الهواء العاصف على حقول الذرة .



الجيش الإنجليزي المصري لم يشيد معسكرا مربعا كما كان يحدث في الليالي السابقة ، بقي الجنود و الضباط على حالة الاستعداد التي كانوا عليها في الظهيرة عندما كان الهجوم متوقعا . كانت هناك حراسة كل ٥٠ ياردة وعلى بعد كل مائة ياردة دورية على رأسها ضابط ، الرجال من كل الدرجات مدججون بالسلاح ينبطحون على الأرض في حالة تدل على أقصى حالات المعاناة ، والعدو الذي هو ضعف قوة الحملة على بعد خمسة أميال ، تقدم العدو بثقة وتصميم ولكن كان من المستحيل التخيل أنهم سيهجمون في وضع النهار وفي هذا السهل المفتوح . كان هناك تفسيران لتقدمهم ووقوفهم الفجائي . إما أنهم اختاروا موقعا وتوقيتا بحيث لو هاجمهم السردار فسوف يضطر للقتال حتى المساء ، لو بدأت المعركة في الرابعة وظهره للليل ، أما التفسير الثاني هو أن العدو قد قرر أن يهاجم بالليل . كان من غير المتوقع ومن قائد كفؤ أن يهاجم في الظهيرة في ذلك الوقت المتأخر ، وإذا قرر الدراويش الهجوم فالحسائر سوف تكون من نصيبهم . ولكن سيبقي الجيش في حالة دفاعية بحثة ، على أي حال حتى صباح اليوم التالي . فان الخيار الباقي أمام العدو هو الهجوم الليلي .

هنا كان مكن الخطر الذي يهدد الحملة ، ماذا سيكون حالة الجنود أثناء ساعات الليل ؟ بالنهار لم يكن العدو يسبب لهم أي قلق ولكن بالليل وأقصى حدود لنيرانهم ٤٠٠ ياردة سيكون من الصعوبة بمكان ومشكوك فيه القدرة على رد الأعداء والحفاظ على الجبهة متماسكة . كان التفكير مدمرا في احتمال نجاح العدو في اختراق الجبهة عند حلول الظلام ، ظهور حشود فجأة وهي تقتحم للهجوم في أسراب تجلب الشؤم . صوت انفجارات الرصاص والمدفعية على طول خط الزريبة والحشود مازالت تتدفق رغم الرصاص ، والنار المشتعلة وعدم إمكانية السيطرة عليها والضرب الشديد وانحيار جزء من الجبهة والهرج والحيرة والاضطراب المجنون مع مئات المقاتلين شاهرين سيوفهم عاملين طعنا وتقطيعا في كل كائن حي ، من خلال أي فراغ في الزريبة وهيجان الحيوانات واندفاعها الى كل اتجاه تعرقل أي تشكيل أو أي محاولات لإعادة النظام . أو عندما تلتحم اللواعات وتطلق نيرانها على



العدو والحليف على السواء وبوحشية ،الى أن يسلم آلاف بل مئات يهربوا عن طريق الصنادل والبواخر يبلغوا عن الهزيمة والخراب

هذه الصورة لو كانت حقيقية أو غير ذلك لطافت بأبصار وأفكار كل من كان بالمعسكر من القادة في تلك الليلة ومهما كانت أفكارهم فإن خططهم صلبة. مهما قيل من نصائح أو أفكار طرحت، سوف تبقى المسؤولية على أكتاف سير هيربرت كتشنر وحده يتحمل مسئوليته أي قرار صدر .

ربما كان عليه أن يجهز الجيش من كتلة من الرجال و الحيوانات وحولها رجال المشاة كسور سميك أو خندق كبير ويشيد زريبة عالية كما سمح الوقت أو كان عليه أن يملأ المنازل بأفراد للمشاة وعمل استحكامات بينها تكون دائرة آمنة للفرسان والمواصلات والمدافع ،تستغل المساحة الضيقة المتاحة .

ولكنه كون تشكيل الجيش على شكل صف طويل منحني ظهره الى النهر وشغل مساحة هائلة من الأرض وحولها الإمدادات والحيوانات منتشرة في كل السهل بطريقة مترفة . كانت خطوطه عميقة مع فرقتين لكل كتيبة ولواء المصريين (كولبينسون) كاحتياطي، كذلك جهاز أقوى النيران ووقف ينتظر مستعدا ولكنه يتضرع ألا يضطر في دخول مغامرة ليلية .

مرت الليلة بدون إزعاج وبقي معسكر القمير الساطع وجنراته المتحفزون، وجنوده المتعبون ،والى الدمار الرهيبة ، كلها على حافة النهر العظيم ظلت يلفها الصمت ، كأنها تسترجع فرص الغد والفشل الماضي .وبالكاد على بعد أربعة أميال هناك جيش آخر ضعف عددهم وبنفس إصرارهم وبنفس القدر من الشجاعة ينتظر في لطفة الى الصباح لتسوية هذا الصراع الطويل هائبا .

## الفصل الخامس عشر

معركة أم درمان

٢ سبتمبر ١٨٩٨

صدحت أصوات بروجي إلقاء في تمام الساعة الرابعة و النصف صباحا في كل أرجاء المعسكر وعلى طول خط الأسطول النهري على النهر ، بروجي الخيالة، سلاح الفرسان ، وطبول ومزامير الفرق البريطانية انضمت للكورس واستيقظ الجميع على نغمات سعيدة متحدة ، ثم تدرج الصوت في الخفوت وامتطي الخيالة خيولهم ، استعداد المشاة بأسلحتهم وذهب المدفعية لبطارياتهم وطلعت الشمس فوق النيل وظهرت السهول الواسعة والتلال السوداء وقوات الجيش المنتظر . كأن كل التحضيرات قد انتهت و جهزت الأرض ولم يبق إلا الفصل النهائي وعنف اللعبة .

حتى قبل ظهور الضوء تم إرسال بعض السرايا من فرق الفرسان البريطانية والفرق المصرية لتستطلع مواقع العدو وتكشف نواياه . كانت أول هذه السرايا بقيادة النقيب بارنج وقد وصلت الى تل سرغام وانتظرت طلوع الفجر لتستبين مواقع الدراويش . كانت عملية خطيرة إذ ما كان العدو قريبا منهم من غير توقع . عند طلوع الشمس تحركت اللانسـ ٢١ من الزريبة وأرسلت بعض الضباط كدورية . طالما لم يكن هناك هجوم ليلي لعل قوة الدراويش قد رجعت لمواقعها الأصلية أو دخلت المدينة، فما كان لأحد أن يتصور أنهم يمكن أن يهاجموا الزريبة في وضوح النهار بل كان أحد الاحتمالات أن قلوبهم قد وجفت أثناء الليل وأنهم ذابوا في الصحراء . سرعان ما انتفت كل تلك التوقعات بالمشهد الذي كان ظاهرا من سطح المرتفع .

كانت الساعة السادسة إلا الربع ، كان الضوء خافتا لكنه يقوي مع مرور الوقت ، كان العدو يملا السهول ، أعدادهم لم تتغير، ثقتهم لم تهتز، خطوطهم الأمامية بطول خمسة أميال متصلة ببعض مع صفوف أقل كثافة، وكانت على

أجنحة التشكيل والمنطقة الخلفية قوات احتياطية كبيرة بانّت من على المرتفع كخيّط من الطمس الأسود ، متباينة ومختلفة يشع ضوء غريب من أسنة رماحهم . حوالى السادسة إلا عشر دقائق كان واضحاً أن الكتل البشرية بدأت فى التقدم وبحركة سريعة، وكان كل أمير يعدو على فرسه أمام كتائبه وبعض أفراد الدوريات ينتشرون أمام خطوط الجيش ثم بدأوا فى التكبير . كانوا على بعد ميل واحد من التل وتخفيهم عن جيش السردار الأرض المنخفضة ، سمعت القوات على النهر أصوات التكبير وإن كان الصوت خافتاً ولكن الذين يراقبون من عند التل جاءهم الصوت كموجات هدير صاخبة كصخب الريح والموج قبيل العاصفة .

كانت اللواتى البريطانىة المصرية على تشكيل اصطفاف ظهرهم على النيل يؤمن أجنحتهم البواخر المسلحة الراسية على النيل ، أمامهم السهل الرملى المنبسط يبدو من المرتفع سطحاً أملس كالطاولة . كانت جبال كررى على يمين القوة حيث مواقع الفرسان المصرية ككتلة سوداء من البشر والحيوانات . كانت على الى سار فرقة اللانسر ٢١ التى تقدمت منها سرية واحدة ووقفت تراقب المجموعة وهى تحتل قمة تل سرغام والمنطقة المحيطة به أو تمركزت على المرتفع كما فعلنا .

ترتفع الأرض تدريجياً من عند النهر حتى يظهر أن نهاية تل سرغام وتلال كررى تكاد تتلاحم طامسة الأرض بينهما وعلى البعد من هذا السهل الرملى الذى كون الجانب الغربى لجدار هذا المسطح ظهرت ظلال تلك التلال السوداء فى شجرة غامضة . كان المتحدون داخل الحلقة ، ظهر شرهم بسرعة .

بالرغم من تقدم الدراويش إلا أن حقيقة أن مدي نيرانهم وقوتها ضعيفة قد شجعنا على الاقتراب أكثر ، ركضنا جنوباً جهة الجنوب الغربى لمنحدرات سرغام حتى وصلنا الى التلال الرملية على ناحية العدو ، نفس المنطقة التى كنا بها فى اليوم الماضى . ظهر كل طاوور بكل تفاصيله . كان من الممكن فحص كل فرد من بين آلاف الأفراد بسهولة . كانت خطوة تقدمهم ثابتة وسريعة وشعرنا أنه من الخطورة الانتظار على التلال الرملية ، ولكن كان المشهد مثيراً رغم خطورته ، بقينا لبرهة .

كانت أعلام ورموز الأمراء المشهورين ظاهرة بوضوح ويمكن رصدها بسهولة. في أقصى الشمال تجمع قادة وجنود الراية الخضراء الفاتحة تحت قيادة الأمير ودخلو ، بين هذه في الوسط ، العلم الأخضر الغامق لعثمان شيخ الدين ارتفع فوق كتل من حاملي الحراب تتقدمها صفوف طويلة من المقاتلين مسلحين ربما بالبنادق أيضا. في جهة الوسط وبقيادة يعقوب كانت الراية السوداء المقدسة للخليفة تحقق عاليا بشكل مميز بينما حشدت قوات كبيرة تحت عدد من الرايات البيضاء، كان بينها الرمز الأحمر للخليفة شريف كأنه متخفي. كل عزة وقوة إمبراطورية الدراويش خرجت واحتشدت في هذا اليوم الأخير في حياتها. البنادق الذين ساعدوا في القضاء على هيكس، حاملو الحراب الذين هاجموا في ابوكلي، أمراء شاهدوا كنائس قنبر، البقارة عائدون لتوهم بعد إغارتهم على قبائل الشلوك، المقاتلون الذين حاصروا الخرطوم ، جاعوا جميعا تحفزهم ذكريات انتصارات الماضي، وتولمهم أخبار الهزائم الأخيرة ، لتدمير هذا العدو الوقح من الغزاة الملعونين .

استمر التقدم ، أبتدأ الجناح الشمالي لقوة الدراويش ، بدأ في الانتشار فوق السهل ناحية تلال كرري ليهاجم كتفنا اليمين كما كنت أظن ، وسطهم تحت الراية السوداء تحرك مباشرة لتل سرغام اليميني أتخذ تشكيل تقدم جنوب ذلك التل، كانت هذه القوة بالذات أكثرهم هبة ، عددهم لن يزيد على ٦ آلاف لكن زينهم وطابورهم كان جيدا، وكانوا يحملون أعلاما كثيرة تبلغ أكثر من ٥٠٠ علم كانت كبيرة بيضاء من بعيد ولكنها كانت تحمل آيات من القرآن ، مع ولائهم المثير للإعجاب ظهر هذا الجزء من جيش الخليفة ليذكرنا بمثلتي الحروب الصليبية وهم منقوشون على القماش المزركش .

تطور الهجوم ، شمال القوة ، ٢٠ ألفا أشداء يزحفون عبر السهل اتجهوا نحو السرايا المصرية . جنود الحشد في الوسط استعدوا واتجهوا نحو الزريعة للالتحام المباشر. بينما كل جيش الدراويش يتقدم ، القسم الذي يحمل الأعلام البيضاء والذي كان حتى تلك اللحظة يرافق مؤخرة اليمين ، تقدم الصفوف الأمامية وبدأ التسلق الى السفوح الجنوبية لتل سرغام ، ومجموعة كانت تسير خلف حملة الأعلام

البيضاء أعدادها ليست كبيرة كانت تتجه ببطء نحو النيل، ليس بعيدا عن يمين المؤخرة وأقرب الى أحياء أم درمان . هذه المجموعة في الغالب قد كلفت لتمنع قطع خط الرجعة للدراويش وتأمين خطوط التقهقر، ومعهم قد قرر لفرقة اللانسر ٢١ (الرماحة) أن يتم التعارف بعد ساعتين من الآن .

وصل وسط الدراويش الى مدى النيران ولكن لم يكن البريطانيون أو المصريون هم البادئين بإطلاق النيران . إن أضعف سلاح لـدي العرب بالمقارنة مع أعدائهم هو سلاح المدفعية، وقد اختاروا هذا السلاح لبدء هجومهم . ظهر وسط القوة بقع دخان أبيض ثم سقطت قذيفتان على بعد ٥٠ ياردة من سور الشوك وارتفع دخان أحمر وسط الغبار في المكان الذي سقطت فيه القذائف . كانت هذه القذائف بمثابة تحد تم الرد عليه في الحال . كتل من السحاب الأسود ظهرت على طول جبهة اللواءات البريطانية والسودانية وفتحت أربع بطاريات نيرانها الواحدة تلو الأخرى على العدو من مدى ٣٠٠٠ ياردة . وصلنا صوت المدفعية ونحن على المرتفع ورددت صداها التلال . بدأت الدانات والشظايا تسقط فوق رؤوس الكتل الزاحفة وتملأ الهواء بكرات بيضاء من الدخان وتغمر الأرض بالجنث .

كانت هناك كارثة أخرى قرية فقد وصل حملة الأعلام البيضاء الى السهل وبعد دقيقة أخرى سيكونون على مدى نيران البطاريات ، هل كانوا يعلمون ما ينتظرهم ؟ كانوا عبارة عن كتلة كثيفة من البشر على بعد ٢٨٠٠ ياردة من البطارية ٣٢ للميدان وأيضا البواخر . كان المدى معروفا والأمر متروك لآلة الحرب وكانت المذبحة في المسار البعيد تمضي دون ملاحظة ، حيث سيطرت على العقول نتيجة الرعب القادم ، بعد ثوان معدودة سيحل الدمار على هؤلاء الرجال الشجعان الذين ظهروا على السطح وباتوا لكل أفراد الجيش ، تميزهم أعلامهم البيضاء فوق الجميع . عندما شاهدوا معسكر الأعداء بدأوا إطلاق رصاص بنادقهم وأسرعوا الخطى . في لحظة قطع كل القسم الأرض الفضاء وأصبحوا مكشوفين تماما . في الحال فتحت البواخر المسلحة نيرانها عليهم بالإضافة للبطارية ٣٢ المدافع الميدان ومدافع أخرى من داخل الزريعة ، سقطت عليهم ٢٠ دانة في الدقيقة

الأولي، بعضها انفجر في الهواء والأخر مباشرة على وجوههم ودانات أخرى انفجرت على الرمال محدثة غبارا أحمر ورصاصا وشظايا وسط صفوفهم . سقطت الأعلام البيضاء في كل الاتجاهات ولكنها ارتفعت مرة أخرى في الحال عندما تقدم صف آخر ليموت شهيدا لنصرة أهداف المهدي المقدسة ودفاعا عن خليفة النبي الحقيقي. لقد كان منظرا مريعا ، لأنهم حتى هذه اللحظة لم يسيبوا أي آذى لنا، وبدا تفوقا غير عادل أن نضربهم بهذه القسوة ، وهم لا يملكون إمكانية الرد علينا. نتيجة لدانات المدفعية ، تقلصت قوات الأعلام البيضاء إلى أفراد قلائل من حملة الرماح وبعض المناوشين وجاءوا بدون تشكيل مرتب ولكن بعزم لا يلين . الآن بعد أن انكشف الهجوم بإتقان جاء دور سلاح الفرسان ليظهر أرض المعركة بسرعة كبيرة وليترك باقي الحوار لسلاح المشاة ورشاشات المكسيم . عادت كل الدوريات إلى سراياها ورجعت إلى الزرنية بينما كانت مدافع البواخر تمطر الجو فوق الرؤوس واشتعلت النيران على طول صفوف الموقع وارتفع الدخان وجاء هدير صوت الرصاص ليغطي على صوت المدافع بعد فترة وجيزة .

كان شاطئ النيل ملجأ مميّزا، ترجل أفراد فرقة الفرسان وسقوا خيولهم وانتظروا ما ينجلي عنه الموقف . وفي كل مرة تزداد الضوضاء ويعلو الضجيج حتى يغطي على أصوات رشاشات المكسيم ، كانت البطارية رقم ٣٢ للمدافع الميدان تعمل على بعد ٨٠ ياردة وارتفاع حوالي ٢٠ قدما فوقنا . كان أفراد المدفعية يتحركون في خفة ورشاقة وهم يهتمون بالتعامل مع آلة الدمار ، صعد بعض الضباط فوق صناديق البسكويت لكي يستعملوا نظاراتهم المجسمة لمراقبة اثر الضرب .

ألقيت نظرة في هذه اللحظة . رأيت على مسافة ٨٠٠ ياردة مجموعة من حملة الأعلام البيضاء وهي تناضل في وجهه النيران غير الرحيمة، يسقطون وينهضون ، دخان أبيض بسيط ينطلق من بنادقهم بينما تسقط عليهم كتل من الشظايا. والدخان الأبيض ينتشر على طول خط المواجهة من جراء انفجار قذائف المدفعية .



كان أفراد المشاة يطلقون رصاص بنادقهم بثبات وبدون استعجال أو إثارة لأن أفراد العدو على بعد كاف والضباط حريصون بالإضافة الى أن الجنود منهمكين باهتمام في عملهم بكل الحرص والمعاينة ، الآن أصبحت العملية الجسمانية مملة . تبدو الأحجام أكبر من حجمها عند مشاهدتها فوق منحدر المنظر الخائفي ولكنها تتناقص بعد ضرب موحّد .

ارتفعت حرارة مواسير البنادق للدرجة التي بدلت مع بنادق فرق الاحتياطي استنفذت مدافع المكسيم كل كمية المياه للخصصة لها ، وتم تموينها من زجاجات فرقة الكمبيرون هايلندرز حتى تستمر في عملها للميت- كانت خراطيش وظروف الرصاص الفارغة تسقط على الأرض حتى تكونت كومة كبيرة بجانب كل مقاتل . في كل الوقت تسمع أصوات الرصاص فوق السهل وهي تخترق الأجسام محطمة العظام ، ينفجر الدم في جروح رهيبية ، رجال يصارعون بكل إقدام جحيم صفير الحديد وانفجارات الدانات ، وعواصف الغبار ، يائسون ، يموتون ، هكذا كان مشهد المرحلة الأولى لمعركة أم درمان.

كانت خطة الخليفة للهجوم ، خطة معقدة وعبقريّة لكنها بنيت على خطأ قاتل هو عدم تقدير قوة السلاح الحديث الرهيب ، بخلاف هذا الخطأ فلن يستطيع أحد أن ينتقدها . كان المفروض أن تهاجم قوة من ١٥ ألف رجل واجهة العدو، وهي من قوات عثمان شيخ الدين لكنها وضعت تحت قيادة عثمان أزرق ، وانتظر الخليفة نفسه مع قوة مماثلة بالقرب من جبل سرغام يراقب نتيجة الهجوم . إذا نجح الهجوم يتقدم هو بقوات الملازمين وهم أقوى جيش لديه لتحقيق النصر ، وإذا فشل الهجوم هناك فرصة أخرى . الدراويش الذين هاجموا الزريبة في أول هجوم لم يكونوا أحسن الجنود الذين يعتمد عليهم لذلك فقدهم سيكون خسارة كبيرة لكنه لن يوقف الصراع. وبينما القتال مستمرا يزحف للشمال الأبطال الصناديد وهم من تبقي من كتائب عثمان شيخ الدين دون أن يلحظها أحد ، الى الجناح الشمالي في شكل قوس لمهاجمة لواء القوات المصرية، ويستمر على ودخلو بقواته الى جبال كرري يبعد عن مدى نيران العدو وعن أنظارهم إن أمكن .

إذا قدر ، لا قدر الله للهجوم الأمامي والجاني أن يفشلا سوف يترك أعداء الله معسكرهم في الزريبة ليتجهوا نحو المدينة للاستيلاء عليها ونهبها . عندما تكون القوات مزهوة وفرحة بالنصر وخارج معسكرها الحصين في الزريبة ينقض عليها الخليفة بقوة الـ ١٥ ألف مقاتل من خلف تلال سرغام بينما يهاجم على ودخلو بقواته من جبال كرري، وهكذا تحاصر قوات العدو من الشمال والجنوب تتشتت وتفقد توازنها وتشكيلها ويلقي كتشنر مصر هيكس وغردون . سوف نعرف من السرد أن هناك تطوران معنا تحقيق هذه الخطة . ولم يتم الهجومان في نفس الوقت وإن كان كانت الغلبة ستكون لرصاص الحملة ، رغم تحملها لبعض الخسائر إلا أنها لن تؤثر في النتيجة ، وهكذا خابت آمال البربرية مع أول خيوط الظلام .

صدرت الأوامر للعقيد برودود وقوته ، ٩ سرايا فرسان قوة الهجانة ، ومدفعية الخيول، بأن يمنع شمال الدراويش من محاصرة جناح الزريبة الذي تحتله الفرق المصرية التي ما كان مخططا لها الاشتراك الكلي في هذه المرحلة من المعركة . لتحقيق هذا الهدف احتل برودود جبال كرري ووضع في سفوح التلال مدفعية الخيول وقوة الهجانة وترك الفرسان في الجلف كاحتياطي في مؤخرة الوسط .

مرتفعات كرري التي جاء ذكرها مرارا تتكون من معلمين بارزين وترتفع بحوالي ٣٠٠ ياردة فوق السهل ، كل مرتفع بطول ميل من الشرق الى الغرب ويفصلها منخفض بعرض ١٠٠٠ ياردة . الجهة الشرقية لهذا المرتفع على بعد ١٠٠٠ ياردة من النهر ، وبين هاتين النقطتين توجد حجارة ومتعرجات مما يجعلها غير صالحة لاستعمال سلاح الفرسان وحيولها، وكذلك الكتل الحجرية الصلدة سوف لن تسمح للجمال بالحركة كما يجب . لذلك أوقفت الخيول والجمال في هذا المنخفض ترجل الفرسان في السفوح الجنوبية تاركين الصحراء على يمينهم وبعدهم الهجانة ثم تحركت الفرسان في الوسط ومدفعية الخيول على الشمال وبقية أفراد الفرسان في الفراغ خلف المدافع .

تقدم عثمان العاصف ، قد وضعه أمام هذه القوة الراكبة ، نواياه لم تكن واضحة ومحل جدل ، هل سيهاجم الفرقة المصرية ، أو يطرد الفرسان أو يختفي وراء

جبال كرري كما كان يخطط على ودخلو ، لم يستطع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة . الخيارات أمامه على أي حال كانت محدودة ، لا يمكنه مهاجمة اللواء المصري ويترك مؤخرة شماله تقدمها فرقة فرسان قوية ، لذلك استمر في السير عكس اتجاه الزربية ، وليبعد عن مدى النيران المنحرف شمالا وفجأة ظهرت قوات برودود ، هذا الضابط الذي توقع أن يلاقي قوة صغيرة من الدراويش وجد نفسه في مواجهة ١٥ ألف مقاتل أغلبهم حاملو بنادق .

السردار الذي يراقب الموقف من الزربية ، أرسل إليه أمرا بالانسحاب الى خطوط المشاة ، رد برودود أنه سينسحب شمالا مروراً بجبال كرري ساحبا قوة عثمان خلفه .

كان لابد من إخلاء الموقع الأول في الحال فقد كان الدراويش يتقدمون في الاتجاه الشمالي الشرقي واستطاعوا مهاجمة تلال كرري بشكل ينحرف ليحاصر الجناح الأيمن للقوات الراكبة المدافعة عن الموقع . كما يتضح من الخريطة أنه بمجرد أن تصل قوة الدراويش حاملة البنادق الى أي نقطة غريبة يمكنها احتلال الفراغ الكبير بين تلال كرري ومن ثم يمكنهم التوجه جنوبا وتهديند خط الرجعة للقوات المدافعة . عندما أحس العقيد برودود باستحالة الدفاع عن الموقع سحب البطارية الى نهاية المرتفع الشرقية ، وما إن انكشف الفراغ (الحوض) حتى فقدت فرقة الفرسان التي تابعت الانسحاب ، ٥٠ رجلا وعددا كبيرا من الخيول والجمال ما بين قتل وجريح . كان موقف الهجانة في منتهى الحرج ومعهم الجرحى من الأفراد والجمال وقد ظهرت صعوبة الأرض والحجارة وظهر أن الدراويش يستطيعون التقدم سيراً على الأقدام أسرع من الجمال ، وقد استطاعوا وهم على سرعة ٧ أميال في الساعة ، وبدون إعاقه من مدفعية الزربية أو مدافع الهاوتزر المجسورة بالخيول حجم ٧ ارطال عديمة النفع في مثل تلك الظروف ، استطاعوا تقليص المسافة بينهم وبين أعدائهم . هنا قرر برودود أن يرسل الهجانة راجعة الى الزربية ، تحت حماية مدفعية إحدى البوارج التي كانت تراقب العملية وتركت لتقدم أي مساعدة للقوة المنسحبة . كانت المسافة بين المقاتلين بالكاد ٤٠٠ ياردة وتتناقص كل دقيقة . فرقة

الفرسان سحبت عرضا ، على الناحية الشرقية للحوض والمتاخمة للنهر . استمرت نيران الهاونز من مواقعها الجديدة شمال المرتفع، ولكن كانت فرقة الهجانة مازالت تناضل للخروج من الأرض الرخوة . غطت قوة الدراويش الجانب الجنوبي من المرتفع بأسراب من اللون الأصفر للمل ، وغير عابئة بالقذائف التي تسقط عليها من ناحية الزربية ، استمرت في تنفيذ خططها الهجومية . شعروا أن الفريسة تحاول الهرب كحيوان جريح الى حيث قوات مشاتهم وبغريزة تجارب الحرب لدى الجندي الوحشي ، وهي أحد مورثاتهم ، التفت القوة الى اليمين وغيرت اتجاهها من الشمال للشرق واندفعت حول الحوض على طول الجانب الجنوبي ناحية النيل . كان هدفهم محدد ، أن يفصلوا قوات الهجانة ويطاردوها داخل النهر .

كانت اللحظة حرجة جدا وبدأ لقائد الفرسان أن الدراويش سوف ينجحون مما يعني تدمير قوة الهجانة الأمر الذي لا يمكن السماح به . استعدت السرايا التسع للفرسان وأصبح احتمال الصدام مع أسراب قوة الدراويش المندفعة داخل الحوض كبيرا . تحويل مسار الهجانة ربما ساعدها في الهرب ، لكن طبيعة الأرض سيئة للغاية وقوة أعدائهم مهولة . كانت مجموعة الفرقة المصرية مستعدة لإطاعة الأوامر ، وهذا كل ما في الأمر . ليس هناك أعظم من لحظات الحماس في مثل تلك الظروف يمكن أن تورد أو تفرش طريق النصر بالشوم ولكن كانت المعركة حتمية ولا مفر منها ، ربما رجع القليل منهم سالما ، ولكن لا خيار غير المعركة . كانت فرقة الهجانة قد اقتربت من النهر وآلاف الدراويش يركضون نحوها ، بزاوية قائمة نحو خط الرجعة ، لا أمل في نجاتهم لو حاولوا الاستمرار لاختراق قوات العدو ، أي محاولة من هذا القبيل معناها فناؤهم . الخيار الوحيد أمامهم أن يصمدوا في مواقعهم قرب النهر ويدافعوا حتى يعطلوا الدراويش حين وصول النجدة وكان على الفرسان القيام بهجوم يائس .

في اللحظة الحرجة وصلت البارجة الى قبالة موقع العملية وبدأت إطلاق نيران رشاشات المكسيم ، مدافع سريعة الطلقات والبنادق وكان المدى قريبا والأثر رهيبا وهي تطفو على سطح الماء بعظمه ، شيطان أبيض جميل لفت حولها الدخان ،

سفوح تلال كرري تموج بالآلاف الزاحفون الذين يقفزون في الهواء ويتحولون الى سحابة غبار أو حجارة متناثرة. تكومت قوات الدراويش أكواما على الأرض، وقفت الكتل البشرية في المؤخرة محتارة أو مترددة ، كانت النيران حامية حتى عليهم هم، وصول بارجة ثانية قبالة للموقع كانت كافية لزرع الياس في قلوبهم وإفشال مشروعاتهم . أسرعت فرقة الهجانة على طول الشاطئ ثم عبرت نقطة الالتماس المميتة وشاهدوا السلامة والزريسة أمامهم .

نسبة لحيية الأمل الكبيرة هذه ، وجه جنود عثمان شيخ الدين نشاطهم نحو فرقة الفرسان هذه المرة ، ونسوا في غمرة غضبهم طبيعة الفرسان المرنة والمتحركة، طاردوهم لمسافة ٣ أميال ناحية الشمال . سعداء بهروب فرقة الهجانة ، قرر العقيد برودود أن يلعب مع عدوه لعبة الثور والمصارع ، ونجح في جذب هذه القوة من جيش الدراويش بعيدا عن أرض المعركة التي كان تحتاج وجودهم بشدة وأثر غيابهم على خطة الخليفة كان مدمرا .

طبيعة الأرض في الخوض قد عطلت مدفعية الخيول ، غرست منها اثنتان في أرض موحلة ، أصيب بعض الأفراد والخيول وهم يحاولون إنقاذها ، هنا أمر العقيد برودود الجنود التخلي عن المدفعين ، سرعان ما وصلت كتل الدراويش ، شجعتها هاه الغنيمة ، هاجم فرسان عثمان بكل جرأة قوات الفرسان المقهقرة ولكن تصدت لها سرية بفاعلية تحت قيادة الرائد ماهون .

البارجتان ، بعد أن شاهدتا هروب فرقة الهجانة بسلام عادتا مع التيار ووجهتا نيران مدافعها على قوات الدراويش حتى أجبرتاها على التقهقر ناحية الصحراء من الغرب ، بعيدا عن النهر عندما أخليت هذه المنطقة ، عاد برودود لينضم للقوة الرئيسية والتقط المدفعين اللذين كانا قد تركا في الوحل وعاد بهما للمعسكر .

بينما كانت هذه المعارك تجري في القطاع الشمالي، استمر الهجوم في واجهة الزريسة. وانضمت فلول حملة الرايات البيضاء لباقي القوة فكانوا حوالي ١٤ ألف رجل يتقدمون نحو العدو يعدان غيروا من تشكيلاتهم ، بالهجوم بمجموعات صغيرة

بدلاً من زحف الكتل البشرية ، وقف التقدم على بعد ٨٠٠ ياردة من موقع الفرقة البريطانية ولم يستطيعوا كسب أي أرض . في مواجهة الفرقة السودانية التي كان أفرادها مسلحين ببنادق مارتن هنري ، وصل المقاتلون إلى مسافة ٣٠٠ ياردة ، وصل رجل عجوز شجاع وهو يحمل العلم إلى ١٥٠ خطوة من الخندق ولكن كانت النتيجة إيجابية على طول خط المواجهة ، قد تم تدمير الهجوم . قائلهم في جبهته المزرقة ذات الألوان العديدة دفر بفروسه نحو النيران التي لا ترحم حتى اخترقته مجموعة من الرصاص ، سقط بلا حراك ، هكذا كانت نهاية ذلك المقاتل العنيد الذي خاض معارك كثيرة، عثمان أزرق العنيد، فكان مخلصاً حتى الموت جلس الناجون من الدراويش على الأرض غير راغبين في التراجع واستمر حملة البنادق منهم في إطلاق رصاص بنادقهم في قتال غير متساو . عندما حانت الساعة الثامنة كان واضحاً أن هجومهم قد فشل وكانت خسائرهم ٢٠٠٠ قتيل، وعدد مماثل جرحي . بالنسبة لفرقة المشاة للحملة الذين كانوا مشغولين مع بنادقهم لم تظهر لهم المعركة حقيقية . بالرغم من هذا فإن الرصاص الذي ظل يندوي فوق الرؤوس وداخل الصفوف قد أسفر عن بعض الخسائر وكانت هنالك وفيات في كل كتيبة . قتل النقيب كالدي كوت في فرقة وروبيكشير وجرح اثنان من فرقة الكمرون ، النقيب كلارك والملازم نيكلسون جراح خطيرة ، حرس القريناديرز النقيب باقوت . العقيد أف. رودس جرح بين كتفيه وهو على ظهر حصانه بالقرب من بطارية المكسيم للفرقة البريطانية في اللواء الأول ورحل بعيداً عن أرض المعركة عندما كان الهجوم في قمته .

كان هناك بالإضافة لهؤلاء الضباط ١٥٠ قتيلاً من الجنود ، ضعف الهجوم ولكن نيران بنادق العدو استمرت وبدأت تحدث أثراً مجرد أن سككت النيران الثقيلة . كانت الأرض ذات تعرجات ومنخفضات ، استعملها رماة العدو كساتر والكتل الكثيرة خلف الزريبة كانت هدفاً سهلاً . هنا بدأت المدفعية في تطهير هذه المنطقة وكان أثرها كقوة مستكشفة فعالة . كلما سقطت دانات المدفعية على هذه المنخفضات ، فحضر حملة البنادق والحراب للهزب منها ليصبحوا هدفاً جيداً



لرشاشات المكسيم ورصاص بنادق المشاة، التي تصرعهم على الفور ويسقطون على الأرض بعضهم موتي وآخرون مرعوبين. وتسقط دانات أخرى تجبرهم على الوقوف، تكررت عملية للمكسيم وبنادق المشاة التي تراقب الموقع باهتمام في تساقط المهاجمون ، كل مرة عددهم أقل من ذي قبل حتى أخليت المنطقة المواجهة للزريبة لمسافة نصف ميل من أي قوة معادية . هرب قلعة ، والبعض الآخر رافضين اتهام الرذيلة والدمار الذي حاق بهم ، حملوا جرحاهم بكل النخوة والعزة ، من زملاء السلاح ورجعوا بهم للخطوط الخلفية . بعد أن تم القضاء على الهجوم وتم تطهير منطقة الزريبة من أي فرد من الدراويش، طلب من فرقة اللاتسر ٢١ مرة أخرى أن تقوم بمهمة. اتفق السردار وجنرالاته على نقطة واحدة وهي وجوب الاستيلاء على المدينة قبل رجوع قوات الدراويش إليها، إذ يمكنهم مقاتلة أي عدد من الدراويش في هذا السهل لكن داخل البيوت الأمر يختلف. وكما توقع الخليفة كان الكفار منتشين بانتصارهم ، يريدون دخول المدينة وإن كان لسبب مختلف وهو أمر في مقدورهم تماما الآن. كانت أكبر قوة للعرب الآن بعيدة في الصحراء وجزء كبير منها في تلال كرري . يمكن للقوات أن ترحف نحو الخطوط الداخلية ويمكنهم وصول أم درمان قبل قوات العدو . لابد من استطلاع سفوح تل سرغام ثم المنطقة الواقعة بين الزريبة وأم درمان وتطهيرها من الدراويش ، باشتراك قوات المشاة إذا دعت الضرورة . ولكن الأفضل عن طريق فرقة الفرسان لأن ذلك أسرع .

بينما تباطأ أفراد البيادة وقف أفراد اللاتسرز بجانب خيولهم ، جاء الجنرال كاتاكري مع النقيب بروك وباقي القيادة يركضون يجيادهم عند مؤخرة فرقة الفرسان و المدفعية وصاحوا للعقيد مارتن . بعد محادثة قصيرة ، وإشارة نحو السفح، كان الأمر ، أسرعنا إلى جيادنا ، نظمنا جنود الصف ومع ترقيب المعركة ، بدأنا التحرك ، كانت هناك دوريتان تركضان أمامنا نحو المرتفع وبقيّة الفرقة تواصل التقدم .

كنا عبارة عن مربع من الأشكال البنية الصغيرة غير المهندمة مع خيول صغيرة الحجم متعلقين بزجاجات المياه ، شنت السروج، عصي الوقوف ، علب البولي

بيف، كلها تتصارع معاً، اللمعان، أيام السلم قد ولت، جنود أصبحوا بدون وهج،  
خيالة بدون زهو، ولكنها على أي حال فرقة فرسان جاهزة لمعركة مع العدو.  
كانت أرض المرتفع على بعد نصف ميل، وكانت خالية من أي أفراد تلال  
سرغام قد حجبت الرؤية عن الاحتياطي الكبير الذي احتشد تحت العلم الأسود.  
جنوباً السهل بيننا وأم درمان مكشوف، إلا فلول الدراويش، مجموعات صغيرة  
من ١٠ أو ٢٠ فرد بعضها راكبا والبقية راجلون وعلى بعد ٣ أميال، سيل عريض  
من النازحين والجرحى في طريقهم للمدينة، السراب طمس الصورة فكان بعض  
الأعراب يمشون في الصحراء وآخرون على سطح الماء وكأنها ضباب، غير حقيقي،  
كان المنظر كافياً ليشير حمية الفرسان للمطاردة، ولكن الجوامع المنتشرة على السهل  
منعت ذلك. أرسل ضابط الإشارة رسالة إلى السردار بأن المرتفع خال من  
الدراويش، ولكن هناك آلاف منهم يتجهون نحو المدينة. ونحن في انتظار الأوامر  
شاهدنا ناحية الشمال في المنطقة التي شهدت صد الهجوم أمام الزريبة أشكال  
مبهمة في كتل طولها حوالي ميل. النظارة كشفت الأمر، كانوا مئات الأفراد  
الضئيلة أحجامهم بلباسهم الأبيض، مكومين أو منتشرين، يزحفون، بعض  
الخيول واقفة بين الجثث في غيظ وذهول وبعض الأفراد الأصحاء يحملون زملاءهم  
الجرحى. بدأ أفراد المقاتلين الذين يحتلون المنطقة الحجرية من تلال سرغام تسليط  
رصاص بنادقهم نحو الفرقة، احتمينا حول تل ترابي وبادر اثنان من الفرقة الرد  
برصاص غداراتهم. بدأت الإشارة من الزريبة في إرسال رسائل بسرعة وعاجلة  
كان الأمر مهماً، قوة العدو تحاول الرجوع للمدينة، يجب منعها بكل السبل  
والوسائل. أمر واضح وصريح لا شك فيه، ويجب تنفيذه أرسلت دوريتان،  
المجموعات الصغيرة المنتشرة في السهل وتلك التي على سفوح التل كانت تحتاج  
لسرية كاملة لتولي الأمر حتى لا تأتي النتائج بكارثة، تحركت الدورية الأولى نحو أم  
درمان، شاهدتها الجوامع الصغيرة وأطلقت عليها النار في حماس ظاهر. الدورية  
الثانية اتجهت للاستطلاع بقيادة الملازم قريشي في لاستكشاف الأرض على طول  
المرتفع وعند السفوح لتل سرغام.

حملة البنادق المتحصنون خلف الصخور حولوا نيرانهم من الفرقة الى الأهداف القريبة منهم ، كانوا خمسة تستروا خلف الأرض الوعرة ، لكن النيران المستمرة جعلتهم يختفون . ظهوروا مرة أخرى بعد دقائق ، لكن تحت غطاء نيران الفرقة على التل ، استطاع اللانسرز الانسحاب ، ضباطهم في المؤخرة . صرح بأن التل آمن من الناحية الأخرى بنفس القدر عند موقعنا الحالي ، عادت الدورية الثانية هم أيضا حالقهم الحظ وكانت معلوماتهم صحيحة ، بلغوا عن وجود قوة من الدراويش في حدود ألف رجل على نقطة تشبه الخور جنوب غرب على بعد ثلاثة أرباع الميل بين الفرقة وجموع النازحين قرر العقيد مارتن الهجوم بناء على هذه المعلومات ، لأن هذه القوة تقف وحدها بينه وبين خط الرجعة للدراويش ، وبدأنا .

كل هذا الوقت كان العدو مشغولا ، ترك الخليفة قوة من ٧٠٠ مقاتل في أقصى اليمين لتأمين خط التراجع لأم درمان . كانت هذه القوة مكونة من قبائل الهدندوة تحت علم عثمان دقنه يقودها أحد الأمراء من مساعديه ، اتخذت لها موقعا استراتيجيا داخل الخور . ما إن تركت فرقة اللانسرز ٢١ الزريبة حتى أخطر الخليفة من قبل رجال دوريته في أعلى تل سرغام أن الفرقة الإنجليزية تحركت لتقطع خط رجعته لأم درمان . في الحال أمر الخليفة تقوية أقصى يمينه وأرسل أربع فصائل كل واحدة ٥٠٠ مقاتل وحشدت في اللواء تحت العلم الأسود وبقيادة إبراهيم خليل أمرت لتقوية عثمان دقنه عند الخور . هرع هؤلاء الرجال بينما كنا ننتظر الأوامر تحجبهم منخفضات التل وانضموا لقوة الخور . كان اللانسرز قد استطلعوا هذه النقطة ، بمخاطرة كبيرة وكان بها ٧٠٠ رجل من الهدندوة قد رجعوا وبلغوا أن النقطة بها حوالي ١٠٠٠ رجل ، كان العدو قد زاد الى ٢٧٠٠ رجل قبل أن يصل اللانسرز للفرقة وما كان في مقدورهم معرفة ما استجد من أمر . بعد أن أرسل الخليفة المدد، جاء على ظهر حماره مع قوة صغيرة الى ناحية الخور على بعد ٥٠٠ ياردة ليشهد الحدث .

بعد أن غادرت فرقة فرسان اللانسرز ( الرماحه ) شمال المرتفع توقف العرب عن ضرب النار. المجموعات المتناثرة للدراويش اختفت راجعة ، وشريط من الرجال

ذوي اللباس الأزرق كانوا ينتظرون بلا حراك على بعد ميل من شمال المقدمة .  
كونت الفرقة صفوف تقدم وتقدمت حتى مسافة ٣٠٠ ياردة من تلك المجموعات .  
لقد انتهى ضرب النار تماما من وراء المرتفع وساد الصمت ، خاصة بعيد الضوضاء  
السابقة . وخلف صفوف الدراويش الزرقاء كان الهاربون يواصلون سيرهم لأم  
درمان . هل تحتاج هذه التل من الرجال الخلاء الى فرقة كاملة ؟ .

كان من الضروري دراسة الموقف في جناحهم الآخر قبل إرسال سرية لهم .  
انطلق قادة السرايا للشمال ببطء وبدأ الرماحه في اختراق الصفوف الأمامية للعدو  
في اصطفاة تقدم ، عندها وبحركة موحدة سجد ذوو اللباس الأزرق على ركبهم  
وانطلق صوت انفجار الرصاص ، ما كان يمكن لأحد أن يخطئ مثل هذا الهدف  
السهل وعلى ذلك المدى القصير ، سقطت الخيول والرجال في الحال . شاهدنا  
القائد الذي كان أقرب للموقع من فرقته حث للمقاتلين وأمر بتشكيل تقدم  
هجومى ، صدحت أصوات البروجي ، سمعت كههم بين أصوات الانفجارات ،  
في تلك اللحظة تحركت الفصائل الست عشرة استدارت وراحت تركض في صف  
طويل وهكذا جاء أول اشتراك للانسرز ( الرماحه ) في الحرب .

على بعد ٢٥٠ ياردة كان الرجال الزرق يطلقون رصاص بنادقهم ينجون لكن  
رصاصهم سقط على الرمل وأثار الغبار الكثيف ، حتى اضطر أفراد الفرسان الى  
جذب الخوذة للأمام لحماية وجوههم ، تماما كما فعل فرسان الكيراساز في معركة  
ووترلو . كانت الخطوة مسرعة والمسافة قصيرة ولكن قبل أن نقطع نصف المسافة  
فجأة تغير الموقف كله . ظهر مجرى لمياه الأمطار خور صغير في منطقة كنا نحسبها  
سهلا منبسطة وخرجت فجأة من داخل هذا الخور كتل بشرية بطول فرقتنا وبعمق  
١٢ مجموعة من المحاربين والخيول كأنهم نبست شيطاني أو خيال البانتيوم ، ومعهم  
دسته أعلام زاهية ، انطلق مقاتلوهم الى الأمام لاستقبال الصدمة وبقي الآخرون في  
ثبات لانتظارنا : كان رد فعل الرماحه لهذه المفاجأة ، زيادة سرعة الركض حتى  
يستطيع كل فارس تخطي هذا الصف للنيع ، الفرسان على الأجنحة انضمت  
للدخل في شكل هلال تم ذلك في ثوان معدودة وبنداقة العدو يطلقون رصاص

بنادقهم بشجاعة للنهائية لكن خيول الخيالة جرفتهم أمامها وسقط معهم داخل  
الخور أكثر من ٣٠ فارسا من الرماحة وأكثر من ٢٠٠ عربي سقطوا أيضا ، كانت  
المفاجأة مذهلة للجانبين ولعشر ثوان لم يتبّه أحد لعدوه ، الخيول المفزوعة تقفز  
وسط الحشد رجال مجروحون قهزهم المفاجأة يتكومون يناضلون في بلاهة ، بعض  
الرماحة كانت لديهم الفرصة لامتناء خيولهم مرة أخرى لولا أن ركبت حملتهم  
حمية الفرسان ، كراكب ينفذ في جسد عصفور شق الضباط طريقهم كالمنشار في  
قلب لوح الخشب تبعثهم الفرقة فشتوا جيش الدراويش حتى عبروا للجانب الآخر  
للخور تاركين بعض القوة وراءهم ، بينما واصل آلاف العرب الهجوم .

هنا فقط بدا القتل وبعدها شاهد كل رجل العالم خلال رمح تحت معدته أو  
في كعب مسدسه وكان لكل واحد قصة غريبة يرويها .

من النادر أن يتقابل سلاح مشاة عنيد مع فرقة فرسان غير مهزوزة ، إما أن  
تركض قوات المشاة ويتم دحرجهم في القتال ، أو ترفع رأسها وتطلق الرصاص على  
الفرسان حتى تبيدهم

في تلك اللحظة تصادم حائطان بشريان مع بعضهما البعض ، حارب  
الدراويش برجولة حاولوا إصابة ركب الخيل ، أطلقوا رصاص بنادقهم حتى  
لامست مواسير بنادقهم أجساد أعدائهم ، قطعوا أحزمة الجلد ، رموا حراهم بقوة ،  
استعملوا كل الاساليب المعروفة في الحرب لمقاتلة الفرسان وشهروا سيوفهم الحادة  
التي تغرس عميقا . كان قتال رجل لرجل قد انتهى بعد دقيقة واحدة تقريبا ، ثم  
بدأت الخيول في العدو وتخلص الرماحة من أعدائهم وبعد دقيقتين من الصدام  
المروع كان كل فرد حي خارج دائرة كتل الدراويش أما من سقط فقد تم طعنه  
بلسيف حتى سكت جسده ، لكن لم يجر أي عمليات فنية للتمثيل بالجثث .

وقفت الفرقة على بعد ٢٠٠ ياردة من العدو ، نظمت صفوفها وفي أقل من  
خمس دقائق كانت قد أتمت استعدادها للهجوم الثاني ، كان الرجال حريصين على  
العودة شاقين طريقهم بين أعدائهم . كنا هنا وحيدين ، فرقة الفرسان ولواء  
الدراويش وقف المرتفع كستار بيننا وبين الجيش ، نسينا المعركة الرئيسية كأنها لم

تكن ، هذه مشاجرة خاصة ، للمعركة الأخرى ربما كانت مجزرة ، ولكن هنا القتال متكافئ وعادل لأننا نحن أيضا نحارب بالحرب والسيوف وفي حقيقة الأمر إن لهم ميزة الأرض والعدد ، ظهر أن الجميع حريصون علي تسوية الحساب في الحال والى الأبد .

بدأت تكاليف هجمتنا الطائشة والورطة تظهر للمسئولين . خيول بدون خيالة تجري فوق السهول ، رجال متعلقون بسروجهم والدماء تسرف من أكثر من جرح ، خيول تعاني آثار الطعان الفظيعة، تعرج ، وفرسانها علي ظهورها . في ١٢٠ ثانية لقي ٥ ضباط ، و ٦٥ رجلا ، و ١١٩ حصانا حتفهم أو جرحوا من بين ٤٠٠ .

بدا صف الدراويش الذي انكسر من الهجوم في إعادة تنظيم أنفسهم تفضوا عنهم الغبار واستعدوا لمعركة ثانية . كان من الناحية العسكرية من الضروري إخراجهم من الخور وهذا للنخفص حتى نحرّمهم من هذا الساتر الطبيعي. تحركت كتيبة من ثلاث سرايا في اصطفاف معركة وسرية اصطفاف تقدم واتجهنا يمينا حول جناح الدراويش ، ترجلنا وأطلقنا رصاص مسدساتنا فأهّمر عليهم الرصاص بشدة فاستداروا لمواجهة هجومنا وبذلك كونا زاوية قائمة .

الحقيقة ، كانت النيران دقيقة وبما لا شك فيه فقد كان الأثر المعنوي للهجوم عظيما وقد هز هؤلاء الرجال الشجعان . ولكن بالرغم من كل هذا تراجع الدراويش بشكل منظم وانضموا لقوات الخليفة تحت العلم الأسود عند تلال سرغام ، بقيت فرقة الرماحة في حراسة الأرض التي استولت عليها ومبع جثث موتلهم .

كان هذا سردا حقيقيا لأحداث الهجوم ، ولكن للقارئ أن يعطي بعض الاعتبار لأحداث أخرى ، العقيد مارتن الذي كان مشغولا بتوجيه الفرقة ، لم يشهر سيفاً أو مسدسا وركب وسط كل هذه الجموع بدون أي سلاح ولم يخرج. ضرب الدراويش حصان الرائد كرول وإيرن هام وهما على ظهره ، بعد أن عرس ماسورة بندقيته في جلد الحصان ، مع كل هذا استطاع الرائد كرول وسط هذا



الحشد الوحشي أن يسير على قدميه إلى بر السلامة . الملازم مولينكس سقط في الخور وسط الأعداء ، في وسط هذا الاضطراب غض وشهر مسدسته وقفز من الحفرة ، استعداد الدراويش وعيهم بعد صدمة الهجوم عليهم . أطلق النار على أقربهم اليه ، في هذه الأثناء قطع آخر رسغه الأيمن . سقط المسدس من يده الثابتة ، مجروح ، راجلا وبدون سلاح ، وجه أنظاره إلى اللحاق بتقدم سرية التي كانت قد عبرت للجانب الآخر ، العدو من خلفه للإجهاد عليه محاصرا من كل جانب ومطاردا بكل قوة ، شاهد الضابط الجريح رماح واحد على حصانه في طريقه صاح اليه للمساعدة ، جاء الجندي بيروني والذي كان مصابا برصاصة اخترقت يده اليمنى ، صاح بدون تردد كله تمام يا سيدي ، التفت وهجم على الدراويش الأربعة الذين كانوا يطاردون الضابط لقتله ، أشهر سيفه لكن يده المجروحة لم تحمله فسقط من يده وأصيب بحربة في صدره ، لكن هجمته قد أبعدت الدراويش وعاد الملازم مولينكس سالما إلى سرية . عندما شعر الجندي أنه قد أنجز هدفه ، ركض إلى وحدته عند وصوله شاهد الضابط حالته وطلب منه أن يترجل لكنه رفض وطلب أن يسمح له بهجوم آخر عليهم . أخيرا اضطر أن يترك الميدان وسقط مغشيا عليه لفقده كمية كبيرة من الدماء .

كان هروب الملازم نيشام أكثر غرابة من هروب مولينكس ، كان يهجم بالخروج من الخور عندما أوقف حصانه ، مسك عربي للجام حصانه ، ضرب الملازم الرجل بسيفه ولكن لم يمنع هذا من أن ينجح العربي في قطع اللجام . عندما طارت يده في الهواء وفي لحظة كاد سياف عربي أن يفصلها من جسده بضربة واحدة ، ثم طعنوه من كل اتجاه طعنة اخترقت خوذته وشقت رأسه طعنة أخرى تركت جرحا عميقا في قدمه اليمنى ، وأخرى لاقتها دروع كتفه ، شلت ذراعه اليمنى ، طعنتان تفاداهما ، قطعتا السرج وجرحتا ظهر الحصان . الضابط الجريح كان أصغر فرد في القوة ، قبض كل قدم من قدميه رجل محاولا إنزاله من ظهر الحصان ولكن الرمح الطويل تشبث بأهداب حصانه عندها شب الحصان المجنون برأسه مندفعاً إلى الأمام مارقا من بين الأعداء حاملا فارسه ، ينزف مغميا عليه ولكنه لا يزال حيا ، إلى بر

السلامة بين السرايا الراكبة . تجربة الملازم تيشام كانت تجربة الرجال الذين قتلوا ،  
نجا هو ليصفها لنا .

أرسل الجرحى مع قوة خاصة الى النهر والى مستشفى الميدان وأرسل ضابط  
بالأخبار . فى نفس اللحظة بدأت المدافع قذائفها بدأت البنادق فى إطلاق الرصاص  
فى تتابع خلف المرتفع واشتدت أصوات الانفجارات حتى طغى صداها على كل  
سطح الأرض وبدأت المرحلة الثانية للمعركة .

حتى قبل أن تستكشف فرقة اللاتسر ٢١ (الرماحة ) مرتفع جبل سرغام ،  
كان السردار قد بدأ عجلة التحرك للواءه لكي تتوجه وتحتل أم درمان وهي خالية  
وقبل أن يرجع جيش الخليفة من السهل ليدافع عنها ، ميزات هذه الخطة جيدة  
ولكن الحركة كانت سابقة لأوانها وفى منتهى الخطورة . كان الخليفة لا يزال غير  
منهزم فى تلال سرغام على ودخلو لا يزال متربصا فى كرري وعثمان كان يعيد  
ترتيب قواته . كان هناك ٣٥ ألف رجل فى ميدان الحرب وما كان فى الإمكان  
دخول أم درمان قبل القضاء عليهم كما أثبتت الأحداث لاحقا .

بعد أن جددت قوات المشاة ذخيرتها تحولوا شمالا كمجموعة لواءات متجهين  
نحو مرتفع سرغام ، كانت حركة القوة العظيمة بطيئة وليس من الحكمة وضع  
القوة البريطانية التي كانت تقود الطاهور ، فى منحدر السفوح شمال سرغام . ليس  
أمامها مجال للنيران وسوف لن تري أي شيء . وعليه تحرك اللواءان فى نفس  
التوقيت لاحتلال أرض المرتفع، ثم خطوتان فى خطوة واحدة ، وكان لواء  
ماكسويل الذي تبع لواء ووشوي ستيلون على بعد ٦٠٠ ياردة جنوبا إذا نفذ الأمر  
الأول بالنسبة للتشكيل فى الزرية كان لواء ماكدونالد جوار ماكسويل لكن  
الترتيب تغير الآن ، توقع الجنرال أن مؤخرة التشكيل سوف تكون مهددة من  
ناحية كرري . هل انشقت الأرض وابتلعت مئات الآلاف من قوات العدو الذين  
تحركوا من السهل ناحية التلال ؟ لابد أن يضع أقوى قواته وأكثرها خبرة فى أكثر  
من موقع توقعه للخطر . لذلك أمر لواء لويس تتبع لواء ماكسويل ، وترك لواء

ماكدونالد آخر التشكيل مع تقويته بثلاث بطاريات مدفعية وثمانية مدافع مكسيم ، كولينسون تحرك مع للمواصلات .

تحرك مكدونالد غربا ناحية الصحراء ليأخذ مكانه في التشكيل ولكي يترك مجالا للواء لويس كما جاءت الأوامر . أسرع لويس خلف ماكسويل وأخذ مكانه وسوف يبعد مسافة ٦٠٠ ياردة جنوبا حسب ما يسمح به التشكيل . الخطوة التي اتبعت في إرسال الفرق البريطانية معا قد تركت فراغا بين لواء مكدونالد وباقي القوة وتزايدت هذه الثغرة خاصة أن مكدونالد كان يتجه ناحية الغرب بينما تتجه اللواعت الخمسة ناحية الجنوب ، وهكذا عزل لواء مكدونالد .

في الساعة التاسعة والربع تحرك كل الجيش في تشكيل تقدم نحو الجنوب واللواء في المؤخرة على ضعف المسافة للسموح لها ، تحرك كولينسون مع المواصلات لكن بقيت مستشفيات الميدان وحدها في الزريبة المهجورة ، مشغولة بجمع الأغراض والتعبئة . كان بالمستشفى ١٥٠ جريحاً أمر السردار بوضعهم في الصنادل المجهزة طبيا . على أن تلحق مستشفيات الميدان بقوة الجيش ووحدة المواصلات . كان تحرك الجرحى أمرا بالغ الخرج وبقرار في متهى الغباء تركت الصنادل المجهزة طبيا لاستقبال الجرحى على الجانب الأيمن للنهر ، استعملت صنادل الذخيرة لنقلهم . الوقت يمضي والأطباء يعملون بكل تقان وجهد خارق . فجأة اكتشفوا ليست هناك حماية لهم والجرحى إلا بعض فصائل من بقية الفرق البريطانية والقوة المصرية وهي تبعد نصف ميل ولا توجد قوات بينهم وبين تلال كرري الداكنة . البارجتان اللتان كانتا يمكن أن تكونا مصدر تأمين ، قد سحبتا لمعاونة قوات المشاة جنوبا ، مكدونالد مع لواء المؤخرة بعيدا في السهل ، كولينسون يسرع على شاطئ النهر مع المواصلات . كاتوا وحدهم وبدون أي حماية الجيش والنهر حرف في باتجاه الجنوب ، مضيق ريدان فاتح تماما نحو جبال كرري ، ومن كرري بدأت تظهر علامات تحذير قبل العاصفة المطيرة ، مجموعات صغيرة من فرسان الدراويش . دخلت هذه الدوريات للتطفلة الى داخل شكل الفى وشوهدت مجموعة من الفرسان البقارة تسقي خيولها على بعد ٣٠٠ ياردة من المستشفيات

غير المحروسة أو المحمية . على البعد ظهرت أعلام العدو ، كانت اللحظات حرجية ، الجرحى الذين كوموا في الصنادل وليس هناك باخرة تقطرهم للشاطئ الآخر ليسوا في مأمن الآن أكثر مما كانوا عليه قبل أن يحولوا للصنادل . بينما شغل الأطباء الضباط أنفسهم ، ظهر العقيد سلوقيت بجواده متحديا فرسان البقارة وأسرع لحماية المستشفيات وشاغليها الذين لاحيلة لهم . في أثناء هذه اللحظة المضطربة بدأ وصول جرحى المشاة نتيجة للهجوم الدائر .

بعدما تحركت الفرق البريطانية من الزريبة كانت هناك مناوشات بين تلال سرغام دلت على وجود أفراد للعدو . تشكل كل لواء في أرباع تقدم متساوية حتى انضمت الألوية على بعد ٤٠ خطوة من بعضها البعض ، تنتشر للدخول ، اللواء الثاني قرب النهر ، اللواء الأول في نفس الصف وعلى يمينه ، أسرعت جميعها لتري المشهد وما يقع خلف المرتفع . وما انتظمت الألوية في تشكيل التقدم حتى تعرضت لنيران من أعلى سفح الجبل ، لم يلتفت السردار ولا ألويته لتلك النيران تاركاً الأمر للفرقة السودانية ، وصلت القوة لسطح المرتفع وفي الحال ظهرت كل بانوراما أم درمان أمام أنظارهم ، قبة المهدي البنية المهدمة ، بيوت الطين المرصوفة ، ولسان الماء اللامع معلنا عن مقرن النيلين . للحظة وقفوا مبهورين ثم اتجه اهتمامهم نحو ما يقرب من ١٢ حصانا بدون راكب ، جاءت راكمه تقف محتارة تحديق فيهم بيلاهة ، جاءت من أسفل السهل الذي لم يظهر لهم بعد ، كانت أول إشارة لهجوم فرقة الرماحة . التفاصيل بدأت تصل مع وصول أول دفعات الجرحى بين الكائب ، تغطي الدماء أجسادهم ، بعضهم جروحهم خطيرة ، وجوههم ممزقة ، أحشاءهم خارجة ، حراب مثل سنارة السمك لا تزال داخل أجسادهم ، سرد حقيقي لجوانب مظلمة من الحرب . شغل هذا للنظر الأفكار عن الرصاص المنهمر من قمة التل . فجأة تحولت الأنظار ناحية انفجار يأتي من الخلف ، كانت بطارية المدفعية بين الزريبة والمرتفع تصب نيران مدافعها على قمة التل . كانت هذه الطلقة كأنها إشارة للمعركة كي تبدأ . جاءت من المؤخرة أصوات رصاص المشاة وهنا أمر الجنرال كاتاكري قواته بالتوقف .

حتى قبل استيلاء القوات البريطانية على الأرض المسطحة للمرتفع وحينما كان العقيد سلوقيت يقطع للسافة في المنطقة الخطرة بين النهر والجيش أحس السردار أن العدو يستعد له . عندما نظر للخلف في سفوح سرغام وجد أن ماكدونالد ذلك القائد المخضرم قد أوقف تحركه، وبدأ بنشر قواته استعدادا لشن الهجوم . كان قد اكتشف قوات كبيرة للعدو على الجناح الغربي لسرغام ، أمر بطاريات المدفعية الثلاث بفتح نيرانها ، بعد خمس دقائق ظهرت القوة المهولة تحت الراية السوداء ١٥ ألف مقاتل تحت قيادة يعقوب ، بالإضافة لقوة الحرس (الملازمين) وكل أجناد إمبراطورية الدراويش ، خرجت من خلف التلال مستعدة للهجوم حديد فرصة لجأحه ثلاثة أضعاف الهجوم السابق .

أمر سير هيربرت كتشنر ماكسويل لتغيير وجهته الى اليمين يهاجم تل سرغام، وأرسل الرائد ساندباخ الى لويس آمرا إياه أن يحاذي لواء ماكسويل من يمينه ، ركض بنفسه للقوة البريطانية التي أوقفها الجنرال كاتاكري في الوقت المناسب على السطح الشمالي للمرتفع وأمر ليتلتون مع اللواء الثاني أن يشبك كل ناحية الغرب على شمال ماكسويل وجنوب سرغام وأمر ووشوب مع اللواء الأول أن يسرع لسد الثغرة بين لويس وماكدونالد، وأخيرا أرسل الى كولينسون وفرقة المحانة أن يستديروا الى جهة اليمين لكي يملأوا الفراغ في شكل في للجيش . معني هذه التحركات أن يتحول الجيش من اتجاهه نحو الجنوب مع شماله على النهر ويمينه الى الصحراء عليه أن يتجه غربا شماله للصحراء ويمينه ناحية النهر ، تغيير "شقلبة" كاملة.

إطاعة لتلك الأوامر تحرك ليتلتون بلوائه بتشكيل يتجه غربا ، تسلق لواء ماكسويل مع الفرقة السودانية تسل سرغام وطهروه من قوات العدو بالسلاح الأبيض والتفوا حول الجانب الآخر ، بدأ لويس نشاطه على يمين ماكسويل أما ماكدونالد الذي واجه القوات الرئيسية للخليفة فقد استمر في موقعه الجنوب الغربي تغطيه سحائب الدخان المنبعث من مدفعيته ورصاص بنادقه . هاجمت الألوية الثلاثة وهي تتجه ناحية الغرب وبعيدا عن النيل، الجناح الأيمن لفرقة الدراويش التي كانت

تأحم ماكسويل وأجبرهم على تكويسن جبهة تجاه النهر ، وخففت دون شك الضغط الكبير على اللواء شبه المعزول في المؤخرة . كانت هناك الثغرة بين لواء لويس ولواء ماكدونالد فسارع ووشيب وهو على تشكيله الأول كلية للشمال وملاً الفراغ الخالي من القوات . بخلاف ووشي ووحدة كولينسون المصرية، كانت كل قوات المشاة والمدفعية مشتركة في القتال الجاري.

زادت حدة القتال وأصوات انفجارات القذائف بشكل أكبر من الهجوم على الزريعة، إذ اشتركت كل الألوية والكثائب وأصبح الضجيج عالياً. استمرت الألوية الثالثة في التقدم غرباً في شكل صف طويل يلتف حول تل «سرغام» مع وجود الكتيبة الرابعة في تقدم هجوم للمؤخرة. عندما اقتربت القوات وضح أن الدراويش ربما هجموا على الفراغ بين لويس وماكدونالد فأمرت كثائب الأجنحة لتتحول لتأمين الجانب الأيمن ، كانت تفاصيل هجوم العدو مهولة ، كتل بشرية من الرجال تتجه نحو ماكدونالد الذي تغطيه سحائب الدخان ، كتل أخرى تتجه لصد الهجوم الذي بدأ يتطور على يمينها . مع الزاوية التي تكونت الألوية من الثلاثة متجهة غرباً. ولواء ماكدونالد المتجه نحو الجنوب ، كانت هناك قوات يربو عددها على ١٥ ألف مقاتل محاصرين في الوسط .

كقطيع من الشياه في زريعة حولها الصف البني من اللواءات البريطانية والمصرية. كانت الكتيبة السابعة على يمين لويس وعلى مقربة من ذلك اللواء ولواء ماكدونالد، قد كلفت للاستعداد لحماية الجناح لكنها بدأت تتردد وترنح مع بعض حركات التفهقر ، كانت لحظة خطيرة ، أمر جنرال هنتر الذي كان في نفس الموقع أفراد الفرقة ١٥ المصرية تحت قيادة الرائد هيكرمان ، والتي كانت في الاحتياطي لكي يسيروا خلفهم شاهرين سنج بنادقهم . عندها عادت لهم الروح المعنوية وتم القضاء على الخطر واستمر تقدم الألوية الثالثة .

وجد يعقوب نفسه غير قادر على تحمل الهجوم من ناحية النهر، فهجومه على ماكدونالد تم دحره والقذائف أحدثت خسائر جسيمة بين قواته المكدسة. فقد سقط الأمير المقدام ودبشارة وأمراء آخرون أقل شهرة، لذلك بدأ تدريجياً يتراجع



عن موقعه. كان واضحا أن القوات للمتمدنة هي الأقوى ، وقبل أن ينتهي القتال عرف الخليفة أن اليوم أنتهي، وهو يشاهد الموقف عن قرب ذلك أن الفرصة الوحيدة لنجاح مثل هذا الهجوم هي اشتراك قوات على ودخلو وقوات عثمان شيخ الدين مع قوة يعقوب، إذ هاجمت من كرري في نفس التوقيت . هذه القوات التي تجمعت الآن في كرري تأخرت جدا عن أداء مهامها وأي هجوم لها الآن سيكون بالتتابع ، كان أثر نشاط برودود على الجناح الأيمن، عمليات الفرسان على أقصى اليمين ومؤثرا.

لا الأسف ولا الغضب يجديان. دمرت الألوية الثلاثة المتقدمة قوات الدراويش وشتتها في الصحراء . على طول ميل من الجبهة تعالت وهات نيران مكثفة، مدفعية الميدان ٣٢ التي تجرها البغال اشتركت هي الأخرى في المعركة فامطرت رشاشات المكسيم بنشاط محموم، صعد ضابط في قمة حماسه بمدفعين مكسيم الى قمة جبل سرغام واشترك من هذا العلو في التدخل بنيران مميتة . وهكذا تقدم الصف الطويل بقوة لا تقاوم . في الوسط وتحت العلم المصري الأحمر. غير عابئ بالنيران التي يمكن أن توجه لهذا الرمز والتي أحدثت بعض الخسائر فيمن حوله، ركب القائد، السردار عباس وكبيب، لا يحركه لا الخوف أو الحماس بنفس القدر. على بعد ميل من المؤخرة كانت البوارج الحربية مستاءة لأن القتال أصبح بعيدا عن مدى مدافعها ، ثمخر عباب الماء جيئة وذهابا في ملل، كأنها دب قطبي يبحث عن فريسة للالتهام .

قبل هذا الموقف الرهيب ، كان نظام الخليفة قد انهار . كل الأرض تعج بالآلاف من القتلى والجرحى ، كان الجنود السودانيون حريصين على عدم تخطي جثث الموتى أو المشي فوقها وهي عادة سودانية معروفة ، آلاف الأفراد الذين نجوا من الموت يتزاحمون مع النازحين والفارين الى مدينة أم درمان زحموا السهل ترقبهم أعين أفراد الرماحة بروح الانتقام. صمد يعقوب ورجال الراية السوداء ولم ينكصوا على أعقابهم فارين. وقفوا وقفة رجال حتى النهاية آثروا الموت في نفس الموقع وعليه فإن الغزاة عندما وصلوا لمكان العلم ، كان يرفرف ، فوق الموتى فقط .

بينما يجري كل هذا ، كانت الأحداث تتحرك بسرعة فاللواء الأول البريطاني، كان يضاعف الخطى في مؤخرة لواء ماكسويل ولواء لويس يملأ الشجرة بينهما ، وعندما استدار، استطاعت الفرق أن تكسب حسب قربها من محور الجناح ، اتبع اللواء تشكيل هجوم متحرك مع فرقة اللينكون التي كانت المحور في المقدمة ، أول ما وصلت الى يمين قوات لويس بدأت الفرقة في الاستعداد. كان واضحاً أن هجوم الخليفة قد كسر وأن قواته في موقف تقهقر، في السهل القريب ترقد جثث العرب سميكة الحجم ، مجموعات من الفارين تمشي على البعد، لم يبق إلا العلم الأسود ، وظل وحيداً يرفرف فوق جثث المدافعين عنه ، كانت المعارك قد انتهت أمام اللواء ، لكن الذين نظروا بعيداً ناحية اليمين شاهدوا منظراً آخر، جاء جيش جديد فيما يبدو، من مرتفعات كرري ، جاءت أوامر جديدة لتقطع الحيرة . ركض ضابط بجواده ، سرت أخبار أن هنالك معارك ضارية يخوضها لواء ماكدونالد في ناحية الشمال وأن قوات الحراة قد اشتبكت مع قواته واخترقت دفاعاته . كانت هذه هي الشائعات التي ترددت . كانت الأوامر محددة ، أقرب فرقة هي اللينكون شير تسرع لنجدة ماكدونالد وتقابل الهجوم. كانت فرقة اللينكون شير تلهث من الجهد ومرهقة ولكنها استجابت للأوامر بروح معنوية عالية . بدأوا في الوصول لمؤخرة لواء ماكدونالد غير مدركين التحولات التي تجري بين صفوفه، لكن كانوا يسمعون صوت إطلاق النار المستقل وحيث صوت الرصاص السام .

لو كان هجوم قوات الخليفة جاء في توقيت واحد ، لكان أخرج موقف ماكدونالد وجعله ميئوساً منه تماماً ، بل ربما كان هالكا أكيداً . بينما خف الهجوم على مقدمته ، زاد عنف الهجوم على يمينه وبدرجه مخلة للتوازن وكان عليه مواجهة الهجومين معا . كانت اللحظة حرجية والخطر محقق فقد توقف كل شيء على ماكدونالد الضابط الشجاع الذي رشحته قدراته العسكرية الممتازة من بين الصفوف ، من جندي عادي الى رتبة قائد لواء ، ومما لا شك فيه أنه تنتظره ترقية أخرى قادمة، فقد ارتفع لمستوي المسؤولية .

لمواجهة هجوم جيش الخليفة كون كتائبه الثلاثة في اصطفاف معركة وكتيبة في اصطفاف تقدم على مؤخرة الجناح الأيمن مكونة بشكل لام، عندما شعر بضعف الهجوم على الجانب الغربي حول قواته ناحية الشمال الغربي لاستعداد الهجوم في تلك الجهة، وغير تشكيل قواته جاعلا حرف لام أصغر من جهة واستطاع تحريك قواته وأن يوازن حجمها وحشدتها كل مرة حسب قوة أو ضعف الهجوم واستطاع توقيت هذه المناورات أن يصد أكثر من هجوم في نفس الوقت . ما إن شعر أن جيش الخليفة بدأ يترنح ريتقهق أمر الفرقة السودانية الحادية عشر وبطارية على شماله أن تتحرك عبر زاوية قائمة مع اللواء وتستعد في حركة سريعة قصيرة لمواجهة الهجوم القادم من قوات على ودخلو . للاستعداد لهذا الموقف كونت الفرقة السودانية التاسعة التي كانت على يمين الجبهة في التشكيل الأصلي، استدارت ناحية اليمين من اصطفاف تقدم الى اصطفاف معركة بدون الانتظار للتعليمات وبذلك واجهت كتيبتان هجوم الخليفة وكتيبتان الهجوم الجديد . كان واضحا أن جيش الخليفة قد دمر فأمر ماكدونالد الفرقة السودانية الخامسة وبطارية مدفعية أخرى لتغيير الجبهة وتكوين عمق في الطول للفرق التاسعة والحادية عشر . ثم حرك الفرقة المصرية الثانية بانحراف الى يمين جبهتهم حتى تلتصم الثغرة في الزاوية القائمة بين صفوفهم و صفوف الكتائب الثلاث الأخرى . تمت هذه المناورات تحت ضغط نيران مكثفة نتج عنها في عشرين دقيقة ١٢٠ قتيلًا بين الكتائب الأربعة بخلاف خسائر بطاريات المدافع كل هذا أمام عدو عنيد يفوقه عددا بنسبة سبعة لواحد كان يكفي لو التحم مع القوة أن يحقق النصر . في وسط كل هذا الاضطراب والغبار وجد الجنرال الوقت ليستدعي ضباطه في الفرقة التاسعة ويلومهم على التصرف قبل صدور الأوامر وبمجرد توقعها . أصر عليهم أن يتصرفوا كما كانوا في طابور التدريب

أصبحت الآن الفرق السودانية الثلاث تواجه كل عنف وفوران هجوم الدراويش القادم من كرري . إن شجاعة السود لا تقل اشتعالا عن رصاص بنادقهم . انتابهم نوبة حماس وأخذوا يطلقون الرصاص بدون نيشان أو تصويب ،

كل هم أي واحد منهم، أن يضرب ثم يعمر ويضرب وهكذا بدون توقف . حاول الضباط البريطانيون تهدئة الثائرين دون جدوى ، نادوا عليهم بأسمائهم أخذوا منهم البنادق دون فائدة . بدأت الذخيرة تتناقص واستدار الجنود يطلبون المزيد ، صرفت لهم طلقات قليلة لكي يقتصدوا لكنهم استعملوها وجاعوا يطلبون غيرها . بالرغم من ثقل حنجم خسائرهم من نيران الكتائب الثلاثة مدافع المكسيم استمر الدراويش في التقدم بالآلاف حتى بات أن التلاحم لابد واقع ، جهز الجنود السود أنفسهم بكل إقدام لمواجهة الاشتباك بدون أي اعتبار لتعداد القوات المهاجمة الهائل.

الذخيرة لم يتبق منها أكثر من ثلاث مجموعات مع كل فرد في اللواءات. فتحت بطاريات المدفعية نيرانها بشكل مكثف، دانات، شظايا، استمر تدفق الدراويش حتى وصل الأحياء منهم على بعد ١٠٠ ياردة من الصفوف خلفهم حملة العلم الأخضر ، كتل بشرية متحركة ، نحو النصر كما كانوا يعتقدون .

في هذه اللحظة وصلت فرقة اللينكون وبمجرد أن عدت مؤخرة لواء ماكدونالد كونت اصطفا ف وبدأت إطلاق النيران أمام جبهة القوات السودانية . كانت مجموعات من الدراويش ، اثنين أو ثلاثة أفراد على بعد ١٠٠ ياردة من القوة ، والكتل البشرية على بعد ٣٠٠ ياردة ، استمر الضرب الفردي لمدة دقيقتين بعدها استعدت الفرقة كلها وأمرت بضرب مجموعات متتالية (فولي) كان الغرض منها صد الصفوف الأولى من العرب . فقدت الفرقة في مرحلة الاستعداد حوالي ١٢ محارباً بما فيهم العقيد سلوقيت الذي كان يعتني بأحد الجرحى عندما أصيب في صدره . أوقف الضرب الانفرادي وبنظام جيد بدأ ضرب المجموعات الذي تدرست عليه القوات والذي يناسب بنادقها وبشكل كبير أطلق كل فرد حوالي ٦٠ مجموعة وتم القضاء على الهجوم ودحره.

كانت قوة فرسان الدراويش ضعيفة ، حوالي ٢٠٠٠ فارس ، وحوالي ٤٠٠ من هذه كانت خيول تابعة لبعض الأمراء من خاصتهم ، كونت منها فرقة وأضيفت لقوات على ودخلو . عندما شعرت هذه الفرقة أن لا أمل في الانتصار كونت كتلة هاجمت شمال لواء ماكدونالد على مسافة كانت حوالي ٥٠٠ ياردة

وتما عرف عن قوة نيران الفرقة السودانية ، كان هناك شك في أنهم سينجحون في ذلك الهجوم الى ائس . كان أغلبهم لا يجعل أي سلاح في يده ورغم ذلك أصروا على إجبار حيولهم للتقدم الى حيث الموت المحقق . سقطوا جميعهم عندما وصلوا الى النيران ، ثلاثة ، عشرون ، خمسون ، مائتان ، ستون ، خمسة ثم واحد ، طوابير من الرجال السمر تلون دماؤهم رمال السهل الممتد . لم تدخل صفوف المشاة، الا الجياد شاردة بدون فرسانها . .

بعد أن فشل الهجوم من كرري تقدم كل الجيش الإنجليزي / المصري الى الغرب في تشكيل معركة بالسنج والمدفعية بطول ٢ ميل داخرين فلول الدراويش أمامهم لتشتيتهم في الصحراء بحيث لا يتمكنوا من التجمع مرة أخرى أو تكوين أي وحدات قتالية . جاءت الفرقة المصرية التي كانت على طول النهر لتشارك المشاة في مهمة المطاردة . في تمام الحادية عشرة والنصف ، قفل سير كتشنر نظارته وعلق بأنه يعتقد أن العدو " قد تلقي تعفيرة جيدة " وأعطى أوامره للألوية لمواصلة مسيرتها لأم درمان بدون أن يتعرض لها أحد، فالحركة ممكنة الآن بعد هزيمة القوات على السهول .

أوقفت الألوية ضرب النار وشكلت قواتها بأوضاع مناسبة واتجهت جنوبا نحو المدينة ، بقيت فرقة اللينكون شير في المؤخرة للتأمين .

إن جيش الدراويش العظيم الذي تقدم عند شروق الشمس بكل الشجاعة والأمل ، هرب تطارده الفرقة المصرية للفرسان وفرقة اللانسر ٢١ (الرماحة) تاركاً وراءه ٩ آلاف قتيل وعددا ممثلاً من الجرحى .

هكذا انتهت معركة أم درمان أكبر إشارة لانتصار العلم على البربرية ، في زمن قدره خمس ساعات تم القضاء على أكبر قوة وحشية تواجهه قوة أوربية ، وتم تشتيتها بدون صعوبة ، مع مخاطرة صغيرة نسبياً وخسائر لا تذكر للمتصرين .

## الفصل السادس عشر

### سقوط المدينة

الآن بعد أن تأكد للخليفة أن الجيش الذي وقف معه قد هزم وفشلت كل هجماته وقتل آلاف المقاتلين الشجعان ، ركب راجعا للمدينة كقائد عبيد شجاع ، لعمل الاستحكامات الضرورية للدفاع عنها وفي نفس الوقت ، كقائد حذر ، يعمل على تأمين خروجه من المدينة إذا تعسرت إمكانيات الدفاع عنها . أمر بضرب النحاس وعزف الأُمبيات آخر النغمات التي عزفتها ، لم يستجب لها أحد ، العرب قد نالوا ما فيه الكفاية من القتال . وضع لهم أن كل شيء انتهى وأن من الخطورة الرجوع للمدينة .

كانت هجمة فرقة الرماحة مكلفة ، ولكنها كانت ذات فعالية كبيرة ، انسحاب اللواء الذي كان يؤمن المحور الأيمن قد كشف خط التقهقر . كان لابد لفرقة الفرسان الاستفادة من الاستيلاء على هذه الرقعة لأقصى حدود . وعليه بينما كان الهجوم الثاني على أشده تحركنا لكي نقطع خط الرجعة على مئات الفارين من أرض المعركة . بعد تجارب الساعات الأربع الماضية ، وكثرة أفراد العدو أمامنا تخيل الجميع أن تكون هناك معركة حامية دموية . لم نقطع مسافة كبيرة حتى جاء الدراويش طواعية نحو السرايا المتقدمة ، رموا سلاحهم في الأرض رفعوا أيديهم إلى أعلى طالبين الرحمة . بمجرد أن ظهر أن تسليم الأفراد يتم قبوله بدأ الدراويش الحضور ووضع سلاحهم ، في الأول كأفراد مثني وثلاث ، وستة وأخيرا بمجموعات ، في نفس الوقت ألتف هؤلاء الذين لا يرغبون في التسليم ، حول فرقة الفرسان بمسافة ميل وتابعوا تراجعهم بدون انقطاع . أخير تسلم السلاح ومرافقة الأسري تقدمنا نحو المدينة لكن نشاط الفرسان قد منع رجوع المقاتلين للمدينة استجابة لنداء الخليفة للتجمع والدفاع عنها ، إذ اتجهوا جنوبا متجاهلين أوامر أمرائهم . واستعمل أفراد الفرسان طبنجاقهم لإطلاق النار على تلك الفئة التي لم تبادر بالاستسلام وسط جموع الفارين ولكن بالرغم من ذلك تمكن أكثر من



٢٠ ألفاً من الهروب، كان بينهم مقاتلون شرسون ردوا على نيراننا من رصاص بنادقهم لكنها لم تحدث خسائر لبعده المدى .

طبعاً كان سيكون عمل جنوبي أن تفكر فرقة من ٣٠٠ فرد في الدخول في معركة مطاردة وسط هذه الآلاف و أكتفىنا بتتائج رصاص طبنجاتنا .

بينما تجري هذه الأحداث استمر الجيش في تقدمه نحو أم درمان ثم شاهدنا مقدمة المشاة آتية من مرتفعات سرغام تملأ السهل الذي يفصل بيننا والمدينة ، يحمل اللواء الوسط علم الخليفة الأسود وتحتيه العلم الأحمر أظهر موكب الرئاسة . استمرت هذه الكتل السوداء في المسيرة ببطء أثناء تعاملنا مع الأعراب وعند الساعة الثانية عشرة شاهدناهم واقفين ناحية النهر على بعد ثلاثة أميال من المدينة . جاءنا الأمر للانضمام لهم ورجعنا جدا حيث كانت الشمس حامية ونحن متعبون وجوعى والخيول يجب سقيها . أكملت بقايا جيش الدراويش تقهقروا بدون إزعاج أو تدخل من أحد .

رجعنا الى النهر كل القوة وقفت لتشرب ، تأكل أو تستريح عند خور شمبات، كان المنظر مثيراً ، تخيل ٦٠٠ ياردة من طول قناة السويس تمتلئ الضفتان بجميع سمراء بلون الشكولاته ، أسراب تحتل الجانب الشمالى من مشاة الفرق البريطانية، آلاف الحيوانات، خيول الفرسان ، بغال المدفعية ، وجمال الترحيل والمواصلات تملأ الفراغ وفي المقدمة مجموعات كبيرة من لابسى الكاكي ، يجلسون في صفوف على المنحدر مئات تقف عند حرف الماء ، بعضهم داخل الماء العكر يشربون بعمق ، بالرغم من وجود ثلاث جثث في المياه الضحلة القريبة ، أظهر أن الجنود العطشى لا يهمهم غير إطفاء الظمأ مئات الزجاجات كانت تملأ من النيل وهو قد جاء الى الصحراء لينعش الحيوانات والرجال المنهكين .

أثناء الهجوم على لواء ماكدونالد ، كانت الفرقة المصرية تراقب من مواقعها في السفوح الجنوبية بجبال كرري ومستعدة للتدخل إذا لزم الأمر لمساندة اللواء بهجوم خاطف . عندما كسر هجوم الدراويش وبدأوا في التقهقر ، شكل برودود السرايا في صفين من ٤ الى ٥ سرايا وتقدم للمطاردة فاتجه أولا للغرب لمسافة

ميلين ثم جنوب غربي لثلاثة أميال ناحية التل ذي الرأس الدائر . كما حدث للرماحة آخرهم استسلام الدراويش وترحيلهم للنهر عندما اقتربوا من كتل الجيش المهزوم ، اتضح لهم بأن الروح القتالية للعدو لم تمت تماماً، رجال عيّدون يطلقون النار وهم جرحى على الأرض ، رافضين طلب الاستسلام الذي ربما أحسوا أنه لن يعطي اهتماماً. كل الذين احتموا تحت الشجيرات قد تجمعوا للقيام بمهمة يائسة، رجال بالحرايب وقفوا في تحد دون أن يرمش لهم جفن في انتظار هجوم سرية كاملة . رجال بين الحياة والموت يقفلون فجأة ويطلقون الرصاص على الفرقة ، بدأت الفرقة تعاني من الخسائر نتيجة لهذا التصرف غير المعتاد ، إذ زادت الإصابات والخسائر مع كل تقدم . وكان للمطاردة العامة أن تتوقف .

الرائد لي كالى س قائد السرايا الثلاثة في المقدمة أراد أن يقطع خط الرجعة على الجموع العربية المنسحبة ، فغير اتجاه السرايا ناحية النهر على محاذة خور شمبات وهجم على مؤخرة الجيش المدحور . ولكن العدو صمد ودافع عن موقعه بإطلاق الرصاص بطريقة مكثفة وعلى كل الاتجاهات نتج عنها إصابات مباشرة لكثير من الرجال والخيول . هنا اكتفت السرايا بأن تحول يمينها ل ناحية اليمين وتخرج من بيت النحل الذي أوجدت نفسها فيه، وتحركت نحو تلال سرغام . بعدها صدرت لها الأوامر بالانضمام لباقي القوة على شاطئ النيل .

تسلمت فرقة الفرسان في الرابعة بعد الظهر تعليماتاً بضرب حصار حول المدينة لمنع أي تسرب لقوات العدو خارج أم درمان ، تحركت فرقة الفرسان والرماحة وعملت كردونا على بعد ميل من المنازل على مشارف المدينة . قوات المشاة كانت قد دخلت المدينة يدل على ذلك صوت إطلاق الرصاص ورشاشات المكسيم على فترات متقطعة. لواء الفرقة السودانية المتقدمة -ماكسويل- تحرك من خور شمبات في الثانية والنصف وعمل تشكيل معركة من عدة فصائل تتكون كما يلي :-

-السودانية الرابعة عشرة -السودانية ٢١ -المكسيم -المصرية الثامنة -بطارية

ميدان ٣٢ -السودانية ١٣ .

ركب السردار ومعه كل قادة رئاسته ، خلف علم الخليفة وتسبقه موسيقي السودانى السادسة وخلف الكتيبة ١٤ ، أحاطت المنازل بالقوة المتقدمة داخل الشوارع المتعرجة استمرت القوة فى المسيرة مع جبهة عريضة ، تتبعها الكتائب واحدة وراء الأخرى والألوية لواء وراء لواء حتى امتلأت بهم الساحات واكتظت الشوارع والأزقة بالكتل البشرية من الرجال المسلحة تشق طريقها الى الحائط العظيم .

استمر السير لمسافة بين الأحياء ، كان القائد مسرعا مع قاداته حتى وجد نفسه أمام حائط أم درمان تصحبه للدفعية ومدافع المكسيم . بعض مئات من الدراويش وقفت تدافع عن المدينة أطلقت طلقات طائشة ، لم تكن هناك مساطب يقفون عليها لتساعدهم على التصويب ، ردت عليهم رشاشات المكسيم بعنف تم تطهير الحائط فى ربع ساعة . ترك السردار البطارية ٣٢ بمدافع الميدان على الزاوية الشمالية وواصل مع بقية القوات لناحية النهر . كانت الثغرات التى أحدثتها مدفعية البوارج قد تم إغلاقها بالحجارة والأبواب والأخشاب ولكن البوابة الرئيسية مفتوحة .

دخل منها لقلب المدينة داخل الجدران كانت الصورة أكثر رعبا من الأحياء الخارجية . كانت أثار نيران مدافع البواخر واضحة للعيان . نساء وأطفال على طول الطرق خائفين مرعوبين . فى أحد الأماكن عائلة كاملة تم القضاء عليها بدانة من قذائف المدفعية ، القتلى من الدراويش بدأت جثثهم مع حرارة الجو الشديدة ، فى التحلل تملأ الأرض . للنازل مكعدة بالجرحى ، مئات الحيوانات النافقة تملأ الهواء برائحة كريهة .

هنا ظهر المسترجمون يعلنون فى الأزقة والطرق ، شروط الغزاة الرحيمة للاستسلام تطالب الجميع بإلقاء أسلحتهم . جدد السكان ولاءهم وترحيبهم بمساعدت أكوام السلاح الذى تم جمعه تحت حراسة الفرقة السودانية . طلب عرب كثيرون الرحمة ولكن البعض الآخر رفضها لذلك كان هناك قتال داخل المدينة . كل الدراويش الذين رفضوا الاستسلام تم قتلهم إما بالرصاص أو بسلاح السنج ،

ظل صوت الطلقات المتفرقة يسمع حول شوارع المدينة . بينما كانت النساء يتجمعن حول جواده وبعض الرجال العابسين يطلقون الرصاص من داخل المنازل، وبينما يسلم المحاربون المهزومون أسلحتهم من حراب وخلافة وبقيّة لا تزال تقاوم يتم حصارها على الأركان ركب السردار وسط كل هذا الاضطراب والروائح الكريهة والخطر حتى وصل الى قبة المهدي .

عند الجامع اثنان من المتعصّيين هاجما الحرس السوداني قتلا جنديا وجرحا الآخر قبل أن يقتلا رميا بالرصاص . كان اليوم قد انتهى وكان الوقت وقت المغيب عندما وصلت القوة الى السجن وكان السردار أول من دخل ذلك العرين العربي المشؤم الكريه . تم الإفراج عن شارلس نيوفيلد مع ٣٠ سجيناً آخر كانوا مكبلين بالأغلال والسلاسل وامتطي شارلس نيوفيلد ظهر جحش (حمار صغير) ظهر كما أصابته لوثّة كان يتكلم ويأتي بحركات من يديه في إشارات غريبة " ثلاثة عشر سنة كم انتظرت هذه اللحظة " قال لمنقذه . خرج من السجن حل الظلام الآن فتوجه الى الميدان حيث أقيم مركز إقامته والمكان الذي عسكرت فيه الآن الفرق البريطانية. بقية القوات توزعت على الأحياء والطرقات ، بقي لواء ماكسويل فقط داخل المدينة لحفظ النظام والقانون ، الأمر الذي حجبه أسرار الظلام .

كان السردار وقوات المشاة يستولون على أم درمان ، تحركت فرق الفرسان البريطانية والمصرية حول ناحية الغرب حول المدينة وبقيت لمدة ساعتين ، تسمع تبادل طلقات النار داخل المدينة غير مدركة لما يجري هناك .

أعداد كبيرة من الدراويش وبعض الأمراء غيروا الجبهة المشهورة وجاءوا يسلمون أسلحتهم ويعلنون الاستسلام ، حتى صار عندنا كميات كبيرة من الحراب والسيوف كان من المستحيل أن نحملها كلها واضطررنا الى تدمير الكثير من التحف . كاد الليل يرخي سدوله عندما ظهر العقيد سلاطين على ظهر جواده، هرب الخليفة، وكان على الفرسان المصرية مطاردته في الحال. وعلى الرماحة انتظار أوامر أخرى وكان سلاطين متلهفا وهو يتحدث للعقيد برودود وسأل اثنين من

الأمراء الذين كانوا في الأسر ثم اختفى عند الأفق . غادرت الفرقة المصرية أيضا راکضة بخيولها .

لم يدرك الخليفة، بعد أن غادر أرض المعركة ، أن جنوده لم يطيعوا أوامره واستمروا في تقهقرهم ولم يصل للمدينة إلا بضع مئات، للدفاع عنها. ذكر خادمه الأثيوبي أنه قد تلقى صدمة الهزيمة وهو متماسك استراح حتى الثانية ، تناول بعض الطعام ثم رجع الى القبة تضرع في هذا الضريح المقدس لروح محمد أحمد أن تعينه على تحمل هذه المحنة ، كانت آخر صلاة تقام حول قبر المهدي . هذا التعب تمليه مثل هذه الظروف ويتفق مع بحريات الأحداث . سمع الخليفة في الرابعة أن السردار يدخل المدينة وأن الفرق البريطانية وصلت ميدان الاحتفالات في الغرب ، امتطي ظهر حماره واصطحب زوجته الأولى ، راهبة إغريقية كرهينة وبعض خاصته واتجه ناحية الجنوب كانت الجمال السريعة تنتظره على بعد ثمانية أميال من أم درمان سرعان ما انطلقت به الى حيث بقايا جيشه في انتظاره . هنا وجد بعض الأصدقاء مكسوري الخاطر ولكن حقيقة أن يلتقي أي أصدقاء بعد هذه المأساة هو شيء إيجابي يحسب له ولشعبه. عندما وصل لم تكن معه أي حراسة ولم يكن يحمل أي سلاح. كان النازحون لديهم كل الحق في أن يكونوا تائرين ، أن قائد هم قد جرهم الى الخراب والدمار، قطع رقبة هذا الرجل الوحيد الذي كان سببا في كل معاناتهم ما أسهله على أي واحد منهم ويمكن أن يتم ببراءة ولكن لم يهاجمه أحد . هذا الظالم الجبار ، سبة السودان ، المتكبر المكروه رمز الشر، كما تصفه العيون الأوربية، الشخص الذي ينال كل الكره من شعبه كما كان الاعتقاد السائد في إنجلترا ، يجد مثل هذا الشخص كل السلامة بين جنوده الفارين . هرع الأمراء الناجين الى جواره ، سقط أغلبهم على السهل للميت عثمان أزرق البطل الصنديد ودبشاره ، يعقوب وكثيرون لم تعتم أسماءهم الغريبة هذه الصفحات ولكنهم جميعا كانوا رجالا عظماء رقدوا وأنظارهم نحو النجوم . وهؤلاء الذين لم يهتز ولاؤهم للحظة، على ودخلو الذي يرقد معانيا من شدة الألم جراء القذيفة التي أصابت قدمه ، ثم شيخ الدين، عثمان دقنه القوي، وإبراهيم خليل الذي تحمل هجوم الرماحة، وأمراء

آخرون هرعوا جميعا الى جانب خليفه محمد أحمد ولم يتخلوا حتى في مثل هذه الظروف القاسية ، عن التمسك بأهدافه .

وهكذا أسرع الجميع مع جنح الظلام، جموع مضطربة يائسة ، محاربون منكسرون يحملون بنادقهم على أكتافهم ، رجال جرحى يعرجون في أسى ، حمير وجمال محملة بالمواد ، نساء باقيات يجري خلفهن الأطفال ، الآلاف حوالى ٣٠ ألف مع قليل من الطعام ومياه قليلة لا تستطيع أن تموئهم ، الصحراء أمامهم ، البواخر الحربية على النيل ، وخلفهم الشائعات ، وشريط عريض من الموتى والمحتضرين تعلم طريق الهروب . بدأت الفرقة المصرية للفرسان في مهمتها غير المجدية . تقلصت قوات السرايا حمل الرجال ما يكفيهم حتى الصباح ، وحملت الخيول ما يكفيها حتى الظهر ، على أن تلحق بهم باخرة على النيل تحمل بقية المئون في اليوم التالى . كان الطريق على طول النيل الأبيض يعج بالدراويش المسلحين ولكي يتفادى هؤلاء الفاون الخطرون ، عرج بالفرقة جنوبا ناحية الصحراء وبعض الجبال التي ظهرت ظلالها عبر السماء كانت المنطقة غير معروفة ومليئة بالمستنقعات والخيران لذلك عانت الخيول والجمال وسقطت على الأرض وزاد الظلام من صعوبة الموقف فقرر العقيد أن يتوقف حتى ظهور الضوء واختار منطقة جافة وعسكر فيها مع قوته . بعض البرك التي ظهرت مكنته من حسن الحظ أن يسقي الحيوانات وئلا زحاجات المياه . كلف بعض الأفراد بالحراسة ونام الباقون تيقظهم من وقت لآخر أصوات الرصاص الآتية من أم درمان وأيضا من اتجاء القوة المنسحبة

تحركت قوة برودود مرة أخرى في الساعة الثالثة صباحا يوم ٣ ، كانت الخيول وأفراد الفرقة منتعشين وساعد ضوء القمر أن تقطع القوة مسافة جيدة حتى وصلت الى نقطة اللقاء مع الباخرة في الساعة وصلت الباخرة وظهرت مدخنها الطويلة من مسافة بعيدة باعثة الأمل في الحصول على وجبة شهية خاصة أنهم لم يتناولوا أي وجبة منذ الليلة السابقة للمعركة . بعد أن اقتربت القوة من الباخرة وضع أن هناك مستنقعات ومياه عميقة على مسافة ٣٠٠ ياردة بينهم وبين



الباخرة، تمنع الاتصال المباشر ليس هناك أي طريقة لإنزال المون والأغذية. تحركت القوة على أمل أن تجد الباخرة موقعا صالحا كمرسي واستمرت لمسافة ٧ أميال بدون جدوى لم يظهر من الباخرة إلا الصاري والعلم واستمرت المستنقعات كمائع مائي يحول بين القوة والمون وبدون طعام استحال الاستمرار في المطاردة وتأمين مسيرة العودة كان في الاعتبار بالنسبة للمون . جاءت أخبار من بعض الهاربين الذين أسروا أن الخليفة أسرع في انسحابه وأنه بدأ يعيد صفوف قواته . العقيد برورود أراح خيوله حتى تنتهي فترة الحر واستأنف رحلة العودة ولم تصل الفرقة المتعبة وأفرادها الجوعى إلى معسكرهم. خارج أم درمان إلا في الحادية عشر من يوم ٤ سبتمبر . كان هذا حال المطاردة التي قامت بها القوات النظامية.

واصل عبد العظيم ومعه ٧٥٠ من العرب للملاحقة ، كانت معداته خفيفة وهو يعرف طبيعة الأرض واستطاع أن يصل إلى شقيق على بعد ١٠٠ ميل جنوب الخرطوم في يوم ٧ . هنا يحصل على معلومات مؤكدة أن الخليفة يسبق بمسيرة يومين ومعه كميات كبيرة من الأطعمة والمياه وجمال كثيرة واستطاع أن يجند ٥٠٠ فرد من الجهادية كحرس خاص ويرافقه أفراد كثيرون من قبائل مختلفه مع كل هذه الصحبة القوية ، كان يسافر ليلا نهارا في اتجاه الأبيض التي .. يحتلها ٣٠٠٠ مقاتل في الحامية التي ما زالت تحت سيطرته . مع سماعه هذه الأخبار وجد أفراد فرقة الأعراب المواليين أنه من غير المفيد أو ليس من الحكمة الاستمرار في المطاردة وعادت لأم درمان .

في معركة أم درمان والاستيلاء عليها كانت خسائر قوات الحملة كما يلي :

#### الفرقة البريطانية

عدد القتلى - (٣) ضباط

نقيب كالديكوت :	الفرقة الملكية الأولى ورويكشير .
مستر فرين فيل :	الرماحة ١٢ ، تبع للرماحة ٢١ الملكية
مستر هوارد :	مراسل جريدة التايمز

ضباط جرحى - (١١) ضابط

العقيد رودس :	مراسل جريدة التايمز
ملازم أول سلوقيث :	أ.أر.أم.سي
النقيب باقوت :	ف الأولى كامبيون هايلنדרز
النقيب كلارك :	ف الأولى ورويكشير الملكية
ملازم نيكلسون :	ف الأولى كامبيون هايلنדרز
ملازم مولينكس :	الحرس الملكي يتبع اللانسر ٢١
ملازم بيري :	اللانسر ٢١
ملازم برنتون :	الفرقة الثانية للحرس تبع اللانسر ٢١
ملازم نيتشام :	اللانسر ٢١ ( الرماحة )
مستر وليامز :	مراسل الديلي كورنيكل .

ملخص لخسائر الفرق البريطانية

العدد الكلي للخسائر	جريح		قتيل		الفرق
	جنود	ضابط	جنود	ضابط	
٧١	٤٦	٤	٢٠	١	لانسر ٢١
٥	٤	١	—	—	فريندير الأولي
٢	٢	—	—	—	نورث سمرلاند الأولي
٨	٦	١	—	١	رويال ورويك الأولي
١٨	١٧	—	١	—	لينكون شير الأولي
٦	٦	—	—	—	لانكشير بيادة ٢
٩	٨	—	١	—	سي فروث هايلندرز
٣١	٢٧	٢	٢	—	الكامبيرون الأولي
٩	٨	—	١	—	لواء البنادق ٢
١	١	—	—	—	فصائل جيش تابعة
٣	—	٢	—	١	فصائل طبية تابعة
١٧٥	١٣٦	١١	٢٥	٣	المجموع

الجيش المصري

ضباط بريطانيون وضباط احتياطي جرحوا (٦)

النقيب دي روقيمونت

النقيب سميث من الاستخبارات

الملازم هوبكنسون من الميجانسة

الملازم ماندلير

الصول هوبر

القوات الأهلية

الفرق	ضابط		أفراد	
	قتيل	جريح	قتيل	جريح
الفرسان	١	٢	١	٣١
المدفعية	-	١	٢	٢٦
الهجائن	-	٤	٤	٣٨
المصرية الأولى	-	-	١	٥
المصرية الثانية	-	-	-	١٧
المصرية الثالثة	-	-	١	٥
المصرية الرابعة	-	-	-	٤
المصرية الخامسة	-	-	-	٤
المصرية السادسة	-	١	١	٣
المصرية الثامنة	١	-	١	١٠
السودانية ٤	-	-	-	٤٠
السودانية ٥	-	-	٢	٢٣
السودانية ٦	-	-	-	٣١
السودانية ٧	-	-	٢	٥
السودانية ٨	-	-	٢	١٠
السودانية ١٤	-	-	١	٧
المصرية ١٥	-	-	-	٧
المصرية ١٧	-	-	-	٤
المصرية ١٨	-	-	-	٢
الترحيلات	-	-	-	١
المجموع	٢	٨	١٨	٢٧٣

المجموع العمومي ٢٠ ضابطا بريطانيا و ٤٦٢ رجلا

خسائر قوات الدراويش قدرت في الإحصائيات الميدانية وصححت فيما بعد.  
اتضح أنها ٩٧٠٠ قتيل وجرحى قدروا بـ ١٠٠٠٠ الى ١٦٠٠٠ بالتقريب، إضافة  
الى خمسة آلاف أسير .

## الفصل السابع عشر

### حادثة فاشودة

إن الحوادث المتتابعة التي حاولت أن أسردها في هذا الكتاب ، لم يكن لها تأثير على أى بلاد غير تلك التي تتأثر بالنيل . الجزء التالي يحتاج من القارئ نظرة واسعة ، إذ أنه يتعرض لوصف حادثة كادت تعصف بأوروبا، وكان لها أبعاد خطيرة . إن العالم سوف لن يعلم علم اليقين المشروع الأصلي لحملة مارشند أو المخطط الذي كانت جزءا منه ليس في مقدورنا أن نجزم إن كانت الحكومة الفرنسية قد خططت لقوة صغيرة ، أن تحتل مستنقع غامض على أعالي النيل بالرغم من خطورة العملية بالنسبة للقوة ، ولكن كل التفسيرات تشير الى بعد الاحتمالات الأخرى ، أو عدم تحديدها. ما هو الدور الذي كان على الأحباش أن يلعبوه ؟، وأى خدمات قدمت لهم أو ما هي الحوافز التي وعدوا بها، وأى أسلوب كان سيتبع مع الخليفة ؟ وكيف كان سيوظف أفراد قبائل المنطقة ؟ كل هذه الأمور كان يخفيها سر هذا اللغز . كان المعروف أن محاولات فرنسا للتقرب مع الحبشة قد كلفتها بعض الشيء ولكن ، كلف هذا التقارب إيطاليا الكثير ، الأسلحة التي هزمت الطليان في معركة عدوه ، جاءت من مصادر فرنسية . وجود بندقية سريعة الطلقات حديثة الصنع ومن أصل أوربي في حوزة الخليفة مؤشر قوى على وجود مثل ذلك التعاون مع الدراويش ولكن لأى حد كان الغرض من هذه العمليات ، هو مساعدة حملة مارشاند، يبقى هذا معروفا فقط لهؤلاء الذين خططوا لهذه المبادرة والقاتل الذين لم يفصحوا عن شيء .

إن الحقائق غير القابلة للجدل قليلة. من ذلك أنه مع نهاية عام ١٨٩٦ أرسلت حملة فرنسية بقيادة مارشاند من الاطرنطي الى قلب افريقيا . كان إعادة الاستيلاء على دنقلا قيد تمت ، وكانت الحكومة البريطانية تفكر بجدية في استمرار التقدم . مع بداية ١ٸ٩٧ أرسلت بريطانيا حملة برئاسة العقيد ماكdonald يرافقة ١٢ ضابطا اكفاء ، تم اختيارهم بعناية ، سافروا من إنجلترا ، وصلوا الى مومبسا ثم واصلوا مسيرتهم الى يوغندا داخل القارة . الأخطار المؤسفة التي تعرضت لها هذه الحملة هي خارج نطاق هذا السرد ، سوف لا أتعرض للمشاكل والغيره بين المحليين التي احاطت بها . يكفي أن نذكر أن العقيد ماكdonald



كان قد زود بقوات سودانية كانت تقريبا في حالة تمرد ،وقد تمردت بالفعل بعد يومين من تسلمه القيادة . اضطر الضباط للدفاع عن أنفسهم ، قتل بعضهم ، مضى العام في مقاومة التمرد والثورة التي كانت إحدى نتائجه. إذا كان هدف هذه الحملة هو الوصول الى أعالي النيل فالواضح أن هذا الهدف صعب التحقيق. سعدت الحكومة بتكليف الضباط بعمل مسوحات جغرافية للمنطقة ، حتى تحقق بعض المكاسب .

مع بداية ١٨٩٨ ، كان واضحا لكل أولئك العالمين ببواطن الأمور ويديرون السياسة الخارجية ببريطانيا العظمي ، إن أى نتائج لحملة ماكلونالد سوف لن يكون لها أى تأثير على سير الأحوال في السودان . التقدم للخرطوم ، إعادة احتلال المديرية المفقودة ، كان قرارا لارجعة فيه وكانت قوات الجيش الانجليزي / المصري تحتشد في بربر .

كان معلوما أن حملة مارشاند كانت في طريقها الى أعالي النيل وكان متوقعا وصولها لوجهتها في خلال شهر قليلة . كان أقوى الاحتمالات ، أن الجيش الجبار الذي تحرك من البحر الأبيض المتوسط متجها جنوبا ، والحملة الصغيرة التي تحركت من المحيط الاطلنطي متجهة شرقا ، لابد أن يلتقيا قبل نهاية العام وأن أي لقاء سيتسبب في صدام بين بريطانيا العظمي وفرنسا.

لا أظاهر بأني امتلك معلومات خاصة عن هذا الأمر غير تلك التي أعلنت في وقتها على المواطنين ولكن على القارئ أن يأخذ في الاعتبار ، إذا كانت سياسة الوفاق التي ظل اللورد سالزبوري يتبعها في ذلك الوقت تجاه روسيا والصين، والتي أثارت انتقادات حادة في إنجلترا ، كان الغرض منها في حالة حدوث صدام فرنسي / بريطاني حول احتلال أعالي النيل أن تجد فرنسا نفسها في عزلة تامة . بعد هذه الخواطر والمقدمات يمكننا أن نرجع الآن لمسرح الحرب .

في السابع من سبتمبر ، خمسة أيام بعد معركة أم درمان والاستيلاء عليها ، ظهرت الباخرة "التوفيقية" باخرة صغيرة يمتلكها الدارويش من بقايا البواخر في عهد غردون، ظهرت تبهر على النيل الأبيض . بجارتها العرب عندما اقتربوا من الخرطوم وشاهدوا العلم المصري الأحمر فوق الأبنية عرفتوا أن الأمور ليست على ما يرام خاصة بعد أن شاهدوا قبة المهدي المتهدمة ، استمروا في الملاحه، فوجدوا أنفسهم محاطين ببواخر الأتراك ، فاستسلموا بدون

شروط . كانوا قد غادروا أم درمان قبل شهر بصحبة الباخرة الصافية، التي تحمل ٥٠٠ رجل وكانت تعليمات الخليفة هي جلب الغلال والحبوب من طنيل الأبيض . سارت الأمور حسب ماخطط لها إلى أن وصلوا حامية الحكومة القديمة في فاشودة . هنا أطلقت عليهم النيران فرقة من الجنود السود تحت قيادة ضباط بيض ومعهم علم غريب الشكل كانت النيران قوية حتى فقدوا أربعين شخصا بين قتيل وجريح. ساورتهم الشكوك في هوية هذه القوة العنيفة، فاستداروا راجعين. الأمير المسئول تخلف مع الباخرة الصافية في منطقة الرنك وأرسل "التوفيقية" للخليفة لتعود بالتعليمات والإمدادات وللدد العسكرى .

بلغت القصة للسردار وسرت في المعسكر كالنار في الهشيم . ذهب بعض الضباط للنهر للتأكد من القصة وصحتها. أثار الرصاص ظاهرة في هيكل الباخرة الخشبي ، استعمل الضباط المطاوى واستخرجوا الرصاص ، ليست كتلة خشنة من الرصاص ، المصنوعة من سلك التلغراف أو حديد قديمة كذلك التي تستعملها القبائل البدائية ولكنها رصاصة مدببة مغلقة بالنيكل كالتى تستخدمها القوات الحديثة فقط وللبنادق ذات العيار الصغير ، هذا دليل ماضى قاطع ، أن هنالك قوة أوربية على أعالي النيل . ذكر البعض أنها قوات بلجيكية من الكنفو ، وقال البعض أنها حملة إيطالية ، وآخرون قالوا إنها قوات فرنسية . بعض الذين يؤمنون بقدرات الخارجية البريطانية ظنوا أنها قوات بريطانية ، لابد أنها الحملة المذكورة . تم استجواب البحارة العرب عن العلم الذى شاهدوه ، إجاباتهم لم تكن قاطعة ، ألوانه زاهية كانت إجاباتهم ولكنهم لم يستطيعوا تحديد ألوانه أو التشكيل الذى كان عليه. كانوا رجلا فقراء وأن الله عظيم .

لا الصبر ولا التنبؤات يمكن أن تريحا الفضول ، استمع من كان في المعسكر لهذه القصة بدون اهتمام ، بعد انتصارهم السهل كانوا يتمخضرون في دعه ، كانوا واثقين أنهم ينتمون الى أقوى جيش اخترق قلب أفريقيا . إذا وجدت حرب جديدة ، ما للحكومة إلا أن تعطى الأمر وسيلحقون الهزيمة بالقادمين الجدد بنفس القدر الذى هزموا به الدراويش .

في الثامن من سبتمبر تحرك السردار الى فاشودة مع خمس بواخر، الكتائب السودانية السادسة والثامنة ، فرقتان من الكامرون هايلندرز بطارية بيك للمدفعية وأربعة مدافع مكسيم. وبعد رحلة ثلاثة أيام وصلوا معا الى الرنك ووجدوا الباخرة الصافية راسية على

الشاطئ ومعها الـ ٥٠٠ درويش يعسكرون على شاطئ النهر تماما كما ذكر بحارة التوفيقية. كان هؤلاء البلهاء من الحماقة بحيث فتحوا النيران على البواخر الحربية، عندها بادرت الباخرة سلطان بإطلاق مدفعتها عليهم حتى هربوا. كانت ماكينات الصافية تلور، محاولة الحرب، الأمر الذي لا يمكن الجزم به، صوب قائد الأسطول كييل قذيفة الى غلاية الصافية وفجرتها، اغتاز السردار من هذا التصرف إذ كان يأمل أن يضم الصافية الى اسطوله النهري.

بعد هذه الحادثة، استمرت الحملة في تقدمها على النيل الأبيض -السدود التي قابلتهم بعد رحلة يومين من الخرطوم لم تعرقل سير البواخر لأن التيار القوي كان يطهر المجرى الرئيسى للنهر، ولكن كانت الأعشاب التي تطفو على سطح الماء بعرض من ١٢ الى ٢٠٠ ياردة كانت تمنع البواخر من الاقتراب من الشاطئ لترسو عليه.

الشواطئ نفسها قد أصابت أفراد الحملة بالاكئاب لأنها كانت تبدو غير مضيافة أو مرحة كان النهر في بعض الأوقات يجري لمسافات طويلة مليئا بالأعشاب والمستنقعات وتوجد فيها فقط مجموعات من فرس النهر. ساعات كانت تظهر مساحات شاسعة من الأرض الطينية على مدى البصر وساعات غابة كثيفة من الأشجار تحتها شجيرات الشوك الصغيرة تمتد حتى حدود الماء. تنطلق بعض القردة بنشاط وأحيانا حتى الفهود تظهر على الأشجار بدون اكتراث. ولكن البلد، سواء كانت غابة سهول طينية مسطحة أو وديان كانت دائما رطبة محبومة، أرض مبتلة تبخر تحت أشعة الشمس الحارقة وتعج بالناموس وكل أنواع الحشرات الأخرى.

واصل الأسطول النهري رحلته محولا الماء البني اللون الى زبد ومخيرا للكائنات التي توجد على جانبي النهر حتى وصل الى مشارف فاشودة يوم ١٨ سبتمبر. توقفت قطع الاسطول، راسية على الشط لبضع ساعات في العصر لتتيح الفرصة لرسالة من السردار الى القوة الأوربية الغامضة كي تسبق وصوله. في الصباح التاسع عشر، شوهدت مركب حديدية صغيرة تتوجه ناحية الحملة كان بها صول سينغالي ورجلان حاملان رسالة من الرائد مارشند، تعلن وصول القوة الفرنسية واحتلالها للسودان ثم هنا السردار على انتصاره ورحب بقدومه الى فاشودة باسم فرنسا.

بعد أميال قليلة وصلت البواخر الى نهاية رحلتها ورسست على الشط بالقرب من مبانى الحكومة القديمة ومدينة فاشودة . تكونت قوة المارشاند من ١٢ ضابطا ، أو ضابط غير نظامى فرنسى و ١٢٠ جنديا أسود من إقليم النيجر . كانت لديهم ٣ مراكب حديدية صالحة للشراع أو التجديف ولنش بخارى صغير " فى رهردي " الذى ارسل جنوبا لجلب مدد إضافى . كان لديهم مؤن لسته أشهر للضباط وتكفى لثلاثة شهور بالنسبة للجنود ، لم تكن لديهم مدفعية وكانوا فى حاجة ماسة لذخيرة للبنادق ذات عيار صغير . كان موقفهم حرجيا ومهزوزا . كانت القوة الصغيرة غير قادرة على الحركة بدون أى وسيلة للاتصالات وبدون أى امكانيات لشن هجوم أو حتى النجاح فى التقهقر ، استنفدوا ذخيرتهم فى طرد الدراويش وصد هجماتهم وكانوا كل يوم يتوقعون الهجوم . تملكهم الذعر عندما سمعوا من بعض الأهالى أن جيش الدراويش يتقدم نحوهم بخمس بوارج مسلحة ، ظلوا لثلاث ليال لم يغمض لهم جفن منتظرين هجوم العدو القوى .

تنفس الفرنسيون الصعداء ولم يستطيعوا إخفاء فرحتهم وراحتهم لوصول القوة الأوربية .

السردار وضباطه هم أيضا كانوا متأثرين ومعجبين بالانجازات المدهشة لهذه الفئة الصغيرة من الرجال الأبطال . مضت سنتان منذ أن تركوا المحيط الأطلنطى ، انقطع اتصالهم بعالم البشر . حاربوا قبائل متوحشة ، عانوا من الحمى ، تسلقوا الجبال اخترقوا الغابات الخطيرة .

مكثوا خمسة أيام ولياليها داخل المستنقعات والماء حتى رقا بهم . فقدوا خمس قوتهم ومع كل ذلك واصلوا حتى وصلوا الى فاشودة يوم ١٠ يوليو وزرعوا العلم الثلاثى فى أعالي النيل .

نزل الضباط البريطانيون متأثرين بهذه الانطباعات وجاء الرائد مارشند مع حرس الشرف لاستقبالهم . شد على يد الجنرال بحرارة ، قال السردار لمارشند " اهتلك على كل إنجازاتك " رد الرائد " بل إنها إنجازات هؤلاء الجنود ، مشيرا الى قواته " . عندما حكى السردار حكاية هذا اللقاء قال " عندما تأكدت من أنه رجل مهذب " جتلمان " .

لا حاجة لنا في الدخول في تفاصيل المحادثات الدبلوماسية التي تلاحقت . تجاهل السردار بكل أدب وجود العلم الفرنسي ، وبدون التدخل مع حملة مارشند أو الطابية التي احتلتها رفع الاعلام المصرية والبريطانية مع كل ما يلزم من مراسيم ومع أصوات الموسيقى والتحية من مدافع الأسطول النهري أقيمت حامية في فاشودة مكونة من الفرقة السودانية السادسة ، ٤ مدافع من بطارية بيك ومدفع مكسيم ، كلها تحت قيادة العقيد جاكسون الذي عين حاكما مدنيا وعسكريا على إقليم فاشودة .

عند الساعة الثالثة بعد الظهر واصل السردار رحلته بالبوأخر الى الجنوب وصل في اليوم التالي الى مصب نهر السوبات الذي يبعد مسافة ٦٢ ميلا من فاشودة . هنا أيضا رفعت الاعلام وكونت حامية أخرى تتكون من نصف كتيبة الفرقة السودانية الثامنة والمدفعين الباقين من بطارية بيك . ترك السردار الباخرتين سلطان وأبو كلى تحت تصرف العقيد جاكسون ورجعت الحملة الى الشمال .

سوف لن أحاول وصف المفاوضات العالمية أو المناقشات التي تلت وصول الأنجلو الى أوروبا ولكنه من الأهمية بمكان أن نذكر بفرح غامر أن هذه الأزمة ظهرت وإيجلترا متحدة . كان تصميم الحكومة تباركه المعارضة المخلصة ، يؤيده رضاء الجماهير الهادى ومسلح بفاعلية الأسطول البريطانى .

في البداية وعندما كان السردار يبحر جنوبا ملأ عقول الناس كثير من التعجب والإثارة ، ولكن عندما انتهت الأثارة باكتشاف أن ثمانية مغامرين فرنسين قد احتلوا منطقة بحجم فرنسا ، هي فاشودة واصلوها رقعة فرنسية ، اجتاحت الناس موجات من الغضب العميق ليست هناك قوة أوربية ينظر اليها الرجل الانجليزى العادى بكراهية أكثر من فرنسل ومع كل كان الاتفاق كاملا ، يجب أن يذهبوا . يجب أن يغادورا فاشودة وإلا كل الجيروت الملكى ، كيان وقوة ، وأي شئ يمكن للخيال أن يسميه بريطانى يجب توظيفه لإجبارهم على الرحيل .

أولئك الذين لا يستطيعون استيعاب الجو الساخن والطبع الحاد الذي اكتسح الأمة ، عليهم بالرجوع الى الدراما السودانية الطويلة . الواجب كان يحتم إعادة الاستيلاء وغزو المستعمرة التي تم الرحيل والجلاء عنها ، ولما كان هذا الأمر يمكن أن يتم بيسير وسلام ،

أصبح الواجب متعة. تابع الناس أخبار العمليات بشغف واهتمام زائدين، وكلما تقدمت ازداد حماس الأمة. عندما تم قهر المد البربرى، بدأت علامات البحر المقدمة تظهر واحدة بعد الأخرى. أسماء المدن التي عابت عن الذاكرة، أو ذكرت مع المرارة والحزن بدأت تظهر في اللافتات، في الجريدة الرسمية وفي صدر نشرات الصحف. أننا راجعون، دنقلا، بربر، المتمة، من لم يسمع عن هذه الأسماء؟ الآن ترتبط بالانتصار. جيوش غفيرة حاربت في الحدود الهندية، كانت هناك حرب في الجنوب والشرق وفي غرب إفريقيا لكن عيون انجلستوا تركزت نحو النيل والحملة الزاحفة للأمام ببطء وثبات بدون مقاومة ولا يمكن أن تقاوم.

عندما جاء النصر النهائي بعد طول انتظار، جاء كاملا دون نقصان، استقبلته الجماهير بموجة عارمة من الانتشاء، والشعب البريطاني الذي نال أكثر مما توقع، جلس يشكر ربه، حكومته وجنرالاته. فجأة مع كورس احتفالاته المبهجة، ظهرت نغمة نشاذ. واجهتهم حقيقة أن "قوى صديقة" وبدون أى تحدى أو استفزاز، تعمل لسلب ثمار انتصاراتهم. ظهر لهم الآن أنهم بينما كانوا يفنون أنفسهم بعمليات حربية عظيمة وفي وضع النهار وأمام أنظار العالم، في تنفيذ مشروع قريب إلى قلوبهم، تجري عمليات أخرى في الخفاء وبالخداع، تتقدم نحو قلب القارة السوداء بهدف شرير ومثيرا للقلق ليحرّمهم من ثمرة مجهوداتهم. الآن يقفون بصلاية ضد مثل هذا السلوك، كل الشعب يبدأ واحدة.

تراجعت فرنسا عندما وضح لها جليا أن بريطانيا العظمى مستعدة للحرب من أجل الاحتفاظ بفاشودة. فاشودة، منطقة مستنقعات بائسة وليست ذات أهمية لهم. ذكر لورد سالزبوري في كتابه "صعاب تواجه مكتشف في أعالي النيل" أن الوزير الفرنسي قد ذكر له أن حملة مارشاند ما هي إلا "بعثة حضارية" وأهم في غني عن المستنقع أو البعثة إذا كان هذا الأمر سيورطهم في مخاطر وحرب مدمرة، لقد فشلت للمؤامرة. كاد "جسي فواكس" أن يفقد الحواجز، بارا بقسمه وتنفيذا للأوامر، ولكن باقي المتآمرين لم يكن لديهم نفس الحماس. ابتعد الأحباش عن المشكلة القبائل الزنجية كانت تنظر باستغراب نحو الأغراب ولم تكن لديهم أي رغبة في القتال إلى جانبهم. كرامة وعزة الخليفة رفضت أى تقارب أو حوار مع أى نوع من أنواع الاستعمار ولا يمكن أن تميز بين غازي وآخر، كلهم أتراك ملعونون. وأخيرا فإن النصر في أم درمان، وقبله خط سك حديد الصحراء، قد أحدث



ثورة في الأوضاع في وادي النيل كله . بعد عدة أسابيع من التوتر ، رضخحت الحكومة الفرنسية ووافقت على سحب الحملة من إقليم أعالي النيل .

توالى الأحداث في هذه الأثناء في فاشودة . تقع المدينة التي اختير موقعها بعد دراسة من قبل الحكومة المصرية ، على الشاطئ الشمالي للنيل الأبيض على سفح متدرج يرتفع بحوالى أربعة أقدام من أعلى نقطة لفيضان النيل في ذروته . يبدأ موسم الأمطار في يونيو ويستمر حتى أكتوبر وأثناء هذا الموسم تكون المنطقة كلها مستنقعا كبيرا وتصبح فاشودة نفسها جزيرة لكنها ليست عديمة النفع . إنها تمثل المنطقة الوحيدة في الشاطئ الغربي الصالحة لإرساء البواخر ، لا توجد منطقة صالحة لعشرات الأميال على طول النهر . كل الطرق ، مجرد طرق ضيقة للجمال ، تتجمع من المنطقة السفلى لكردفان ، في حامية الحكومة ولكنها صالحة فقط في الموسم الجاف . التربة خصبة ومع الكم الهائل للمياه وحرارة الشمس كل ذلك يجعلها صالحة لزراعة أى محصول . استطاع الضباط الفرنسيون بما عرف من ترف دولتهم ، أن يجهزوا مزرعة خضراوات بالرغم من مهاجمة فئران الماء ، كانت تدمهم بخضراوات تكسر تكرار الأكل للمل وتنوعة . إن الأهالى الأصليون من الدينكا والشلك ، لا يرغبون في العمل إلا بما يسد رمقهم ، ولما كانت الاحتياجات الضرورية يتم الحصول عليها بسهولة فلم تكن هناك أى زراعات الا القليل . وربما يقال أن خصوبة التربة هي السبب في فقر البلاد . في كل مواسم السنة يساعد الجو في فاشودة على انتشار الحشرات ، وحمى الملاريا تهاجم الأوربيين والمصريين ، وتكسر مقاومة أقوى الرجال وربما تسبب الوفاة في بعض الحالات<sup>(١)</sup>.

في هذه البقعة النائية البعيدة عن المدينة والصحة والاستقرار عاشت حملة ما رشانده والحامية المصرية في عداوات لكنها مؤدبة ، لأكثر من ثلاثة أشهر . شغلت الحملة الفرنسية الحامية في الجزء الشمالى ، عسكر المصريون أمام أطلال المدينة القديمة . استمر تبادل المجاملات الاجتماعية ، رد الضباط البريطانيون على هدايا الخضروات الطازجة ، بارسال الصحف وضرويات أخرى ، الجنود السنغاليون كانوا على خلق ومنضبطين ، سرعان ما قلند افراد الفرقة السودانية ضباطهم ورددوا الهدية بأحسن منها . طغي شعور متبادل للاحترام بين العقيد جاكسون والرائد مارشاند . إن التائد المندفع للفرقة السودانية السادسة والذي حاز

(١) أن المكان غير صحيح بالمرءة ، في مارس ١٨٩٩ (أجف موسم في السنة) من مجموعة ٣١٧ رجلا في المنامة لم يكن صالحا للخدمة سوى ٣٧ رجلا جاء هذا في تقرير سير وليام كارستن رقم ٥ عام ١٨٩٩ مصر.

على أكثر من ١٤ ميدالية مصرية ، كان كريما في إطرائه على المستكشف الفرنسي . وقد قدر مدي المصاعب والمشاكل التي تعرض لها ، وبالتالي كان حريصا على الثناء لكل إنجازاته . وبما أن العقيد جاكسون كان يتحدث الفرنسية بطلاقة ، فقد كان الانسجام والتفاهم بينهما كاملا ، ولم يحدث أى سوء تفاهم يستحق الذكر . لكن بالرغم من المحاملات والمعاملات المهذبة ، إلا أنها كانت في نطاق رسمي وغير ذلك كان الالتزام عظيم بالربط والضبط .

استكانت قبائل الدينكا والشلك في البداية لرجال الحملة الفرنسية وكانت تمدهم بما يحتاجون من مؤن وأغذية ، كانوا قد سمعوا أن هناك رجلا بيض قادمون ، ولم يكن لهم علم بأن هنالك أجناس مختلفة بين ذوات البشرة البيضاء . كانوا يعتقدون أن حملة مارشاند هي مقدمة لقدم جيش السبردار ، ولكن عندما علم الأهالي العدواة التي بينهما وأنهم في واقع الأمر قبيلتان متنافستان ، ورغم أن خوفهم من العلم المصري كان واضحا في البداية ، إلا أنهم سارعوا بولائهم للقوي الأقوى وقاطعوا الفرنسيين نهائيا .

في منتصف أكتوبر وصلت رسائل لمارشاند من فرنسا عن طريق الباخرة ، عندما قرأها قرر السفر للقاهرة . العقيد جاكسون الذي كان حريصا على الإبقاء على الحالة الراهنة كما هي ، توسل لمارشاند أن يعطي أوامره لنائبه لضمان ذلك . وافق مارشاند بسرور وبعد أن أعطي أوامره سافر الى أم درمان . هناك شاهد أكوام الجيش والخراب الذي أنقذ منه وواصل الى القاهرة ، حيث تأثر بالخطب والدموع . أثناء غياب مارشاند ، بدأ النقيب جـيرمين الذي تولى القيادة من بعده في التملص من تنفيذ الأوامر ، ولما كان يتوق للفت الأنظار اليه ، بدأ في تنفيذ سياسة مستفذه ومعادية احتل منطقة الدينكا غرب النهر .

أرسل طرق استكشاف للداخل ومنع شيوخ الدينكا من الحضور لفشودة لتقديم فروض الولاء والطاعة وأى طلبات لهم . ثم أرسل باخرته والنش في دهردي بعد أن رجع من الجنوب ، الى ما بعد للمناطق الشمالية التي كان قد اتفق عليها الطرفان ، وحددها السردار ووافق عليها مارشاند .

احتج العقيد جاكسون وأرسل الاحتجاج وراء الآخر ، لكن جريمين رد عليها بعجرفة ، واستمر في سياسته الاستفزازية . أخيرا أعلن الضابط البريطاني بأنه سوف يمنعها من الرجوع للنقطة الفرنسية لو أن جريمين أرسل أى بواخر داخل منطقة الدينكا ، أعلن جريمين

أنه سوف يقابل القوة بالقوة وارتفعت الانفعالات ، تشعلها حرارة الجو، الحمى، قلة الراحة والملل كانت الأحوال صعبة ، حكمة وصبر العقيد جاكسون وحدها هى التى منعت صداما كان سيكون له صدى فى كل أنحاء العالم . احتفظ بقواته بعيدا عن الحامية الفرنسية وبقيت على خطوطها بكل حزم .

كان هناك يوم أسود ، شوهد فيه الضباط الفرنسيون يعملون بقمصانهم فى عمل استحکامات يساعدهم جنودهم السنغاليون الخالصاء ، استعدادا لنضال يائس .

كانت الأحوال فى الجانب الآخر هادئة بدون نشاط يذكر. كانت الحامية المصرية بالرغم من أنها كانت تحت السلاح إلا أنها اختارت أن تكون بعيدة عن الأنظار . لكن الدخان المتصاعد من مداخن البوارج يعلن أن كل شىء جاهز . بعد فترة غياب وفى لحظة سعيدة عاد مارشاند ووبخ نائبه وقدم اعتذاره للعقيد جاكسون وأصبح معلوما أن الحكومة الفرنسية قد أمرت بالجلء عن فاشودة، ثم مضت بضعة أسابيع فى التحضير لرحلة المغادرة .

جاء يوم الرحيل فى الساعة الثامنة والثلاث من صباح يوم ١١ ديسمبر وأنزل الفرنسيون علمهم على أنغام البورجى بينما ظل البريطانيون يشاهدون هذه المراسيم كمتفرجين دون أن يتدخلوا . عندما نزل العلم جرى ضابط فرنسى وخلع العمود ورماه على الأرض وهو يلوح بقبضه يديه ويشد شعره فى مرارة وغيظ شديدين ولا يمكن لأحد إلا أن يتعاطف معه نسبة لمعاناتهم غير المجدية وما قاموا به من عمل. ركب أفراد الحملة فى الساعة التاسعة والنصف وتحركت مجموعتهم ، اللنش فى دهيردى يقطر وراءه صندل حديدى قلم ومركب حديدى، وسارت للمركب الثلاث الأخرى فاردة أشرعتها وحاملة للجنود . عندما مرت أمام قطع الأسطول النهري الصغير على حامية المعسكر المضرى ، حياهم حرس شرف من الفرقة السودانية السادسة وعزفت الموسيقى سلامهم الوطنى ، رد على المجاملة أفراد الحملة بأن نكسوا أعلامهم ، فعل الجانب الآخر نفس الشىء ، نكست الأعلام المصرية والبريطانية ، استمرت المراكب حتى وصلت منحى النهر ، نزلوا على الأرض . الآن قد حفظ الشرف ، توجه مارشاند وضباطه لتناول طعام الإفطار مع العقيد جاكسون . كان الاجتماع وديا جدا وتبادل جاكسون مع جيرمين عبارات المجاملة ، ثم أعطاهم القائد باسم

الفرقة السودانية السادسة ، علم الأمير الذى كان قد هاجمهم واستولت عليه الفرقة في الكرنك . شد على أيدي الضباط وهم تمنوا لهم رحلة سعيدة .

مرة أخرى بدأ هؤلاء الضباط الثمانية الذين جاعوا كل هذه المسافة وحققوا كل هذه الإنجازات رحلة العودة المنهكة عن طريق الحيشة الى الساحل ومن هناك للوطن الذى خدموه بإخلاص وتقان والذى سوف لن ينكر أو ينسى خدماتهم .

دعونا الآن ندلف للتداعيات العالمية لإعادة احتلال السودان ، طالما سنحت الفرصة . تم تسوية المشكلة بين إنجلترا وفرنسا بخصوص وادى أعالي النيل ، فيما يختص بالجانب المادى ، سويت نهائيا باتفاقية وقعت في لندن يوم ٢١ مارس عام ١٨٩٩ بين لورد سالزبورى ومستر كامبون . اعتبرت الاتفاقية التى تحدد محاور مناطق نفوذ القوتين ، كإضافة للفقرة الرابعة من اتفاقية مؤتمر النيجر التى تم التوصل اليها العام السابق . النص الكامل كان موجهاً بحيث يمكن فهمه بعد دقائق معدودة ، مع دراسة الخريطة ، يمكن الرجوع اليه في الملحق المرفق . كان العنصر الفعال للاتفاقية ينص على أن يحجز كل منابع وحوض النيل الى إنجلترا ومصر وتنص أن تكون لفرنسا يد مطلقة على كل أجزاء شمال أفريقيا غرب وادى النيل الحالية من أى احتلال أوروبى ، فيما يختص بمناطق النفوذ . هذا التقسيم العجيب لنصف القارة بين القوتين الأوربيتين ما كان متوقعا أن يثير حماس القوى الباقية. ألمانيا وعدت باتباع سياسة " الباب المفتوح " معها بالنسبة لمناطق أعالي النيل ، إيطاليا احتجت بoudاعة ، لحقت بألمانيا . روسيا لم تكن لها رغبة في هذا الربع . اتفقت إنجلترا وفرنسا ، لم يتم التشاور مع بقية الدول ، والاتفاقية بناء عليه تعتبر مجازة من العالم بشكل عام .

لم يحن الوقت بعد لمحاولة إعلان من من بين القوتين قد نال أكبر الميزات ؟ . فرنسا قد حصلت بضربة واحدة وبدون أى صراع حربى أو معارك عسكرية ما قد يمكنها من احتلال وضم إقليم أفريقى كبير وما استولت عليه الآن يمكن اعتباره " منطقة تطلعات " تتحول مع مرور الزمن الى " مناطق نفوذ " والمستقبل البعيد ربما يشهد ضم كل الإقليم لها . هناك مصاعب كثيرة يجب التغلب عليها أولا . نفوذ " السنوسى " القوى لا يزال قائما ويجب إزالته. المملكة المستقلة "لوداى" يجب أن تهمز ، دويلات كثيرة سوف تقاوم بضراوة . كان لفرنسا ما يشغلها في أفريقيا الوسطى لأعوام قادمة ، وحتى بعد أن ينتهى الصراع ، فلن تكون هذه

الإقليم ذات نفع كبير . كانت تشمل صحراء ، منطقة الصحراء الكبرى ومساحات شاسعة من المستنقعات والكثبان غير المفيدة ونهر واحد فقط نهر "الشارى" يجرى خلال تلك المنطقة ولا يصل الى المحيط . حتى بحيرة تشاد التى يصب فيها نهر الشارى تبدو كأنها تتسرب فى مجرى خفية الى باطن الأرض وتتحول الى مستنقع .

بريطانيا العظمى ومصر فى الجانب الآخر قد حازت على إقليم رغم صغر حجمه بالمقارنة ، إلا أنه ولىدى كبير أكثر خصوبة ، سهل للواصلات نسبيا وقد تم الاستيلاء عليه بالفعل وبه المجرى المائى لنهر النيل . فرنسا قد تستطيع تلوين أجزاء كبيرة من قارة أفريقيا باللون الأزرق والمنظر بالنسبة للقارة قد يسر عين الشخص الوطنى ، ولكن من الواضح أن عليها قبل أن تشرع فى تطوير ممتلكاتها ، تحويل التطلعات الى نفوذ والنفوذ الى احتلال ، وعليها أن تعمل بقوة ، وتدفع أكثر وتنتظر أطول للعائد ، من الملاك المتواضعين لودى النيل . وحتى العائد المنتظر عندما يتحقق ، سوف لن يكون عائدا ذا قيمة كبيرة .

على نا الآن أن نناقش التسوية التى بين غزاة السودان . تحركت بريطانيا ومصر يدا بيد على النهر العظيم ، اشتركتا ، ولو بنسبة غير متعادلة فى التكاليف بالنسبة للحرب من مال ورجال . تكون الجائزة لهما معا . لو أعلنت بريطانيا ضم السودان للبشر ، لن يكون هذا عدلا بالنسبة لمصر ، مع العلم أن كل الدعاوى والمطالبات بمنطقة فاشودة قد استندت على حقوق مصر السابقة فى الإقليم . ومن ناحية أخرى إذا قدر للسودان أن يصبح مصريا مرة أخرى ، عليه تحمل أغلال ذلك البلد السجين . كل للمشاكل فى دلتا النيل ستتحول لأعلى النيل ، السيادة العثمانية والمشاكل المكررة الثقيلة سوف تضاف لمشاكل السودان الإدارية تخليص البلد الجديد من لعنة العولة ، كان هدفا فى غاية الأهمية و"اتفاقية السودان " بين بريطانيا ومصر التى نشرت فى ٧ مارس ١٨٩٩ تحقق هذا الغرض . ككل الأعمال الجسيمة التى قامت بها الوكالة البريطانية لمصر ، مرت الاتفاقية بدون أن تلفت أى أنظار . تحت سلطة مصر قد تم إنشاء إقليم فى وادى النيل ، لا هو بريطانى أو عثمانى ولا أى شيء آخر متعارف عليه فى أوروبا . المحكمون الدوليون قد واجهوا كيانا سياسيا جديدا تماما ، اكتشف بعد " دبلوماسى رابع " بريطانيا العظمى ومصر سوف تحكمان السودان معا . الغزاة الحلفاء أصبحوا المالكين المشتركين .

سأل القنصل العام النمساوى اللورد كرومر " ماذا تعنى اتفاقية السودان هذه ؟" رد  
المنسوب البريطانى الذى عرك الحياة السياسية للمصرية وخبر خفاياها لأكثر من ٢٢ عاما "  
أنها تعنى هذه وبادر باعطائه نسخة من الوثيقة غير المفهومه ، هذه الوثيقة التى بموجبها ربما  
يوما ما يخطو هذا القطر نحو السلام والرخاء .





## الفصل الثامن عشر

### على النيل الأزرق

إن سلطة الخليفة وقوة جيشه قد تم القضاء عليها في الثاني من سبتمبر ، وكانت معركة أم درمان ذروة النهاية الطبيعية لقصة الحرب هذه، يبقى للذين حاربوا ، وأكثر للذين سقطوا في معارك لاحقة ، ذروة جاءت أخيرا شيئا ما . بعد النصر ، لم يعد السودان هو المصدر المهم للأخبار التي تهم الناس . رحلت آخر كتيبة بريطانية الى أسوان شمالا ، رحل آخر مراسل حربي إما للقاهرة أو الى لندن ، ولكن لم تنته المعارك الحربية بعد .

لقد تمت هزيمة العدو ، بقي إعادة غزو الإقليم . الدراويش في حاميات المديریات كلنوا لايزالون يحتفظون بولائهم للخليفة ، بعض القوات مازالت في الميدان . لم تتأثر مداخيل كردفان أو دارفور البعيدة بالمعركة العظيمة على ضفاف مقرن النيلين . كانت الإشاعات تنتشر بوجود قوات أوربية في أقاصى الجنوب . مكنت سيادة السردار على المجرى المائى من إتمام إعادة احتلال معظم أجزاء السودان المصرى ، كل المدن أو المحطات على طول النيل والأهوار الرئيسية وفروعها ، تعيش تحت رحمة البواخر الحربية ، لم يحتج الأمر إلا إرسال البواخر لرفع العلم المصرى والعلم البريطانى. أرسلت حملتان للنيل الأبيض والنيل الأزرق لإقامة الحاميات ولإخماد أى تمرد . كانت الحملة الأولى بقيادة السردار التى تركت أم درمان يوم ٨ سبتمبر وأبحرت على النيل الأبيض نحو فاشودة ، لقد سردنا الاحداث التى تلت الحملة . الحملة الثانية تكونت من البواخر " شيخ " و " حفىر " مع فرقتين وفرقة موسيقى الكتيبة السودانية الخامسة يرأسها الجنرال هنتر ، غادروا أم درمان يوم ١٩ سبتمبر على النيل الأزرق الى أبو حراز . لحقت بقية الكتيبة الخامسة بمجرد أن تم الحصول على البواخر ، كانت هذه مشغولة في نقل القوات البريطانية الى عطبرة والعودة بالمؤن لأم درمان .

كان تقدم الحملة على النيل الأزرق احتفالية نصر مستمرة، اصطف العشرات من سكان المناطق المتاخمة لشاطئ النهر على الجانبين يهللون بأصوات عالية، نتيجة ربما لتخلصهم من سطوة الخليفة الجبارة ، أو مآسى الحرب، ونتيجة للخوف أو الاستغراب. صاحبت جموع الشعب البواخر من على الشواطىء وهى تزحف، الرجال يرقصون بسيوفهم والنسوة

أيزغردن . كان الاحتفال طاغيا برجال الحملة وعند المرور بالمراكز الكبيرة تجمع الآلاف في تأثير بالغ ، بلغ الحماس ببعض الأهالي أن اقتلعوا الأخشاب من منازلهم وأحضروها كوقود للبواخر . لا أجزم إن كانت هذه القصة حقيقية أم لا ، ولكن الحقيقة أن البواخر قد تم تمويلها بينما تتقدم الحملة كان الاستقبال حارا من قبل القبائل السوداء التي قاست من ظلم العرب ( ٩ )

في ٢٢ سبتمبر اكتشف أن قوات عثمان دقنه التي لم تشارك في معركة أم درمان كلنت تعسكر في الجزيرة على بعد أميال قليلة شمال رفاعة . حضر الأمراء والشيخ واستسلموا للجنرال هنتر ، ومعهم ٢٠٠٠ رجل . جمعت أسلحتهم ، وضعت القيود على أيدي موسى دقنه ابن أخت عثمان وأخذ كأسير . أما البقية الذين كانوا من منطقة سواكن ، فقد طلب منهم الرجوع لأقليمهم وكانوا سعداء باطاعة هذا الأمر .

في اليوم التالي وصل الجنرال إلى وادمدين حيث استسلمت حامية الدراويش وقواتها البالغة ألف رجل للباخرة " الشيخ " . هؤلاء الرجال الذين كانوا ضمن قوة الدراويش الدائمة تم ترحيلهم في مراكب شراعية لأم درمان حيث انضموا لبقية الأسرى هناك . وصل جنرال هنتر إلى الرصيرص يوم ١٩ سبتمبر ، وهي تبعد بنحو ٤٠٠ ميل من الخرطوم وتعتبر أقصى نقطة صالحة للملاحة على النيل الأزرق . وضع جامية في يوم ٣٠ أكتوبر من الفرقة السودانية الخامسة في الرصيرص ، في كركوج وسنار ( رئاسة الحكومة للأقليم ) وفي وادمدين . بعد أن ترك باخرة لعمل دوريات في المنطقة ، رجع لأم درمان .

القوة الوحيدة للدراويش التي لم يكن في حسابها الاستسلام للغزاة ، والتي تم القضاء عليها بعد ثلاث معارك شرسة ، هي قوة أحمد فضيل . أحمد من أخلص الرجال لدعوة الخليفة ، كان قد أرسل بعد الهزيمة على نهر عطبرة لجمع كل ما يستطيع من أفراد من منطقة القضارف والقلابات وإحضارهم إلى أم درمان للانضمام إلى القوة الرئيسية ، عاد الأمير الوفي وقد أنجز مهمته على أكمل وجه وبصحبة قوة من ٨ آلاف رجل لنجدة سيده ، ولكن على بعد ٦٠ ميلا من أم درمان سمع بأخبار الانكسار الكبير في الميدان فأوقف تقدمه . لم يشأ أن يعلن أخبار الهزيمة لجنوده ، فأخبرهم أن الخليفة انتصر وما عاد في حوجة لهم ، برر ظهور البوارج على النيل الأزرق ، بأنها بضع بواخر استطاعت العبور من بطاريات ام .

درمان ، وأن بقيتها قد دمرت ، لم يستمر اخفاء الحقيقة أكثر من هذا ، وصل مبعوثان من سلاطين والسردار إلى معسكر الدراويش وأعلنا ، أن جيش أم درمان قد هزم ودمر وأن الخليفة قد هرب وسقطت المدينة . كانت هناك شروط تسليم عرضت على أحمد فضيل ، لكنه ثار وقتل أحد الرسل وترك الآخر ليذهب ويبلغ سلاطين بأنه لن يستسلم حتى النهاية للأتراك ، مرسلا سيلا من الشتائم مع المبعوث الحائر .

أنهى المعسكر وسار على شمال النيل الأزرق على أمل أن يقطع النهر عند التقائه مع نهر الرهد ثم يواصل للحاق بالخليفة في كردفان. أفراد قوته ذكروا له أنهم تركوا عوائلهم في القضارف وكمية كبيرة من الحبوب والذخيرة ، في بادئ الأمر لم يوافق على الرأي الذي يطالب بالرجوع للقضارف ، لكنه عند وصوله نقطة التقاء النهرين شعر بخطورة العبور مع وجود البارجة المسلحة ودورياتها ، فقبل الرجوع للقضارف . كانت حامية القضارف تحت حراسة ثلاثة آلاف رجل .

في الخامس من سبتمبر سمع العقيد بارسونز قائد منطقة كسلا عن طريق القنصل الإيطالي في أريتريا بالانتصار في أم درمان ، تأكدت الأخبار من انجلترا في اليوم التالي وبناء على التعليمات المسبقة ، توجه إلى القضارف يوم ٧ . كان معلوما أن الأمير أحمد فضيل قد توجه بقواته إلى أم درمان وأن الحراسة في القضارف تتكون من فصائل قليلة ، لم يشأ بارسونز أن يضيع فرصة الاستيلاء على قاعدة مهمة للدراويش . كانت المهمة بائسة ، كل القوة كانت ١٣٥٠ رجلا بدون تجارب وقليل من النظام أعيانهم الانتظار والمرض ، بدون فرسان ، بدون مدفعية أو رشاشات ومع عدد ٧ ضباط بريطانيين بما فيهم الطبيب احتلوا القضارف ومكثوا لحمايتها .

بعد مسيرة طويلة في أرض صحراوية جرداء ليس بها نقطة ماء وصل العقيد بارسونز وقواته إلى الفاشر على يمين شاطئ نهر عطبرة ، وهكذا بعد عقبة الصحراء وجدوا أنفسهم الآن أمام معبر مائي هادر . نهر عطبرة كان أيام الفيضان مليئا بالمياه ، قناة طويلة عميقة أعرض من نهر التايمز تحت برج لندن ويجرى بسرعة سبعة أميال في الساعة ، شكل مانعا رهيبا للقوة . صنع الجنود طوقاً من البراميل الفارغة التي أحضرت خصيصا لهذا الغرض . صعد عشرة أفراد على الطوق كتجربة ، لم تكن النتيجة مشجعة . جرف التيار الطوق لمدة

خمس ساعات لمسافة ١٠ أميال مع التيار ثم عاد للرحلة الثانية في عصر اليوم التالي . كان واضحاً أنه لا مكان لهذه الوسيلة ولضمان النجاح يجب الوصول والاستيلاء على القضايف قبل رجوع أحمد فضيل، فهذا يتطلب السرعة وها هي الفرقة تعاني من تأخير يائس . بعد مشاورات كثيرة اقترح ضابط مصري بناء مراكب . ثبت أن هذا العمل أسهل مما كان متوقعا . أشجار السنط أعطت الخشب لعمل الهياكل ثم استعمل مشمعا لغطاء الخشب ، انهمكت القوة في صناعة المراكب الواحدة ساعة ٢ طن وتمكنت الفرقة من تعدي هذا المانع النهري الكبير .

استطاع عرب الشكرية تعدي الجمال و البغال والخيول بأن وضعوا قرب منفوحة تحت فك الحيوان فاستطاع أن يعوم للبر الثاني ، أسهمت براعة الشكرية في تعدي كل حيوان منع فقد بغل واحد وجمل واحد فقط . انتهت هذه العملية يوم ١٦ واستمر التقدم غرب نهر عطبرة حتى وصلت القوة لمحلة المقطع يوم ١٨ . بعد أن ملأوا قرب المياه ، نفضوا الغبار ودعا كل فرد للإله الذي يعبدته تحركت القوة يوم ٢٠ واستمرت في السير طيلة اليوم وسط الغابات التي تملأ الطريق من نهر عطبرة حتى القضايف، عسكرت المجموعة للراحة مساء ٢١ وهي على بعد ١٢ ميلا من القضايف . عند منتصف الليل وصل فرد هاربا من قوات الدراويش وأخطر العقيد بارسونز أن الأمير سعد الله ينتظر مع قوة تبلغ ٣٥٠٠ رجل على بعد ميلين من المدينة . كان الموقف خطيرا والتراجع في مثل تلك الظروف وطبيعة الأرض يجعله مستحيلا أمام قوة كبيرة من أفراد العدو كان لابد من الهجوم.

في صبيحة يوم ٢٢، نفس اليوم الذي سلم فيه موسى دقنه ورجاله لجنرال هنتر على النيل الأزرق ، تحرك العقيد بارسونز وقواته من حامية كسلا إلى القضايف مصمما على خوض المعركة بأي قوة لديه وضد أي عدو يلاقه . سارت القوة بجوار مزارع الذرة والأعشاب الطويلة "الندار" التي كانت تغطي حتى الهجانة على ظهور الجمال ، تراجعت مزارع الذرة بالقرب من المدينة وخرجت القوة من الأدغال لمنطقة منخفض يعلوه أشجار الشوك وبعض الأعشاب . في السابعة والنصف ظهرت أطواف لقوات العدو وتم تبادل إطلاق النيران غير المؤثرة ، في الثامنة وصلوا إلى مرتفع يكشف كل المنطقة حتى القضايف على بعد ثلاثة أميال . ووقفت الفرقة ونزل العقيد وضباطه للاستطلاع .

هالهم المنظر المرعب ، على بعد أقل من ميل ظهرت قوة كبيرة من الدراويش تتقدم نحوهم بطول أربعة أميال بلباسهم الأبيض نخرجوا من بين الأعشاب والقش الطويل، تنظيمهم وطول طابورهم مكن الضباط من إحصاء أعدادهم التي قدرت بأربعة آلاف رجل. دلت التحريات التي تمت لاحقاً ان الأمير سعد الله قد خرج من القضايف على رأس ١٧٠٠ من حملة البنادق ، ٩٦٠٠ حملة حراب و ٣٠٠ حصان.

السرعة التي ظهر بها الدراويش وقصر المسافة بينهما رجحت أن يتم الصدام في أقل من نصف ساعة . كان الوادي مليء بالأحجار والجريد والأعشاب ولكن على يمينه هناك تلال مرتفع ، أعلى سطحه على شكل سرج حصان ، يطل على مدينة القضايف ويكشفها تماماً . الدراويش يعرفون طبيعة الأرض جيداً بينما يجهلها بارسونز جهلاً كاملاً، مثلت قمة التل موقع ممتاز، حتى لجرد كشف الأرض من حوله ، لذلك قرر بارسونز احتلالها. الوقت ضيق، العدو يتقدم.

صدرت الأوامر، وأسرع أفراد الفرقة بخطوات مزدوجة عبر الوادي متجهين نحو القمة، شعر الأعداء بما ينوي القائد فأسرعوا الخطى على أمل أن تلتحم معهم وهم مندفعون الى أعلى التل أو حتى احتلال القمة قبل أن يصلوا إليها . تأخر الدراويش فاستطاع بارسونز الوصول إليها وفي دقائق معدودات شكل قوته تشكيل اصطفاي تقدم في اتجاه القضايف، في المقدمة الكتيبة العربية، بعدها الكتيبة المصرية ١٦ ثم القوات غير النظامية .

شاهد الدراويش أن قوة بارسونز احتلت التل وشاهدوا جنوداً يتحركون على السفح في اتجاه القضايف ، استداروا الى شمالهم وتقدموا للهجوم . في تمام الساعة الثامنة والنصف استعدت الفرقة لمواجهة الهجوم . بالرغم من وقوف الجنود، وبرغم أن كان القصب حتى على سفح التل، كان بطول صدر الجندي إلا أنهم فتحوا نيران مدمرة لكن أفراد العدو رغم الخسائر الثقيلة استمروا في التقدم بشجاعة يردون على نيران الفرقة . عند التاسعة ، ولم يتحدد بعد مصير الهجوم الأمامي ، شاهد بارسونز قوة كبيرة للدراويش تتحرك شمال مؤخرة الفرقة لتهاجم مستشفى الميدان والمواصلات. أرسل مسرعاً يحذر النقيب طيب فليمنج، الذي كان يعمل كضابط طبي وقائد لقوة الترحيل ، من الهجوم القادم ناحيته، طلب منه بجميع الجمال ومواجهة الهجوم . شيوخ العرب الذين أنيط بهم حفظ النظام وإعطاء الأوامر



نسبة لعدم وجود ضباط ، ما إن جاعوا بالأخبار للضباط الطبي فليمنج حتى بدأ الهجوم على العدو الذى بلغت قوته ٣٠٠ هجموا بتصميم قوى نحو فصيل الترحيل، ففرق الـ ١٢٠ عربيا غير النظاميين وهربوا واصبح الموقف يائسا، فتحرك روثفىن مع ٣٠ من الهجانة لملاقاة العدو للدفاع عن الفصيل ودافعوا دفاعا مستميتا، بالرغم من ذلك ، تم كسر مؤخرة الفصيل هرب الناجون إلى قمة التل، بينما تراجع الضباط البريطانيون ومن معهم وانضموا لقوة الرئيسية .

في هذه اللحظة شاهد النقيب روثفىن احد الضباط المحليين مصابا ملقى على الأرض وعلى وشك الوقوع فى أيدي أعدائه ، وبالتالي نهايته. فحمله على ذراعيه وكان رجلا قوى البنية ، ثلاث مرات كاد يفتك به لكنه كان يضع الضابط الجريح على الأرض ويدافع عن نفسه بطينجته ثم يحمله مرة اخرى وهكذا واصل تراجعه حتى وصل للقوة الرئيسية .

كانت قوات بارسونز بين نارين ، الهجوم الأمامى والعدو فى المؤخرة، الأمامى كان على بعد ٢٠٠ ياردة ، العدو فى المؤخرة بعد أن حقق الانتصار أخذ يستمر بقوة للأمام حتى بدا أن هزيمة الفرقة القادمة من كسلا أصبح مؤكدا . لكن فى قمة الهجوم الأمامى أصابت الدراويش خسائر كبيرة وبدأوا يترنحون ، عندها تقدمت الكتيبة العربية بمعاونة الكتيبة ١٦ المصرية للقضاء عليهم لكنهم تراجعوا وهربوا ، فى الحال أعطي بارسونز القوة أمرا بالدوران للخلف لمواجهة الهجوم القادم من المؤخرة. أما الكتيبة العربية التى عرفت بشجاعتها أكثر من نظامها تابعت ملاحقة العدو المهزوم على اسفل التل ، أما الفرقة المصرية ١٦ فقد انصاعَت للأمر واستدارت بقيادة النقيب ماكرييل للتصدى للهجوم الجديد.

أجبرت نيران الفرقة المركزة العدو على التوقف واستطاع النقيب فليمنج وباقي رجال الهجانه وهم يسرون على أرجلهم والنقيب روثفين، وهو مازال يحمل الضابط الجريح الوصول إلى أعضاء الفرقة بسلام . استمر القتال العنيف باطلاق النيران من مسافة أقل من ١٠٠ ياردة وتم طرد العدو الذى كان يهاجم مجموعة الترحيل. انتهت المعركة الآن وبالنجاح الكامل . استمرت الكتيبة العربية وباقي غير النظاميين فى مطاردة العدو الى أن انسحب نحو القضايف. وفى الساعة العاشرة هزم الهجوم الأمامى وأيضا فى المؤخرة تشتت

قوات العدو وانتهت أى مقاومة له . عدم وجود سلاح فرسان أو مدفعية جعلت مطاردتهم أمرا مستحيلا .

استسلمت مدينة القضايف عند الظهر ، الأمير النور عنقرة الذى كان على رأس الحامية ومع ٢٠٠ فرد من حملة البنادق السود ومدفعين نحاس ، أسرع وسلم نفسه ، بقية القوات التى كانت مع الأمير سعد الله انطلقت فى تراجعها لتوصيل أخبار الهزيمة لأحمد فضيل .  
خسائر فرقة كسلا من القتال كانت كبيرة بالنسبة لحجمها ولمدة القتال ، لم يصب أى من الضباط البريطانيين السبعة ومن عدد القوة البالغ ١٤٠٠ رجل قتل ٥١ وجرح ٨٠ بمجموع ١٣١ وترك الدراويش ٥٠٠ قتيل فيهم أربعة أمراء من الصفوف .

لقد تحقق الانتصار وهزم العدو وسلمت للمدينة، وجاء الآن دور الدفاع عنها . استولى العقيد بارسونز على الأبنية الرئيسية وبدأ فى تحويلها إلى سكنات دفاعية ، ساعد وضع الباني فى هذه المهمة أن الموقع كان جيدا وإمكاناته طيبة. فقد كان يتكون من ثلاث زرائب كبيرة يمكنها أن تسع كل القوة مع وجود استحكامات تمكنها من الدفاع عن كل جزء عن طريق فتح النيران ، أمامها . جدار من الطوب بارتفاع ست أقدام . بدأت عمليات تجهيز الموقع للدفاع، أزيلت منازل الطين والقش من على جانبي السور وأقيمت متاريس داخل وخلف الحائط حتى أصبحت القلعة كأنها ثلاث طواب ، ثبت المدفعان الغنيمه واحد فى الجهة الشمالية والآخر فى الغرب على الأركان . بينما انشغل أفراد المشاة فى هذه الأعمال ، كان النقيب روثفىن وأفراد من المهجانة يواصلون الاستطلاع خارج المدينة يبحثون عن أى أثر لأحمد فضيل .

لحسن حظ غير عادى وصلت من المقطع القافلة التى تحمل الذخيرة الى القضايف عصر يوم ٢٧ وفى فجر يوم ٢٨ بلغ روثفىن ظهور طلائع قوة أحمد فضيل متجهين نحو المدينة .  
بدأ الهجوم فى الثامنة والنصف . الدراويش بشجاعتهم وإقدامهم المعروف هاجموا الواجهات الشمالية ، الجنوبية الغربية فى نفس التوقيت وكان يزحفون داخل قصب الذرة الطويل. حتى وصلوا الى مسافة ٣٠٠ ياردة من سور القلعة. المساحة التى تفصل بينهم وبين القوة قد تمت نظافتها من أى غطاء وانهم رصاص المدافعين بمنع أى اقتراب من السور وحاول بعضهم تسلق السور بدون فائدة، لكن وجد بعضهم بعض المنازل التى لم يتسن لرجال المشاة إزالتها

وبدأ إطلاق النيران من داخلها . بعد ساعة من الضرب الشديد ضعفت مقاومة الدراويش الى أن توقفت بالكامل . استؤنف القتال مرة أخرى بعد وصول نجدة كبيرة للعدو ولكنهم صدوا أيضا . في الحادية إلا ربعا وبعد أن خسروا ٥٠٠ رجل بين قتيل وجريح اعترف أحمد فضيل بالهزيمة وتقهقر مع باقى قوته الى منطقة أشجار نخيل على بعد ميلين غرب المدينة . كانت خسائر القوة المدافعة أن قتل خمسة أفراد جرح ضابط بريطاني (النقيب روير) و ١٣ رجلا . بقى الدراويش لمدة يومين في منطقة أشجار النخيل حيث كان قائدهم يحثهم على الدوام على الهجوم وبالرغم من أنهم أحاطوا بالسور وتبادلوا إطلاق النار ، إلا أنهم شعروا أخيرا أنهم لا يمكنهم أن ينطحوا الجدار برؤوسهم لثالث مرة فاضطر أحمد فضيل للرحيل لمعسكر آخر يبعد مسافة ٨ أميال جنوب المدينة .

استمر لمدة ثلاثة أسابيع في مناوشاته ، وبينما اكتفت فرقة كسلا بالاستمرار في دفاعاتها . حتى استطاعت قوافل قليلة من المقطع أن تتسلل ليلا الى القضايف وتنضم الى الطبايات . يمكننا القول أن الحامية قد اكتمل حصارها . كما قللت خسائرهم في القتال من قوتهم ولم تكن لديهم كميات كبيرة من الذخيرة . كذلك كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث المتعفنة داخل حقل الدرة وحول الحائط مع الجو غير الصحي وتراكم الأوساخ كانت مناخا مساعدا للأمراض . لهذا فقد أصابت القوات حمى مؤلمة لم ينج منها أحد كل الرتب تقريبا عانت منها ، فقد تدد ٢٧٠ فردا من جملة ٤٠٠ . الغارات الليلية المتكررة حرمت القوة من النوم حتى أصابهم الإرهاق ، تدهورت الحالة الى موقف غير مرض عندها اضطر العقيد بارسونز لأن يطلب المساعدة .

أما الجنرال رندل الذى آلت اليه القيادة في غياب السردار ، فقد جهز حملة إنقاذ سريعة مكونة من الفرق السودانية التاسعة ، والثانية عشرة والثالثة عشرة مع ثلاث فرق هجانة تحت قيادة كولينسون ، أرسلت الى مصب نهر الرهد وأرسلت المشاة بالبواخر من أم درمان ، كما سافرت الهجانة على شاطئ النيل الأزرق قاطعة مسافة ١٣٠ ميلا في ٥٦ ساعة . وهكذا تم حشد كل الحاميات على النيل الأزرق ماعدا حامية الرصيرص . وصلت القوة يوم ٨ أكتوبر إلى منطقة أبو حراز ٥٠٠ جمل التى جاءت من أم درمان أضيف إليها أى حيوان يستطيع أن يكون ذا نفع في الترحيل . تحركت الفرقة السودانية ١٢ يوم ٩ أكتوبر على نهر الرهد الى

عين اللويقة. حيث يترك الطريق النهر من هذه النقطة ويتجه لمسافة ١٠٠ ميل الى القضايف عبر الصحراء، في كل هذا الطريق لا توجد مياه إلا في جبال الفاو وعليه كان لابد ان تزود الفرق بمياه كافية. ونسبة لمحدودية حيوانات النقل تقرر إرسال الحملة على دفعتين. فتحركت الهجانة مع السودانية ١٢ الكونة من حوالى ١٢٠٠ رجل تحت إمرة كولينسون يوم ١٧ من عين اللويقة وصلت القضايف بسلام يوم ٢٢.

أما أحمد فضيل الذى كان قد أغار على القوة بالليل ونتج عن هجومه جرح اثنين من الجنود السودانيين فقد علم بوصول النجدة وتأكد لا أمل عنده لاستعادة المدينة فقرر الانسحاب جنوبا. كانت القوة تخطط لمهاجمته ولكن بلغت أطراف استكشاف في يوم ٢٣ أكتوبر بأنه شوهد يتحرك مع قواته الى ناحية الجنوب مع قوة تحمى المؤخرة وفي نفس الوقت تمنع أى فرد من الهرب .

وهكذا كللت كل العمليات التى قام بها العقيد بارسونز بالنجاح ، كانت المصاعب التى واجهها جسيمة والاهوال عظيمة وكذلك النتائج عظيمة ولكن ونحن نحى مهارة القائد وولاء رجاله نجد أنه من المستحيل ألا ننتقد السياسة الرعناء المتسريعة التى ترسل بقوة ضعيفة عديمة الإمكانيات، مثل هذه القوة فى مهمة خطيرة بكل المقاييس .

كان القتال فى القضايف ودون أى ذنب على القائد ورجاله كاد يتحول الى مأساة، وكانت هناك مواقف ، حسن الحظ غير الطبيعى هو الذى أنقذ القوة من الهلاك . أولا لم تكتشف الحملة حتى وصلت الى المقطع ، ثانيا لم تتم مهاجمتها داخل الغابات ، ثالثا دخل الدراويش المعركة فى العراء بدلا من خوضها داخل المدينة، وكان من الصعب للقوة زحزحتهم بدون سلاح مدفعية ، ورابعا ان الذخيرة الاحتياطية وصلت قبل هجوم أحمد فضيل .

قرر أحمد فضيل بعد هزيمة القضايف ، ان يركز فى فكرة الانضمام للخليفة فى كردفان، فانسحب جنوبا مع قوة يبلغ تعدادها ٥٠٠٠ رجل إلى نهر الدندر ، لم يكن فى استطاعته عبور النيل الأزرق مع وجود البواخر المسلحة. ما كان يعتقد أنها تستطيع الملاحة إلى أعلى النيل ففكر فى عبوره جنوب كركوج ومار على مهله ، مروعا الأهالى فى طريقه ووصل الى منطقة الدندر يوم ٧ نوفمبر. وهناك أوقف القوات وارسل اطواف للاستطلاع، كان يعتقد

أن يجرى النهر من كركوج حتى الرصيرص ليس بالعمق الكافي للملاحة لكنه فوجيء بوجود باخرتين تناوران في المنطقة . كتم غيظه وضيقه وقرر ان يسير ليعبر بعد الرصيرص حيث المياه ضحلة وغير صالحة لعبور البواخر بدون أدنى شك .

يوم ٢٢ اكتوبر تحرك العقيد لويس مع فرقتين هجانة وثلاث سرايا فرسان من أم درمان إلى الجزيرة بغرض فرض السلطة المصرية في المنطقة . كان تقدمه ناجحا بكل المقاييس، فالأهالي استكانوا وفوضوا أمرهم بدون أدنى أسف إلى الحكومة ولم يكن هناك أى خرق للقانون، الجهة الوحيدة التي كانت ترتكب الجرائم هي فلول القوات غير النظامية التي كانت تحارب في شرق النيل تحت قيادة الرائد ورتلى . في كل قرية تم تعيين شيوخ باسم الخديوى واستمر ضبط سلاح الفرسان في حل مشاكل الأرض، المحاصيل والنساء ، التي انتهت لإرضاء الجميع . سارت القوة عن طريق العمارة ، الحلاوين والمسلمية ووصل لويس إلى كركوج يوم ٧ نوفمبر ، وهو نفس التاريخ الذي وصل فيه أحمد فضيل إلى الدندر .

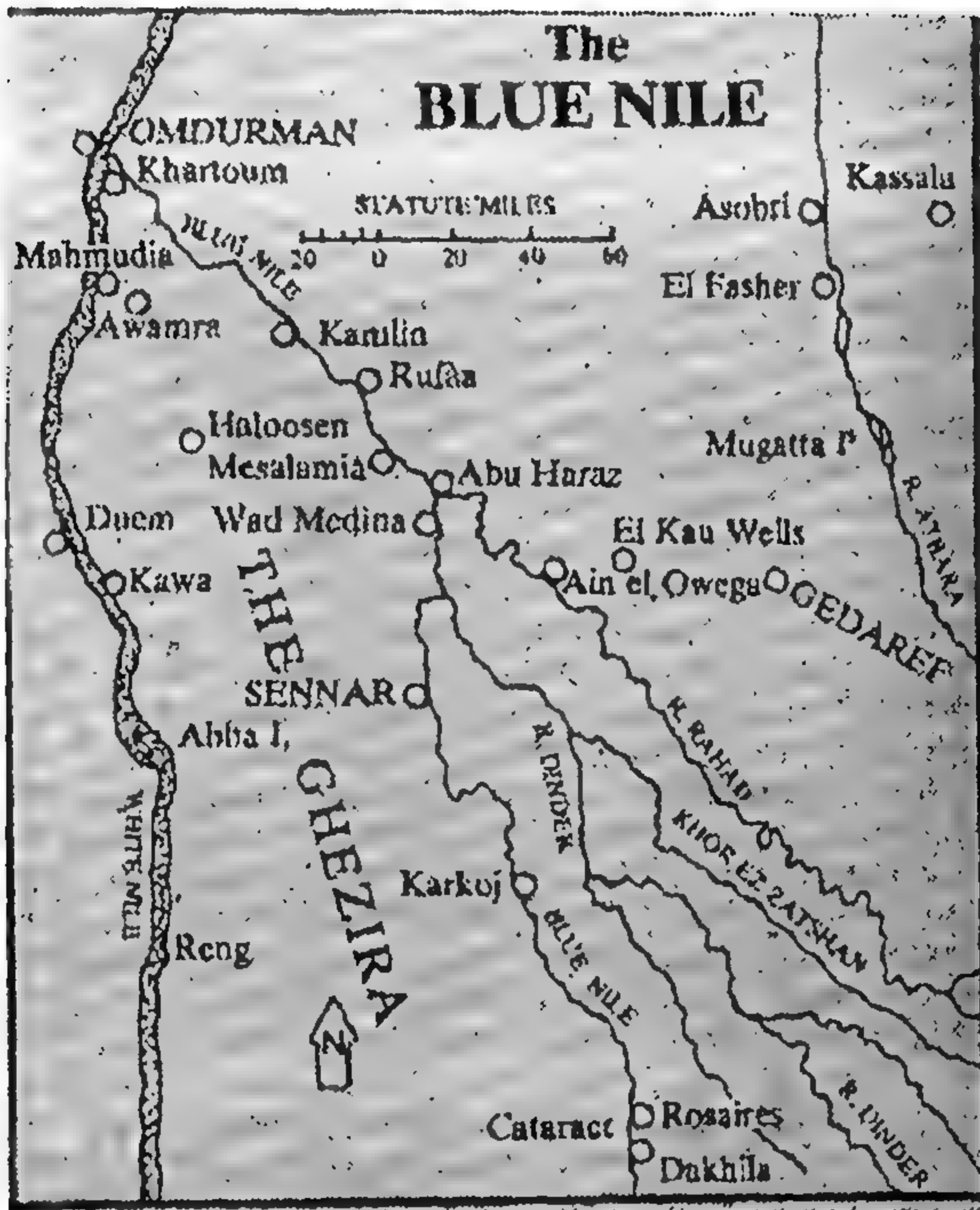
استمرت تحركات القوتين لمدة ٦ أسابيع تماما كلعبة عسكر وحرامية . كان أحمد فضيل يحتوى داخل الغابات الكثيفة، يغير على القرى المحيطة التي تقع شرق النيل الأزرق ويواصل مسيرته إلى الشلال خلف الرصيرص . لقد حيرت المعلومات المضللة لويس السذى بقى في منطقة كركوج وأرسل أطوافا كبيرة ليتحصل على معلومات موثوق بها، حاول مرارا أن يقطع خط الرجعة للغارات وعمل دوريات بالبواخر المسلحة على طول النهر . في هذه الأثناء سقط أغلب أفراد قوته بالمرض، وباء الملاريا الذي اشتهرت به منطقة جنوب النيل الأزرق كان في قمته بعد موسم الأمطار . فقد أثرت الملاريا على ثلاثين بالمائة من قوة كل حامية أو نقطة وكل أفراد حامية الرصيرص سقطوا لآخر رجل، لم يبق سوى ضابطين بريطانيين في الخدمة . سقط الضباط البريطانيون واحدا تلو الآخر يعتمد الواحد منهم تحت اشجار النخيل وجسمه يحترق من حرارة الحمى وليس في مقدوره عمل شئ، أو يحمل إلى البواخر الصديقة التي كان لها النصيب الأكبر من المعاناة . من بين قواها البالغة ٤٦٠ فردا توفي ١٠ وأصبح ٤٢٠ غير صالحين للعمل في ظرف شهر واحد بعد وصولهم إلى كركوج .

مع نهاية نوفمبر حضر الشيخ بكر من القضايف الذي كان انفصل عن الدراويش بعيد هزيمة المدينة ، ومعه ٣٥٠ مقاتلا غير نظامي ، وعلن أنه انتصر على قائده السابق عدة

مرات ولكي يدلل على ولائه وصدق دعواه أخرج جوالا مليئا برؤوس الأعداء. كان هذا برهانا لا يقبل الشك. طلب منه ملاحقة الدراويش وشجع بأنه من حقه الاستيلاء على أى غنائم له ولقوته .

استمر أحمد فضيل فى مسيرته البطيئة على شط خوز فوازيا لليل الأزرق ويعد عنه بجوالى عشرين ميلا متجها جنوبا . بعد أن علم لويس بهذه الأخبار تحرك من كوكج الى الرصيرص مع فصائل من الفرقة السودانية الخامسة التى انضمت لقوته لتعزيزها. وبقي بضعة أيام بدون أمل كبير فى أن يمنع عبور العدو لليل الأزرق. وفى يوم ٢٠ ديسمبر وصلت إخبارية كاملة ولكن اتضح فيما بعد عدم دقتها مفادها أن أحمد فضيل قد وصل الى قرية الدخيلة على بعد ٢٠ ميلا جنوب نقطة الرصيرص وأنه شخصيا وحرسه المتقدم قد عبر النهر





للشاطيء الغربى وأنه الآن بسبيل تعدية النساء والأطفال على معدية صنعت من عروق الأشجار ( رافت ) .

يوم ٢٢ أرسل لويس الشيخ بكر لغرب النيل حتى يهاجم أي قوات للدراويش تكون قد عبرت بالفعل الى الشاطيء الغربى. فسافرت القوة غير النظامية لتنفيذ الأمر . فى اليوم التالى جاءت الأخبار ان قوة الدراويش انقسمت لقسمين جزء على كل شاطيء. وفى ظهر يوم ٢٤ وصلت البواخر مليلك ودال من أم درمان تحمل قوة من ٢٠٠ رجل بقيادة الرائد فى رجسون من قوات الفرقة السودانية الخامسة و ٣١ من السودانية الرابعة بقيادة النقيب سير هنرى هيل. بعد هذه الإضافة أصبحت القوة التى تحت إمرة لويس تتكون من نصف السودانية الخامسة وفصيله صغيرة من السودانية الرابعة و ٢ مدفع مكسيم وطبيب، وكان بجانب القوات النظامية، القوة التى مع الشيخ بكر عددها ٣٨٠ رجلا وكانت هناك مجموعة مع شيخ الرصيرص حوالى ١٠٠ فرد وأفراد آخرين تابعين .

كان العقيد لويس مصمما على مهاجمة أي قوة لأحمد فضيل تكون موجودة شرق النيل. فى يوم عيد الميلاد (الكريسماس) فى الساعة الخامسة مساء جمع آخر رجل تحت إمرته واتجه نحو الدخيلة وكان يتحرك بصف واحد طويل داخل غابة كثيفة من أشجار الشوك، وصلت القوة الى قرية أبو زغلي التى كان يعتقد أنها نصف المسافة للدخيلة أو أقل من الثلث، فى حوالى الساعة الحادية عشرة من ليلة عيد الميلاد . هنا عسكرت القوة حتى الثالثة صباحا يوم ٢٦ وواصلت السير تجاهد بنفس الطريقة داخل الأحراش، أشرقت الشمس وهم على بعد أميال من مواقع العدو، ولم تظهر نقاط مراقبة العدو إلا فى الثامنة صباحا. وبعد تبادل عدة طلقات تراجع طوف العدو ، تتبعهم القوة حتى خرجت من الأحراش الى فسحة واسعة على ضفاف النيل يتخللها بعض أشجار الدوم والأعشاب الطويلة . انتشرت القوة على هذه الساحة، ووجدوا أمامهم النيل الأزرق يلمع بلونه الفضي مع أضواء الصباح ويجري مسرعا على بعد مسافة داخلية ظهرت جزيرة من الرمال والتلال، التى كان قد اختارها الدراويش كساتر ولكن فاجأهم القوة فراحوا يركضون. بعد الجزيرة ظهر الشاطيء الغربى وأشجار طويلة وحولها بعض الأفراد تروح وتغدو على المنحدر والمرتفع على ضفاف النيل . أصوات

متنافرة للطبول وموسيقى القرون بدأت تسبح فوق الماء ، والأعلام المتعددة كانت إعلانا بوجود قوات العدو ونواياه المعادية .

كان موقع الدراويش قد تم اختياره بعناية وله ميزات دفاعية جيدة . على بعد قليل شمال الدخيلة ينقسم النيل الى قسمين قسم ضحل يتجه مباشرة للشاطئ الشرقي والآخر عميق يجري على شكل قوس ناحية الشاطئ الغربي يصب فيه باندفاع .

تتوسط هذين الفرعين جزيرة بطول ميل وربع الميل وبعرض ٤٠٠ ياردة وعلى هذه الجزيرة المحاطة بخندق طبيعي من مياه جارية ، كان "دم" وحصن الدراويش . في الجانب الغربي للجزيرة ترتفع التلال المغطاة بالأعشاب والشجيرات الصغيرة مع انحدار عكس ناحية مقدمة شاطئ النهر وهنا كان توجد ثلاثة أرباع قوة أحمد فضيل، من خلفهم ذراع النيل العميق ولم يكن أمامهم خيار وفي الحقيقة لم تكن لديهم أي رغبة غير القتال. كان أمامهم صف طويل من عروق الأخشاب بمسافة ١٠٠٠ ياردة ، على أعدائهم المرور منه للوصول اليهم . خلفهم مياه النيل الهادرة والشاطئ الغربي الذي يرتفع لأكثر من خمسين قدما عن سطح الماء ، تحرسه قوة من ٣٠٠ رجل من حاملي البنادق ومن هذه النقطة الحصينة وقف أحمد فضيل وأربعة من أمرائه لمشاهدة وتوجيه ومساعدة القوات للدفاع عن الجزيرة . كانت القوة في الجزيرة تتكون من رجال فرقة الأمير سعد الله صاحب تجربة القصارف، وكانت معهم قوات الأمراء الأربعة أيضا محتشدة هناك .

كان الموقف غير مطمئن ، فقد أساء لويس تقدير حجم وتنظيم قوة الدراويش ، كل التقارير كانت تشير الى أن هزائم القصارف قد حطمت روحهم للمعنوية وقلصت قوتهم الى ٢٠٠٠ رجل على الأكثر. لويس سار للهجوم معتقدا أن نصف قوتهم على الشاطئ الغربي والنصف الآخر على الشرقي . التراجع الآن مستحيل. وموقف العدو قوى ، وقوته هائلة لكن كان الهجوم هنا خير وسيلة للدفاع أو أفضل من التراجع لمسافة ١٩ ميلا داخل الغابات المشبومة التي تفصل بينهم وبين الرصيرص. هنا قرر الضابط البريطاني على الفور أن يتعامل مع العدو . وفي تمام التاسعة فتحت مدافع المكسيم وهي تمثل المدفعية بالنسبة للقوة الصغيرة، من مواقع جيدة بينما اصطف جنود الفرقة السودانية الخامسة على الشاطئ الشرقي . فتحت النيران الآن من مدي بعيد ورد الدراويش ومن الدخان المنبعث من بنادقهم ظهرت أعدادهم

ومواقعهم وأيضا استحالة طردهم بنيران من مدني بعيد. وبالرغم من التفاوت العددي كان في غير صالحة، قرر أن يهاجم بالسلاح الأبيض السنج. ثم مر وقت حتى اكتشف كيف يمكن العبور منه لداخل الجزيرة، فبعد العاشرة تمكن الشيخ بكر وقوته من الوصول الى بعض التلال وأخذ مكانه على بعد ٨٠٠ ياردة من مواقع العدو ومعه الفرقة السودانية الخامسة وأصبحوا الآن على يمين العدو لتأمين عبور للقوة الباقية .

كان العقيد لويس مصمما على الهجوم على شمال القوة من ناحية اليمين والهجوم عليهم من الجناح حتى يجبرهم على الاتجاه نحو الجزء العميق للنهر، واستمر بالفرقة السودانية الخامسة مع قيادة العقيد ناسون والرائد فيرجسون متجها شمالا على شاطئ النهر مستترا بحافة الشاطئ من النيران التي بدأت تحدث خسائر إلى أن وصل للنقطة التي حددها للاقتحام، فأخذت الفرقة تشكيل تقدم الهجوم، واستدارت نصف شمال متقدمة بالحراف بقوة متتالية نحو المعبر الخشبي الذي يؤدي الى التلال الرملية، وبينما هم يتقدمون تصدت لهم قوة من ٢٠٠ درويش تمركزوا بمهارة على مرتفع ووجهوا نيرانهم على شمال جناح الفرقة. فانفصل الرائد فيرجسون لاجراهم من ذلك الموقع ، واستمرت الفرق الأربع في الهجوم.

لقد أصبحت نيران العدو الآن كثيفة ، اكتست كل مقدمة الجزيرة بالدخان وخلفه من المرتفع على الشاطئ الغربي، اصطف أفراد في شكل نصف دائرة ووجهوا نيران بنادقهم نحو الـ ٤٠٠ جندي المتقدمين فاتحين خط نيران ثاني ، الكتل الخشبية في المعبر ظلت تقفز كل ما أصابتها النيران ، كان صوت الرصاص للنهر يصم الأذان ، بدأ أفراد الفرقة السودانية يتساقطون " تماما كما كان الدراويش في أم درمان " وامتلات الأرض بجثث الجرحى والقتلى. قال أحد الضباط " لم نكن نجرؤ على النظر للخلف " الجنود كالجن الذي لا يمكن قهره، استمروا في التقدم بثبات دون لحظة وجل أو تردد، ضغطوا مسرعين حتى وصلوا الى مواقع العدو ووصلوا إلى تل رملي واتخذوا ساترا تحته . كان ربع الكتيبة قد سقط على المعبر واهتز العدو من صدمة الهجوم العنيف. أمر لويس ناسون أن ينتظر برهة حتى يأخذ الأفراد أنفسهم قبل الهجوم الأخير. فظن الدراويش أنهم صلوا الهجوم وجاءتهم الأوامر من أحمد فضيل عن طريق الطبول والبورجي تأمر بالهجوم. مع صيحات الانتصار والتكبير نهضت كل القوة في الجزيرة ملوحة بأعلامها، وعلى صياحها وتقدمت للهجوم من التلال العالية .. كان

الجنود السودانيون يلهثون لكنهم غير قابلين للهزيمة وردوا على أوامر ضباطهم البيض بصيحة عالية وصبوا من عند التلال التي احتموا خلفها نيرانا عنيفة على أعدائهم .

كان المدي قريبا والأثر كبيرا وفاعلا، فاندحش العرب وترنخوا وتراجعوا على طول الجبهة، وبينما الجنود وقادتهم النبلاء يدمرونهم من تل لآخر، حتي أصبح الذين لم يسبقوا قتلى أو جرحي، محصورين في أقصى جنوب الجزيرة خلفهم المياه العميقة وامامهم جنود تائرون غاضبون لضحاياهم.

انضم شيخ بكر وقواته غير النظامية وباقي القوة الى السودانيين المنتصرين ومن سائر التلال الذي في قبضة القوة الآن ، انهمرت نيران قوية وموثره على أفراد قوة الدراويش المكشوفين الآن في حزام ضيق قبالة مقدمة الشاطئ . حاول البعض السباحة للجانب الغربي للحاق بأصدقائهم . غرق منهم عدد كبير بما فيهم سعد الله الذي غرق ومعه حصانه، واختفى آخرون تحت الماء حتي رؤوسهم خوفا من الرصاص وهرب الأغلبية إلى جزيرة صغيرة على بعد قليل الى أعالي النهر. لكن الغطاء كان سيئا والمياه العميقة منعت الهروب وبعد أن تعرضوا للنيران لأكثر من ساعة ونصف الساعة استسلم حوالي ٣٠٠ رجل، وأصبحت الجزيرة تحت احتلال القوة، لكن مازلت النيران تأتي من الشاطئ الغربي الفصيل الذي أرسل لإسكات نيران الدراويش الذين كانوا محاصرين خلف الساتر، وقد جرح الرائد في رجسون جرحا عميقا وسقط ثلث قوته. ولكي تنسحب هذه الفصيلة كان لابد من إحضار مدافع المكسيم عبر النهر حتي تكون على مدي ٤٠٠ ياردة وكان امرا شاقا . انتهى القتال في الساعة الثالثة عصرا وبدأ المنتصرون في تعداد خسائرهم و ما حققوا من نتائج .

لم يكن لا الوقت ولا الظرف يسمح بتعداد خسائر العدو ولكن كان من المؤكد أن خسارة لا تقل عن ٥٠٠ قتيل داخل الجزيرة وأنه قد استسلم ٢١٢٧ مقاتلا ومئات من النساء والأطفال وتم الحصول على ٥٧٦ بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة وتسليح من الحراب والسيوف. وهرب أحمد فضيل مع مجموعة من أتباعه، عبر منطقة الجزيرة . لكن كانت هذه الهزيمة ذات أثر كبير في نفوس الدراويش، حيث استسلم كل أفراد قوته للبلخنة "التمة" في الرنك على النيل الأبيض في يوم ٢٢ يناير ، واكتفى قائدهم العنيد بالذهاب الى كردفان للانضمام للخليفة وليس معه أكثر من ١٢ تابعا .

كانت خسائر القوة من القتال ٤١ قتيلا و ١٤٥ جريحا بمن فيهم الرائد فيرجسون وفقدت  
الفرقة السودانية غير نظامية التي تحملت العبء الأكبر للمعركة ٢٥ قتيلا من ضابط وجندي،  
وجرح ضابط بريطاني و ٦ ضباط محليين و ١١٧ ضابطا وجنديا غير نظامي من مجموع القوة  
البالغ ٥١١ فردا. باقي الخسائر كانت بين ٤٩٥ فردا غير نظامي من الذين اشتركوا في القتال.  
كانت هذه خاتمة المعارك التي أعادت كل المناطق النيلية إلى نفوذ الحكومة.





## الفصل التاسع عشر

### نهاية الخليفة

بعد انتهاء العمليات التي جاء ذكرها في الجزء الأخير أصبح كل الاقليم المتاخم للنهر خاليا تماما من أى قوات معادية ، تم إنشاء حاميات كثيرة وعادت السيادة المصرية ، ظل الخليفة في كردفان . بعد ان نجح عبد الله في الهروب من أرض المعركة في أم.درمان ،أسرع الى اتجاه الأبيض متحركا عن طريق آبار شط الزريقة التي كانت مليئة بالمياه خاصة بعد سقوط الامطار . بعد أن تأكد من انتهاء الفرقة غير النظامية من مطاردته أوقف سيره، عسكر وبدأ في تنظيم قوته المشتته ذلك في قرية ابو شيراي . في نوفمبر عندما تحولت ببرك المياه الى برك طين رحل الخليفة الى قرية العجيحة في الغرب هنا انضم اليه الأمير الختم مع حاميه الأبيض . كان هذا الأمير لم يشترك في أى صدام ضد " الأتراك " فكان صنديدا ومتحملا . كان لوصولهم أثر كبير على القوة التي حاول الخليفة حشدها ، انشأوا دم كبيرا في العجيحة فهنا تتوافر المياه في ديسمبر وقضى الخليفة فترة هادئة. كان يرسل قواته للإغارة على القرى لجلب الذرة وبعض المواد الأخرى.----

عندما عاد السردار من إنجلترا وسمع بالانتصارات على النيل الأزرق في منطقة الرصيرص ، قرر أن يعمل محاولة لأسر الخليفة . طلب العقيد كتشنر ، كأعلى رتبة موجودة وقرر منحه شرف قيادة هذه العملية . طلب منه تجهيز قوة مختلطة والذهاب بها الى كردفان للاستطلاع أو أن أمكن الهجوم على قوات الخليفة وأسرهم . كان يعتقد أن أتباعه حوالي ١٠٠٠ رجل بدون سلاح كاف . كونت القوة التي عرفت باسم "قوات كردفان الميدانية" كما يلي:-

القائد: العقيد كتشنر

المساعد: المقدم ميتفورد

نائب المساعد: الرائد ويليامز .

## القوات:-

٢ سرايا فرسان فرقة مصرية - .

الفرقة الثانية المصرية - ٢ مدفع ماكسيم .

الفرقة الرابعة عشر السودانية - ٢ مدافع بغال .

فرقة سلاح هجانة .

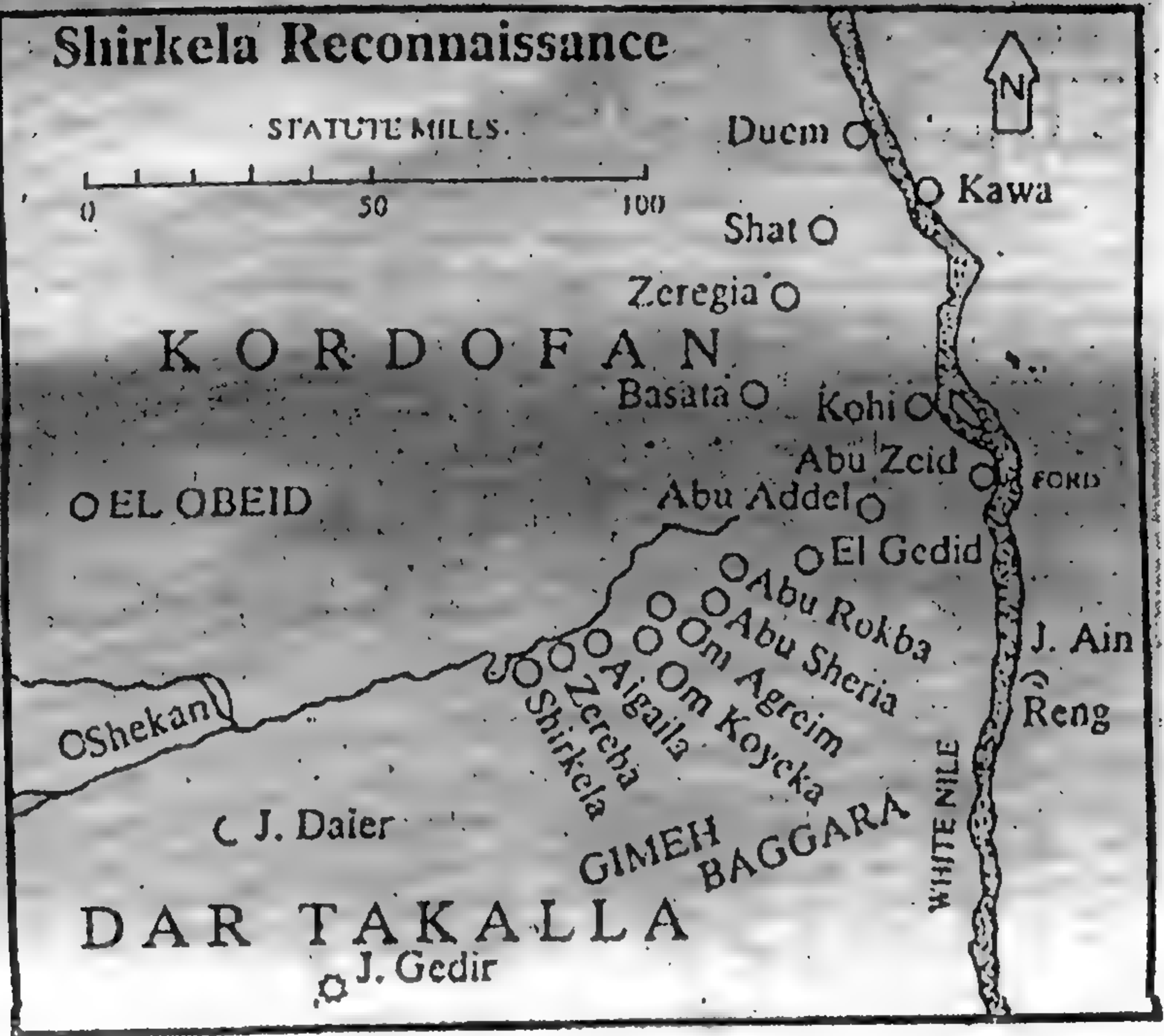
جاءت جمال الترحيل من عطبرة والنيل الأزرق. ارسلت القوات بالبواخر الى السودان واحتشدت هناك في أول عام ١٨٩٩ . تجمعت الجمال في الكوة وبالرغم من أن أغلب القوافل كان عليها أن تقطع ما يعادل ٤٠٠ ميلا، فقد وصل كل العدد في العاشر من يناير . كانت مشكلة المياه هي للمشكلة التي تواجه العملية ، موقع الخليفة على بعد ١٢٥ ميلا من النيل الأبيض . الإقليم بين القوة والخليفة كثير البرك من مياه الأمطار التي تترك بحيرات صغيرة لكن أغلبها يجف في يناير ويتحول الى برك من الطين، لذلك كان لزاما التزود بمياه كافية للرجال والحيوانات من خيول وبغال وجمال . الجمال يمكن لها أن تسير بدون ماء لمدة خمسة أيام الى أن تكتشف بركة ماء على الطريق ، كان الأهالي على معرفة بتلك المواقع . بالرغم من أن قوة تحمل الجمل للعطش معروفة إلا أن لها حدودا، لذلك يعاني كثيرا من مثل تلك الرحلات وربما يصاب بالإرهاق أو يموت. أثناء الحرب يهتم القادة فقط بقوة تحمل الحيوانات وكان الأمل في حمل مياه بالقرب والاستفادة من البركة واعتمادا على قوة تحمل الجمال، أن تتمكن الحملة المكونة من ١٢٠٠ رجل قطع ١٢٥ ميلا عبر الصحراء لإنهاء مهمتها في ثلاثة أيام ثم ترجع للنيل . هذه العملية التي أطلق عليها استطلاع شرقيلا قد شغلت قوات كردفان الميدانية .

كان التقرير عن الطريق من كوهي مشجعاً. والآبار في الجديد سوف تساعد في تزويد القرب الجبلية بالمياه والخفائر على بعد ٧ أميال من الآبار يمكن أن تسقى الجمال، لهذا استعدت الفرقة للرحلة. لقد تم رصد كل شيء يمكن أن يساعد في حمل المياه وترشيد استهلاك الشاربين. وتقرر أن يذهب ١٢ خيالة فقط، وخفضت خيول وبغال مدافع المكسيم إلى أقل عدد وتم الاستغناء عن أي شخص أو شيء ليس ضروريا جدا ، حتى

الزخيرة تم خفضها لمائة دفعة لكل بندقية حتى تترك مجالا لحمل المياه. وحددت كمية مياه الشرب بمقدار لتر للفرد و٦ جالونات للجصان، وخمسة جالونات للبغل. وحتى يقلل الطلب على المياه قرر العقيد كتشنر السير ليلا لتفادي حرارة النهار. لقد أنشئ معسكر في الجديد كنقطة متقدمة خزن فيها طعاما يكفى ليومين بالإضافة لهذا أعطى كل فرد من القوة عشرة تعينات و٧ تعينات لفرقة الترحيل لمدة ٧ أيام ، زادت القوة بطعام حتى ٩ فبراير، وهكذا كان محور عملياتهم ، لولا أن تحددها للمياه هو ١٩ يوما. ثم زودت هذه الفترة خمسة أيام إضافية بالإجراءات التي اتفق عليها على أن تقابلهم قافلة تقوم يوم ٣٠ يناير تتحرك عند العودة في الطريق.

كانت الفرقة تضم ١٦٠٤ ضباط وجنود و١٦٢٤ جملا وحيوانات أخرى للترحيل. وتحركت من الفرقة كوهي الثالثة ظهرا بعد أن أرسلت قافلة صغيرة مقدما الى الجديد قبل ١٢ ساعة يوم ٢٣ يناير. الإقليم في المسار الذي سوف يسلكونه أرض عارية جرداء كثيفة. وتقدموا الى محيط من الرمال للموجة بشجيرات الشوك والقش الناشف لكن بعض المرتفعات الحجرية قد اتاحت الرؤية لمسافات بعيدة حيث تظهر هذه الصحراء العقيمة تمتد الى ما لا نهاية من كل الأركان. بعد مسافة عشرة أميال بعد النيل اختفت أى حيوانات أو كائنات حية، الأرض صحراء ليست مفتوحة كالصحراء الكبرى ، ولكنها أدغال غير مفيدة تنسائر حولها شجيرات الشوك غير المنتجة والتي لا تتيح أى حياة لأي مخلوق كان بل يمكن أن يتعرض الطريق. بين هذه الأدغال كان على الفرقة أن تشق طريقها أمامها العلم المصري الأحمر بالنهار ، ورتينه معلقة على عامود بالليل . تتحسس طريقها المنهك ، الحرس الأممي يفتح الطريق بالفئوس وتعلم للمسار بالجير الأبيض ، وحرس المؤخرة المصاحب للعفش يلتقط أى اغراض تسقط من القافلة في المقدمة . بعد ثلاثة مشاوير طويلة وصلوا الى الجديد. يوم ٢٥ وصلت الفصيلة الأولى وحفرت الآبار لكنها لم تفتحها ، لم تعط مياهها كافية فقد كانت مياهها آسنه وواحدة وجد بها ثعبان طويل سام بطول ٨ أقدام كان هو الساكن الوحيد. وأرسلت الجمال لتشرب من الحفائر على بعد ٧ أميال وعلى أمل أن تملأ القرب أيضا ، ولكن الطفح الأخضر الموجود بالماء جعلها غير صالحة للاستعمال الآدمي فعادت قرب الجلود خاوية .

# Shirkela Reconnaissance



استؤنف السيز يوم ٢٦، وكانت الأشجار قد بدأت تظهر بشكل أكبر، الدغل أصبح غابة والأرض الرملية تحولت الى تربة حمراء اللون ، ولكن بخلاف ذلك ظلت هيئة الإقليم كما هي بدون تغير. عسكرت الفرقة للراحة في أبو راكوبه حيث أشار بعض الأهالي من سكان القرية أشاروا الى قبر والد الخليفة والعشة المبنية من القش التي يقي فيها الخليفة عند زيارته لقبر والده . أخيرا أعلنوا أن الخليفة قد ترك أبو عقيلة الى شريكلا ، وكان يأتي للزيارة حتى من تلك المنطقة .

بعد المشوار التالي الذي تم بالنهار ، استطاع الجلد والكرباج أن يعيدا للمرشد دين ذاكرهم ، فقادوا الفرقة الى حفير كبير يمتلي بالماء الطيب اللذاق. شرب الكل حتى روي، شاكرين لله نعمته تم بنيت زريبة صغيرة لكنها قوية ، ترك بها بعض المرضى وكميات الغذاء الاحتياطية مع حامية حراسة تحت إمرة ضابط مصري. وواصلت الفرقة رحلتها، حتى وصلوا الى أي عقيلة يوم ٢٩ هنا انتباههم دهشة تماما كتلك التي عبر عنها روبنسون كروزو عندما شاهد آثار الأقدام في الرمال، فقد وصلوا الى معسكر الخليفة للمهجور. لقد تم تجهيز هذا المعسكر باحكام ونظفت المنطقة من الأشجار والأدغال وتم بناء قطاطي من قصب الدخن باشكال هندسية رائعة تمتد في صفوف طويلة بدون التواء لأميال عدة فتحت داخلها الشوارع والمربعات ، وكل شئ نظيف جدا ومنظم ، والأشجار التي نزلت منها الفروع السفلى أعطت منظرا رائعا للمعسكر .

كان منظر هذه القرية للمهجورة التي تبدو كمقبرة صامته خرجت من بين تلك الأدغال مثيرا وتركت انطبعا عند كل من شاهدها أما حجمها فقد زاد هم القائد، إذ على أقل تقدير تسع هذه القرية لحوالي ٢٠ ألف شخص . كم من هؤلاء الرجال مقاتلون بالطبع ليس أقل من ٨ أو ٩ آلاف رجل، ومع ذلك أرسلت الحملة لتعقب مجموعة مقاتلين كان تقديرهم لا يزيد حجمها على ألف مقاتل هم التابعون مع الخليفة .

مع اتخاذ كافة التدابير الحربية اللازمة زحفت الفرقة الى الأمام، كانت الهجانة والفرسلان تقدم الحماية لأفراد الفرقة فتبادلت إطلاق نار مع طوف من العدو . عسكرت على بعد ٣ أميال من هذا الموقع بعد تشييد زريبة قوية ، قضت الليلة مع توقع هجوم لكن مرت الليلة بسلام . في الصباح الباكر أرسل متفورد مع بعض الأفراد للوالين للاستطلاع ورجع السلعة



العاشرة وأيد تقريره الاستنتاجات التي خرج بها القائد بعد مشاهدة معسكر عقيلة الكبير، فزحف لموقع مكنه من رصد للمعسكر الذي أمامه، بعد أن ظهرت أعلام الدراويش في صفوف على شكل هلال على أعلى التلال وإعداد تتحرك قدرها بأكثر من ٢٠٠٠ بندقية في الصف الأمامي . كم عدد البقية في الاحتياط لا أحد يدري . تحصن الموقع جيداً في وادي ضيق حوله حفائر للمياه .

كانت هذه الأخبار خطيرة. القوة الصغيرة التي تفصلها عن قاعدتها ١٢٥ ميلاً من الأرض الجرداء عديمة المياه ، وأمامها هذا الجيش القوي ، انعقد مجلس حرب لدراسة الموقف. كان السردار قد أمر بتشدد قوي ألا يكون هناك أي انتظار أما أن يهجم أو يتراجع ، قرر العقيد كتشنر التراجع. وبعد أن اتخذ القرار يجب الانسحاب بأسرع ما يمكن بعيداً عن سطوة العدو، ولهذا بدأ التحرك في نفس الليلة، لم تكن رحلة العودة بأقصر من رحلة الحضور أو أقل ألماً كما وحرم الجنود من أي شرف أو إثارة القتال. أثناء رحلة العودة للنيل أصابت لعنة الأرض واهوالها كل فرد ، أضافت الى المعاناة الانسانية ، صعوبة الأرض الخراب ، الحر وبرد الطين العفنة . الأهالي الجوعى خرجوا من جحورهم ومخابئهم، وكان يحذوهم الأمل في الحصول على بعض مايسد الرمق بعد المعركة من أي مخلقات الآن وقد حاب أملهم، تسللوا ليلاً فرداً أو اثنين على المعسكر وحملوا أي نوع من الطعام وجدوه، لم يفتن أحد لهذا النشاط ولم يتركوا أوقية واحدة من الغذاء الاحتياطي.

عند نهاية الرحلة ، بدأت الجمال تعاني من حرمانها من المياه فأخذت تتعثر وتموت، وعندما كانت الفرقة على عجل ولم يكن هناك أي وقت للانتظار، وقف جمل صغير ورفض السير حتي بعد أن أشعلت حوله النيران واضطرت القوة لقتله بالرصاص ، جمال أخرى سقطت وماتت وجاء هذا بمثابة غوث للأهالي الجوعى. بمجرد أن يترك جمل. ينظر الضباط للخلف في شاهدون فرداً يخرج من الغابة ، بعد قليل فرد آخر، متلصصين ينهالون على فحش لحم الضحية حتي قبل أن تفارقه الحياة كأنهم صقور جارحة .

يوم ٥ فبراير وصلت الفرقة الى كوهي، وتم حل قوات كردفان الميدانية دون تقصير من قائدها أو جنوده بعد أن عانوا من مشاكل كثيرة ومصاعب أكثر في رحلة غير موفقة .

لم تتم أى عمليات ضد الخليفة لمدة عام كامل حيث بقى طيلة الربيع والصيف فى عام ١٨٩٩ هو الأمر والسيد على . كردفان، ينظم صفوف أتباعه ويخرب الأقليم ، كخطر مستلهم للحكومة ولعنة على الأهالى وعنصر كبير لعدم الاستقرار . طبيعة الأرض الجرداء وشح المياه ساهمتا فى صعوبة أى عمليات عسكرية ضده بالرغم من حشد قوة كبيرة فى الخرطوم إلا أن فترة الجفاف وأيضاً عدم معرفه أماكن وجوده قد أجلت أى تحرك ضده . مع نهاية شهر أغسطس وصلت إخبارية لقسم الاستخبارات العسكرية عن أحد أفراد القبائل المتعاونة، تفيد أن الخليفة وقوته يعسكرون فى جبل قدير، نفس الجبل الذى كان المهدي قد لجأ اليه بعد معركة الجزيرة آبا قبل عشرين عاماً . هنا وسط الذكريات القديمة التى أثارها وعمقها وجوده أصبح أكثر تصوقاً . ليلة بعد أخرى يرحل الى الحجر الذى كان ينام ويتعبد عليه المهدي ثم يخرج يحكي الرؤى التى جاءت فى الأحلام، كان تناول الناس هذه الرؤى يتم فى سرية ولكنها تنتشر حتى وصلت أقاصي الغرب وحتى الجزيرة والخرطوم . الآن بعد أن تأكد مكان وجوده وأنه مازال يمثل خطورة بنشاطه، قد تقرر التحرك ضده .

تحركت الكتيبة السودانية الأولى يوم ١٣ أكتوبر من الخرطوم بالبواخر وفى يوم ١٩ تجمعت قوة من ٧ آلاف رجل بمجهزة تجهيزاً كاملاً بجمال ترحيل تم حشدتها فى كاكأ، قرية على النيل الأبيض، على مسافة قصيرة شمال فاشودة وكانت المسافة من هنا لمواقع العدو تبعد بحوالى ٨٠ ميلاً، ٥٠ منها ليست بها مصادر مياه لذلك يجب أن تحمل القوة المياه فى فناطير . رغم ذلك سير ريقنالد ونجت الذى كان قائدا لهذه القوة، وصل بصحبة الكتائب السودانية الرابعة والخامسة فى يوم ٢٣ أكتوبر الى فنقور التى تبعد ٣٠ ميلاً عن جبل قدير ، لتجد الأخبار ، أن الخليفة ترك معسكره فى جبل قدير يوم ١٨ أكتوبر وتراجع الى الصحراء بدون تحديد .

هكذا طاشت الطلقة وأي تقدم جديد سيكون محفوقاً بالمخاطر والمصاعب المركبة، أمر لورد كتشير الذى كان قد وصل الى كاكأ، بوقف العمليات فرجعت كل القوة بمنتهى الغيظ وخيبة الأمل الى الخرطوم التى وصلوها أول نوفمبر .

كان الاعتقاد السائد لدى الجميع ، أن الخليفة قد قرر الانسحاب الى مناطق نائية بعيدة عن منال أعدائه ، الى الأبيض مثلاً أو حتى الى جنوب دارفور وعليه قضى الضباط

والجيش ١٤ يوما يقرأون البرقيات ويندبون حظهم السيئ الذي حرمهم من أي مهام قتالية . ظهرت بعض الشائعات الغريبة في أسواق أم درمان تتحدث عن الأسلحة المدفونة وقرب تمرد ، جعل العاصمة تعيش في قلق وترقب . وفجأة جاء يوم ١٢ نوفمبر أخبار أكيدة ومدهشة . أن الخليفة لم يتراجع للغرب أو الجنوب بل إنه قادم لام درمان . وهي هدفه وليست الأبيض . تشجع من فشل وتراجع بمحلتين ضده ، وبا أنباء لا يدري احد مصدرها ومبالغ فيها عن الخراب الذي حل بالأتراك خارج حدود السودان ، قرر عبد الله أن يغامر بكل ما يملك ويضرب ضربة واحدة يستعيد بها عاصمته السابقة . وبناء عليه جاءت يوم ١٢ نوفمبر طلائع قواته وحرسه الى قبالة الجزيرة آبا على النيل الأبيض وفتحوا نيرانهم علانية على البارجة سلطان التي كانت تناور على النيل .

أن اسم الجزيرة آبا سوف يرجع بالقارئ دون شك الى بداية هذه القصة . هنا وقبل ١٨ عاماً عاش المهدي وصلي بعد خلافه مع الخليفة شريف ، هنا انضم اليه عبد الله ، هنا انطلقت أعلام الدعوة وما هنا تمت هزيمة الأعداء أفراد الجيش المصري لأول مرة ، وهنا عاش ، بل مازال يعيش أحد أولئك الأشقاء الذي استمر رغم كل الأهوال والصراعات التي هزت كل السودان ، استمر في صناعة المتواضعة في بناء المراكب . هذه بلاشك لحظة غريبة في تناسق التاريخ ، إن دماراً آخر أثار حركة للمهدي ، سوف تشهده نفس البقعة التي شاهدت مولدها ! .

وصلت الأخبار الى الخرطوم وبدأت العجلة تدور . تم تجهيز الكتائب السودانية الرابعة والثالثة عشر يوم ١٣ نوفمبر وأرسلت فوراً الى جزيرة آبا تحت قيادة العقيد لويس كشنر الذي عاد مسرعاً من القاهرة يوم ١٨ . قوة ميدان ٢٣٠٠ جندي ، وحدة فرسان ، بطارية الميدان الثانية كلها بطارية المكسيم الأولى ، سلاح المشاة السودانية الرابعة والثالثة عشر وفرقة من المصرية الثانية تم حشدتها تحت قيادة سير - رينالد ونجت . كان هناك ٩٠٠ بندقية عرب بالإضافة لقوة راكبة من غير النظامين . وصلت القوة الى فاششوية واجبرت هذه الخطوة الأمير أحمد فضيل على الانسحاب .

في تمام الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم ٢١ تحركت القوات متجهة ناحية الجنوب وراء أثر العدو .

توقفت القوات للراحة على بعد ١٠ أميال جنوب غرب الفاششوية، ثم واصلت سيرها على ضوء القمر حيث وصلت الى نفيسة. واجهتها دورية للدراويش من عشرة افراد تطوف ووجدوا في نفيسة معسكر أحمد فضيل الخالي ، إلا من كميات من الحبوب كان قد جلبها من منطقة النيل ، ولكن أكثر قيمة هي وجود درويش مريض لكنه ذكي ، ذكر ان الامير قد تحرك الى نقطة تبعد ٥ أميال أسماها ابو عضال. أكد هذه المعلومات الضابط المصري محمود حسين الذي كان قد قام باستطلاع جرىء مع دورية غير نظامية. كانت قوات المشاة محتاجة الى بعض الراحة ولقليل من الطعام لذلك أمر سير ريقنالدونجت الفقييد ماهون أن يسرع بكل القوة الراكبة ليتعامل مع العدو ويمنعه من التراجع قبل بداية العمليات.

تحركت الفرسان والهجانة ومدافع المكسيم والجنود غير النظاميين بخطى سريعة ورغم أنهم راجلون لكنهم استطاعوا أن يوفقوا السير مع القوة الراكبة عند الساعة التاسعة والرابع تحركت قوات المشاة، منتعشة بعد الشرب والأكل وكلما تقدموا زادت كثافات اشجار الشوك الصغيرة وأيضاً الأرض رخوة . في تمام العاشرة ، سمعوا أصوات المكسيم وطلقت الرصاص فعلموا أن ماهون قد اشتبك، زاد ضرب النيران مع اقتراب القوة دلالة على ان المعركة على أشدها . كانوا قد احتلوا مرتفعاً صغيراً أمامه فسحة بدون أشجار يظهر من على بعد ٨٠٠ ياردة معسكر الدراويش مزدحماً حول حفائر المياه. لقد كان توقيت وصول المشاة جيداً. قرروا الظهور والهجوم المباشر على القوة الراكبة بعد أن كانوا يطلقون النيران من استحكاماتهم على مدافع القوة، اندفعوا وصبوا نيراناً قوية بجرأة على مدافع الفرقة. كانت المسافة بينهم ٢٠٠ ياردة وكاد هجومهم ينجح وصلت الفرقة السودانية الرابعة والثالثة عشرة وأخذت مواقعها في الثغرة بين مدافع ماهون وأفراد القوة الراكبة والراجلين والقوات غير النظامية. أثرت هذه النيران على العدو المتقدم، فانهزم وكسرت راحة المعنوية. شقيقان من الدراويش ربطا كل يد وقدماً معاً واستشهدا على بعد ٩٥ خطوة من موقع المدافع. وقتل كثيرون وهرب البعض . سارعت كل القوة الآن في مطاردتهم ، شوهد بعضهم يقف خلف القصب والأعشاب الطويلة من على بعد ميل وخمسة اميال وانقضت عليهم فرق الفرسان والهجانة . بلغ عدد الجثث ٢٣٠ ومثلهم جرحى وهرب أحمد فضيل

وبعض أعوانه جنوباً للاتضمام للخليفة . كانت خسائر الفرقة المصرية خمسة جرحى،  
عسكرت القوات حوالى الساعة الرابعة صباحاً فى منطقة قريبة من موقع المعركة .  
سؤال صعب ويدعو للقلق قد فرض نفسه . علم من بعض الأسرى أن الخليفة ومعه  
٥٠٠٠ رجل يتحركون شمالاً إلى آبار الحديد ، وقد سمعنا عنها عندما تعرضنا لقوة  
استطلاع شركيلا ، وهى تبعد بنحو خمسة وعشرين ميلاً من منطقة القتال . كان أفراد القوة  
متعبين بسبب الجهود التى بذلوها، مياه الحفائر آسنة لدرجة أن الجمال عافت أن تشرب  
منها وأكثر من هذا فان المياه فى (الفناطير) على وشك النفاد لذلك كان من الضروري  
الوصول الى آبار الحديد . ولكن لربما أن القوات التى تعانى من العطش وصلت آبار الحديد  
لتجدها محتلة من قوة كبيرة للدراويش . كان على سير ريقنالد ونجت اتخاذ القرار ، وقرر أن  
يأخذ المخاطرة ، وقبل منتصف الليل بقليل تحركت القوة مرة أخرى . كانت الأرض رخوة  
والليل خائق وكلما مرت الساعات، زادت معاناة أفراد المشاة وصدر أمر بعدم صرف أى  
كمية مياه قبل معرفة الموقف فى آبار الحديد، رفضت أى طلبات للماء بعزم وقوة، تحت هذه  
الظروف، أصبح المشاة المعروفون بقوة تحملهم، فى حالة قلق، وسقط بعضهم على الأرض .  
لذلك شعر الجميع براحة كبيرة عندما أعلن صباح ٢٤ فى الساعة التاسعة ان أفراد الفرسان  
قد احتلوا الآبار وبدون أى مقاومة، وعلى الفور تم توزيع كميات للمياه المحمولة . بعد ان  
انتعش أفراد المشاة واصلوا السير الى أن وصلوا لمنطقة حفر مياه نقية نسبياً فعسكروا هناك .  
تم أسر درويش فى الحديد، كما حدث فى نفيسة ، هذه المرة كان شخصاً كثيلاً ، لكن  
استخلص منه أن الخليفة وجيشه يعسكرون على بعد ٧ أميال جنوب شرق الحديد . وضح  
على الفور انه فى موقف سيئ من الناحية الاستراتيجية . الاتجاه شمالاً الأرض جرداء ،  
وجنوباً المياه غير متوافرة وهى منطقة غابات كثيفة . بالإضافة الى حقيقة الاستيلاء على  
الحبوب التى كان سيحبها فضيل قد عقدت الأمور بالنسبة لتقدمه أو تراجعته وأنه لابد أن  
يتوقف ويقاوم . قرر ونجت مهاجمته قبل طلوع الفجر .

تركت قافلة الترحيلات مع حراسة كافية بالقرب من حفر المياه وأمرت بالتحرك بعد  
الرابعة صباحاً ، تحركت القوة عند منتصف الليل تسبقها بمسافة نصف ميل فرقة الفرسان  
وعلى أجنحتها الهجانة . كانت بعض المناطق فى الطريق تسدها الشجيرات ، أخطرت قوات



المشاة والمدفعية لفتح ممرات لعبور القوة . على بعد ٣ أميال من معسكر العدو تم نشر القوة في تشكيلات قتالية. احتل حملة البنادق غير النظامين للمقدمة، خلفهم السودانية الثالثة عشرة والرابعة يليهم مدافع المكسيم والمدفعية ، تحركت القوة في صمت وبخبر، وعلى البعد تسمع أصوات الطبول والقرون، دلالة على أن العدو غير مستعد. دقائق بعد الرابعة احتلت القوة مرتفعا أمامه أرض فضاء خالية من الشجر واتخذته كموقع سحبت فرقة الفرسان الآن من المقدمة وترك بعض افراد المشاة للمراقبة، وتمددت القوة على العشب فوق المرتفع انتظارا لضوء النهار .

بعد ساعة زمن بدأت السماء ناحية الشرق تظهر ضوءا خافتا معلنا قرب طلوع الشمس، ومع ذلك الضوء الضئيل، شوه طوف المشاة وهم يزحفون، وخلفهم يحوار الأشجار أشكال بيضاء غير واضحة بدأت تتجمع. هنا وخوفا من هجوم كاسح مفاجئ أمر ونجت الفرقة أن تقف وتفتح نيرانها ، وفجأة بعد الصمت الرهيب هدرت أصوات الرصاص وردت قوات العدو ، جاءت نيرانه من شبه نصف دائرة مركزة أكثر ناحية شمال الفرقة المصرية لذا تم تعزيزها. بعد أن وضحت الرؤية أكثر جاءت جماعات كثيرة من الدراويش وهي تصبح متقدمة ، لكن صدتها النيران القوية ولم يستطع أمراؤهم قيادتهم لأبعد من اطراف الغابة . عندما شاهد ونجت هذا الموقف أمر بالتقدم للهجوم العام، بدأت كل القوات التقدم بخطوات سريعة وهي تدمر أفراد قوات العدو أمامها بين الأشجار لمسافة ميل ونصف حتى وصلت المعسكر. ٦٠٠٠ آلاف امرأة وطفل وباقي أفراد القوة الذين لم يصابوا أثباء المعركة في اكواخهم المصنوعة من القش، رافعين أيديهم علامة للتسليم وطالبن الرحمة . اعلن وقف اطلاق النار في تمام الساعة السادسة والنصف. عندها فقط ظهر حجم خسائر الدراويش ، بالرغم من قرب للمدي لم يتوقع الضباط أن تكون النتيجة بهذه القوة نسبة لتعسر الرؤية قبل الفجر ، لكن كتل الجثث للتكومة كانت دليلا قاطعا. في منطقة لا تعدو بضعة ياردات مربعة ، سقط أشهر أمراء السلطة للمهدية. الخليفة عبد الله اخترقته مجموعة من الرصاص وهو يرقد على فروة الصلاة المصنوعة من جلد الشاة ، يرقد على يمينه على ودحلو وعلى شماله أحمد فضيل ، أمامهم جثث حرس الخليفة وخلفهم جثث بعض التابعين الأقل شهرة وبعد هؤلاء خيول ميتة أو مجروحة . كان هذا هو المنظر البشع الذي صافح أنظار



الضباط البريطانيون مع إطلالة الصباح والذي كان بالنسبة للبعض نهاية للعمل الخطر الذي استمر لسنوات طويلة . وبينما هم ينظرون بدون رهبة وقلقهاش طلع من بين الجثث شخص سليم ، كان هو الأمير الصغير : يونس ، أمير دنقلا الذي أضاف الصلات القليلة الضرورية لاكمال الحلقة .

كان الخليفة في أم درمان راكبا خلف تلأل سرغام ولكن هنا في هذه المعركة الأخيرة ، قد وضع نفسه في مقدمة للمعركة. بعد أول إطلاق للنار جاء ابنه عثمان شيخ الدين الذي جرح وأُخلى من أرض المعركة، جاء يطلب منه الهرب والنجاة ، لكن الأخير بكرامة لا توجد لدى أكثر القتالين تحضرا رفض . ترحل من حصانه وأمر أمراءه ليحذو حذوه وجلس على فروة الصلاة وانتظر اسوأ للمواقف. وهكذا يمكن القول بأن الصراع مع المهدي قد أُخلى المسرح من كل شخصياته الرئيسية، وعثمان دقنه الذي مارال على حرية وجيزة بهروب خسيس سوف يواجهه بعد قليل، بعبودية أطول وأكثر خسة .

سلم ٢٩ أميرا و ٣ آلاف رجل و ٦ آلاف امرأة أنفسهم كأسري . كانت خسائر القوة المصرية ٣ قتلى و ٢٣ جرحي .

وهكذا تقترب الآن القصة الطويلة من نهايتها . انتهت حرب النهر ، خلال مشوارها الذي امتد لأكثر من أربعة عشر عاما وتسبب في تدمير أكثر من ٣٠٠ ألف نفس، شهدت خلالها كثيرا من التطرف وكثيرا من التناقضات . كانت هناك معارك هي عبارة عن مجزرة وأخزيات كالها طابور استعراض . كانت هنالك لحظات من الجبن المشين ولحظات من البطولة النادرة المثيرة للاستغراب، هناك خطط ولدت في لحظات سريعة وفي حالة طوارئ، ومشاريع وضعت بعد دراسة متأنية قصص بدخ فاحش، وتغير بدون معنى قد تم تحقيق الأهداف والعلمان المصري والبريطاني يرفرفان في كل أنحاء وادي النيل .

ماهي التكاليف والثمن الذي دفع للحصول على هذه الامتيازات ؟ على القارئ أن يحكم بنفسه بالنسبة للخسارة من الرجال، وعليه وهو يستكر موت الضباط والجنود الشجعان وليس أقل من هؤلاء تدمير العرب الصناديد، أن يتذكر أن هذه المذابح لا يمكن فصلها عن الحرب ، وإذا كنا نبرر الحرب فليس علىنا اتهام القتل البشري . لكنني أكتب عن التكلفة المادية واقتصاد الحملات، وبينها الجدول الآتي :-

المجموع	(٤) التفقد	(٣) البوارج	(٢) التلغراف	(١) السك الحديد	
٧٢٥ و ٦٤١	٤٦٩ و ٦٢٢	٦٥ و ٨٦٩	٨ و ٢٩٩	١٨١ و ٨٥١	<p><u>حملة دنقلا :</u></p> <p>حول سواكن</p> <p>فريكة</p> <p>صغير</p> <p>دنقلا</p>
١ و ٣٢٢٨ و ٧١٣	٥٢٦ و ٦٠١	٨٩ و ٠٦٥	١٣ و ٥٢٦	٦٩٩ و ٥٢١	<p><u>العمليات الحربية اللاحقة</u></p> <p>أبو حمد</p> <p>بربر</p> <p>عطبرة</p> <p>أم درمان</p> <p>القضارف</p> <p>الرصد</p>
٣٥٠ و ١٠٠٠	.			٣٠٠ و ١٠٠٠	إضافة لسك حديد الخرطوم
٢ و ٣٥٤ و ٣٥٤	٩٩٦ و ٢٢٣	١٥ و ٩٣٤	٢١ و ٨٢٥	١ و ١٨١ و ٣٧٢	المجموع حنية استرليني

بتكاليف أقل قليلا من اثنين ونصف مليون جنيه استرليني ، ستمت عمليات حربية نشيطة لأكثر من ثلاث سنوات وظف فيها جيش بقوة ٢٥ ألفا بعيدا عن قواعدهم، زيادة على ذلك فرق بريطانية مكلفة تعدادها ٨ آلاف رجل . أنتهت بهزيمة ساحقة لجيش كان يبلغ تعداداه أكثر من ثمانين ألف مقاتل ، وإعادة احتلال إقليم مساحته ١٦٠٠ ميل من الشمال للجنوب و ١٢٠٠ ميل من الشرق للغرب ، كان يكفل العيش لعشرين مليون نسمة في وقت من الأوقات . هذا ليس كل شيء ، من جملة المبلغ ٣٤٥ و ٣٥٤ و ٢٠٣ و ٢٣٣ و ٩٦٦ يمكن اعتبارها تكاليف حربية ، وبما تبقى وهو ٣١٣ و ٣٥٨ و ١٠ امتلكت مصر خط سلك حديد بطول ٥٠٠ ميل وتلغراف لمسافة ٩٠٠ ميل وأسطول بحري مكون من عدة بوارج . ربما يكون صحيحا أن عائدات السكة الحديد عن رأس المال المدفوع لن تكون كبيرة في البداية ولكنها من المؤكد أنها سوف تحقق دخولا مناسبة تزداد مع مرور الأيام . التلغراف ليس مهما فقط للسكك الحديدية ولكن ضروري لتنمية البلاد ، تكاليف تقل كثيرا وخاصة

عندما يتم ربط الأنظمة المصرية وتتصل بجنوب أفريقيا سوف يكون التلغراف مصدرا مهما للدخل .

وأخيرا هناك البوارج ، ليس للقارئ أدنى شك بفائدة هذه البواخر المسلحة أثناء الحرب لن يكون هناك استثمار أجدى من امتلاك هذه البوارج وبعد انتهاء العمليات الحربية على النهر ، يمكن الاستفادة منها في أعمال ملاحية عادية ، ربما تكون مكلفة كناقل للمسافرين أو البضائع ولكنها جيدة الأداء ويمكن الاعتماد عليها . تحركات القوات ورواتبها الإضافية والإمدادات ووراءها صف طويل من المواصلات والاتصالات والذخيرة واستهلاك الملابس والبدل العسكرية وتوابعها، المراسلات، الخوافر، كل هذه تكلف أقل من مليون جنيه استرليني وبهذا المليون ، استردت مصر السودان .

كان لابد من دفع مبلغ ٣٥٤ ، ٣٥٤ ، ٢ أثناء العمليات، دفعت بريطانيا مبلغ ٨٠٠ ألف كقرض ، اعتبر فيما بعد هبة . كانت التكاليف بالنسبة لدافع الضرائب البريطانى لاسترداد السودان والاستيلاء الجزئى عليه، للمجد العسكرى والرغبة الجامحة في قلوب الجميع "لانتقام لغردون" هي مجرد ٨٠٠ ألف ، ويمكن التصريح بكل الجدية، لم يشهد كل التاريخ الانجليزى أن يتحقق هذا الرضاء القومى الشامل بمثل هذا الثمن البخس . باقى التكاليف قد تكفلت بها مصر هذا البلد العجيب الذى يمكن تشبيهه بالجمال الذى تعتمد عليه كل ثروات البلد اضطرته الظروف عند عدم الإيفاء بالالتزامات الى اللجوء لمعدة خامسة لتغذيته وتحييره حتى اولئك العارفين بأضابير السياسة المالية المصرية المذهلة ، قد صمد للشدائد .

كتب مستر جروست للمستشار المالى للخديوى في تقريره بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٨٩٨ يقول " إن التكاليف غير العادية الخاصة بحملات السودان قد تم خصمها على حساب الاحتياطي الخاص ، في الوقت الحاضر يبلغ عجزا قدره ٣٣٦ ألف جنيه استرليني ، وهناك متأخرات عبارة عن رسوم على الحملة تبلغ ٣٣٠ ألف جنية يكون العجز الكلي مبلغ ٦٦٦ ألف جنيه استرليني .

" من ناحية أخرى فان الحساب الخاص سوف يضاف إليه ، عند قفل حسابات السنة، مبلغ ٣٨٢ جنية هي ما تبقى من نصيب الحكومة من فائض ميزانية عام ١٨٩٨ بعد خصم

التجاوزات في الصرف الإدارى لتلك السنة واطافة مبلغ ٩٠٠٠ جنية هى جزء من حصيلة بيع البوستة الخديوية . لذلك سوف يبلغ العجز الصافى ٠٠٠ , ١٩٤ جنية وإذا كانت سنة ١٨٩٩ هى سنة مزاهرة كالعام الحالى فانه من المؤمل أن يَخْتَفى العجز كلية عند قفل حسابات عام ١٨٩٩ ."

تبقى قضية عظمى ، ربما تشوبها الأكاديمية ، وهى الإجابة عن السؤال " هل كان الحق أو الحكمة يبرران الحرب ؟ .

إذا نظر القارىء الى خارطة النيل ، سوف يلاحظ على الفور وجه الشبه الكبير بين النيل وشجرة النخيل. فى أعلى الشكل تمثل الأرض الخضراء الخصبة للدلتا ، الفروع والأوراق الخضراء تهف فى كبرياء ، الجزع فى المنحائه ، النيل ايضا ينحنى المناءة جبارة وهو يسير عبر الصحراء . جنوب الخرطوم تكمل أوجه الشبه - جذور النخلة تمتد داخل السودان بعمق. لايمكننى أن أتخيل أى تصوير لمدى العلاقة الخاصة والعاطفة التى تربط مصر بالسودان أو المديرىات الجنوبية للقطر . الماء وهو حياة الدلتا يأتى من السودان ، ويمر على بحرى النيل، كالعصارة تجرى داخل ساق للشجرة ، لتطرح محصولا طيبا رطبا على أعالي النخلة. المنافع لمصر لا جدال عليها، ولكن مصر لاتستفيد وحدها ، مزايا الارتباط وامتيازاته هى منافع مشتركة، إذا كان السودان قد وضعت جغرافيته وطبيعته أن يكون مكملا لمصر، فان مصر لا تقل أهمية لتنمية السودان. ما هى فائدة الجذور والتربة الغنية إذ ما قطعت الساق، وهى مصيرية لانتشار العطر فى الأجواء .

هذه هى إذن الإجابة الصادقة الآمنة لاسباب حرب النهر ، لكى يتحد إقليمان لايمكن أن يستمر انفصالهما الى مالاهاية ، لينصهر الشعبان لأن مستقبلهما ورخاؤهما يرتبطان ببعضهما البعض بلا فكاك . بجميع القدرات وحشدها لتنمية الأهداف المشتركة ، لتحقيق التقدم معا والذى لايمكن تحقيقه منفردا، هذه هى الأهداف التى سوف يسجلها التاريخ ويقرها بانها تبرر المشروع الكبير الذى تم إنجازه .

المنافع لبريطانيا العظمى لم تكن واضحة ، حتى للقلة التى تعتقد أن صلاتنا بمصر تماما كصلاتنا بالهند هى مصدر قوة . استحكمت قبضة إنجلترا على مصر فى جبهتين نتيجة لاحداث الحرب. العمليات المشتركة وملكية الدولتين لحوض أعالي النيل ستشكل رابطة

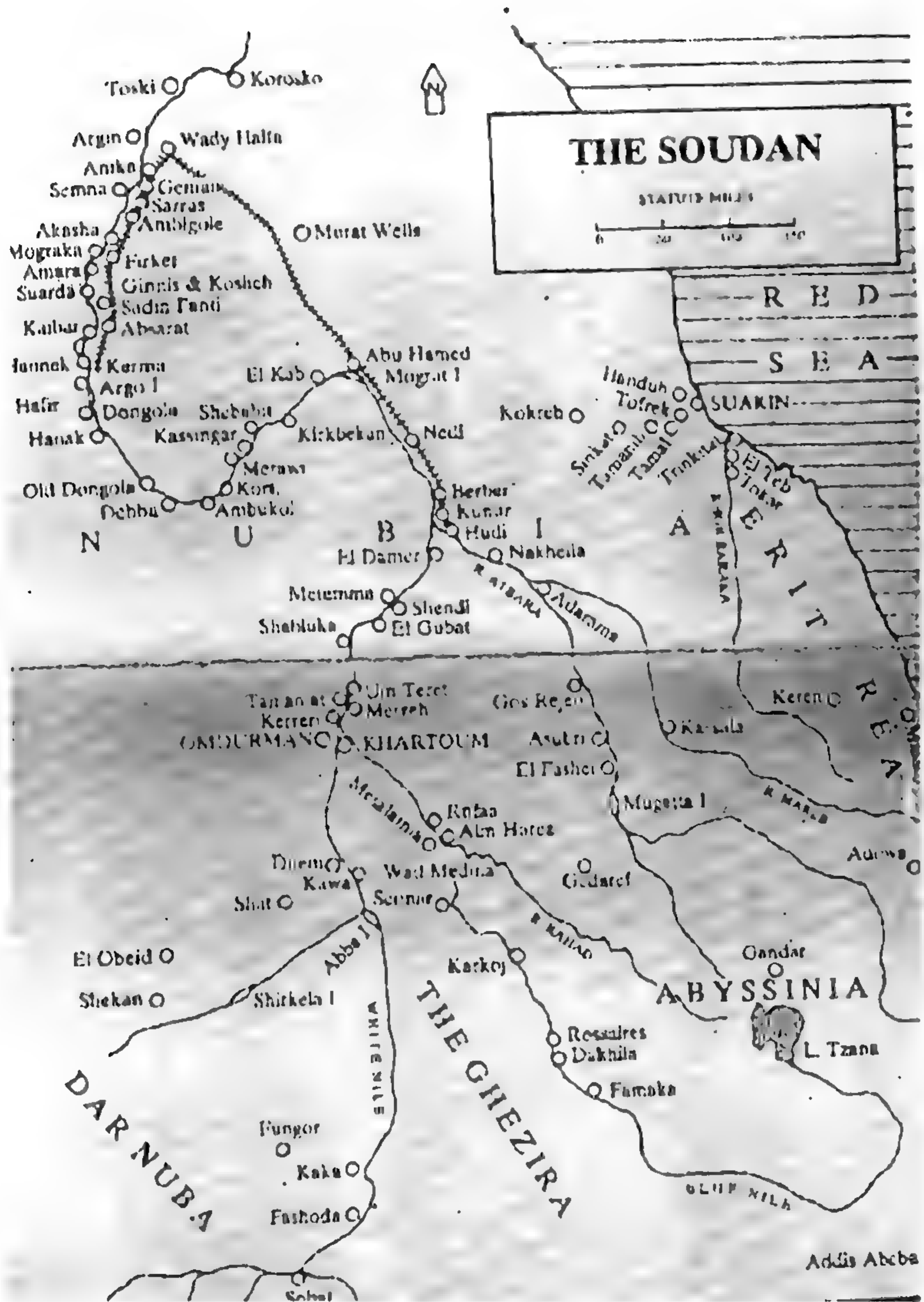
قوية بين البلدين. السيطرة على النهر. سلاح لا يقاوم . أنهى الصراع على فاشودة النفوذ الفرنسي الطاغى على الشخصية المصرية. بالرغم من أن فرنسا لاتزال تمتلك الصفة القانونية للتدخل ولتعرقل العمليات المالية في مصر، إلا أن هذه القوة بدون نفوذ ، تبقى كالجسد الذى فقد الروح، يمكن أن يكون مستفزا وثقيلا، ولكن فى النهاية لابد أن يتحلل ويتحول الى تراب .

بصرف النظر عن العلاقات مع مصر ، فإن بريطانيا قد استولت على إقليم مترامى الأطراف ومن السهل المبالغة فى تقدير قيمته ، لكنه كان مطمعا لكل القوى الكبرى فى أوروبا. إن سياسة السيطرة على مصادر المياه الكبيرة التى سار عليها السياسة البريطانية ، سواء بدون وعى أو عن إدراك أكيد والتى تم تنفيذها خلال القرون الثلاثة الماضية، قد تقدمت خطوة الى الأمام . بريطانيا سوف تستفيد تجاريا من وادى النيل ، البضائع الانجليزية يمكن ان تمر عن طريق النيل والوسيلة المكتملة له ، السكك الحديدية ، لتبادل منتجات البلاد الباردة مع منتجات أقاليم مدار السرطان ، يمكنها أن تستغل الرياح الشمالية لتحمل الحضارة الى الجنوب ، وتمكن مياه النيل من حمل الثروة والتجارة الى البحر .

## النهاية







## APPENDIX

### TEXT OF THE SOUDAN AGREEMENT OF THE 19<sup>TH</sup> OF JANUARY, 1899, AND OF THE DECLARATION OF THE 21<sup>ST</sup> OF MARCH, 1899

#### AGREEMENT BETWEEN HER BRITANNIC MAJESTY'S GOVERNMENT AND THE GOVERNMENT OF HIS HIGHNESS THE KHEDIVE OF EGYPT, RELATIVE TO THE FUTURE ADMINISTRATION OF THE SOUDAN

Whereas certain provinces in the Soudan which were in rebellion against the authority of His Highness the Khedive have now been reconquered by the joint military and financial efforts of Her Britannic Majesty's Government and the Government of His Highness the Khedive;

And whereas it has become necessary to decide upon a system for the administration of and for the making of laws for the said reconquered provinces, under which due allowance may be made for the backward and unsettled condition of large portions thereof, and for the varying requirements of different localities;

And whereas it is desired to give effect to the claims which have accrued to Her Britannic Majesty's Government, by right of conquest, to share in the present settlement and future working and development of the said system of administration and legislation;

And whereas it is conceived that for many purposes Wady Halfa and Suakin may be most effectively administered in conjunction with the reconquered provinces to which they are respectively adjacent;

Now, it is hereby agreed and declared by and between the Undersigned, duly authorised for that purpose, as follows:—

#### ART. I.

The word 'Soudan' in this Agreement means all the territories South of the 22<sup>nd</sup> parallel of latitude, which:

1. Have never been evacuated by Egyptian troops since the year 1882; or

2. Which having before the late rebellion in the Soudan been administered by the Government of His Highness the Khedive, were temporarily lost to Egypt, and have been reconquered by Her Majesty's Government and the Egyptian Government, acting in concert; or

3. Which may hereafter be reconquered by the two Governments acting in concert.

#### ART. II.

The British and Egyptian flags shall be used together, both on land and water, throughout the Soudan, except in the town of Suakin, in which locality the Egyptian flag alone shall be used.

#### ART. III.

The supreme military and civil command in the Soudan shall be vested in one officer, termed the 'Governor-General of the Soudan'. He shall be appointed by Khedivial Decree on the recommendation of Her Britannic Majesty's Government, and shall be removed only by Khedivial Decree, with the consent of Her Britannic Majesty's Government.

#### ART. IV.

Laws, as also Orders and Regulations with the full force of law, for the good government of the Soudan, and for regulating the holding, disposal, and devolution of property of every kind therein situate, may from time to time be made, altered, or abrogated by Proclamation of the Governor-General. Such Laws, Orders, and Regulations may apply to the whole or any named part of the Soudan, and may, either explicitly or by necessary implication, alter or abrogate any existing Law or Regulation.

All such Proclamations shall be forthwith notified to Her Britannic Majesty's Agent and Consul-General in Cairo, and to the President of the Council of Ministers of His Highness the Khedive.

#### ART. V.

No Egyptian Law, Decree, Ministerial Arrête, or other enactment hereafter to be made or promulgated shall apply to the Soudan or any part thereof, save in so far as the same shall be applied by Proclamation of the Governor-General in manner hereinbefore provided.

#### ART. VI.

In the definition by Proclamation of the conditions under which Europeans, of whatever nationality, shall be at liberty to trade with or reside in the Soudan, or to hold property within its limits, no special privileges shall be accorded to the subjects of any one or more Power.

## ART. VII.

Import duties on entering the Soudan shall not be payable on goods coming from Egyptian territory. Such duties may, however, be levied on goods coming from elsewhere than Egyptian territory; but in the case of goods entering the Soudan at Suakin or any other port on the Red Sea Littoral, they shall not exceed the corresponding duties for the time being leviable on goods entering Egypt from abroad. Duties may be levied on goods leaving the Soudan, at such rates as may from time to time be prescribed by Proclamation.

## ART. VIII.

The jurisdiction of the Mixed Tribunals shall not extend, nor be recognised for any purpose whatsoever, in any part of the Soudan, except in the town of Suakin.

## ART. IX.

Until, and save so far as it shall be otherwise determined by Proclamation, the Soudan, with the exception of the town of Suakin, shall be and remain under martial law.

## ART. X.

No Consuls, Vice-Consuls, or Consular Agents shall be accredited in respect of nor allowed to reside in the Soudan, without the previous consent of Her Britannic Majesty's Government.

## ART. XI.

The importation of slaves into the Soudan, as also their exportation, is absolutely prohibited. Provision shall be made by Proclamation for the enforcement of this Regulation.

## ART. XII.

It is agreed between the two Governments that special attention shall be paid to the enforcement of the Brussels Act of the 2nd of July, 1890, in respect to the import, sale, and manufacture of fire-arms and their munitions, and distilled or spirituous liquors.

Done in Cairo, the 19th of January, 1899.

Signed: BOUTROS GHALI—CRÉMÉE.

DECLARATION RELATIVE TO THE BRITISH AND FRENCH  
SPHERES OF INFLUENCE IN CENTRAL AFRICA.

(Signed at London, March 21st, 1899)

The Undersigned, duly authorised by their Governments, have signed the following declaration:—



The 14th Article of the Convention of the 14th of June, 1898, shall be completed by the following provisions, which shall be considered as forming an integral part of it:

1. Her Britannic Majesty's Government engages not to acquire either territory or political influence to the west of the line of frontier defined in the following paragraph, and the Government of the French Republic engages not to acquire either territory or political influence to the east of the same line.

2. The line of frontier shall start from the point where the boundary between the Congo Free State and French territory meets the water-parting between the watershed of the Nile and that of the Congo and its affluents. It shall follow in principle that water-parting up to its intersection with the 11th parallel of north latitude. From this point it shall be drawn as far as the 15th parallel in such manner as to separate, in principle, the Kingdom of Wadai from what constituted in 1882 the Province of Darfur; but it shall in no case be so drawn as to pass to the west beyond the 21st degree of longitude east of Greenwich (18° 40' east of Paris), or to the east beyond the 23rd degree of longitude east of Greenwich (20° 40' east of Paris).

3. It is understood, in principle, that to the north of the 15th parallel the French zone shall be limited to the north-east and east by a line which shall start from the point of intersection of the Tropic of Cancer with the 16th degree of longitude east of Greenwich (13° 40' east of Paris), shall run thence to the south-east until it meets the 24th degree of longitude east of Greenwich (21° 40' east of Paris), and shall then follow the 24th degree until it meets, to the north of the 15th parallel of latitude, the frontier of Darfur as it shall eventually be fixed.

4. The two Governments engage to appoint Commissioners who shall be charged to delimit on the spot a frontier-line in accordance with the indications given in paragraph 2 of this Declaration. The result of their work shall be submitted for the approbation of their respective Governments.

It is agreed that the provisions of Article IX. of the Convention of the 14th of June, 1898, shall apply equally to the territories situated to the south of the 14° 20' parallel of north latitude, and to the north of the 5th parallel of north latitude between the 14° 20' meridian of longitude east of Greenwich (12th degree east of Paris) and the course of the Upper Nile.

Done at London, the 21st of March, 1899.

(L.S.) SALISBURY.

(L.S.) PAUL CAMBON.

نص اتفاقية السودان المؤرخة في ١٩ يناير ١٨٩٩ وإعلان ٢١ مارس ١٨٩٩ .  
اتفاقية بين حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وحكومة صاحب السمو الخديوي مصر فيما  
يختص بمستقبل إدارة السودان .

\* حيث انه قد تم إعادة احتلال بعض مديريات السودان التي كانت قد تمردت على سلطة  
صاحب السمو الخديوي وذلك بالجهد العسكري والمادي المشترك للحكومتين صاحبة  
الجلالة وصاحب السمو الخديوي .

\* وحيث أنه أصبح من الضروري اختيار نظم للإدارة وسن القوانين للمديريات التي أعيد  
احتلالها ، مع الاعتبارات التي يجب أن تراعى للمناطق المتخلفة أو تلك التي لا تزال اجزاء  
منها بعيدة عن الاستقرار ، ومراعاة الاحتياجات الخاصة لبعض المناطق .

\* ونسبة للرغبة في الايفاء بمطالب حكومة صاحبة الجلالة التي نالتها بحق الاحتلال للمشلوكة  
في التسوية الحالية أو مستقبل علاقات العمل والتطورات لنظم الإدارة والتشريع .  
\* وحيث إنه من المتوقع أن تكون ولأسباب إدارة كل من وادي حلفا وسواكن بفعالية بنفس  
طريقة إدارة المديريات المتأخرة لهما .

الآن نعلن أنه قد تم الاتفاق بين الموقعين أدناه والمفوضين رسميا لهذا الغرض على: البنود  
الآتية :-

### المادة الأولى

- أن كلمة السودان تعني في هذه الاتفاقية كل المناطق التي تقع جنوب خط عرض ٢٢ والتي :
- (١) لم يتم جلاء القوات المصرية عنها منذ عام ١٨٨٢ . أو
  - (٢) التي كانت تحت إدارة حكومة صاحب السمو الخديوي قبل التمرد الأخير وفقدتها مصر  
موقتا وتم إعادة احتلالها بالتضامن مع حكومة صاحبة الجلالة . أو
  - (٣) المناطق التي يمكن أن تعيد احتلالها الحكومتان بالتضامن .



## المادة الثانية

---

يستعمل العلمان البريطاني والمصري معا في كل من الأرض أو المياه في كل أنحاء السودان، ماعدا مدينة سواكن حيث يستعمل العلم المصري منفردا .

## المادة الثالثة

---

إن السلطة العسكرية والمدنية العليا سوف توضع تحت سلطة ضابط واحد يعرف بـ "حاكم عام السودان" . سوف يتم تعيينه بمرسوم خديوي بناء على توصية من حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ، وسوف يتم تغييره بمرسوم خديوي فقط بعد موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

## المادة الرابعة

---

القوانين والأوامر واللوائح التي تتمتع بقوة القانون الكاملة ، لضمان حكومة جيدة للسودان ، ولتقنين حقوق الملكية والممتلكات ، والاستغناء عنها أو انتقال أى ممتلكات موجودة داخل القطر ، تصدر من وقت لآخر أو يتم تعديلها أو إلغاؤها بإعلان صادر من الحاكم العام للسودان .

هذه القوانين والأوامر أو اللوائح يمكنها أن تكون سارية المفعول لكل أنحاء السودان أو جزء منه ، ويمكنها صراحة أو حسب ما تمليه الضرورة تعديل أو إلغاء أي قانون أو لوائح سارية المفعول .

مثل هذه الاعلانات يجب أن يتم إخطارها فوراً لمنسوب حكومة صاحبة الجلالة البريطانية والقنصل العام بمصر وأيضاً لرئيس مجلس الوزراء لسمو الخديوي .

## المادة الخامسة

---

سوف لن يصدر أي قانون مصري، أو مرسوم أو أمر وزاري يحد أو ينشر أي تشريع فيما يختص بالسودان غير تلك التي يصدرها حاكم عام السودان، هو كما مبين فيما سبق ذكره.

## المادة السادسة

---

في تعريف الإعلان الذي يعطي الحق لأي أوروبي من أي جنسية ، حرية التجارة أو الإقامة في السودان وأن يمتلك أي ممتلكات داخل حدوده ، لن تكون هنالك أفضلية أو مميزات خاصة لمواطني دولة عن الأخرى.

## المادة السابعة

---

سوف لن تفرض رسوم استيراد على أي بضائع تدخل السودان من القطر المصري. ويمكن أن تفرض مثل تلك الرسوم على أي بضائع تدخل السودان من أقطار غير القطر المصري. في حالة فرض رسوم على بضائع داخلة عن طريق سواكن أو أي ميناء على شواطئ البحر الأحمر يجب ألا تزيد عن الرسوم الجمركية المفروضة على دخول البضائع الأجنبية إلى مصر ، يمكن فرض رسوم على صادرات السودان من وقت لآخر حسب ما تنص عليه الإعلانات والأحكام .

## المادة الثامنة

---

إن أحكام المحاكم المختلطة سوف لن تسري أو يعترف بها لأي سبب من الأسباب في أي جزء من السودان سوى مدينة سواكن . ؟

## المادة التاسعة

---

حتى إشعار آخر أو حتى يتم الإعلان عنه سوف يظل السودان تحت الأحكام العرفية ما عدا مدينة سواكن .

## المادة العاشرة

---

سوف لن يسمح لأي قنصل ، أو نائب قنصل ، أو مندوب قنصلي بالوجود في السودان بدون تصريح مسبق من حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

## المادة الحادية عشرة

---

يمنع منعاً باتاً استيراد أو تصدير الرقيق من السودان ، سوف يصدر أمر ويتم الإعلان عنه لتنفيذ هذه التعليمات .

## المادة الثانية عشرة

---

لقد تم الاتفاق بين الحكومتين على أن يراعى بصفة خاصة تطبيق قانون بروكسيل المؤرخ في الثاني من يوليو ١٨٩٠ فيما يختص باستيراد وبيع أو صنع الأسلحة النارية أو ذخيرتها والخمور الكحولية بأنواعها المختلفة .  
تم في القاهرة يوم ١٩ يناير ١٨٩٩ .  
الأمضاء : بطرس غالى - كرومر .

إعلان خاص بمناطق النفوذ  
لبريطانيا وفرنسا في أواسط إفريقيا

( تم التوقيع عليه في لندن ٢١ مارس ١٨٩٩ )

الموقعون أدناه وبتفويض رسمي من حكوماتهم ، قد وقعوا على الإعلان التالي :-

المادة الرابعة لمؤتمر ١٤ يونيو ١٨٩٨ سوف تضاف اليها المواد الآتية وتكون جزءا

مكملا له :-

(١) تتعهد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ألا تمتلك مناطق أو يكون لها نفوذ سياسي غرب الحدود التي يتم تحديدها في الفقرة التالية ، وتتعهد حكومة جمهورية فرنسا ألا تمتلك مناطق أو نفوذا سياسيا شرق نفس الخط .

(٢) يبدأ الخط الفاصل للحدود من عند النقطة التي تحدد حدود دولة الكونغو الحرة - وعند التقاء المنطقة الفرنسية مع نهاية مغادرة مياه نهر النيل ونهر الكونغو وفروعه ، وتتبع من حيث المبدأ مغادرة المياه عند التقاطع في خط عرض موازي ١١ شمالا . من عند هذه النقطة سوف يمتد حتى خط عرض ١٥ بحيث يفصل من حيث المبدأ مملكة واداي من المنطقة التي كونت منذ عام ١٨٨٢ مديرية دار فور ، مع الأخذ في الاعتبار ان ألا يرسم هذا الخط تحت أي ظرف حتى يتعدي غرب خط طول ٢١ درجة شرق جرينتش (٤٠-١٨ شرق باريس) أو شرقا لايتعدي ٢٣ درجة خط طول شرق جرينتش (٤٠-٢٠ شرق باريس) .

(٣) يكون مفهوما من حيث المبدأ أنه الى شمال خط موازي ١٥ . المنطقة الفرنسية سوف تتحدد الى الشمال الشرقي والشرق بخط يبدأ من نقطة التقاء مدار السرطان مع ١٦ درجة خط طولي شمال جرينتش (٤٠-١٣ شرق باريس) يستمر الى جنوب شرق حتى يلتقي مع ٢٤ درجة طولي شرق جرينتش (٤٠-٢١ شرق باريس) ثم يتبع خط

طولي ٢٤ درجة حتي يلتقي مع ٢٤ درجة عند خط عرض موازي ١٥ الى حدود دار فور التي سوف تحدد لاحقا .

(٤) سوف تعين كل حكومة أعضاء لجان تزول إليهم مسئولية تحديد وتخطيط الحدود على الطبيعة حسب ما جاء في الفقرة الثانية من هذا الإعلان . سوف ترفع هذه اللجان نتائج أعمالها كل لحكومته لإقرارها والموافقة عليها.

لقد تم الاتفاق على أن بنود للمادة الخامسة لمؤتمر ١٤ يونيو ١٨٩٨ سوف تنطبق على كل المناطق التي تقع جنوب النقطة ٢٠-١٤ درجة خط عرض موازي شمال والى شمال خط عرض ٥ شمال بين درجة ٢٠-١٤ للميرديان الطولي شرق جرينتش (١٢ درجة شرق باريس) ومجري أعالي النيل .

تم في لندن في ٢١ مارس ١٨٩٩ .

-لورد سالزبوري .

-بول كامبون .



## سطور عن المترجم

عن الدين محمود محمد

- ولد عام ١٩٣١ بمدينة القضايف ، مديرية كسلا ، شرق السودان
- تلقى دروس مبادئ القرآن فى خلوة جده للشيخ أحمد محمد نور زروق ، كتاب القضايف ، الكلية القبطية بورتسودان ، وأم درمان الصناعية .
- اجتاز امتحان الخدمة المدنية . لكنه رفض للوظيفة الحكومية .
- اجتاز امتحان شهادة أكسفورد فى التاريخ ، الاقتصاد ، و اللغة العربية .
- تلقى دراسات إضافية : -
- اقتصاد ، قانون تجارى ، إدارة أعمال بالمعهد الفنى .
- مبادئ اقتصاد ، و اقتصاد زراعى ، جامعة الخرطوم .
- التحق بشركة أي سي أي البريطانية ، القسم للزراعى .
- أرسل إلى إنجلترا بالمملكة المتحدة لدراسة كورس فى " الإدارة بالأهداف " .
- ترقى لمنصب مدير القسم الزراعى ، المبيدات و الأدوية البيطرية .
- بعد تأميم الشركة ، التحق بشركة فاسيكول للكيماويات الأمريكية .
- بدأ مديرا للسودان و شرق إفريقيا . ثم ترقى لمدير دائرة إفريقيا ، ونقل الى اليونان .
- آخر وظيفة له ، مدير إقليمي لأفريقيا ، الشرق الأوسط ، و شبه القارة الهندية
- وصل لسن المعاش عام ١٩٩٤ م .
- بدأ اهتمامه بالأدب من سن مبكرة .
- عضو الندوة الأدبية بأم درمان .
- له مقالات بعنوان " محاولات فى النقد الفنى " نشرت بمجلة الإذاعة والتلفزيون بالسودان .
- كتب أدب رحلات " خمسون يوما فى ربوع أوربا " نشرت فى جريدة الثورة .
- كتب " برامج ترشيد المنتج " .
- دراسة للالتزام البيئي ، عن صحة و سلامة الإنسان و البيئة ، تحت النشر .
- متزوج من مصرية ، وأب لثلاثة ، ولد وبنتان .





## «حرب النهر» الفهرس

• مقدمة.....	٥
• الإهداء.....	٧
• تقديم - كلمة لأبد منها.....	٩
• المؤلف: ونستون تشرشل.....	١٣
• المقدمة بقلم سير جون كولفيل.....	١٥
(١) ثورة المهدي.....	٢١
(٢) مصير المبعوث.....	٤٥
(٣) إمبراطورية الدراويش.....	٦٩
(٤) سنوات التحضير.....	٨٣
(٥) بداية الحرب.....	٩٥
(٦) حركة ٧ يونيو ١٨٩٦.....	١١٣

١٢١	٧) استعادة مديرية دنقلا.....
١٤١	٨) سكة حديد الصحراء.....
١٦١	٩) أبو حمد.....
١٧٧	١٠) بربر.....
١٩١	١١) الاستطلاع.....
٢٠٣	١٢) معارك نهر عطبرة - ٨ أبريل ١٨٩٨.....
٢١٧	١٣) الزحف الكبير.....
٢٢٩	١٤) معارك أول سبتمبر.....
٢٤١	١٥) معركة أم درمان ٢ سبتمبر ١٨٩٨.....
٢٦٩	١٦) سقوط مدينة.....
٢٨١	١٧) حادثة فاشودة.....
٢٩٥	١٨) على النيل الأزرق.....
٣١٣	١٩) نهاية الخليفة.....
	● الملاحق: نص اتفاقية السودان، ١٩ يناير ١٨٩٩ وإعلان ٢١
٣٣٥	مارس ١٨٩٩.....
٣٤١	● سطور عن المترجم.....

## صدر في هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ،  
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤.
- ٢ - علي ماهر،  
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧.
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة،  
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧.
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة،  
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧.
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية  
في العصور الوسطى،  
د . عليّة عبد المسيح الجنزوري، ١٩٨٧.
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر جا،  
لمعي المطيعي، ١٩٨٧.
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي،  
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧.
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية،  
د . علي بركات، ١٩٨٧.
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،  
د . محمد أنيس، ١٩٨٧.
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،  
حمود فوزي، ١٩٨٧.
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية،  
شكري القاضي، ١٩٨٧.
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير،  
د . نبيل راغب، ١٩٨٨.
- ١٣ - أكذوبة الاستعمار المصري للسودان: رؤية  
تاريخية،  
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤.
- ١٤ - مصر في عصر الولاة، من الفتح العربي  
إلى قيام الدولة الطولونية،  
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامي،  
د . علي حسني الخربوطلي، ١٩٨٨.
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح  
الاجتماعي في مصر: دراسة عن دور  
الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،  
د . حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٨.
- ١٧ - القضاء الشرعي في مصر في العصر  
العثماني،  
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨.
- ١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية،  
د . علي السيد محمود، ١٩٨٨.
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،  
د . أحمد محمود منابون، ١٩٨٨.
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩:  
المراسلات السرية بين سعد زغلول  
وعبد الرحمن فهمي،  
د . محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨.
- ٢١ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني،  
جا،  
د . توفيق الطويل، ١٩٨٨.

- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر، جمال بدوي، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني ج٢، إمام التصوف في مصر: الشعراي، د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.
- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦)، د. نجوى كامل، ١٩٨٩.
- ٢٥ - المجتمع الإسلامي والغرب، تأليف: هاملتون جب وهارولد برون، ترجمة: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩.
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة، د. سعيد إسماعيل علي، ١٩٨٩.
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج١، تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢، تأليف: ألفريد ج. بتلر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.
- ٢٩ - مصر في عهد الإخشيديين، د. سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩.
- ٣٠ - الموظفون في مصر في عهد محمد علي، د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٨٠.
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية، شكرى القاضي، ١٩٨٩.
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢، لمعى المطيعي، ١٩٨٩.
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقي: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية، د. خالد محمود الكرمي، ١٩٨٩.
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢، د. يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠.
- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة، عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٠.
- ٣٦ - المجتمع الإسلامي والغرب ج٢، تأليف: هاملتون برون، ترجمة: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٩٠.
- ٣٧ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن، تأليف: د. سليمان صالح، ١٩٩٠.
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ١٩٩٠.
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)، د. جميل عبيد، ١٩٩٠.
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨، د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى، ١٩٩٠.
- ٤١ - محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية، د. رفعت السعيد، ١٩٩١.
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور، محمد شفيق غريال، ط٢، ١٩٩٠.
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية، إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠.
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر، في العصر العثماني، د. محمد عفيفي، ١٩٩١.
- ٤٥ - الحروب الصليبية ج١، تأليف: وليم الصوري، ترجمة وتقديم: د. حسن حبشي، ١٩٩١.
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩: ١٩٥٧)، ترجمة: د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١.

- ٤٧- تاريخ القضاء المصري الحديث،  
د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .
- ٤٨- الفلاح المصري بين العصر القبطي  
والعصر الإسلامي،  
د . زبيدة عطا، ١٩٩١ .
- ٤٩- العلاقات المصرية الإسرائيلية  
(١٩٤٨-١٩٧٩)،  
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
- ٥٠- الصحافة المصرية والقضايا الوطنية  
(١٩٤٦-١٩٥٤)،  
د . سهير اسكندر، ١٩٩٣ .
- ٥١- تاريخ المدارس في مصر الإسلامية،  
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار  
بالمجلس الأعلى للثقافة، في إبريل ١٩٩١)،  
أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
- ٥٢- مصر في كتابات الرحالة والقناصل  
الفرنسيين في القرن الثامن عشر،  
د . إلهام محمد علي ذهني، ١٩٩٢ .
- ٥٣- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة  
المماليك الجراكسة،  
د . محمد كمال الدين عز الدين علي، ١٩٩٢ .
- ٥٤- الأقباط في مصر في العصر العثماني،  
د . محمد عفيفي، ١٩٩٢ .
- ٥٥- الحروب الصليبية ج٢،  
تأليف : وليم الصوري ترجمة وتعليق : د .  
حسن حبشي، ١٩٩٢ .
- ٥٦- المجتمع الريفي في عصر محمد علي:  
دراسة عن إقليم المنوفية،  
د . حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٢ .
- ٥٧- مصر الإسلامية وأهل الذمة،  
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢ .
- ٥٨- أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة،  
د . إبراهيم عبدالله المسلمي، ١٩٩٣ .
- ٥٩- الرأسمالية الصناعية في مصر، من  
التمصير إلى التأميم (١٩٥٧-١٩٦١)،  
د . عبد السلام عبدالحميد عامر، ١٩٩٣ .
- ٦٠- المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،  
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٣ .
- ٦١- تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث،  
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٢- هؤلاء الرجال من مصر ج٣،  
لمعي المطيعي، ١٩٩٣ .
- ٦٣- موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ  
مصر الإسلامية،  
تأليف: د . سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين  
سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر:  
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٤- مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة  
والافتراء: دراسة وثائقية،  
د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .
- ٦٥- موقف الصحافة المصرية من الصهيونية  
(١٨٩٧-١٩١٧)،  
د . سهام نصار، ١٩٩٣ .
- ٦٦- المرأة في مصر في العصر الفاطمي،  
د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .
- ٦٧- مساعي السلام العربية الإسرائيلية:  
الأصول التاريخية،  
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار  
بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم  
التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، في  
إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر: د . عبد العظيم  
رمضان، ١٩٩٣ .
- ٦٨- الحروب الصليبية ج٣،  
تأليف : وليم الصوري  
ترجمة وتعليق : د . حسن حبشي، ١٩٩٣ .
- ٦٩- نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية  
(١٨٨٦-١٩٥١)،  
د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤ .



- ٧٠ - أهل الذمة في الإسلام،  
تأليف : أ. س. ترتون  
ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي، ط ٢، ١٩٩٤.
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،  
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف  
أحمد عمرو، ١٩٩٤.
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية  
في العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ)،  
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة،  
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية، ج ١، في  
العصر الفرعوني،  
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.
- ٧٥ - أهل الذمة في مصر، في العصر الفاطمي  
الأول،  
د. سلام شافعي محمود، ١٩٩٥.
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني  
(زمن الاحتلال البريطاني)،  
د. سعيد إسماعيل علي، ١٩٩٥.
- ٧٧ - الحروب الصليبية ج ٤،  
تأليف : وليم الصوري، ترجمة وتعليق : د.  
حسن حبشي، ١٩٩٤.
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،  
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥.
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر، في  
القرن التاسع عشر،  
تأليف : فريد دي يونج، ترجمة : عبد الحميد  
فهمي الجمال، ١٩٩٥.
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري  
الأوروبي (١٨٨٢-١٩٠٤)،  
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥.
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية من  
هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،  
د. رمزي ميخائيل، ١٩٩٥.
- ٨٢ - مصر في فجر الإسلام، من الفتح العربي  
إلى قيام الدولة الطولوتية،  
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ج ١،  
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ج ٢ - القسم  
الأول،  
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.
- ٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية  
(١٩٣٤-١٩٥٢)،  
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٥.
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية  
الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)،  
د. أحمد الشربيني، ١٩٩٥.
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن، ج ٢، (١٩٣٤ -  
١٩٤٦)،  
إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق : د.  
عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٥.
- ٨٨ - التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى  
المصرية،  
عبد الحميد توفيق زكي، ١٩٩٥.
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر  
العثماني،  
د. عبد الحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة  
الإسلامية،  
د. نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٦.
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،  
تأليف : بيتر مانسفيلد، ترجمة : عبد الحميد فهمي  
الجمال، ١٩٩٦.
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية  
(١٩١٩ - ١٩٣٦)،  
ج ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦.

- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري  
(١٩٢٤ - ١٩٥٨)،  
د. نبيه بيومي عبدالله، ١٩٩٦.
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية  
(١٩٤٦ - ١٩٥٤)،  
د. سهر إسكندر، ١٩٩٦.
- ٩٥ - مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات  
الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ  
والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع  
معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة  
القاهرة)،  
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبدالناصر والحرب العربية الباردة  
(١٩٥٨ - ١٩٧٠)،  
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرزاق أحمد  
عمرو.
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري  
في النصف الأول من القرن التاسع عشر،  
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية،  
د. محمد سيد محمد.
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية  
(العصر اليوناني - الروماني) ج ٢،  
د. سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور:  
تاريخ مصر القديمة،  
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار،  
أ. د. محمد إبراهيم بكر، أ. د. إبراهيم نصحي،  
أ. د. فاروق القاسنى، أعدها للنشر: أ. د.  
عبدالعظيم رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،  
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/  
عبدالمجيد كفاى،  
اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور

- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى  
مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢  
د. تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره  
د. على بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين فى مصر  
(١٩١٤ - ١٩٥٢)  
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية فى مصر وقضية  
الديموقراطية ١٨٠٥ - ١٩٨٧ .  
د. أحمد فارس عبدالممنم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد  
(تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).  
د. سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية.  
تأليف: دليب هير، ترجمة: عبدالحميد فهمى  
الجمال.
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤.  
سليم النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥.  
سليم النقاش
- ١١٠ - مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية  
(عصر سلاطين المماليك) ج ١.  
د. البيومى اسماعيل الشربيني.
- ١١١ - مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية  
(عصر سلاطين المماليك) ج ٢.  
د. البيومى اسماعيل الشربيني.
- ١١٢ - اسماعيل باشا صدقى  
د. محمد محمد الجوادى.
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره فى السودان (فى  
عصر الحكم المصرى)  
د. عز الدين اسماعيل.
- ١١٤ - دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى  
تأليف أحمد رشدى صالح

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن -  
أحمد شفيق باشا.
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية)  
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية  
(١٥١٧ - ١٧٩٨).
- عبد الرزاق إبراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام  
د. البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية  
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث  
لويس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)  
د. محمد عبد الحميد الحناوي
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج٦  
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوي  
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في  
نصف قرن  
د. محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج٧  
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج٨  
سليم خليل النقاش
- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)  
إبراهيم محمد محمد إبراهيم .
- ١٢٨ - معارك صحفية،  
بقلم/ جمال بدوي.
- ١٢٩ - الدين العام (وآثره في تطور الدين المصري)  
(١٨٧٦-١٩٤٣).
- د. يحيى محمد محمود

- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين في مصر،  
(١٩٨٧-١٩٩٧)  
سمير فريد.
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ م.  
ترجمة/ د. عبدالرؤف أحمد عمر.
- ١٣٢ - دار المنسوب السامي في مصر ج١  
د. ماجدة محمد حمود.
- ١٣٣ - دار المنسوب السامي في مصر ج٢.  
د. ماجدة محمد حمود.
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط  
عثماني للدارلدلي.  
بقلم/ عزت حسن أفندي الدارلدلي  
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية  
(في ضوء وثائق الجنيزة)  
(٦٤٨-١٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) د. محاسن  
محمد الوقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق  
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
- ١٣٧ - نجار التوابل في مصر في العصر المملوكي  
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٣٨ - الإخوان المسلمون وجذور التطرف الديني  
والإرهاب في مصر  
السيد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين  
بقلم محمد قابيل
- ١٤٠ - سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول  
من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ - ١٢٦٥هـ  
١٨١١ - ١٨٤٨ م.  
طارق عبد العاطي غنيم بيومي
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك  
لطفي أحمد نصار
- ١٤٢ - مذكراتي في نصف قرن ج٣  
أحمد شفيق باشا ١٩٩٩، ٢.

- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة في القرنين الثاني والأول ق . م  
د. منيرة محمد الهمشري
- ١٤٤ - كشف مصر الأفريقية في عهد الخديوي  
اسماعيل  
د. عبدالعليم خلافت
- ١٤٥ - النظام الإداري والاقتصادي في مصر في عهد  
دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)  
د. منيرة محمد الهمشري
- ١٤٦ - المرأة في مصر المملوكية  
د. أحمد عبدالرازق
- ١٤٧ - حسن البنا متى .. كيف .. ولماذا؟  
د. رفعت السعيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة  
الاسكندرية  
تأليف / د. سمير فوزي  
ترجمة / نسيم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية  
في القرن الثامن عشر  
حسام محمد عبد المعطى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)  
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة  
السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية  
(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)  
د. محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)  
د. عالية عبد المصيع الجنزورى
- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر  
الإسلامية في العصور الوسطى  
د. عالية عبد المصيع الجنزورى
- ١٥٥ - عصر محمد على ونهضة مصر في القرن التاسع  
عشر  
(١٨٠٥ - ١٨٨٣ م)  
د. عبد الحميد البطريق

- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية  
الجزء الثالث  
في العصر الإسلامى  
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية  
الجزء الرابع  
في العصر الإسلامى والحديث  
د. سمير يحيى الجمال
- ١٥٨ - نائب السلطنة المملوكية في مصر  
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)  
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢)  
الجزء الأول  
د. محمد فريد حشيش
- ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢)  
الجزء الثانى  
د. محمد فريد حشيش
- ١٦١ - السيف والنار في السودان  
تأليف / سلاطين باشا
- ١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ -  
١٩٥٣ م)  
د. تمام همام تمام
- ١٦٣ - مصر والحملات الفرنسية  
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
- ١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ  
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى  
للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات  
الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ ديسمبر  
١٩٩٧ .
- إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
- ١٦٥ - التعليم والتغيير الاجتماعى في مصر  
(في القرن التاسع عشر)  
سامى سليمان محمد السهم
- ١٦٦ - مذكرات معتقل سياسى (صلحة من تاريخ

مصر)

السيد يوسف

١٦٧- الحركة العلمية والأدبية في القسطنطينية منذ الفتح

العربي إلى نهاية الدولة الأخشيديّة

د. صفى على محمد عبدالله

١٦٨- مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات

يسرى عبد الغنى

١٦٩- مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى

نهاية عصر الفاطميين (٢١- ٥٦٧هـ / ٦٤٢- ١١٧١م)

د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠- القرية المصرية في عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨- ٩٢٣هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧م)

مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١- تاريخ الجالية الأرمنية في مصر

القرن التاسع عشر

تأليف / محمد رفعت

١٧٢- تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية

(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)

الجزء الأول

تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٣- تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية

(من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي)

الجزء الثاني

تأليف / فاطمة مصطفى عامر

١٧٤- مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع

ق م

د. أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥- محمد توفيق نسيم باشا ودوره في الحياة

السياسية

عادل إبراهيم الطويل

١٧٦- الملاحة النيلية في مصر العثمانية

١٥١٧- ١٧٩٨م

د. عبد الحميد حامد سليمان

١٧٧- سياسة مصر العسكرية

أزاء حروب الشرق الأوسط

لواء دكتور/ صلاح سالم

١٧٨- العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام

في القرن الثامن عشر

د. سحر على حلفى

١٧٩- دور الحماية العثمانية في تاريخ مصر

(١٥٦٤- ١٦٠٩ م)

د. عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠- الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة

السويس

بقلم / د. عبدالعظيم رمضان

١٨١- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد

ج ١)

ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى

١٨٢- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد

ج ٢)

ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى

١٨٣- شاهد على العصر

مذكرات محمد لطفي جمعة

١٨٤- المتوفية في القرن الثامن عشر

ياسر عبد المنعم محارب

١٨٥- تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري

١٨٢٠- ١٨٨٥م

د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦- العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام

والتصوف

د. أحمد صبحي منصور

الشعبية المصرية  
د. فتحي الصنفاوى  
١٩٥ - مجتمع أفريقيا فى عصر  
الولاة  
د. نريمان عبدالكريم أحمد  
١٩٦ - تاريخ تطور الرى فى  
مصر (١٨٨٢ - ١٩١٤ م)  
عبدالعظيم محمد سعودى  
١٩٧ - القدس الخالدة  
د. عبدالحميد زايد  
١٩٨ - العلاقات السياسية بين  
الدولة الأيوبيية  
والامبراطورية الرومانية  
المقدسة زمن الحروب  
الصليبية  
د. عادل عبدالحافظ حمزة  
١٩٩ - المعبد فى الدولة الحديثة  
فى مصر الفرعونية  
(تنظيمه الإدارى ودوره  
السياسى)  
د. بهاء الدين ابراهيم محمود  
٢٠٠ - تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر  
العصور (أعمال الندوة التى  
أقامتها لجنة التاريخ  
والآثار بالمجلس الأعلى  
للثقافة بالاشتراك مع كلية  
الآداب جامعة الإسكندرية  
فى يومى ٢٢، ٢٣ أبريل  
١٩٩٨ م).  
اعداد/ د. عبدالعظيم رمضان

١٨٧ - نيابة حلب فى عصر  
سلاطين المماليك (١٢٥٠ -  
١٥١٧ م / ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ)  
ج ١  
د. عادل عبد الحافظ حمزة  
١٨٨ - نيابة حلب فى عصر سلاطين  
المماليك (١٢٥٠ -  
١٥١٧ م / ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ)  
ج ٢  
د. عادل عبدالحافظ حمزة  
١٨٩ - يهود مصر منذ عصر  
الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ م  
عرفة عبده على  
١٩٠ - العلاقات السياسية بين  
مصر والعراق (١٩٥١ -  
١٩٦٣ م)  
د. عبدالحميد عبدالجليل أحمد  
شلبى  
١٩١ - اليهود فى مصر العثمانية  
حتى أوائل القرن التاسع  
عشر ج ١  
د. محسن على شومان  
١٩٢ - اليهود فى مصر العثمانية  
حتى أوائل القرن التاسع  
عشر ج ٢  
د. محسن على شومان.  
١٩٣ - الامام محمد عبده بين  
المنهج الدينى الاجتماعى  
د. عبدالله شحاته  
١٩٤ - تاريخ الآلات الموسيقية



- ٢٠١ - إمارة الحج في مصر  
العثمانية (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ  
/ ١٥١٧ - ١٧٩٨ م)  
سميرة فهمي على عمر
- ٢٠٢ - المندوبون الساميون في  
مصر  
د. ماجدة محمد حمود
- ٢٠٣ - الصراع الدولي على عدن  
والدور المصري  
فتحى أبو طالب
- ٢٠٤ - العلاقات الاقتصادية بين  
مصر وبريطانيا (١٩٣٥ -  
١٩٤٥ م)  
مرقت صبحي غالي
- ٢٠٥ - تاريخ الغربية وأعمالها  
في العصر الاسلامي (٢١ -  
٥٦٧ هـ / ٦٤٢ - ١١٧١ م)  
السيد محمد أحمد عطا
- ٢٠٦ - مصر للمصريين ج٩ -  
سليم خليل النقاش
- ٢٠٧ - الظاهر بيبرس  
د. سعيد عبدالفتاح عاشور
- ٢٠٨ - الدور المصري والعربي  
في حرب تحرير الكويت  
ج١  
لواء/ د. كمال أحمد عامر
- ٢٠٩ - الدور المصري والعربي  
في حرب تحرير الكويت  
ج٢  
لواء/ د. كمال أحمد عامر
- ٢١٠ - قبرس والحروب الصليبية  
د. سعيد عبدالفتاح عاشور
- ٢١١ - إمارة الرها الصليبية  
د. عليّة عبدالسميع الجنزوري
- ٢١٢ - العامة في مصر في  
العصر الأيوبي ٥٦٧ -  
٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م  
شلبى ابراهيم الجعيدى
- ٢١٣ - الأزمات الاقتصادية في  
مصر في العصر المملوكي  
وأثرها السياسي  
والاقتصادي والاجتماعي  
٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ -  
١٥١٧ م  
عثمان على محمد عطا
- ٢١٤ - الثغور البرية الإسلامية على  
حدود الدولة البيزنطية في  
العصور الوسطى  
د. عليّة عبدالسميع الجنزوري
- ٢١٥ - الفتح الإسلامي لمدينة كابول  
(٣١ هـ / ٦٥١ م)  
د. إصلاح عبدالحميد ريحان
- ٢١٦ - الرأسمالية الأجنبية في مصر  
الجزء الأول  
(١٩٣٧ - ١٩٥٧)  
د. فرغلي حسن هريدى
- ٢١٧ - العيب في الذات الملكية  
(١٨٨٢ - ١٩٥٢)  
د. سيد عشاوى

٢١٨ - إقليم الغربية من عصر

الأيوبي والمماليك

د. السيد محمد أحمد عطا

٢١٩ - ثورة ١٩١٩ فى ضوء

مذكرات سعد زغلول

د عبدالعظيم رمضان

٢٢٠ - التنظيمات السياسية لثورة

يوليو

(١٩٥٣ - ١٩٦١)

حماده حسنى أحمد محمد

٢٢١ - حرب النهر

تأليف: رستون تشرشل

ترجمة: عزالدين محمود

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٤٤ / ٢٠٠٢

---

I . S . B . N 977 - 01 - 7767 - 9





يتناول هذا الكتاب «حرب النهر» ويؤرخ لأحداث الثورة المهدية، وانتصاراتها وهزائمها، فى تسعة عشر فصلاً فيتناول ثورة المهدي، ومعارك نهر عطبرة، ومعركة أم درمان، وحادثة فاشوده، واتفاقية الحكم الثنائى للسودان.

والكتاب على هذا النحو يقدم رؤية السياسى الشهير ونستون تشرشل لتلك الفترة الصاخبة فى حياة وادى النيل، وهى رؤية مطلوبة لفهم سياسة بريطانيا.

Bibliotheca Alexandrina



0553550